لا إله إلا الله محمد رسول الله
رابطة العالم الإسلامي

الكواشف الجلية

عن معاني الواسطية

(ومن أراد أن يطبعه لوجه الله تعالى لا يريد به عرضا من الدنيا وانما يريد أن يجعله وقفا لوجه الله تعالى فقد أذنا له بذلك على أن يكتب مثل ماذكرنا في هذه الصفحة ليعلم كل من له رغبة في ذلك)

تأليف
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

الطبعة الرابعة مصححة بدقة
وفيها زيادات كثيرة على الطبعة التي قبلها

وقف لله تعالى

الكواشف الجليـــة

عن معاني الواسـطية

تأليف

عبد العزيز المحمد السلمان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

طبع على نفقة رابطة العالم الاسـلامي
بمكة المكرمة

الطبعة الرابعة وقد اعتنى بتصحيحها
وفيها زيادات على ما قبلها حسب المناسبات

مؤسسة مكة للطباعة والاعلام

عبد العزيز المحمد السلمان

المدرس في معهد امام الدعوة بالرياض

مؤسسة مكة للطباعة والاعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تفرد بالجلال والعظمة والكبرياء والجمال وأشكره شكر عبد معترف بالتقصير عن بعض ما أوليه من الأنعام والأفضال وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً •

وبعد ، فبما أنه طلب مني أحد إخواننا أن أحول الأسئلة والأجوبة الأصولية إلى شرح للعقيدة الواسطية فأجبته الى ذلك وزدت ما أرى أن الحاجة ماسة إليه وحذفت ما أرى أن الحاجة اليه قليلة وراعيت في ذلك أن يكون مناسباً للأستاذ والتلميذ ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل على أني جمعت الكثير فيه من كتب المحققين كالشيخين شيخ الإسلام مؤلف العقيدة وتلميذه ابن القيم ونحوهما ومن الكتب التي تستمد من كتبهما وأمثالهما من المتبصرين وسميته ((الكواشف الجلية عن معاني الواسطية)) وأسأل الله الحي القيوم العلي العظيم الأول الآخر الظاهر الباطن العليم بكل شيء ذا الجلال والإكرام الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد القريب المجيب أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به مَن قرأه ومَن سمعه ومَن سعى في بثه انه على كل شيء قدير ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

٢ مؤلف العقيـــدة

هو شيخ الإسلام ومفتي الأنام المجتهد في الأحكام تقي الـدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، ولد رحمه الله بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وقدم به والده وأخويه عند استيلاء التتار على البلاد الى دمشق سنة ٦٦٧ هـ ، فأخذ الفقه والأصول عن والده وسمع عن خلق كثير منهم الشيخ شمس الدين والشيخ زين الدين بن المنجا والمجد بن عساكر وقرأ العربية على ابن عبد القوي صاحب عقد الفرائد وعني بالحديث وسمع الكتب الستة والمسند ، وأقبل على تفسير القرآن فبرز فيـه وأحكم أصول الفقه والفرائض وغير ذلك من العـلوم وتأهل للتدريس وله دون العشرين سنة وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث وألف مؤلفات كثيرة في فنون عديدة وله الفتاوي المفصلة ورد على المبتدعة ، وقد ساق ابن القيم رحمه الله بعض مؤلفات شيخه رحمهما الله فقال :

وله المقامات الشهيرة في الورى ... قـد قامها في الله غير جبـان
نصـر الإله ودينـه وكتـابه ... ورسـوله بالسيف والبرهان
أبدى فضائحهم وبَيَّنَ جَهلَهم ... وأرى تناقضَهم بـكل مـكان
ومـن العجائب أنـه بسلاحهم ... أرداهم تحتَ الحضيض الدان
فاقرأ تصانيفَ الإمام حقيقةً ... شيخ الوجـود العالِم الرباني
أعني أبا العباس أحمد ذلك البحـ ... ـر المحيـط بسـائر الخلجان
واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ... ما في الوجود له نظـير ثان
وكـذاك منهـاج لـه في رده ... قول الروافض شيعة الشيطان
وكذاك أهـل الاعتزال فإنـه ... أرداهم في حفـرة الجُبَّانِ
وكذاك التأسيس أصبح نقضـه ... أعجوبة للعـالم الـرباني

وكذاك أجوبة لـه مصـرية		في ست أسـفار كتبن سمان
وكذا جـواب للنصارى فيه ما		يشفي الصدور وإنـه سفران
وكذاك شـرح عقيدة للاصبها		ني شارح المحصول شرح بيان
فيهـا النبوات التي إثباتهـا		في غايـة التقرير والتبيـان
وكذا حدوث العالم العلوي والسـسفلي فيـه أتـم بيـان
وكذا قواعد الاستقامة إنهـا		سفران فيما بيننا ضـخمان
وكذاك توحيد الفلاسفة الأولى		توحيدهم هـو غايـة الكفران
سفر" لطيف" فيه نقض أصولهم		بحقيقـة المعقـول والبرهان
وكـذاك تسعينية فيها لـه		رد على مـن قال بالنفسان
تسعون وجهاً بينت بطلانه		أعني كلامَ النفس والوجدان
وكذا قواعده الكبار وإنها		أوفى من المائتين في الحسبان
وكذا رسائله الى البلدان والـ		أطراف والأصحاب والإخوان
وكذا فتاواه فأخبرني الذي		أضحى عليها دائم الطوفان
بلغ الذي ألقاه منها عدة		الأيام من شهر بلا نقصان
سفرَ" يقابل كل يوم والذي		قـد فاتني منها بلا حسبان
هذا وليس يقصر التفسير عن		عشـر كبار ليس ذا نقصان
وكذا المفاريد التي في كل مسـ		ألـة سـفر واضح التبيان

وكان رحمه الله لا يبالي في مقال الحق يصدع به القريب والبعيد يأمر بالمعروف العدو والصديق وكان بعيداً عن المداهنة والمصانعة في أمور الدين لا تأخذه في الله لومة لائم وكان رحمه الله معظماً للسلف الصالح ينقد من رآه خارجاً عن طريقهم ومما يدل على أنه محب للحق بعيداً عن المداجاة والمصانعة أنه لما قدم مصر عقد عدة مجالس ألقى فيها عدة محاضرات فحضر أبو حيان أحد مجالسه فأعجب به إلى أن امتدحه في هذه الأبيات :

لما أتانا تقي الدين لاح لنا		داع الى الله فرد ما له وزر
على محياه من سيما الأولى صحبوا		خيرَ البرية نور دونه القمر

حبر تسربل منه دهره حبراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصـر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ عصت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره اندرست ... وأخمد الشر إذ طارت له شرر
يامن يحدث عن علم الكتاب أصـخ ... هذا الامام الذي قد كان ينتظر

يشير الى أنه المجدد ، ثم بعد ذلك جرى بينهما كلام في بعض المسائل النحوية وجرى ذكر سيبويه وقيل إن الشيخ رحمه الله استدل على مقاله ورأيه بأشياء اجتهادية فعارضه أبو حيان بأقوال سيبويه فغضب الشيخ وأغلظ القول وقال إن سيبويه ليس رسولاً للنحو والعربية حتى يقبل قوله بلا حجة ولا برهان ويلزم الناس الأخذ بكل ما قال ، وقال إن سيبويه أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعاً ما تفهمها أنت فكان ذلك سبب مقاطعته إياه وعاد ذاماً له واقعاً في دينه وعقيدته وذاكرا له بكل سوء وما كان دينه وعقيدته قبل هذه الحال غير دينه وعقيدته بعدها ولكن المتغير الهوى فبعدا له . وجرى لـه رحمه الله محن كثيرة منها محنة بسبب تأليفه الفتوى الحموية وجرى لـه رحمه الله بسبب فتياه بالطلاق الثلاث ولما كان في سنة ٧٢٦ هـ وقع الكلام في شد الرحال الى قبور الصالحين والأنبياء فأفتى الشيخ بتحريم ذلك فحصل له ما حصل من علماء زمانه وكان منشأ ذلك الهوى والحسد فحبس رحمه الله بأمر من السلطان بقلعة دمشق وبقي رحمة الله عليه سنتين وثلاثة شهور ، ولما صار بالسجن قال ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت معي لا يفارقني أنا حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة ، وكان يقول في مجلسه في القلعة لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا الي من الخير أو نحو هذا ، وقال المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه ، وقال ابن القيم وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه مع ماكان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدراً وأقواهم قلباً وأسرهم نفسا تلوح نضرة النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض بما رحبت أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك

كله فينقلب انشراحاً وسروراً وقوة ويقيناً وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها ، في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها • وكان رحمه الله في هذه المدة مكباً على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين وذلك في سنة ٧٢٨ هـ • وقد مدح الشيخ رحمه الله بقصائد كثيرة في حياته ورثى بأكثر منها بعد وفاته ، ومن مراثي العلماء والشعراء التي قيلت بعد وفاته رحمه الله ما يلي ••
قال الدقوقي :

مضَى عالمُ الدنيا الذي عزَّ فقدُه ... وأضْرمَ ناراً في الجوانح بُعْدُه
مضى الزاهد النَّدبُ ابن تيمية الذي ... أقر لـه بالعلم والفضل ضدُّه
مضى الطاهر الأثواب ذو العلم والحجى ... ولم يَتَدنَّسْ بالمآثم بُرْدُه
يَحِنُّ إليه في النهار صيامُه ... ويشتاقُه في ظلمةِ الليلِ وِردُه
وما ماتَ من تبقى التصانيفُ بعده ... ولمَّا يُصَعِّرْ لِلدَّنيّاتِ خَدُّه
حَمَى نفسَه الدنيا وعفَّ تكرُّما ... فما بالُه لم يصفُ مذ غابَ وِردُه
وكان لنا بحراً من العلم زاخراً ... مُخَلَّدةٌ والعلمُ والفضلُ وِلْدُه
وخَلَّفَ آثاراً حساناً حميدةً ... إذا عُدِّدَتْ زادتْ على ما نعدُّه
وكان يقولُ الحقَّ والحقُّ حلوُه ... مَرِيرٌ لهذا كان يُكْرَهُ ردُّه
وفي الله لم تأخذْهُ لومةُ لائمٍ ... ولا خافَ من غُمْرٍ تشدَّدَ حَرْدُه
ولم تُلْهِهِ الدنيا وزخرفُها الذي ... يروقُ لمن لم يُؤْنِسِ الدهرِ رُشْدُه
وكان إماماً يُستضَاءُ بِنُورِهِ ... وبحراً من الأفضالِ قد غيض عِدُّه

ومن مرثية الخياط الحوخي :

تَنَكَّرتِ الدنيا على كلِّ عارفٍ ... رأى منك مأهولَ المنازلِ بَلْقَعَا
فيا أحمدَ المحمودَ قد كنت للهدى ... مناراً وللشرع الحنيفي مَشْرَعا
لقد كنتَ عن شرٍ بطيئاً ووانياً ... وفي طلبِ الخيرات عجلانَ مُسرِعا

وللحكم طودا راسخاً باذخ الذرى	وللجود والإحسان والعلم منبعا
وركنا لدين الله حين تهدمت	قواعده منه وهَى وتضعضعا
يصول بسيف العلم في معرك النهى	وأرماح شرع الجهل أقبلن وأبدعا
وكم من ظلام الظلم زحزح غيهباً	بساطع نور العدل من حين شعشعا
وكم من طريق في المباحث مبهم	بإيضاحه أضحى لساريه مهيعا
تولى عن الدنيا حميداً ولم يكن	لزخرفها المذموم يبدي تطلعا
وعاش الى أن مات لم يعط نفسه	بتأميل ما في دار دنياه مطمعا

ومن مرثية لبرهان الدين :

لفقد الفتى التيمي تجري المدامع	وتصدع بالنوح الحمام الصوادع
على ما جد جلت مآثره التي	لها في قلوب العارفين مواقع
علوم وأخلاق كرام وسؤدد	وجود ومجد باذخ وتواضع
وزهد وإيثار وتقوى وعفة	وتلك سجايا حازها وهو يافع
هو الحبر أما المشكلات فحلها	يسير لديه وهو في الحل بارع
وأما عقود الدين فهي وثيقة	لديه وعنها بالرماح ينازع
تبارك من حلاه بالزهد والتقى	ورصع ذاك الحلى منه التواضع
وفي الله لم تأخذه لومة لائم	وليس له في نصرة الحق وازع
وآتاه ذو العرش المجيد مواهباً	وليس لما يعطيه ذو العرش مانع
أما كان في دفعات غازان جائلا	بعزمة ليث لم ترعه الوقائع
يقول لجيش المسلمين ألا أبشروا	بنصر على الأعداء والنصر واقع
فأصبح جيش المسلمين مؤيداً	وغازان لاقى حتفه وهو راجع
تصانيفه في كل علم بديعة	وفيها لأهل الابتداع بدائع
ولم يبتغي شيئاً سوى وجه ربه	وفي زخرف الدنيا عدته المطامع
فيا فوز من يحوي تصانيفه ولا	يزال لها في كل وقت يطالع

وقف لله تعالى

علوما لمن يبغي النجاة اعتنى بها ... وللناس في تلك العلوم منافع
وذو الفضل يؤتيه المهيمن فضلَه ... ولا حاصدٌ إلا لما هو زارعُ
فلم أر في عمري الذي طال مثله ... وما أنا في رؤيا المماثل طامع
عسى الله في الجنات يجمعنا به ... فكل امرىء منا بذلك طامع

ومن مرثية ابن خضر :

لقد عذبوا قلبي بنار الأحبة ... وذاب فؤادي من فراق الأحبة
فقبدت إماماً كان بالعلم عاملا ... وكان حقيقا قامعاً كل بدعة
شجاع همام بارع في صفاته ... يروم مزاماً في المراقي العلية
تَزهَّدَ في كُلِّ الوجودِ وغَيْرُه ... يَدورُ على الدنيا بنفس دنية
ويَلقى لمن يَلقاه بالبشر والرضا ... بأوصافه الحسنى ونفس زكية
ويدعو لِمن قد نال من ثَلْم عِرضه ... ولم يَنتقِمْ مِمَّنْ أتَى بالأذية
يُجاهد في اللهِ الكريمِ بجُهْدِهِ ... بِصدقٍ وإخلاص وعزم ونية
ويأمر بالمعروف حُبّاً لربه ... ويَنهى عن الفحشاء نهياً بِهِمَّةِ
تَقيٌّ نقيٌّ طاهرُ الذَّيْلِ مُذْ نشأ ... كريمُ السجايا ذو صفاتٍ حميدة
ألا يا تَقِيَّ الدين يافردَ عَصْرِه ... بروقُك قد لاحت كشمسٍ مضيئة
ظَهَرتَ بأنواعِ العلومِ وجِنْسَها ... وسارت بها الركبان في كل بلدة
وأوضحت إشكالاً وبيَّنتَ مُبْهَماً ... وأبديتَ أسراراً بنفسٍ عَليمَة
وكم غُصْتَ في بحرِ المعارفِ غوصةً ... ولجَّجْتَ فاستخرجتَ كلَّ يَتيمة
ظَهرتَ بإحسانٍ وحسنٍ سماحةٍ ... وديـنٍ وتوحيدٍ وكلٍّ فضيلة
صَبَرت على الأحكامِ طوعاً وطاعةً ... وذُقْتَ مِن الآلامِ طعمَ البلية
وكُنتَ حمولاً للنوائبِ كلِّها ... صبوراً على الأقدارِ في دار غربة
لقد عِشْتَ محبوباً ومِتَّ مكرماً ... عليكَ مِن الرحمن أزكى تَحية
وبَعْدُ فللهِ المحامدُ كلُّها ... على ما أرانا مِن وضوحِ المحجة

وبهذا قد تم ما اخترناه من المراثي التي رثي فيها رحمة الله عليه وجزاه

الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ونسأل الله الحي القيوم الحليم الكريم العلي العظيم القوي العزيز مالك الملك ذا الجلال والإكرام بديع السموات والأرض فالق الحب والنوى فالق الإصباح محي العظام وهي رميم الأول والآخر الظاهر والباطن الذي أحاط بكل شيء علماً الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن ييسر لدين الإسلام من يقوم بنصره ويزيل ما حدث في البلاد الاسلامية من البدع والضلالات والمنكرات التي فشت فعمت وطمت وأفسدت العقائد والأخلاق وصارت عادات عند كثير من الناس وألفها الكبير فاستهان بها وشب عليها الصغير فأحبها واستأنس بها ولم يبق من ينفر منها ويبغضها وينكرها إلا القليل ، فلا حول ولا قوة إلا بالله الحي القيوم العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

من أراد طباعة هذا الكتاب وقفاً لله تعالى فقد أذن له وجزى الله خيرا من طبعه وقفاً لوجه الله تعالى أو أعان على طبعه أو تسبب لطبعه فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجة وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » رواه مسلم ، وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله » رواه أبو داود .

بسم الله الرحمن الرحيم

((قال المصنف رحمه الله :

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ..))

الحمد لغة الثناء باللسان على الجميل الاختياري على وجه التعظيم والتبجيل وعرفاً فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً على الحامد وغيره والألف واللام للاستغراق فجميع المحامد كلها لله ومن أسمائه تعالى الحميد ، قال ابن القيم رحمة الله عليه :

وهو الحميدُ فكلُّ حمدٍ واقع ... أو كان مفروضاً مَدَى الأزمان
ملأَ الوجودَ جميعَه ونظيرَه ... من غير ما عَدٍّ ولا حُسْبَان
هو أهلُــه سبحانَه وبحمــده ... كل المحامدِ وصف ذي الإحسان

وإثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوتَ كلِّ ما يُحمد عليه من صفات كماله ونعوت جلاله إذ مَن عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الاطلاق وغايته : أنه محمود من وجه دون وجه ولا يكون محمودا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبه .

وقال الشيخ رحمه الله : والحمد نوعان حمد على إحسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لايكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وإنما يَستحق ذلك مَن هو متصف بصفات الكمال وهي أمور وجودية فإن الأمور العدمية المحضة لا مدحَ فيها

ولا خير ولا كمال ومعلوم أن كل من يحمد فإنما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة وهو أحق من كل محمود . وقال : وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن ما في قلوبهم من محبة الله لا يماثله فيها غيرها ولهذا كان الرب محمودا حمدا مطلقا على كل ما فعله وحمدا خاصا على إحسانه إلى الحامد فهذا حمد الشكر والأول حمده على ما فعله كما قال (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض الآية) . (الحمد لله فاطر السموات والأرض)(والحمد ضد الذم والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته ولا يكون حمد المحمود إلا مع محبته ولا ذم المحمود إلا مع بغضه وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ولا يكون حمد إلا بحب المحمود وهو سبحانه المعبود المذموم ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين تحميده وتوحيده ، وأفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله ، اهـ .

٤ معنى الإله

أما معنى الإله فهو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال ولفظ الجلالة الذي هو الله علم على ذاته سبحانه وهو أعرف المعارف على الإطلاق وكونه سبحانه مستحقاً للألوهية مستلزم لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبوداً لذاته إلا هو وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد .. كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع » وفي رواية بحمد لله وفي رواية فهو أجذم رواها الحافظ الرهاوي في الأربعين له . ومما يحمد عليه سبحانه نعمه التي لا تحصى وأعظم نعمه إرسال محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . وأما الرسول فهو من بعث برسالة واصطلاحاً إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه فإن أوحي إليه ولم يؤمر فهو نبي فكل رسول نبي ولا كل نبي رسول .

وقال الشيخ : فالنبوة داخلة في الرسالة والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة ، والهدى لغة الدلالة والبيان، ينقسم إلى قسمين هدى دلالة وبيان وهذا القسم يقدر عليه الرسل وأتباع الرسل ممن يجعله الله سبباً لهداية شخص أو أشخاص . قال الله تعالى : (ولكل قوم هاد) وقال : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وقال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه « لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » .

وأما القسم الثاني : فمعناه التوفيق والإلهام وهذا لا يقدر عليه إلا الله مختص بمن يشاء الله هدايته ودليله قوله تعالى : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) وقوله : (ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقوله بالهدى المراد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الشرع القويم والدين الكامل وما أنزل عليه من القرآن الذي به حياة القلوب وهداية الخلق .

قال ابن كثير : الهدى هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح فإن الشريعة تشتمل على شيئين علم وعمل فالعلم الشرعي صحيح والعمل الشرعي مقبول فإخباراتها حق وانشاآتها عدل وقال الشيخ تقي الدين الخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين في العلم النافع والعمل الصالح وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأفضل ذلك وهو الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .. فالعلم النافع هو الإيمان والعمل الصالح هو الإسلام : العلم النافع من علم الله والعمل الصالح هو العمل بأمر الله هذا تصديق الرسول فيما أخبر وهذا طاعته فيما أمر وضد الأول أن يقول على الله ما لا يعلم وضد الثاني أن يشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، والأول أشرف فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ا هـ .

والمراد بالدين هنا جميع ما شرعه الله من الأحكام اعتقادية كانت أو قولية أو فعلية وإضافة الدين إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته أي الدين الحق .

وقال الشيخ تقي الدين : الذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد ومـا لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعـاد . قال : ودين الأنبياء كلهم الإسلام كما أخبر به في غير موضع وهو الاستسلام لله وحده وذلك إنما يكون بطاعته فيما أمر به في ذلك الوقت فطاعة كل نبي هي من دين الإسلام إذ ذاك ولهذا خرج اليهود والنصارى عن دين الإسلام فإنهم تركوا طاعة الله وتصديق رسوله واعتاضوا عن ذلك بمبدل أو منسوخ وهكذا كل مبتدع ديناً خالف به سنة الرسول لا يتبع إلا ديناً مبدلاً أو منسوخـاً والشرك كله من المبدل لم يشرع الله الشرك قط وكذا كل ما كان أهل الجاهلية يحرمونه مما ذكره الله في القرآن كالسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك من الدين المبدل اهـ . وقال فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً وأمره أن يقول (هذه سبيلي أدعوا إلى سبيل الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

الوجوه التي يستحيل معها أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين الحق

فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى مـا بعث به من الكتاب والحكمة وهو يدعوا إلى الله وإلى سبيله بإذنـه على بصيرة . وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته ــ محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وما يجوز عليه ومـا يمتنع عليه فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب مـا

اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول فكيف يكون ذلك الكتاب ، وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً أو قولا ؟

ومن المحال أيضاً أن لا يكون النبي صلى عليه وسلم قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة ، وقال : « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » وقال فيما صح عنه أيضاً « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » وقال أبو ذر لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائــر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً ، وقال عمر بن الخطاب : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » رواه البخاري .

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت أن يترك تعليمهم ما يقولون بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب ، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام ثم إذا كان قد وقع ذلك منه فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه .

ثم من المحال أن تكون القرون الفاضلة القرن الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق وكلاهما ممتنع اهـ من الحموية .

وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين أصوله وفروعه باطنه وظاهره علمه وعمله فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمـان

وكل من كان أعظم اعتصاماً بهذا الأصل كان أولى بالحق علماً وعملا وبين أن أصول الدين الحق الذي أنـزل الله به كتابه وأرسل به رسوله وهي الأدلة والبراهين والآيات الدالة على ذلك قد بينها الرسول أحسن بيان وأنـه دل الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التي بها يعلمون المطالب الإلهية وبها يعلمون إثبات ربوبية الله(ص) ووحدانيته وصفاتـه وصدق رسوله والمعاد وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة العقلية بل وما يمكن بيانـه بالأدلة العقلية ، وإن كان لا يحتاج إليها فإن كثيراً من الأمور يعرف بالخبر الصادق ومع هذا فالرسول بين الأدلة العقلية الدالة عليها فجمع بين الطرفين السمعي والعقلي وبينا أن أدلة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفـة من الغالطين من أهـل الكلام والحديث ، والفقهاء والصوفية وغيرهم بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهـم إلى الآيـات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين •

وقال : أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ويجب أن تذكر قولا أو تعمل عملا كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل •

أما القسم الأول فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهذا من أعظم ما أقام به الحجة على عبـاده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابـة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث فينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام ديناً الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء •

وأما القسم الثاني وهو دلائل هذه المسائل فإن الله بين من الأدلة العقلية

التي يحتاج إليها في العلم ما لا يقدر أحد من هؤلاء أهل الكلام والفلاسفة وغيرهم قدره ونهاية ما يذكرون جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال فيها (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهــو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وفي القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين من المسائل والدلائل ا هـ •

قال الناظم :

فإيَّاكَ عــن آراءِ كُــلِ مُزَخْرِفٍ ... مَقَالتُهُ كالسمِ في ضِمْنِهَا الرَّدِي
فقد ماتَ خيرُ الخلقِ والدينُ كاملٌ ... غَنِيٌ عــن التَّبيينِ مِن كلِ مُلْحِدِ

(وقوله : (ليظهره على الدين كله) أي ليعليه وينصره ظهوراً بالحجة والبرهان والسيف والسنان حتى يظهر على مخالفيه) •

وقد وقع ذلك فإن المسلمين جاهدوا في سبيل الله حق جهاده عملا بقوله تعالى : (وقاتلوهــم حتى لا تكون فتنة) يعني لا يكون شـرك ، وقوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد • •) وقوله : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية ، وقوله : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وقوله : (وجاهد في الله حق جهاده • •) وقوله : (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) الآيتين • وقوله : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) وقوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم » الحديث ، رواه البخاري ومسلم • وفي الحديث الذي أخرجه مسلم « وقاتل بمن أطاعك من عصاك » وروى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى

يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء » وفي حديث صفوان بن عسال قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فقال : « سيروا باسم الله قاتلوا من كفر الله » الحديث رواه أحمد وابن ماجه . وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن أنس « الجهاد ماض منذ أن بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال » ، وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال « اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله » الحديث رواه أحمد وفي الحديث الآخر كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية يقول إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً » رواه الخمسة إلا النسائي وفي الحديث الآخر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرخهم » أي صبيانهم رواه الترمذي . وفي حديث أبي هريرة قال رسول صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لولا أن رجالا لا تطيب أنفسهم ويتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزوا في سبيل الله الحديث » متفق عليه . وفي حديث عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفل في البداءة الربع وفي الرجعة الثلث ، رواه أحمد وابن ماجه والترمذي . وفي رواية : كان إذا أغار في أرض العدو نفل الربع وإذا أقبل راجعاً وكل الناس نفل الثلث الحديث رواه أحمد . وفي الحديث الآخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » رواه أبو دواد وغيره . . ففي الآيات الكريمات والأحاديث ما يدل على أنه يجب قتال الكفار ابتداءاً ودفاعاً ومن أراد زيادة على ما ذكرنا فلينظر إلى الجزء الثالث من الأسئلة والأجوبة الفقهية المقرونة بالأدلة الشرعية من ص ٦٣ إلى ٨٤ في جواب سؤال ٢٦ . وبعد أن جاهد المسلمون في الله حق جهاده فتح الله لهم فاتسعت البلاد الإسلامية مع قلة عددهم وعددهم بالنسبة إلى جيوش أعداء الإسلام فعلت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ــ قال ابن القيم فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ففي هذا تقوية لقلوبهم وبشارة وتثبيت لهم وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن ينجزه ، فلا

تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ولا تخلياً عن رسوله ودينه كيف وقد أرسله بدينه الحق ووعــده أن يظهره على كل دين سـواه ؟ !

وقوله : (وكفى بالله شهيداً) المعنى وكفى بشهادة الله سبحانه إثباتـاً لصدق رسوله قال الله تعالى (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله ونصره وتأييده ومن أسمائه تعالى الشهيد فلا يغيب عنـه شيء والرقيب والشهيد مترادفان وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات وبصره بالمبصرات وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية قال تعالى : (والله على كل شيء شهيد) وقال (إن الله كان عليكم رقيباً) ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد باسمه الرقيب الشهيد فمتى علـم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها واستحضر هذا العلم في كل أحواله أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله وعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه .

(وقوله : وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له إقراراً به وتوحيداً) الشهادة الإخبار بالشيء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته والمعنى أقر واعترف مصدقاً ومعتقداً أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له ولهذا قال : اقراراً به وتوحيداً ، أي اقرار بالقلب واللسان وتوحيداً أي إخلاصاً في كل عبادة قولية أو فعلية أو اعتقادية وأعظم ما يوجد به ويتقرب إليه به تحقيق العقيدة السلفية المحتوى عليها هذا الكتاب مع النية الصالحة فبتحقيق العقيدة تصلح الأعمال وتقبل وتستقيم الأمور كلها فعلى الانسان أن يجتهد في السعي في إصلاح نيته وليحذر كل الحذر من أن يكون هدفه الدنيا فقد ورد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ، يعني ريحها » رواه أبو داود .

وعن كعب بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » رواه الترمذي وغيره . قال شيخ الاسلام رحمه الله : كثير من طلبة العلم ليس مقصودهم به إلا تحصيل رئاسة أو مال ولكل امرىء ما نوى وأما أهل العلم والدين الذين هم أهله فهو مقصود عندهم لنفعه لهم وحاجتهم إليه في الدنيا والآخرة ولهذا تجد أهل الانتفاع به يزكون به نفوسهم ويقصدون فيه اتباع الحق لا اتباع الهوى ويسلكون فيه سبيل العدل والانصاف ويحبونه ويتلذذون به ويحبون كثرته وكثرة أهله وتنبعث هممهم على العمل به وبموجبه وبمقتضاه بخلاف من لم يذق حلاوته وليس مقصوده إلا مالا أو رئاسة فإن ذلك لو حصل بطريق آخر لسلكه وربما رجحه إذا كان أسهل عليه . وقال : وأكمل أنواع طلب العلم أن تكون همة الطالب مصروفة في تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم وفهم مقاصد الرسول صلى الله عليه وسلم في أمره ونهيه وسائر كلامه واتباع ذلك وتقديمه على غيره وليعتصم في كل باب من أبواب العلم بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة الجوامع ، قال ابن القيم :

والجهل داء قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان

وقال : لو أقام العلماء كتاب الله وفهموا ما فيه من البينات التي هي حجج الله وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وهي سنته لوجدوا فيها من أنواع العلوم ما يحيط بعلم الناس ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة حيث يقول (وكذلك جعلناكم

أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يتمون به فروع الدين وما كان من الحجج صحيحاً ومن الرأي سديداً فذلك له أصل في كتاب الله وسنة رسوله فهمه من فهمه وحرمه من حرمه • اهـ •

٦ أركان كلمة الاخلاص

ولكلمة الإخلاص أركان وشروط ، فأركانها اثنان نفي وإثبات وحد النفي من الإثبات لا إله ، أي نافياً جميع ما يعبد من دون الله والإثبات إلا الله أي مثبتاً لعبادة الله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه وأما شروطها فسبعة لا تصح هـذه الكلمة ولا تنفع قائلهـا إلا إذا استجمعت له الشروط التي تلي :

١ ـ الأول : العلم بمعناها نفياً واثباتاً قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقال : (الا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » •

٢ ـ الثاني : اليقين أي استيقان القلب بها قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) إلى قوله (أولئك هم الصادقون) وقال صلى الله عليه وسلم « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة « من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة » كلاهما في الصحيح •

٣ ـ الثالث: الإخلاص قال الله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال (ألا لله الدين الخالص) وعن أبي هريرة قال قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منـك

لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » •

وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه مسلم •

٤ ـ الرابع : الصدق قال الله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) عن ابن عباس قال من جاء بلا إله إلا الله ، وقال (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار » متفق عليه وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم « يشهد أن لا اله إلا الله مُستيْقِناً بها قلبه » الحديث رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي علمه شرائع الاسلام أفلح إن صدق •

٥ ـ الخامس : المحبة قال الله تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا لله » الحديث متفق عليه •• وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين » متفق عليه •

٦ ـ السادس : الانقياد لها ظاهراً وباطنا قال الله تعالى (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) وقال تعالى (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » •

٧ ـ السابع : القبول لها فلا يرد شيئا من لوازمها ومقتضياتها قال تعالى: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) إلى قوله

(بل لما يذوقوا عذاب) وقال أيضا في حق من لم يقبلها (أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون) الى قوله (إنهم كانوا اذا قيل لهم لا اله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » متفق عليه وقد شهد الله لنفسه بالوحدانية في قوله تعالى (شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فقد تضمنت هذه الآية الكريمة حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال فقد تضمنت أجل شـهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به وعبارات السلف في شَهد تدور على الحكم والقضاء والاعلام والبيان والاخبار وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن اعلامه وإخباره وبيانه فلها أربع مراتب : فأول مراتبها علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته • وثانيها : تكلمه بذلك وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها • وثالثها : أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له • ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به • فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع علمه بـذلك وتكلمه وإخباره لخـلقه وأمرهم وإلزامهم بـه •

فأما مرتبة العلم فإن الشهادة تتضمنها ضرورة والا كان الشاهد شاهدا بما لا علم له به قال الله تعالى : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ، وقال صلى الله عليه وسلم « على مثلها فأشهد » وأشار الى الشمس ، وأما مرتبة التكلم والخبر فقال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عبادالرحمن إناثاً أشهدوا

خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) فجعل ذلك منهم شهادة وان لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان إعلام بالقول واعلام بالفعل وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر تارة يعلمه بـه بقول وتارة بفعل ولهذا كان من جعل داره مسجدا وأبرزها وفتح طريقهـا وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلماً أنها وقف وان لم يتلفظ وكـذا شهادة الرب عز وجل وبيانه واعلامه يكون بقوله تارة وبفعله أخرى فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه وأما بيانه واعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أن لا إله إلا هـو ، وقال الآخر :

وفي كل شيء له آية   تـدل على أنه الواحد

وقال الآخر :

تأمـل سطور الكائنات فإنهـا   من الملك الأعلى اليك رسائل
وقد كان فيهـا لو تأملت خطها   ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به فإن مجرد الشـهادة لا يستلزمه لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقال (وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً) والقرآن كله شاهد بذلك ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنـه اذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبرنا ونبأ وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله وأن ألوهية ما سواه باطلة فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده الها والنهي عن اتخاذ غيره معه الها ، ولا اله إلا الله هي كلمة التوحيد التي اتفقت عليها الرسل صلوات

الله وسلامه عليهم أجمعين وما من رسول إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » وحق هذه الكلمة هو فعل الواجبات وترك المحرمات وأما فائدتها وثمرتها فالسعادة في الدنيا والآخرة لمن قالها عارفا لمعناها عاملا بمقتضاها وأما مجرد النطق فلا ينفع ، قال شيخ الاسلام : من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال مخالف للكتاب والسنة والاجماع .

وقال رحمه الله : وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات وهي الاصول الثلاثة توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل ، وما أنزل إليهم وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر .

(« وقوله : وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً مزيداً ») .

المعنى : أقر وأصدق التصديق الجازم من صميم قلبي المواطىء لقول لساني بأن محمدا عبد الله ورسوله الى الناس كافة انسهم وجنهم شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعياً الى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فيجب تصديقه فيما أخبر به من أخبار ما سبق وأخبار ما سيأتي ويطيعه في كل أمر وينتهي عما نهى عنه وإتباع شريعته والتزام سنته فالشهادة للرسول بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد لاتكفي إحداهما عن الأخرى ولا بد فيهما من اعتراف العبد بكمال العبودية للنبي صلى الله عليه وسلم لربه وكمال رسالته المتضمنة لكماله صلى الله عليه وسلم وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمالا وقد جمع الله فيه أكمل الصفات وأفضلها التي يوصف بها الأنبياء في نفسه وأخلاقه وفي دينه وشريعته وما جاء به وفي آياته وبراهينه المتنوعة التي هي أكثر وأقوى وأوضح من جميع البراهين اليقينية الدالة على صدقه وصحة ما جاء به .

قال ابن القيم رحمه الله : وكما أن محمدا صلى الله عليه وسلم علم الرسالة الى كل مكلف فرسالته عامة في كل شيء من الدين أصوله وفروعه دقيقه وجليله فكما لا يخرج أحد عن رسالته فكذلك لا يخرج حكم تحتاج اليه الأمة عنها وعن بيانه لها .. اهـ . وقال الشيخ : جميع الدين داخل في الشهادتين اذ مضمونهما أن لا نعبد الا الله وأن نطيع رسوله والدين كله داخل في هذا عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله وكل ما يجب أو يستحب داخل طاعة الله وسوله .

٧ ـ الرسل أكمل الخلق وأصدقهم

وقال : ومن تأمل ما جاء به علم أن مثل هذا لا يصدر الا عن أعلم الخلق وأصدقهم وأبرهم وأن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمدا للكذب مفتريا على الله بالكذب الصريح أو مخطىء جاهل ضال يظن أن الله أرسله ولم يرسله لأن فيما أخبر به وما أمر به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدى الخلائق وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلا ما بين أنه من العلم والخبرة والمعرفة في الغاية التي باين بها أعلم الخلق وأكملهم وفيه من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بار يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق ومن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذباً على الله يدعي هذه الدعوى العظيمة وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وقال : اذا علم الرجل أن محمدا رسول الله بالعقل والنقل والبراهين اليقينية ثم وجد في عقله ما ينازعه في خبره ، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع الى من هو أعلم به منه ، وأن لا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة اليه وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطب فإذا كان عقله يوجب عليه أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مقدرات من الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص مع ما في ذلك من الكلفة والالم ، لظنه أنه أعلم منه وأنه اذا صدقه أقرب لحصول الشفاء مع علمه أن الطبيب يخطىء كثيرا ، وأن كثيرا

من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب ، بل يـكون استعماله لما يصفه سببا لهلاكه ، ومع هذا يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه ، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والرسل صادقـون مصدقون ؟؟

لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط ، ومن عارضهم ففيه من الجهل والضلال مالا يحصيه إلا ذو الجلال ، فكيف يجوز أن يعارض من لم يخطىء قط بمن لم يصب في معارضته قط ، وقال عدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في نفسها ، فما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فهو ثابت في نفس الأمر سواء علمنا صدقه أو لم نعلم ، ومن أرسله الله الى الناس فهو رسوله ، سواء علم الناس أنه رسول أو لم يعلموا ، وما أخبر به فهو حق ، وان لم يصدقه الناس وما أمر به عن الله فهو أمره ، وان لم يطعه الناس فثبوت الرسالة في نفسها ، وثبوت صدق الرسول ، وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ليس موقوفاً على وجودنا فضلا عن أن يكون موقوفاً على عقولنا أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا ، وهذا كما أن وجود الرب وما يستحقه من الأسماء والصفات ثابت في نفس الأمر ، سواء علمناه أو لم نعلمه .

فتبين بذلك أن العقل ليس أصلا لثبوت الشرع ، ولا معطيا له صفة لم تكن له ولا مفيدا له صفة كمال ، اذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم فالعلم تابع ليس مؤثرا فيه ، فان العلم نوعان : أحدهما العلمي وهو ما كان شرطا في حصول المعلوم ، كتصور أحدنا ما يريد أن يفعله ، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج اليه . والثاني الخبر النظري ، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده الى العلم ، كعلمنا بوحدانية الله وأسمائه وصفاته ، وصدق رسله وملائكته وكتبه ورسله وغير ذلك ، فان هذه المعلومات ثابتة سواء علمناها أو لم نعلمها فهي مستغنية عن علمنا بها ، والشرع مع العقل هو من هذا الباب ، فإن الشرع المنزل من عندا الله ثابت بنفسه ، سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه ، وهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا ، ولكن نحن

محتاجون اليه والى أن نعلمه بعقولنا ، فان العقل اذا علم ماهو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به ، وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلا ناقصاً ا هـ •

وقال : ماعلم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة بل المنقول الصحيح ، لا يعارضه معقول صريح قط ، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه ، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبها فاسدة ، يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع ، وهذا تأملته في مسائل الأصـــول الكبار ، كمسائل التوحيد والصفات ، ومسائل القدر والنبوات والمعاد ، وغير ذلك ، وجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يقال انه يخالفه ، إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف اذا خالفه صريح المعقول ، ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول ، بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاؤه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته ، والكلام على هذا الأصل على وجه التفصيل مذكور في موضعه • فإن أدلة النفاة للصفات والقدر ، ونحو ذلك اذا تدبرها العاقل الفاضل ، وأعطاها حقهـــا من النظر العقلي علم بالعقل فسادها ، وثبـــوت نقيضها ا هـ •

وقوله (عبده ورسوله الخ) في هذا اشارة للرد على أهل الإفراط الذين غلوا فيه ورفعوه فوق منزلته وارتكبوا ما نهاهم عنه النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو فيه كالبوصيري وأمثاله ، وفيه أيضاً رد على أهل التفريط الذين يشهدون أنه رسول الله حقاً ، ومع ذلك فقد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم واعتمدوا على الآراء المخالفة لما جاء به ، وانما جمع له صلى الله عليه وسلم بين وصفي العبودية والرسالة ، لأنهما أعلى ما يوصف به العبد ، والعبادة هي الحكمة التي لأجلها خلق الله الخلق كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) •

فكمال المخلوق في تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر الله نبيه بوصفه بالعبودية في أسمى أحواله وأشرف مقاماته ، كالإسراء وقيامه بالدعوة ، قال تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده) وقال : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) وذكر بذلك الوصف في مقام الايحاء اليه . وفي مقام التحدي بالذي أنزل عليه قال تعالى (فأوحى الى عبده ما أوحى) وقال (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة : ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة ، إذا طلبوا منه الشفاعة بعد أن يتراجع الأنبياء : اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى . والصلاة لغة الدعاء ، وأصح ما قيل في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال : صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه في الملأ الأعلى ، وآله صلى الله عليه وسلم آل الشخص هم القوم المنتمون اليه الذين تجمعهم به صلة وثيقة من قرابة ونحوها وأحسن الأقوال في آل النبي صلى الله عليه وسلم أنهم أتباعه على دينه والصحابي كل من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً ومات على ذلك .

وقوله (وسلم تسليما) مزيدا والسلام بمعنى التحية أو السلامة من النقائص والعيوب ومن كل مكروه ومن أسمائه تعالى السلام قال ابن القيم رحمه الله :

وهو السلام على الحقيقة سالم ... من كل تمثيل ومن نقصان

وهاتان الجملتان خبريتان لفظا إنشائيتان معنى وجمع المصنف ، بين الصلاة والسلام اقتداء بالآية الكريمة (إن الله وملائكته يصلون على النبي) الآية وقوله مزيد صفة لتسليما وهو اسم مفعول من زاد المتعدي والتقدير مزيدا فيه .

(« وقوله : أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة

أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره » .

أما بعد : كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع في المقصود ويستحب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي بها في خطبه ومكاتباته ، وتقديرها عند النحويين مهما يكن من شيء بعد وقد اختلف في أول من قالها كما أشار الى ذلك الميداني :

جرى الخُلْفُ أمَّا بَعْدُ مَن كان بادئا بها عُـدَّ أقوال وداود أقـرب
ويعقـــوب أيـوب الصـبور وآدم وقـس وسحبان وكعب ويعرب

والإشارة في قوله هذا الى ما تضمنته العقيدة والاعتقاد مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان الله به وأصله من عقد البيع ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم فهو يطلق على التصديق وعلى ما يعتقده الإنسان من أمور الدين ، والفرقة الطائفة من الناس ووصفها بأنها ناجية أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ».

ومن قوله صلى الله عليه وسلم « ستفترق هذه الأمـة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » ونجاتها من الشرور والهلاك في الدنيا والآخرة بسبب استقامتها على الحق وتمسكها بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المنصورة التي أعانها سبحانه وأيدها وقواها على من خالفها الى قيام الساعة والمراد ساعة موتهم بمجيء الريح التي تقبض روح كل مؤمن وهي الساعة في حق المؤمنين والا فالساعة لا تقوم الا عـلى شرار الخلق . وأهل بدل من الفرقة بالكسر ويجوز فيها الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم وبالنصب على إضمار فعل تقدير أعني أهل السنة . قال الشيخ لمن اعترض نعته لأهل السنة بأنهم الفرقة الناجية وزعم أنه اذا كان هذا قول الفرقة الناجية خرج عن ذلك من لم يقل ذلك من المتكلمين : قال

الشيخ فقلت لهم : ليس كل من خالفني في شيء من هذا يكون هالكاً فان المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطاياه وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم عليه الحجة وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله بـه سيئاته ، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى بل موجب ذلك أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا ، وقد لا يكون ناجيا كما يقال من صمت نجا اهـ ، والسنة لغة الطريقة المجعولة ليقتدي بها قال لبيد :

مِن مَعشر سَنَّتْ لهم آباؤُهم   ولكلِّ قومٍ سنةٌ وإمامُها

والسنة شرعاً أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وإقراراته وأهلها هم المتبعون لها المعتنون بدراستها وفهمها المحكمون لها ونسبوا اليها لتمسكهم بها وانتسابهم اليها دون الطرق الأخرى ، والجماعة في الأصل القوم المجتمعون والمراد بهم هنا سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد تكاثرت الأدلة على لزوم الجماعة فروى الترمذي عن ابن عباس مرفوعا أن « يد الله مع الجماعة » وعن أبي ذر مرفوعاً « عليكم بالجماعة ان الله

لم يجمع أمتي إلا علّى الهدى » وعن أبي ذر مر فوعا من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » قال السفاريني :

اعلم هديت أنــه جاء الخبر — عن النبي المقتفى خير البشر
بأن ذى الأمة سوف تفترق — بضعاً وسبعين اعتقادا والمحق
ما كان في نهج النبي المصطفى — وصحبه من غــير زيغ وجفا
وليس هذا النص جزماً يعتبر — في فرقة إلا على أهل الأثر

٨ ـ الاركان الستة وكيفية الايمان بها

١ ـ الركن الاول الايمان بالله

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه وأنه الخالق الرازق المحيي المميت وأنه المستحق لأن يفرد بالعبودية والذل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأنه المتصف بصفات الكمال المنزه من كل عيب ونقص ، وهذا هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء شخصية المسلم ٠

وفي كتاب العقل والنقل : الإقرار بالصانع ضروري فطري لا شيء أحوج الى شيء من المخلوق للخالق فهم يحتاجون اليه من جهة ربوبيته اذ كان هو الذي خلقهم وهو الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار وكلما حصل من أحد فانما هو بخلقه وتقديره وتسبيبه وتيسيره وهذه الحاجة التي توجب رجوعهم اليه حال اضطرارهم كما يخاطبهم بذلك في كتابه وهم محتاجون إليه من جهة ألوهيته فانه لا صلاح لهم الا أن يكون هو معبودهم الذي يحبونه ويعظمونه ولا يجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله بل يكون مايحبونه كأنبيائه وصالحي عباده انما يحبونهم لأجله ٠

ومعلوم أن السؤال والحب والذل والخوف والرجاء والتعظيم والاعتراف بالحاجة والافتقار ونحو ذلك مشروط بالشعور بالمسؤول المحبوب المرجو المخوف المعظم الذي تعترف النفوس بالحاجة إليه والافتقار الذي تواضع كل شيء لعظمته واستسلم كل شيء لقدرته وذل كل شيء لعزته ، فاذا كانت هذه الأمور مما تحتاج النفوس اليها ولا بد لها منها بل هي ضرورية فيها كان شرطها ولازمها وهو الاعتراف بالصانع والإقرار به أولى أن يكون ضروريا في النفوس ، وأصل الايمان قول القلب وعمله وعبوديته للخالق والقلب مفطور على هذا وهذا ٠

وقال : وكلما كانت حاجة الناس الى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر وكانت طرق معرفته أظهر وأكثر وكانت الأسماء المعرفة له أكثر وكانت معانيه أدل ، ولما كانت حاجة النفوس الى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه وكان ذكرهم لأسمائه أعظم من ذكرهم لأسماء ما سواه ، وله سبحانه في كل لغة أسماء وله في اللغة العربية أسماء كثيرة ، والصواب الذي عليه جمهور العلماء أنها لا تنحصر في تسعة وتسعين كما في أحاديث أخر .

وفيه من القضايا الكلية الضرورية أن كل محدث لا بد له من محدث وكل مفعول ومصنوع لا بد له من فاعل وصانع وكل ممكن لا بد له من واجب والآية والدلالة يجب أن يكون ثبوتها مستلزما لثبوت المدلول الذي هو آية وعلامة عليه الى أن تندرج تحت قضية كلية واذا كان كذلك فجميع المخلوقات مستلزمة الخالق بعينه وكل منها يدل بنفسه أن له محدثا بنفسه والعلم بأفراد ذلك لا يحتاج الى العلم بالقضية الكلية ، وهو أن كل محدث فلا بد له من محدث .

وفيه : ومن أنكر من أهل الإلحاد وجود الرب قيل له معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه ، وإما غير واجب بنفسه ، واما قديم أزلي ، واما حادث كائن بعد أن لم يكن ، واما مخلوق مفتقر الى خالق ، واما غير مخلوق ولا مفتقر الى خالق ، وإما فقير الى ما سواه ، وإما غني عما سواه ، وغير الواجب بنفسه لا يكون الا بالواجب بنفسه ، والحادث لا يكون الا بقديم والمخلوق لا يكون الا بخالق ، والفقير لا يكون الا بغني عنه فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق غني عما سواه ، وما سواه بخلاف ذلك وقد علم بالحس والضرورة وجود موجودات سواه ، وما سواه بخلاف ذلك وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن ، والحادث لا يكون واجبا بنفسه ولا قديما أزلياً ، ولا خالقا لما سواه ، ولا غنيا عما سواه فثبت بالضرورة وجود موجودين أحدهما غني والآخر فقير ، وأحدهما خالق والآخر مخلوق ، وهما متفقان في

كون كل منهما شيئاً موجودا ثابتا ليس أحدهما مماثلا للآخر في حقيقته إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وأحدهما يجب قدمه وهـو موجود بنفسه وأحدهما غني عن كل ما سواه والآخر ليس بغني ، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم

ليس بواجب ، فيلزم اجتماع النقيضين على تقدير تماثلهما وهو منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع مع اتفاقهما في أمور أخرى كما أن كلا منهما موجود ثابت له حقيقة وذات هي نفسه فعلم بهذه البراهين اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفي ما اتفقا فيه كان معطلا قائل للباطل ، ومن جعلهما متماثلين كان مشبها قائلا للباطل والله أعلم ، وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه فان الله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائرصفاته والعبد لا يشركه في شيء من ذلك ، والعبد أيضا مختص بوجوده وعـلمه وقدرته والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه (ا هـ من مم) •

وفيه : وبين الخالق والمخلوق من الفروق مالا يخفى على ذي بصيرة منها أن الرب غني بنفسه عما سواه ويمتنع أن يكون مفتقرا الى غيره بوجه من الوجوه والملوك وسادة العبيد محتاجون الى غيرهم حاجة ضرورية ، ومنها ان الرب وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين ، فهو يخلق ذلك وييسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه الا بقدرته ومشيئته ، والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره •

ومنها : أن الرب أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج اليه وينهاه عما ينهاه عنه بخلا عليه ، ومنها أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك ، مما يحصل به العلم والعمل الصالح وهو الهادي لعباده فلا حول ولا قوة إلا به ، ولهذا قال أهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وليس يقدر المخلوق على شيء ومنها أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم

العبادة بشكر القليل منها فكيف والعبادة من نعمته أيضاً ؟ ومنها أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين الى عفوه ومغفرته فلن يدخل أحد الجنة بعمله ، وما من أحد الا وله ذنوب تحتاج إلى مغفرة الله اهـ من كتاب التوسل والوسيلة

٩ ـ الركن الثاني الايمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو التصديق الجازم بأن لله ملائكة موجودون مخلوقون من نور ، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون يسبحون الليل والنهار لا يفترون وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها ، ويجب الإيمان على التفصيل بمن ورد تعيينه باسمه المخصوص كجبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك ، فجبريل هو الموكل بأداء الوحي وهو الروح الأمين ، وميكائيل الموكل بالقطر ، وإسرافيل الموكل بالصور ، وملك الموت الموكل بقبض الأرواح ، ومنهم الموكل بأعمال العباد ، وهم الكرام الكاتبون ومنهم الموكل بحفظ العبد من بين يديه ومن خلفه وهم المعقبات ، ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه ، ومنهم الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه ، ومنهم الموكل بفتنة القبر وهم منكر ونكير ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام وكتابة ما يراد بها ، ومنهم ملائكة يدخلون البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون ، ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر وغير ذلك .

ويجب الإيمان بمن لم يرد تعينه باسمه المخصوص ولا تعيين نوعه المخصوص إجمالا والله أعلم بعددهم ، قال تعالى : (كل آمن بالله وملائكته) الآيـة . وقال تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب

ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة) الآية • فجعل الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله (ومن يكفر بالله وملائكته) الآية ، وفي حديث جبريل « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه » فهذه الأصول اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل وجميع الرسل عليهم السلام وجميع أهل الملل يعلمون قطعاً أن الملائكة ليست كما يقول الزنادقة أنها قوى معنوية ، وإنما هم مخلوقون من نور كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كما وصفوا بالكتاب والسنة ومن زعم أن جبريل هو العقل الفعال وهو ما يتخيل من نفس النبي صلى الله عليه وسلم من الصور الخيالية وكلام الله ما يوجد في نفسه كما يوجد في نفس النائم فهذا مما يعلم كل من علم بما جاء به الرسول أنه من أعظم الأمور تكذيباً للرسول ويعلم أن هؤلاء أبعد عن متابعة الرسول من كفار اليهود والنصارى وأن هذا كلام زنادقة الفلاسفة •

١٠ ــ الركن الثالث الإيمان بكتب الله

الإيمان بكتب الله هو التصديق الجازم بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله وهي من كلامه حقيقة وأنها نور وهدى وأن ما تضمنته حق وصدق ولا يعلم عددها إلا الله وأنه يجب الإيمان بها جملة إلا ما سمي منها وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وموسى •

قال الله تعالى : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) وقال : (وآتينا داود زبورا) وقال : (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى) وقال : (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) فيجب الإيمان بها على التفصيل والبقية إجمالا ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ورسله وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل والتحريف ، قال الله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) •

ومنزلة القرآن من الكتب المتقدمة كما ذكر الله فيه قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) : وقال : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقال : (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) قال المفسرون : مهيمناً مؤتمناً وشاهداً على ما قبله من الكتب ومصدقاً لها يعني يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتغيير وتبديل فما شهد له بالصدق فهو المقبول وما شهد له بالرد فهو المردود وله يخضع كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه . قال الله تعالى : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) ويجب على كل أحد اتباعه ظاهراً وباطناً والتمسك به والقيام بحقه ، قال الله : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقال : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب الله فقال « خذوا بكتاب الله وتمسكوا به » وفي حديث علي مرفوعاً : إنها ستكون فتن قلت ما المخرج منها يا رسول الله قال : كتاب الله وذكر الحديث ، ومعنى التمسك به والقيام بحقه حفظه وتلاوته والقيام به آناء الليل والنهار وتدبر آياته وإحلال حلاله وتحريم حرامه والانقياد لأوامره والانزجار بزواجره والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه والوقوف عند حدوده والذب عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطلين والنصيحة له بكل معانيها والدعوة إليه على بصيرة .

وفي جواب أهل العلم والإيمان : السلف متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب وهو أعلى منها درجة فإنه قرر ما فيها من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر وزاد ذلك بياناً وتفصيلا وبين الأدلة والبراهين على ذلك وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع

الحجج والبراهين وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها وبين ما حرف منها وبدل وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما قبله من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات وكذلك معنى الشهادة والحكم يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ ، ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ففيه دعوة الرسول وهداية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته وفيه ما جاء به الرسول وفيه أيضاً من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفصيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن .

ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون من أصناف العلماء في أصناف العلوم والفنون لم يجد عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر ولا كتاب آخر فضلا عن أن تحتاج شيئاً لا يستقل بنفسه عن غيره سواء كان من علوم النقل أو علوم العقل ولله الحمد .

وقال : ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل أو الحس إلا وفي القرآن بيان معناه فإن القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبياناً للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول إما أن لا يعرفو اللفظ وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة ومن ههنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعا كالفتن التي تحدث بالسيف فالفتن القولية والفعلية من الجاهلية بسبب خفاء النور عنهم فإذا انقطع عنهم نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم .

١١ ـ الركن الرابع الايمان بالرسل

الإيما بالرسل هو التصديق الجازم بأن لله رسلاً أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم ومعادهم اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يهمل خلقه بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين فيجب الإيمان بمن سمى الله منهم في كتابه على التفصيل والإيمان جملة بأن لله رسلا غيرهم وأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله ولا يعلم أسماءهم إلا هو جل وعلا •

قال الله تعالى : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) وعدد المذكورين فيالقرآن خمسة وعشرون وهم آدم ، نوح ، إدريس، صالح ، إبراهيم ، هود ، لوط ، يونس إسماعيل ، إسحق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هـــارون ، اليسع ، ذو الكفل ، داود ، زكريـــا ، سليمان ، إلياس ، يحيى ، عيسى ، محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين• وموضوع الرسالة التبشير والتنذير قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين

لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل والحكمة في ذلك دعوة أممهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وأفضل المرسلين أولو العزم وهم المذكورون في سورة الشورى ، قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى الآية) ، وقال : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وأفضل أولياء الله أنبياؤه وأفضل أنبيائه المرسلون وأفضل المرسلين أولو العزم وأفضل أولوا العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد والحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة الذي بعثه الله بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم وهم آخر الأمم خلقاً وأولهم بعثاً ومن حين بعثه الله جعله الفاروق بين أوليائه وبين أعدائه فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به

وبما جاء به واتبعه ظاهراً وباطناً ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أوليائه ، بل من خالفه كان من أعدائه وأوليـــاء الشيطان • ا هـ • (من م م) •

١٢ـ مايجوز على الرسل وما يجب علينا نحوهم

الواجب علينا نحو الرسل والأشياء التي تجوز عليهم والأدلة على صدقهم وما أيدهم الله به : يجب علينا تصديقهم وأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمروا به وبينوه بياناً واضحاً شافياً كافياً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله ولا يحل خلافــه •

قال الله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) الآية ، ويجب علينا الإيمان بأنهم معصومون من الكبائر وأما الصغائر فقد تقع منهم والكتاب والسنة يدلان على ذلك ولكن لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها ويجب احترامهم وأن لا يفرق بينهم ويجب الاهتداء بهديهم والائتمار بأمرهم والكف عن ما نهوا عنه ويجب الاعتقاد أنهم أكمل الخلق علماً وعملا وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقاً وأن الله خصهم بفضائـــل لا يلحقهم فيها أحد وبرأهم من كل خلق رذيـــل ويجب محبتهم وتعظيمهم ويحرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منزلتهم ، ويجوز في حقهم شرعـــاً وعقلا النوم ،والنكاح والأكل والشرب والجلوس والمشي والضحك وسائـــر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتل الأنبياء كما أخبر الله بذلك في كتابه بقوله سبحانه (ويقتلون الأنبياء بغير حق) ومن الأدلة على ما ذكرنا أولا من أنه يجوز في حقهم أشياء قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين ، الا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) وقال عز من قائل (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) •

وقال صلى الله عليه وسلم : « لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء » ، وكان صلى الله عليه وسلم يمرض ويتألم ويشتكي ، وكان يصيبه الحر والبرد ، والجوع والعطش والغضب والضجر والتعب ، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه .

وأما الأدلة على صدق الرسل فكثيرة ، أعظمها شهادة الله لهم بأنهم صادقون قال الله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) وقال عز شأنه (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) وقال عز من قائل عن إسماعيل عليه السلام (إنه كان صادق الوعد) وقال عن إبراهيم (إنه كان صديقاً نبياً) إلى غير ذلك من الأدلة ، فهم أصدق الخلق على الإطلاق ، عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وأيدهم بالدلائل الدالة على صدقهم في دعواهم الرسالة ، فمن أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم الذي أعجز الورى كلهم ، ومثل انشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب ومعراجه إلى السماء ، إلى سدرة المنتهى ، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، وكفاية الله أعداءه وعصمته من الناس ، وإجابة دعائه ، وإعلامه بالمغيبات الماضية ، والمستقبلة ، وتأثيره في تكثير الطعام والشراب .

قال الشيخ : ومثل إخبار أهل الكتاب قبله ، وبشارة الأنبياء به . ومثل إخبار الكهان والهواتف به ، ومثل قصة الفيل ، التي جعلها الله آية في عام مولده من العجائب الدالة على نبوته ، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين ، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه ، وبعد مبعثه ، ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحد إلا بتعليم الله من غير أن يعلمه إياها بشر . اهـ .

وكما أيد الله موسى بالآيات البينات ، قال تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وكما أيد الله سائر رسله ، مع انضمام ذلك إلى أحوالهم الجليلة ، وأخلاقهم الفاضلة الجميلة ، من سلامة الفطرة والعفاف ، والكرم والشجاعة ، والعدل والنصح

وحاصل جواب الشيخ في إثبات الوساطة بين الله وبين عباده ، أنها على قسمين : واسطة من تمام الدين والإيمان إثباتها وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغيره من الرسل ، وسائط بين الله وبين عباده في تبليغ دينه ، وشرعة ، وواسطة شركية وهي التقرب إلى أحد من الخلق ليقر به إلى الله ، وليجلب له المنافع التي لا يقدر عليها إلا الله ، أو يدفع عنه المضار ، فهذا النوع من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، فالخلق مضطرون إلى وساطة الرسل في تبليغ الدين ، وليس بهم حاجة إلى وساطة أحد في طلب الحوائج من الله فليس بين العبد وبين الله حجاب ، ولا واسطة . اهـ .

وفي كتاب العقل والنقل الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل ، وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق ، وأنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله ، من الخبر والطلب ، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ ، كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين ، واليهود والنصارى ، وغيرهم ، فوجب أن جميع ما يخبر الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ، ولا سمعي ، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزماً قاطعاً أنه حق ، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به ، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي لا عقلي ، ولا سمعي ، وأن كلما ظن أنه عارضه من ذلك ، فإنما هو بحجج داحضة وشبه من جنس شبه السوفسطائية .

وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك ، وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح ، كان هذا العقل شاهداً بأن كل ما خالف خبر الرسول ، فهو باطل ، فيكون هذا العقل والسمع جميعاً شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع ، وفيه : والكلام هنا إنما هو لمن علم أن الرسول صادق ، وأن ما جاء به ثابت ، وأن إخباره لنا بالشيء يفيد تصديقاً بثبوت ما أخبر به ، فمن كان هذا معلوماً له امتنع أن يجعل العقل مقدماً على خبر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما من أفصح بحقيقة قوله وقال إن كلام الله ورسوله في التوحيد وأمور الغيب لا يستفاد منه علم بالحقيقة ، فهذا لكلامه مقام آخر .

وقال الشيخ رحمه الله : إذا تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً ، فالواجب أن يقال : لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين ، وإما أن يكون أحدهما قطعياً ، والآخر ظنياً ، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ، وهذا متفق عليه بين العقلاء ، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة ، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان ، وأحدهما يناقض مدلول الآخر ، لزم الجمع بين النقيضين وهو محال ، بل كلما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية ، فلا بد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي ، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين ، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر ، فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء ، سواء كان هو السمعي أو العقلي ، فإن الظن لا يدفع اليقين وأما إن كانا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما ، فأيهما ترجح ، كان هو المقدم سواء كان سمعياً أو عقلياً • ا هـ • ولا يعلم عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث صحيح أجمع المسلمون على نقيضه فضلا عن أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البين لعامة العقلاء فإن ما يعلم بالعقل الصريح البين أظهر مما لا يعلم إلا بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية فإذا لم يوجد في الأحاديث الصحيحة ما يعلم نقيضه بالأدلة الخفية كالاجماع ونحوه وأن لا يكون فيها ما يعلم نقيضه بالعقل الصريح الظاهر أولى وأحرى ولكن عامة موارد التعارض هي من الأمور الخفية المشتبهة التي يحار فيها كثير من العقلاء كمسائل أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله وما بعد الموت من الثواب والعقاب والجنة والنار والعرش والكرسي وعامة ذلك من أنباء الغيب التي تقصر عقول أكثر العقلاء عن تحقيق معرفتها بمجرد رأيهم ولهذا كان عامة الخائضين فيها بمجرد رأيهم إما متنازعين مختلفين وإما حيارى متهوكين وغالبهم يرى أن إمامه أحذق منه في ذلك ولهذا تجدهم عند التحقيق مقلدين لأئمتهم فيما يقولون من العقليات المعلومة بصريح العقل فتجد أتباع أرسطو يتبعونه فيما ذكره من المنطقيات والطبيعيات والإلهيات مع أن كثيراً منهم قد يرى بعقله ما قاله أرسطو وتجده

لحسن ظنه به يتوقف في مخالفته أو ينسب النقص في الفهم إلى نفسه مع أنه يعلم أهل العقل المتصفون بصريح العقل أن في المنطق الخطأ البين ما لا ريب فيه كما ذكر في غير هذا الموضع •

وقال ابن القيم رحمه الله مشيراً إلى نصوص الشرع :

ونصوصه ليست تعارض بعضها بعضاً فسل عنها عليم زمان
أو أن يكون البعض ليس بثابت ما قاله المبعوث بالقرآن
وإذا ظننت تعارضاً فيها فذا من آفة الأفهام والأذهان

وقال :

وإذا تعارض نص لفظ وارد والعقل حتى ليس يلتقيان
فالعقل إما فاسد ويظنه الرأي صحيحاً وهو ذو بطلان
أو أن ذاك النص ليس بثابت ما قاله المعصوم بالبرهان

وفي « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » الدلائل الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع ، وعمل صالح ، إلا وهو في القرآن أو مثله ، أو أكمل منه وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ، مالا يوجد في التوراة والإنجيل فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يفعل ذلك إلا من هو أجهل الناس وأضلهم ، أو من هو أعظمهم عناداً واتباعاً لهواه .

وقال : ومن صدق محمداً فقد صدق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، ومن كذبه فقد كذب كل نبي ، ومن عصاه فقد عصا كل نبي » ا هـ .

وقال : ويجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إيماناً مجملا عاماً ولا ريب أن معرفة ما جاء به على التفصيل فرض كفاية، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله وداخل في تدبر القرآن وعلم الكتاب والحكمة وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين ، فهو واجب على الكفاية منهم وأما ما وجب على أعيانهم فهو يتنوع بتنوع قدرهم وحاجتهم ومعرفتهم وما أمر به أعيانهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم ، أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ، ما لا يجب على من لم يسمعها ، ويجب على المفتي والمحدث والمجادل ، ما لا يجب على من ليس كذلك ا هـ (من كتاب العقل والنقل) .

وقال ولا ريب أن من لقي الله بالإيمان بجميع ما جاء بـه الرسول مجمـلا مقراً بما بلغه من تفصيل الجملة غير جاحد لشيء من تفاصيلها أن يكون بذلك من المؤمنين ، إن الإيمان بكل فرد من تفصيل ما أخبر به الرسول وأمر بـه غير مقدور للعباد ، إذ لا يوجد أحد إلا وقد خفي عليه بعض ما قاله الرسول ا هـ (من التسعينية) .

وقال : ضمن الله السعادة لمن أطاعه وأطاع رسوله وتوعد بالشقاء لمن لم يفعل ذلك ، فطاعة الرسول هي مناط السعادة وجوداً وعدماً ، وهي الفارقة بين أهل الجنة والنار ومحمد صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس فدل الخلق بما بينه لهم ، وقال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فمن اجتهد بطاعـة الله ورسوله بحسب الاستطاعة كان من أهل الجنة والله يرفـع درجات المتقين المؤمنين بعضهم على بعض بحسب إيمانهم وتقواهم ، ا هـ .

١٣ — الركن الخامس الأيمان بالبعث

البعث لغة التحريك والإثارة وشرعاً إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها فيخرجون من لأجداث أحياء مهطعين الى الداعي كما ذكر الله تعالى (خشعاً أبصارهم يخرجون من الأحداث كأنهم جراد منتشر) وقال : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون) الآيتين . وقال : (فإنما هي زجرة واحدة ، فإذاهم بالساهرة) ، (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقاً جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) ، وقال (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) ، وقال : (ان كل من في السموات والارض الا آت الرحمن عبدا) وقال : (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) ، وقال : (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) الآيتين . وقال : (وإن الله يبعث من في القبور) ، وقال : (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) وقال : (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون) ، وقال : (ومنها نخرجكم تارة أخرى) ، وقال : (فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم ينظرون) ، وقال : (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) .. وقال : (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا) وحيث أنه يوجد قسم من الناس قد عميت بصائرهم يثبتون بعث الأرواح دون الأجسام رأيت أنه من المناسب سوق آيات واضحات الدلالة على بعث الأجساد ، قال تعالى :

١ — (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) .

٢ — (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .

٣ — (فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) .

٤ — (وعُرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) ،

٥ — (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) .

٦ ــ (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) •

٧ ــ (كما بدأنا أول خلق نعيده) •

٨ ــ (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) •

٩ ــ (حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا : لجلودهم لما شهدتم علينا ــ الآية) •

١٠ ــ (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) •

١١ ــ (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ــ الآية) •

١٢ ــ (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) •

ومن السنة ما ورد عن المقداد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون الى كعبيه ومنهم الى ركبته ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمهم العرق إلجاماً وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فيه » • رواه مسلم •

وفي حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم « فيختم على فيه ، ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق » ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للعاص بن وائل ، وقد جاء بعظم قديم ففتته بيده وقال : يا محمد يحي الله هذا بعد ما أرم ؟ قال : « نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » فنزلت هذه الآية الكريمة : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) الى غير ذلك من الآيات والاحاديث الكثيرة

الصريحة الدالة على ذلك والإيمان بالبعث واجب لما تقدم ولما يأتي وإنكاره كفر ناقل عن الملة الإسلامية بالكلية قال الله تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بماعملتم وذلك على الله يسير) وقال : ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) هذه الآية ليس لها نظير الا آيتان أخريان يأمر تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد : الأولى آية التغابن التي سقناها قبل هذه وفي سورة سبأ : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب) الآية .

ومن السنة ما ورد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي ، فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد » وفي رواية عن ابن عباس « وأما شتمه إياي فقوله لي ولد وسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً » رواه البخاري .

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو الصبور على أذى أعدائه	شتموه بل نسبوه للبهتان
قالوا له ولد وليس يعيدنا	شتماً وتكذيباً من الإنسان
هذا وذاك بسمعه وبعلمه	لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعافيهم ويرزقهم وهم	يؤذونه بالشرك والكفران

قال الشيخ : الإعادة بعد الممات يعيد الله الخلق بعد ما استحالت أجسامهم الى غيرها فيعيدها من تلك الأجزاء التي انقلبت واستحالت اليها خلقة كاملة مخلوقة للبقاء والنشأة الأولى خلقة فساد وفناء ، فالنشأة الأولى والثانية نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ولهذا جعل المعاد هو المبدأ ، وجعل مثله أيضا فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو وباعتبار ما بين النشأتين من الفروق فهو مثله .

وقال الشيخ : أصول الدين الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم قد بينها الله في القرآن أحسن بيان وبين دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته وبين دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة تتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح الهدى ودين الحق وأهل البدع ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق وكل ما خالفوا فيه الشرع ، فقد خالفوا فيه العقل فإن الذي بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء هو حق وصدق وتدل عليه الأدلة العقلية فهو ثابت بالسمع والعقل والذين خالفوا الرسل ليس معهم سمع ولا عقل كما أخبر الله عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ، (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فالشرع هو الحق والعدل والقسط والصدق ، وما بعد الحق إلا الضلال .

وقال : فالمسلمون سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعلى وجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فانه يدخله الجنة ولا يعذب وعلى أن من لم يؤمن بأن محمدا رسول الله فهو كافر وأمثال هذه الأمور التي هي أصول الدين وقواعد الإيمان التي اتفق عليها المنتسبون للإسلام والايمان فتنازعهم بعد هذا في بعض أحكام الوعيد وبعض معاني الأسماء أمر خفيف بالنسبة الى ما اتفق عليه من أن المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفين بالبدعة مشهود لهم بالضلالة ليس لهم في الامة لسان صدق ولا قبول عام كالخوارج والرافضة والقدرية ونحوهم وإنما يتنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه الى الله ورسوله اهـ .

٦ ـ الركن السادس الايمان بالقدر

الإيمان بالقدر التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره وأنه الفعال لما يريد لا يكون شيء الا بإرادته ولا يخرج عن مشيئته ، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر الا عن تدبيره ولا محيد لأحد عن القدر ولا يتجاوز ما خط في اللوح المحفوظ وأنه خالق أفعال العباد من الطاعات والمعاصي ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وبهذا الركن تتم الأركان الستة ، وقال ابن القيم :

إيماننا بالله ثم بكتبه وبرسله وقيامة الأبدان
وبجنده وهم الملائكة الألى هم رسله لمصالح الأبدان
هذى أصول الدين حقاً لا أصول الخمس للقاضي هو الهمداني

اثبات صفـــات الله

بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تحريف ولا تكييف

(« قوله : ومن الإيمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ») .

هذا شروع في التفصيل بعد الإجمال ومن هنا للتبعيض والمعنى ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذي هو أعظم الأصـــول وأساسها وهو الإيمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه الخ . التحريف : هو التغيير والتبديل واصطلاحاً تغيير ألفاظ الأســـماء الحسنى والصفات العلى ومعانيها وهوينقسم الىقسمين تحريف لفظ وتحريف معنى كقول الجهمي في قوله تعالى (استوى ، استولى بزيادة اللام وكقول اليهود في قوله تعالى (وقولوا حطة) حنطة وكقول بعض المبتدعة في قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليماً) بنصب الجلالة وكقول بعض المبتدعة ان تفسير الغضب إرادة الانتقام وكتفسيرهم الرحمة بإرادة الإنعام قال ابن القيم رحمه الله :

أمـــر اليهود بأن يقول حطـــة ... فأبـــوا وقالوا حنطة لهـــوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحـــرف للنـــكران
قال استوى استولى وذا من جهله ... لغـــة وعقلا ما همـــا سيـــان
نـــون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائـــدتان

وأما التعطيل فهو مأخوذ من العـَطـَل الذي هو الخلو والفراغ والترك قال تعالى (وبئر معطلة وقصر مشيد) أي أهملها أهلها وتركوها ، ويقال : جيد عطل ، أي خال من الزينة ، قال امرؤ القيس :

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش ... إذا هي نصـــته ولا بمعطـــل

والمراد به هنا نفي الصفات الإلهية عن الله وإنكار قيامها بذاته أو إنكار بعضها وأنواع التعطيل ثلاثة : أولا تعطيل الله جل وعلا من كماله المقدس وذلك بتعطيل أسمائه وصفاته كتعطيل الجهمية والمعتزلة ، ومن نحا نحوهم .

ثانياً : تعطيل معاملته بترك عبادته أو عبادة غيره معه .

ثالثاً : تعطيل المصنوع من صانعه كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات وأنها تتصرف بطبيعتها فهذا من أبطل الباطل وأمحل المحال إذ لا يمكن وجود ذات بدون صفات .

وأول من قال بالتعطيل في الإسلام الجعد بن درهم ، قال الشيخ ، أصل مقالة التعطيل للصفات انما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـ أعني أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة وإنما استوى بمعنى استولى ونحو ذلك ـ أول ما ظهرت هذه المقالة من الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه ، وقد قيل ان الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان الجعد فيما قيل من أرض حران وكان فيها خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا دين أهل نمروذ ، ونمروذ هو ملك الصابئة الكلدانية المشركين فكانت الصابئة الا قليلا منهم إذ ذاك على الشرك وعلماؤهم هم الفلاسفة فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة والفلاسفة فهذه أسانيد جهم ترجع الى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين وإما من المشركين ثم لما عربت الكتب الرومية واليونانية في حدود المائة الثانية زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم ولما كان في حدود المائة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف

يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته وكلام الأئمة كثير في ذمهم وتضليلهم ، انتهى بتصرف •

وقتل الجعد خالد بن عبد الله القسري بعد استشارة علماء زمانه ، وقتل الجهم سلم بن أحوز أمير خراسان • وأما التكييف فهو تعيين الكنه يقال كيف الشيء أي جعل له كيفية معلومة وأما التمثيل فهو التشبيه وينقسم الى قسمين تشبيه مخلوق بخالق وتشبيه خالق بمخلوق والأول كتشبيه النصارى المسيح بن مريم بالله وكتشبيه اليهود عزيرا بالله وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله • القسم الثاني تشبيه الخالق بالمخلوق كتشبيه المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه فيقولون له وجه كوجه المخلوق ويد كيد المخلوق وسمع كسمع المخلوق وبصر كبصر المخلوق ونحو ذلك •

فلا مذهب التشبيه نرضاه مذهبا ولامقصد التعطيل نرضاه مقصدا
ولكن بالقرآن نهدي ونهتدي وقد فاز بالقرآن عبد قد اهتدى

تنبيه : الفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفي المعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق فإن التعطيل أعم مطلقا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس وبذلك يوجدان معاً فيمن أثبت المعنى الباطل ونفي المعنى الحق ، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة في الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لهما معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض •

وقوله رحمه الله :

(« بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسمائه وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه لا سمي له ولا كفو له ولا ند ») •

١٦ – مذهب السلف في الصفات

أهل السنة يصدقون ويعتقدون بأن الله سبحانه ليس يشبهه ولا يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله لأن أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها صفات كمال وعظمة فهذه الآية هي قطب أهل السنة والجماعة في باب الصفات فإن الله عز وجل قد جمع فيها بين النفي والإثبات فمن فهم هذه الآية حق فهمها وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور واثلاج القلوب فبهذه الحجة والبرهان القوي يتحطم كثير من البدع ويرغم بها أنوف طوائف من القاصرين المتكلمين المتأولين ولا سيما إذا ضم اليه قوله سبحانه وتعالى (ولا يحيطون به علماً) وقوله : (السميع البصير) أي وهو السميع لما ينطق به خلقه على اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم البصير الذي أحاط بصره في جميع المبصرات فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الدقيقة وسريان الماء في الأغصان ، وهذه الحيوانات التي اطلع عليها أخيرا التي تعادل الذرة الدقيقة آلافا. منها يراها جل وعلا كالشمس ، لا إله إلا هو .

قال بعضهم :

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل
امنن علي بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

ففي الآية :

أولا – رد على المشبهة .

ثانياً ــ فيها رد على المعطلة وهم نفات الصفات من جهمية أو غيرهم ،
ثالثاً ــ فيها رد على المعتزلة ونحوهم ممن يثبتون الأسماء دون الصفات •
رابعاً ــ فيها رد على الاشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤلون البعض الآخر وهم متناقضون •

خامساً ــ إثبات صفة السمع • سادساً ــ إثبات صفة البصر •

سابعاً ــ تنزيه الله عن مشابهة خلقه •

ثامنا ــ تقديم النفي على الإثبات لأن الاول من التخلية والثاني من التحلية

تاسعاً ــ فيها نفي مجمل وإثبات مفصل •

عاشراً ــ رد على من زعم أن السمع والبصر بمعنى واحد هو العلم •

الحادي عشر ــ دلالة على كثرة صفات كمال الله ونعوت جلاله وأنها لكثرتها وعظمتها لم يكن له فيها مثل •

الثاني عشر ــ إثبات صفة الكلام لله •

الثالث عشر ــ الحث على مراقبة الله في السر والعلانية •

ومراقبة الرب عز وجل علم العبد وتيقنه باطلاع الله على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر اليه سامع لقوله ومطلع على علمه كل وقت وكل لحظة ونفس وكل طرفة وقوله فلا ينفون عنه الخ هذا تقرير على ما تقدم فإنهم اذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون الخ والمواضع جمع موضع والمراد بها المعاني التي يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هي المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها وأما الإلحاد فهو الميل والعدول عن الشيء والإلحاد في أسماء الله وصفاته هو الميل بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها الى الإشراك والتعطيل والكفر ، وأقسامه خمسة : أولا تسمية الله بمالا يليق بجلاله وعظمته كتسمية النصارى له أباً والفلاسفة موجبا بذاته أو

علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك • ثانياً أن يسمي بها بعض المخلوقات كتسميتهم اللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنـــان • ثالثاً وصفه بما يتقدس ويتنزه عنه كقول اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة إن الله فقير وقولهم يد الله مغلولة وقولهم إن الله استراح يوم السبت تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا • رابعا تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني :

خامساً تشبيه صفاته بصفات خلقه •

وقوله (لأنه لا سمي له الخ) • هذا تعليل لقوله فيما تقدم إخبارا عن أهل السنة أنهم لا يكيفون ولا يمثلون ولا يحرفون ولا يعطلون المعنى ليس مثيلا ولا شبيهاً ولا موصوفاً يستحق اسمه وصفته على التحقيق فهو سبحانه المتفضل بجليل النعم وحقيرها وهو المستحق العبادة والتعظيم الذي يجب الاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه وليس المعنى أنه لا يوجد من يتسمى باسمه لأن بعض أسمائه قد يطلق على غيره ومعنى الكفؤ المكافيء المساوي وأما الند فمعناه المساوي المثيل وقد دل على نفي السمي قوله تعالى (هل تعلم له سميا) فان الاستفهام هنا إنكاري معناه النفي ودل على نفي الكفو قوله تعالى (ولم يكن له كفوا أحد) وأما الند فقال تعالى (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) وخلاصة ما تقدم أن السلف رضي الله عنهم يؤمنون بكل ما أخبر به عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إيماناً سالماً من التحريف والتعطيل ومن التكييف والتمثيل ويجعلون الكلام في ذات الباري وصفاته باباً واحداً فان الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات • فاثباتنا للصفات إثبات بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف •

قال الشيخ تقي الدين في الفتوى الحموية :

١٧ــ المنحرفون عن طريقة السلف ثلاث طوائف : أهـــل التخييل ، وأهل

التأويل ، وأهل التجهيل .

فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه فإنهم يقولون : إن ما ذكر الرسول من أمر الايمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور لا أنه بين به الحق ولا هدى به الخلق ولا أوضح به الحقائق . ثم هم على قسمين منهم من يقول إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه ويقولون إن من المتفلسفة الإلهية من علمها وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم أولياء من علمها ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين . وهذه مقالة غلاة الملحدين من الفلاسفة والباطنية باطنية الشيعة وباطنية الصوفية .

ومنهم من يقول : بل الرسول علمها لكن لم يبينها وإنما تكلم بما يناقضها وأراد من الخلق فهم ما يناقضها لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق ويقول هؤلاء يجب على الرسول أن يدعو الناس الى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل والى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل قالوا لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذه الطريقة التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر . وأما الأعمال فمنهم من يقرها ومنهم من يجريها هذا المجرى ويقول انما يؤمر بها بعض الناس دون بعض ويؤمر بها العامة دون الخاصة فهذه طريقة الباطنية باطنية الملاحدة الإسماعيلية ونحوهم .

وأما أهل التأويل فيقولون أن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه ويعرفوا الحق من غير جهته وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ومن دخل معهم في شيء من ذلك والذي قصدنا الرد عليهم في هذه الفتيا هم هؤلاء ، اذ كان نفور الناس

عن الأولين مشهورا بخلاف هؤلاء فانهم تظاهروا بنصر السنة في مواضع كثيرة وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا •

وأما أهل التجهيل فهم كثير من المنتسبين الى السنة وأتباع السلف يقولون إن الرسول لم يعرف معاني ما أنزل الله اليه من آيات الصفات ولاجبريل يعرف معاني الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك وكذا قولهم في أحاديث الصفات ان معناها لا يعلمه الا الله مع أن الرسول تكلم بها ابتداء فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) وهو وقف صحيح لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره وبين التأويل الذي انفرد الله بعلمه وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين وغلطوا في ذلك ، فان لفظ التأويل يراد به ثلاث معاني ، فالتأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهرة تأويلا على اصطلاح هؤلاء وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك وأن للنصوص تأويلا يخالف لمدلولها لا يعلمه الا الله ولا يعلمه المتأولون ثم كثير من هؤلاء يقولون تجري على ظاهرها فظاهرها مراد مع قولهم ان لها تأويلا بهذا المعنى لا يعلمه الا الله وهذا تناقض وقع فيه كثير من هؤلاء المنتسبين الى السنة من أصحاب الأئمة الاربعة وغيرهم •

والمعنى الثاني : أن التأويل هو تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه وهذا هو معنى التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم وهو موافق لوقف من وقف من السلف على قوله (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم) والمعنى الثالث أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها وإن وافقت ظاهره اهـ •

وقال رحمه الله : والرسول بلغ البلاغ المبين وبين مراده فكل مافي القرآن والحديث من لفظ يقال فيه انه يحتاج فيه الى التأويل الاصطلاحي الخاص الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره فلا بد أن يكون الرسول قد بين مراده

بذلك اللفظ بخطاب آخر لا يجوز عليـه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل ويسكت عن بيان المراد الحق ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم فان هذا قدح في الرسول الذي بلغ البلاغ المبين الذي هدى الله به العباد وأخرجهم به من الظلمات الى النور وفرق الله به بـين الحق والباطل وبين الهـدى والضلال وبين الرشاد والغي وبين أولياء الله وأعدائه وبين ما يستحقه الرب من الأسماء والصفات وما ينزه عنه من ذلك حتى أوضح الله به السبيل وأنـار به الدليل وهدى به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اهـ •

تنبيـه : استنتج نفاة الصفات المؤولون لها بدعتهم من أنه لو كان لـه صفة مثل السمع والبصر واليد والوجه ونحو ذلك لكان له مثيل من عباده ودليلهم قوله تعالى(هل تعلم له سميا)، وقوله(ولم يكن له كفوا أحد)والجواب أن يقال لا يلزم من اثبات الصفات لله أن يكون له مثيل أو سمي لأنه(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)• فلله ذات لا تشبهها الذوات وكذلك صفاته لا تشبهها الصفات فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فهو لا سمي له ولا كفو ولا ند ويوصف عملهم هذا بالألغاز والأحاجي والتدليس الذي هو خلاف اللسان العربي المبين فاثباتنا للصفات اثبات بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف •

(« وقوله: ولا يقاس بخلقه فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ، ولهذا قال : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام عـلى المرسلين والحمد لله رب العالمين) فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ») •

١٨- لا يقاس الله سبحانه وتعالى بخلقه

القياس في اللغة التمثيل ، قال تعالى : (فلا تضربوا لله الأمثال) فلا يقاس سبحانه بخلقه في أفعاله ولا في صفاته كما لا يقاس بهم في ذاته خلافاً للمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فإنهم قاسوه سبحانه بخلقه فشبهوه بهم فوضعوا له شريعة من قبل أنفسهم فقالوا يجب على الله كذا ويحرم عليه كذا بالقياس على المخلوق فالمعتزلة ومن وافقهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات جحدوا بعض ما وصف به نفسه فسموه توحيداً وشبهوه بخلقه فيما يحسن ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلا فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الكاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها وتوحيدهم إلحاد في أسماء الله الحسنى وتحريف لمعانيها عما هي عليه فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلاً وعدلهم شركاً اهـ . (من كلام ابن القيم) .

الخلاصة : أنه لا يجوز أن يشرك هو سبحانه والمخلوق في قياس تمثيل ولا قياس شمول تستوي أفراده ولكن يستعمل في حقه المثل الأعلى وهو أن كل ما تصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزه عنه قال الله تعالى : (وله المثل الاعلى) .

وقوله : (فإنه أعلم بنفسه الخ . .) هذا تعليل لصحة مذهب السلف في الإيمان بجميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة ووجه ذلك أنه إذا كان أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثاً الخ . .

فإذاً يجب الرجوع في باب الأسماء والصفات نفياً وإثباتاً إلى ما قاله الله ورسوله الذي هو أعلم خلقه به وأن لا يترك ذلك إلى قول من يفترون الكذب على الله ويقولون عليه ما لا يعلمون ووجه ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعاني المرادة منه لأحد ثلاثة أمور إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، وإما لكذبه وغشه وتدليسه .

ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور من كل وجه . فكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم في غاية الوضوح والبيان ، كما أنهما المثل الأعلى في الصدق والمطابقة للواقع .

وقوله : (وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه) هذا أخذاً من قوله تعالى : (ومن أصدق من الله قيلا) الخ ، ففيهما إخبار بأن حديثه وإخباره وأقواله في أعلى المراتب من الصدق ، بل أعلاها ، فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين .

وقوله (ثم رسله صادقون مصدقون) والصدق مطابقة الخبر للواقع ، وقوله صادقون : أي فيما جاءوا به عن الله سبحانه مصدقون فيما يأتيهم من الوحي الكريم .

وقوله (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) أي بخلاف القائلين على الله في شرعه ودينه أو في أسمائه وصفاته وأفعاله ما لا يعلمون ، بل بمجرد عقولهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة التى ما أنزل الله بها من سلطان ، فالقول على الله بلا علم من أعظم المحرمات ، وهذا المناسب لذكرها هذه الآية فى هذا الموضع والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . . الخ) ساق المصنف رحمه الله هذه الآية في هذا المقام تعليلا لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أكمل صدقاً وأتم بياناً ونصحاً ، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

مفردات آية العز :

سبحان : اسم مصدر من التسبيح الذي هو التنزه والإبعاد عن السوء ، العزة : القوة والغلبة والامتناع . الرب : السيد المربي لجميع الخلق بأصناف النعم . السلام : بمعنى التحية والسلامة من النقائض والرذائل . المرسلين :

جمع رسول ، وهو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وعرفه بعضهم فقال : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه . الحمد : لغة المدح على فعلٍ حسن صدر عن فاعله باختياره سواء أسداه إلى الحامد أو إلى غيره .

المعنى الإجمالي للآية الكريمة :

في هذه الآية الكريمة أدب رباني وختام إلهي لتلك السورة التي نفت عن الله الصاحبة والزوجة والشريك والولد والقرين ، حتى يتأدب المسلمون بهذا ولا يخلو به في ختام جلائل أعمالهم فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل مما لا يليق بجلاله وعظمته ، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وفيه إشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله عز وجل وإبعاده عن كل شائبة عيب ونقص فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم عن كل عيب كذلك فلا يكذبون على الله ، ولا يشركون ، ولا يغشون أممهم ، ولا يقولون على الله إلا الحق ، عليهم الصلاة والسلام .

قال الشيخ : أهل السنة متفقون على أن الأنبياء معصومون في تبليغ الرسالة ، ولا يجوز أن يستقر في شيء من الشريعة خطأ باتفاق المسلمين وما أخبروا به وجب تصديقهم فيه بإجماع المسلمين ، وما أمروا به ونهوا عنه فهم مطاعون فيه عند جميع فرق الأمة والجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر ، ومن يجوز الكبائر يقولون إنهم لا يقرون عليها بل يحصل لهم بالتوبة منها من المنزلة أعظم مما كان قبل ذلك ، اهـ .

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) » .

وعن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال دبر كل صلاة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام

على المرسلين والحمد لله رب العالمـين) ثلاث مرات فقـد اكتال بالجريب الأوفى من الأجـر » ٠

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ تنزيه الله وتقديسه وتبرأته عما يقول الظالمون ٠
٢ ـ صحة ما جاء به المرسلون وأنه الحق لا مرية فيه ٠
٣ ـ إثبات صفة الربوبية ٠
٤ ـ إثبات صفة العزة ٠
٥ ـ إثبات صفة الكلام لله ٠
٦ ـ الرد على منكري الصفات ٠
٧ ـ إرشاد العباد إلى حمده على إرساله رسله إليهم مبشرين ومنذرين٠
٨ ـ تعليم العباد كيف يصنعون عند إنعامه عليهم ، وما يثنون به عليه ٠
٩ ـ في الآية دليل على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا جبريل ولا غيرهما ٠
١٠ـ رد على اليهود القائلين عزير ابن الله ٠
١١ـ رد على النصارى القائلين عيسى ابن الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ٠
١٢ـ فيها رد على المشركين القائلين إن الملائكة بنات الله ٠
١٣ـ فيها رد على من نسب إلى الله الصاحبة والولد ، تعالى الله عمـا يقول الظالمون علواً كبيراً ٠
١٤ـ إثبات صفة الحمد لله جل وعلا ٠
١٥ـ إثبات صفة الخلق لله ٠
١٦ـ إثبات الألوهية ٠
١٧ـ الحث على الاقتداء بالرسل ٠
١٨ـ دليل على أن الله هو الغني الحميد المربي لجميع الخلق تربية عامة ، ولأوليائه تربية خاصة ، تربية القلوب بالعقائد النافعة والأعمال الصالحـة ٠

١٩- دليل على صدق الرسل .
٢٠- وجوب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم .
٢١- دليل أن الرسل لا يغشون .
٢٢- دليل على أن الرسل ناصحون .
٢٣- وجوب احترام الرسل .
٢٤- وجوب اعتقاد أنهم أكمل الخلق علماً وعملا ، وأبرهم وأكملهم أخلاقــاً .
٢٥- وجوب محبتهم وتعظيمهم والاهتداء بهديهم .

ضابط نافـــع

١٩ - في كيفية الايمان بالله وأسمائه وصفاته

(وقوله : وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) .

فيما ذكر المصنف ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله سبحانه وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وأنه مبني على أصلين : أحدهما النفي وثانيهما الإثبات .

أما النفي فإنه ينفي عن الله ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص وينفي عنه أن يكون له شريك أو نديد أو شبيه في شيء من صفاته أو في حق من حقوقه الخاصة فكل ما ينافي صفات الكمال فإن الله منزه عنه .

أما الإثبات فإنه يجمع الأمرين : إثبات المجملات كالحمد المطلق والكمال المطلق والمجد المطلق ونحوها ، وإثبات المفصلات كتفصيل علم الله وقدرته وحكمته ورحمته ونحو ذلك من صفاته .

والنفي المحض ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتاً فكل ما نفى

الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد من خلقه في شيء فإنها تـدل على أضدادها من أنواع الكمال فنفي الشريك والند والنظير لإثبات كمال عظمته ، ونفي الصاحبة والولد والظهير يتضمن كمال ربوبيته وقهره، ونفي العجز لكمال قدرته ، ونفي الجهل والنسيان وعزوب شيء عن علمه يتضمن كمال علمـه وإحاطته ، ونفى الظلم لإثبات عدله ونفى النوم والسنة لإثبات كمال حياتـه وقيوميته ، ونفى العبث وترك الخلق سدى لكمال حكمته التامة ، ونفي المثل لكمال ذاتـه .

قال الشيخ : والله سبحانه بعث الرسل بما يقتضي الكمال من إثبات أسمائه وصفاتـه على وجه التفصيل والنفي على طريق الإجمال للنقص والتمثيل ، فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها منزه عن النقص بكل وجه ممتنع أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال فأما صفات النقص فهو منزه عنها مطلقاً ، وأما صفات الكمال فلا يماثله بل ولا يقاربه فيها شيء من الأشياء والتنزيه بجميعه نوعان : نفي النقص ، ونفي مماثلة غيره له في صفات الكمال كما يدل على ذلك النصوص والعقل .

وقال : وأما المخالفون للرسل من المشركين والصابئة ومن اتبعهم مـن الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم فطريقتهم نفي مفصل وإثبات مجمل ، ينفون صفات الكمال ، ويثبتون ما لا يوجد إلا في الخيال ، فيقولون : ليس بكذا إلى آخر ما يقولون اهـ .

وقوله (فلا عدول لأهل السنة الخ) هذا مرتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل هو الحق الذي يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، فأهل السنة يقتفون لآثار المرسلين ويستضيئون بأنوارهم مؤمنون بجميعهم مصدقون لهم في كل ما أخبروا بـه من الغيب إذ هو الحق والصدق الذي يجب اعتقاده واتباعه ولا تجوز مخالفته ، وأعظم ما جاء به المرسلون هو الدعوة إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده لا شريك له ،

ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله وأنه لا شبيه له ولا نظير فهذا دينهم من أولهم إلى آخرهم .

تنبيه :

الرسل والكتب والفطر السليمة والوجود كله الجميع شاهد بإثبات الصفات لله جل وعلا . قال ابن القيم رحمه الله :

وإذا تأملت الوجود رأيته ... إن لم تكن من زمرة العميان
بشهادة الإثبات حقاً قائماً ... لله لا بشهادة النكران
وكذاك رسل الله شاهدة به ... أيضاً فسل عنهم عليم زمان
وكذاك كتب الله شاهدة به ... أيضاً فهذا محكم القرآن
وكذا العقول المستنيرات التي ... فيها مصابيح الهدى الرباني

ودين الأنبياء كلهم الإسلام .

وقال الله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) أي الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه ، فالإسلام دين أهل السموات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض لا يقبل الله من أحد سواه . قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .
وقوله : (فإنه الصراط المستقيم) أي أن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الأبدية .

قال ابن القيم : والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم أنه الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنة رسله ، وجعله موصلا لعباده إليه ، ولا طريق لهم سواه ، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة ، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك ، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون

إرادة إلا متعلقة بمرضاته ، وهذا هو الهدى وهو معرفة الحق والعمل به وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به فقل ماشئت من العبارات التي هذا أحسنها .

وقال : والطريق إلى الله واحد لا تعدد فيه ، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلا لمن سلكه إلى الله فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه إلى ربه طريق العلم والتعليم قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله فلا يزال عاكفاً على طريق العلم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص ، أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه ، ومنهم من يكون سيد عمله الذكر ، ومنهم من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدى ، ومنهم من يكون طريقه الصوم ، ومنهم من يكون كثرة تلاوة القرآن ، ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنهم من يكون طريقه الحج والاعتمار ، ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة ، ومنهم الجامع الفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل طريق ، فهو جعل وظائف عبودية قبلة قلبه ونصب عينيه وقد شارك أهل كل عمل وذلك فضل الله ، انتهى .

وقال الشيخ : والقاطع لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي ، فالطريق الشرعي هو النظر بما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها ، فلا بد من علم بما جاء به وعمل ، لا يكفي أحدهما وهذا الطريق المتضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه ، وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته ، وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعى والرأى البدعى فإن هذا فيه باطل كثير ، وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به رسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة ، والثاني طريق أهل الرياضة والتصرف والعبادات البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة ا هـ .

والصراط يضاف إلى الله ، إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله (وأن هذا صراطي مستقيماً) ، وقوله (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله) ، وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه وهو المنسوب لهم وهم المارون عليه ، وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائـم ، وأمـا مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر فكل الخلق في نعمه ، وذكر الصراط المستقيم مفرداً معرفاً تعريفين : تعريفاً باللام تارة ، وتعريفاً بالإضافة ، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه وأنـه صراط واحد ، وأما طرق أهل الضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها ، والصراط المذكور في الكتاب والسنة ينقسم إلى قسمين : معنوي وحسي ، فالمعنوي ما تقدمت الإشارة إليه والحسي هو الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، فبحسب الاستقامة على ذلك الصراط المعنوي الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار الدنيوية تكون الاستقامة على ذلك الصراط الحسي حذو القذة بالقذة جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد .

والأنبياء : جمع نبي وهو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وأمـا الصديقون فهم الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم ، فالصديق المبالغ في الصدق ، وأما الشهيد فهو المقتول في سبيل الله ، قيل : سمي بذلك لأن ملائكة الرحمة تشهده أي تحضره ، وأما الصالحون فجمع صالح وهو القائـم بحقوق الله وحقوق خلقـه .

وقال الشيخ : لفـظ الصالح والشهيد يذكـر مفرداً فيتناول النبيين والصديقين والشهداء ويذكر معه غيره فيفسر بحسبه ، اهـ .

٢ـ سورة الإخـــلاص

(وقوله : وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول : (قل هو الله أحد * ألله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) .

هذا شروع في إيراد النصوص من الكتاب والسنة وتفاصيلها الداخلة في الإيمان بالله وأنه يجب الإيمان بها وإثباتها ، ونفى التعطيل والتحريف والتكييف والتمثيل عنها ، فثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن ، وذلك أن القرآن اشتمل على علوم كثيرة وهي ترجع إلى ثلاثة علوم :

أولا : علوم الأحكام والشرائع الداخلة فيها علوم الفقه كلها عبادات ومعاملات وتوابعهـــا .

ثانياً : علوم الجزاء على الأعمال ، والأسباب التي يجازى بها العاملون على ما يستحقون من خير وشر ، وبيان تفاصيل الثواب والعقاب .

ثالثاً : علوم التوحيد ، وما يجب على عباده من معرفته والإيمان به ، وهو أشرف العلوم الثلاثة .

وسورة الإخلاص كفيلة باشتمالها على أصول هذا العلم وقواعده ، فإن قوله (قل هو الله أحـــد) أي الله متفرد بالعظمة والكمال ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء ، يحقق ذلك قوله تعالى : (الله الصمد) أي الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله فهو العظيم الكامل في عظمته ، العليم الكامل في علمه ، الحكيم الكامل في حكمه ، فهو الكامل في نعوته وأسمائه وصفاته ، ومن معاني الصمد أنه الذي تصمد إليه الخلائق كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها .

قال ابن القيم :

وهو الإله السيد الصمد الذي صمدت إليه الخلق بالإذعان
الكامل الأوصاف من كل الوجو ه كماله ما فيه من نقصان

فهو المقصود وهو الكامل المعبود فإثبات الوحدانية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن إثبات تفاصيل جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى فهذا أحد نوعي التوحيد وهو الإثبات وهو أعظم النوعين ، والنوع الثاني التنزيه لله عن الولادة والند والكفو والمثل وهذا داخل في قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) أي ليس له مكافيء ولا مماثل ولا نظير .

قال الشيخ تقي الدين : وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه ، ولما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولد كان تنزيهه عنه أكثر ، وكلاهما يقتضي إثبات مثل وندمن بعض الوجوه فإن الولد من جنس الوالد ونظير له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه ، فالذي جعل شريكاً لو فرض مكافئاً لزم افتقار كل منهما وهو ممتنع ، وإن كان غير مكافيء فهو مقهور والولد يتخذه لحاجته إلى معاونته له كما يتخذ المال ، فإن الولد إذا اشتد أعان والده فإن كون المخلوق مملوكاً لخالقه وهو مفتقر إليه من كل وجه والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد ، لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته أو ليخلفه بعد موته ، والرب غني عن كل ما سواه . وكل ما سواه فقير إليه وهو الحي الذي لا يموت والوالد في نفسه مفتقر إلى ولد مخلوق لا حيلة له فيه ، والولادة بغير اختيار الوالد ، والرب تعالى يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره ، واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له فهو أنقص في الولادة ، اهـ .

وسميت هذه السورة بسورة الإخلاص لأنها أخلصت في وصف الرحمن، ولأنها تخلص قارئها من الشرك الاعتقادي العلمي ، وتدل على أنواع التوحيد الثلاثة فدلالتها على توحيد الأسماء والصفات بالمطابقة وعلى توحيد الربوبية

بالتضمن وعلى توحيد الألوهية والعبادة بالالتزام لأن دلالة الدليل على كل معناه تسمى مطابقة ، وعلى بعضه تضمن ، وعلى ما يستلزمه من الخارج يسمى التزاماً ، وسيقت هذه السورة لما تضمنته من النفي والإثبات لأن فيها شاهد للضابط الذي ذكره المصنف من أنه سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

ففي الآية :

١ ـ أولا : إثبات وحدانية الله ٢ ـ كمال غنى الله سبحانه وفقر الخلائق إليه ٣ ـ الرد على من قال ان القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم ٤ ـ الرد على اليهود القائلين عزير بن الله ٥ ـ اثبات صفة الكلام ٦ ـ الرد على النصارى القائلين إن عيسى بن الله ٧ ـ الحث على التوكل على الله اذ هو الواحد المقصود في الحوائج ٨ ـ الرد على المشركين القائلين الملائكة بنات الله ٩ ـ الحث على عبادة الله وحده لا شريك له ١٠ ـ تنزيه الله عن مشابهة خلقه ١١ ـ تلقي العقيدة من الكتاب والسنة ١٢ ـ اثبات أولية الله ١٣ ـ نفي الزوجة عن الله ١٤ ـ الرد على من قال بالطبيعة وانها التي توجد الأشياء ١٥ ـ الرد على من قال لله كفو أو ند أو مثيل ١٦ ـ إثبات الألوهية ١٧ ـ شرف علم التوحيد ١٨ ـ إثبات الصمدية لله المقصود في الحوائج ١٩ ـ ان هذه السورة تضمنت أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الاسلام الكبيرة ٢٠ ـ ان من اعتقد وحدانية الله وصمديته وأنه الفعال لما يريد خلص قلبه من كل غاشية ومن كل شائبة ومن كل تعلق بغير الله .

٢١ ـ ان هذه السورة تضمنت نفي الشريك بجميع أنواعه ، فقد نفى عن نفسه أنواع الكثرة بقوله (الله أحد) ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله (الله الصمد) ونفى عن نفسه المشابهة والمجانسة بقوله (لم يلد) ونفى عن نفسه الحدوث بقوله (ولم يولد) ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله (ولم يكن له كفوا أحد) .

وقال الشيخ : والله منزه أن يوصف بشيء من الصفات المختصة بالمخلوقين وكل ما اختص بالمخلوق فهو صفة نقص والله تعالى منزه عن كل نقص ومستحق

لغايات الكمال ، وليس له مثل في شيء من صفات الكمال ، فهو منزه عن النقص مطلقاً ، ومنزه في الكمال أن يكون له مثل ، وقد دل على ذلك سورة (قل هو الله أحد) فبين أنه صمد ، واسمه الأحد يتضمن نفي المثل واسمه الصمد يتضمن جميع صفات الكمال .

وقال : التشبيه الممتنع تشبيه الخالق بالمخلوق أو تشبيه المخلوق بالخالق فيمتنع اتصاف الرب بشيء من خصائص المخلوقين ، كما أن المخلوق لا يتصف بشيء من خصائص الخالق ، ويمتنع أن يثبت للعبد شيء يماثل فيه الرب ، وأما إذا قيل : حي وحي ، وعالم وعالم ، وقادر وقادر ، وقيل : لهذا قدرة ولهذا قدرة ، ولهذا علم ولهذا علم ، كان نفس علم الرب لم يشركه فيه العبد ونفس علم العبد لا يتصف به الرب ، تعالى عن ذلك .

وكذلك سائر الصفات وليس في إثبات هذا محذور فان المحذور إثبات شيء من خصائص أحدهما للآخر اهـ .

٢١ ـ آية الكرسي

(« وقوله : وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافي السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم) ولهذا من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح ») .

أخبر صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله وذلك لاشتمالها على أجل المعارف وأوسع الصفات ، فأخبر أنه المتوحد في الألوهية المستحق لاخلاص العبودية ، وأنه الحي الكامل كامل الحياة ، وذلك يقتضي كمال عزته وقدرته وسعة علمه وشمول حكمته وعموم رحمته وغير ذلك من

صفات الكمال الذاتية ، وأنه القيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع مخلوقاته وقام بالموجودات كلها فخلقها وأحكمها ورزقها ودبرها وأمدها بكل ما تحتاج إليه وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية ولهذا ورد : إن الحي القيوم هو الاسم الأعظم اذا دعي الله به أجاب واذا سئل به أعطى ، بدلالة الحي عـلى الصفات الذاتية والقيوم على الصفات الفعلية والصفات كلها ترجع اليهمـا .

قال ابن القيم :

هـذا ومن أوصافه القيوم وال	قيـوم في أوصـافه أمـران
احـداهما القيوم قام بنفسه	والكون قام به هما الأمران
فالأول استغناؤه عن غـيره	والفقر من كل إليـه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شأن عظيـ	ـم هكذا موصوف أيضا عظيم الشان
والحي يتلوه فأوصاف الكما	ل هما لأفق سمائها قطبان
فالحي والقيوم لن تتخلف الـ	أوصاف أصـلا عنهما ببيان

ومن كمال قيوميته أنه (لا تأخذه سنة ولا نوم) والسنة النعاس ، وهو الذي يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين ويكون في الرأس فإذا وصل الى القلب صار نوما ، والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب تمنعه معرفة الأشياء فلا يحس ولا يشعر بها .

ثم ذكر عموم ملكه للعالم العلوي والسفلي ، ومن تمام ملكه أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ففيها ذكر الشفاعة التي يجب إثباتها وهي التي تقع بإذنه لمن ارتضى ، والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون وهي ما كانت تطلب من غير الله أو بغير إذنه ، فمن كمال عظمته سبحانه أن لا يشفع عنده أحد الا بإذنه ، ولا يأذن الا لمن ارتضى قوله وعمله وبين أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لا تخفى عليه خافية من الأمور ولا بينة وأما الخلق فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء منها ، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جدا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته كما قال أعلم الخلق ، وهم الرسل والملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) وكما قال الخضر : يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر .

ثم أخبر سبحانه عن عظمته وجلاله وأن كرسيه الذي هو موضع القدمين لله وسع السموات والأرض وما فيها ، وأنه حفظهما وأسكنهما عن الزوال والتزلزل وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام والمنافع المتعددة التي لا تحصى ، والصحيح أن الكرسي غير العرش ، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ومع ذلك فلا يؤوده ، أي لا يثقله ولا يكرثه حفظهما ، أي حفظ العالم العلوي والسفلي وذلك لكمال قدرته وقوته .

(وهو العلي العظيم) ختم سبحانه هذه الآية بهذين الاسمين الجليلين فهو سبحانه الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه علو الذات بكونه فوق جميع الخلق على العرش استوى ، وعلو القدر إذ أن له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها ، العظيم الذي له جميع أوصاف العظمة والكبرياء وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه فلا أعظم منه ولا أكبر .

قال الشيخ : يجب أن يعلم ان العالم العلوي والسفلي بالنسبة الى الخالق تعالى في غاية الصغر كما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة ولا نسبة لها الى عظمة الباري بوجه من الوجوه وهي في قبضته أصغر من الخردلة في كف الإنسان والخليقة مفطورة على أنها تقصد ربها في جهة العلو لا تلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة وجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين من المتفلسفة وغيرهم فانهم غيروا الفطرة في العلم والإرادة جميعا ، اهـ .

فحقيق بآية احتوت على هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن ، وأن يكون لها من المنع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ماليس لغيرها •

ما يؤخذ من آية الكرسي :

١ ــ إثبات الألوهية • ٢ ــ انفراده بالألوهية •
٣ ــ اثبات صفة الحياة • ٤ ــ إثبات القيومية لله •
٥ ــ تنزيه الله عن السنة • ٦ ــ تنزيه الله عن النوم •
٧ ــ تنزيه الله عن العجز لما في ذلك من المنافات لكمال حياته وقيوميته وقدرته •
٨ ــ إثبات سعة ملكه وأنه تعالى له مافي السموات والأرض ملكاً وخلقاً ليس له في ذلك شريك ولا منازع وأن الجميع عبيده وتحت قهره وسلطانه •
٩ ــ إثبات سعة علمه وأنه محيط بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها وأنه لا يغفل ولا ينسى ولا يلهيه شأن عن شأن •
١٠ ــ اختصاصه بالتعليم وأن الخلق لا يعلمون الا ما أعلمهم جل وعلا •
١١ ــ إثبات الشفاعة باذنه •
١٢ ــ أن عظمة الكرسي من جملة الأدلة الدالة على عظمة الله •
١٣ ــ إثبات صفة الكلام لله ١٤ ــ اثبات صفة العلم
١٥ ــ إثبات عظمة الله واقتداره وأنه لا يعجزه شيء •
١٦ ــ اثبات علو الله على خلقه
١٧ ــ الترقي في نفي النقص من الأضعف الى نفي الأقوى لان من لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوى ١٨ ــ إثبات المشيئة لله
١٩ ــ الرد على المشركين القائلين بأن أصنامهم تشفع
٢٠ ــ الرد على القدرية القائلين إن الله لا يعلم الأشياء الا بعد وقوعها
٢١ ــ الرد على من زعم أن الكرسي علمه أو أنه قدرته أو ملكه

أو نحو ذلك

٢٢ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال

٢٣ ـ الحث على مراقبة الله ٢٤ ـ عظم شأن آية الكرسي حيث أن من قرأها لا يقربه شيطان ٢٥ ـ الحث على حفظ هذه الآية

٢٦ ـ أن الله إذا شاء كشف للعباد بقدر عن شيء من علمه قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

٢٧ ـ أن الكرسي الذي هو موضع القدمين أوسع من السموات والأرض

٢٨ ـ إثبات قوة الله ٢٩ ـ الحث على الاتجاه الى الله بالعبودية والعبادة فلا يكون عبداً إلا لله ولا يتجه بالعبادة الا لله ولا يلتزم بطاعة الا طاعة الله وما يأمر به من الطاعات .

٣٠ ـ ان العباد لا يملكون الأعيان ملكا مطلقا وانما يملكون التصرف فيها على مقتضى الشرع . ٣١ ـ نفي الشفاعة بغير اذن الله .

٣٢ ـ ان شعور الانسان أن مافي السموات وما في الأرض وكل شيء ملك لله سبب لقمع حدة الشره والطمع والحرص والتكالب على الدنيا .

٣٣ ـ ان العباد لم يؤتوا من العلم الا قليلا .

٣٤ ـ أن استحضار ذلك وان مافي يده عارية الى أمد محدود يكسب في النفس القناعة والرضا بالرزق والسماحة والجود بالموجود .

٣٥ ـ ان النوم والسنة صفة نقص ولهذا نزه سبحانه وتعالى نفسه عنهما

٣٦ ـ تنزيه الله عن الولد والزوجة . ٣٧ ـ الرد على من نسب الى الله الولد والزوجة ٣٨ ـ الرد على من قال ان ما هناك سماء وانما هو فضاء ٣٩ ـ ان في السموات خلق لا يعلمهم الا الله جل وعلا .

٤٠ ـ ان العباد لا يجرؤن على الشفاعة أو التكلم الا باذنه وذلك لعظمته وجلاله والسبب في سياق الآية لما تضمنته من النفي والاثبات لأن فيها شاهد للضابط الذي ذكره المصنف من أنه سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات ولما احتوت عليه من المعاني الجليلة والأسماء الحسنى

والصفات العلى ، وروي في فضل آية الكرسي أحاديث منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فإني محتاج ولي عيال وبي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة قال قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فعل ذلك ثلاث ليال كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : أما إنه قد كذبك وسيعود ، فلما كان في الثالثة قلت لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ، فقال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها فقلت وما هي قال إذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى ختم الآية ، فانه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت : لا ، قال : ذلك شيطان » .

٢٢ ـ احاطة علم الله بالمخلوقات

(« وقوله : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)
وقوله : (وتوكل على الحي الذي لا يموت) وقوله : (وهو الحكيم الخبير)»)

قد فسر صلى الله عليه وسلم هذه الأسماء الأربعة بقوله « أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء » فمدار هذه الأسماء الأربعة على الاحاطة وهي تنقسم الى قسمين زمانية ومكانية فأحاطت أوليته بالقبل وأحاطت آخريته بالبعد وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فما من ظاهر إلا والله فوقه وما من باطن إلا والله دونه فالأول قدمه والآخر بقاؤه ودوامه والظاهر علوه

وعظمته والباطن قربه ودنوه وفي قوله (وهو بكل شيء عليم) من الأمـــور الماضية والحاضرة والمستقبلة ومن العـــالم العلوي والسفلي ومـــن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ٠

ما يؤخذ من الآية :

١ ـــ إثبات أوليته وسبقه لكل شيء ٠
٢ ـــ إثبات دوامه وبقائه وأنه لا شيء بعده ٠
٣ ـــ إثبات علو الله على خلقه ٠
٤ ـــ إفادة قربه ودنوه وإحاطته سبحانه ٠
٥ ـــ سعة علمه وأنه أحاط بكل شيء علما ٠
٦ ـــ رد عـــلى المعتزلة ٠
٧ ـــ رد على من قال إنه يعلم الكليات دون الجزئيات ٠
٨ ـــ رد على من ينكر صفة العلم ٠ ٩ ـــ إثبات صفة الكلام لله ٠
١٠ ـــ رد على من ينكر صفة العلو ٠
١١ ـــ الحث على مراقبة الله في السر والعلانية ٠
١٢ ـــ الرد على الجهمية ونحوهم ٠

وقوله : (وتوكل على الحي الذي لايموت) التوكل اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله وفعل الأسباب ، أي وتوكل على الرب الدائم الباقي رب كل شيء ومليكه واجعله ملجأ وذخرا لك وفوض أمرك إليـــه واستسلم له واصبر على ما نابك فيه فانـــه كافيك وناصـــرك ومبلغك ما تريد ٠

قال ابن القيم : أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي الأسباب فلا يصح التوكل الا مع القيام بها والا فهو بطال وتوكل" فاسد ٠ وقال سهل بن عبدالله من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان

فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته . والتوكل ينقسم إلى قسمين الأول التوكل على الله فهو من أشرف أعمال القلوب وأجلها والثاني التوكل على غيره سبحانه وينقسم الى ثلاثة أقسام الاول : التوكل على غير الله في الامور التي لا يقدر عليها الا الله كالتوكل على الأموات والطواغيت في جلب رزق أو دفع ضر أو نصر أو نحو ذلك فهذا شرك أكبر ● الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك فهذا النوع شرك أصغر ● الثالث : توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه فهذه الوكالة الجائزة لكن ليس له أن يعتمد عليه بل يتوكل على الله في تيسير أمره ، وذلك من جملة الأسباب الجائزة ●

وقال الشيخ : إعراض القلب عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه واما على أهله وأصدقائه وإما على أمواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كمماليكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت ●

قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لايموت) وقال : القلب لا يصلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولايطمئن الا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ولو حصل كل مايلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن اذ فيه فقر ذاتي الى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل الا بإعانة الله له ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائما مفتقر الى حقيقة (إياك نعبد وإياك نستعين) فهو مفتقر اليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه فهو إلهه لا اله له غيره وهو ربه ولا رب له سواه ولا تتم عبوديته الا بهذين ، اهـ ●

ما يؤخذ من الآية الكريمة :

١ ــ إثبات صفة الحياة وهي من الصفات الذاتية فحياته سبحانه أكمل حياة وأتمها ويستلزم ثبوتها ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة وخصص صفة الحياة إشارة الى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح ولا حيــاة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم فانهم اذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم .

٢ ــ الأمر بالتوكل على الله .

٣ ــ الرد على من أنكر صفة الحياة أو أولها بتأويل باطل .

٤ ــ إثبات البقاء لله فهو الآخر ليس بعده شيء .

٥ ــ إثبات صفة الكلام وأن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا جبريل ولا غيرهما .

وقوله : (وهو الحكيم الخبير) الحكيم مأخوذ من الحكمة وله معنيان أحدهما بمعنى القاضي العدل الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري وله الحكم في الدنيا والآخرة والمعنى الثاني أنه المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد .

قال ابن القيم : الحكمة حكمتان علمية وعملية ، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرا وقدراً أو شرعاً والعملية وضع الشيء في موضعه اهـ .

وحكمته سبحانه صفة قائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره ونحو ذلك وهي تنقسم الى قسمين : إحداهما حكمة في خلقه وهي نوعان : الاول إحكام هذا الخلق وايجاده في غاية الإحكام ، والاتقان الثاني صدوره لأجل غاية محمودة مطلوبة له سبحانه التي أمر لأجلها وخلق لأجلها . الثانية الحكمة في شرعه وتنقسم الى قسمين الأول كونها في غاية الاحسان والإتقان الثاني كونها صدرت لغاية مطلوبة وحكمة عظيمة يستحق عليها الحمد .

وأما الخبير فهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالاشياء

على وجه الدقة فالعلم عندما يضاف الى الخفايا الباطنية يسمى خبرة ويسمى صاحبها خبيرا والله سبحانه لا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة فما فوقها وما دونها ولا يسكن ولا يضطرب نفس ولا يطمئن الا وعنده من ذلك خبرة .ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الحكمة • ٢ ـ اثبات صفة الخبرة •
٣ ـ الحث على مقام المراقبة •
٤ ـ الرد على من قال إنه يعلم الكليات دون الجزئيات •
٥ ـ الرد على القدرية نفاة العلم •
٦ ـ الرد على الجهمية • ٧ ـ إثبات صفة الكلام •
٨ ـ إثبات الحيـاة • ٩ ـ إحاطة علم الله بكل شيء •

٢٣ـ صفة العـلم

(« وقوله : (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها الآية) ، وقوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم مافي البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) ، وقوله : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) ، وقوله : (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) ») •

في هذه الآيات دليل على إثبات صفة العلم وهي من الصفات الذاتية وعلمه سبحانه شامل لكل شيء ومحيط به فيعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، قال ابن القيم :

وهو العليم أحاط علماً بالـذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شـيء علمـه سبحانه ... فهو المحيـط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم مايكون غدا وما ... قـد كان والموجود في ذا الآن

في الآية الأولى إثبات علم الله فهو سبحانه يعلم ما يدخل في الأرض من المياه والكنوز والأموات والبذور والوحوش والأوادم في الكهوف وغير ذلك ويعلم ما يخرج منها من نبات ومعادن ومياه وأموات وأبخرة وغير ذلك ويعلم ما ينزل من السماء من ملائكة وأمطار ومصائب وحر وبرد وغير ذلك ومايعرج فيها من حفظة وأعمال ، وقد أنكر غلاة القدرية علم الله القديم وأنه يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وقد اشتد إنكار السلف عليهم وقالوا ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا ، وقال الامام أحمد في رده على الجهمية والزنادقة : فإن قال الجهمي ليس له علم كفر وان قال لله علم محدث كفر حيث زعم أن الله قد كان في وقت من الاوقات لا يعلم حتى أحدث له علما فعلم ، فإن قال لله علم وليس مخلوقا ولا محدثا رجع عن قوله كله وقال بقول أهل السنة .

والدليل العقلي على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ولأن ايجاده الاشياء بارادة ، والارادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد فكان الايجاد مستلزما للعلم ، ولأن المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ولأن من المخلوقات ماهو عالم والعلم صفة كمال ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً ، وهذا له طريقان : أحدهما أن يقال نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وأن الواجب أكمل من الممكن ونعلم أنا لو فرضنا شيئين أحدهما عالم كان العالم أكمل فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع . الثاني أن يقال كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ومن الممتنع أن يكون فاعل الكامل ومبدعه عاريا منه بل هو أحق به والله تعالى له المثل الأعلى ولا يستوي هو والمخلوق في قياس تمثيلي ولافي قياس شمولي بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق أولى به وأحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى .

قال ابن القيم :

وكمال من أعطى الكمال بنفسه أولى وأجدر عند ذي العرفان
أيكون قد أعطى الكمال وماله ذاك الكمال أذاك ذو إمكان
أيكون إنسان سميعا مبصرا متكلما بمشيئة وبيان
وله الحياة وقدرة وإرادة والعلم بالكلي والأعيان
والله قد أعطاه ذاك وليس هذا وصفه فاعجب من البهتان

ما يؤخذ من الآية الكريمة :

١ ــ إثبات صفة العلم • ٢ ــ الرد على القدرية •
٣ ــ الرد على المعتزلة حيث قالوا عليم بلا علم •
٤ ــ إحاطة علمه بكل شيء فلا تخفى عليه خافية •
٥ ــ الرد على الجهمية والقدرية المنكرين لصفة العلم •
٦ ــ الرد على من زعم أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات •
٧ ــ دليل على علو الله على خلقه ٨ ــ اثبات صفة الكلام لله
٩ ــ دليل على عظمته ١٠ ــ دليل على قدرة الله
١١ ــ الحث على مراقبة الله في السر والعلانية
١٢ ــ دليل على المعية العامة •
١٣ ــ إثبات صفة البصر •
١٤ ــ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال •
١٥ ــ إثبات الألوهية لله •
١٦ ــ دليل على سعة علم الله •
١٧ ــ إثبات صفة الحياة لله •

الآية الثانية : هذه الآية من أعظم الآيات تفصيلا لعلم الله المحيط •

والمعنى أن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب أو المفاتيح التي يتوصل بها اليه فهو الذي يحيط بها علما وسواه جاهل لا يعلم منها شيئاً الا ما أعلمه الله فقوله (لا يعلمها الا هو) جملة مؤكدة لمضمون الجملة الاولى •

قال المناوي : فمن ادعى علم شيء منها كفر وخص علم مافي البر والبحر بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ولكونهما أكثر مايشاهده الناس ويتطلعون لعلم مافيهما، والخلاصة : أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة والأحوال الظاهرة والباطنة والرطبة واليابسة .

روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتح الغيب خمس (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) » .

ويؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة العلم . ٢ ـ رد على المعتزلة ٣ اثبات اللوح المحفوظ ٤ ـ دليل على عظمة الله وسعته في أوصافه ٥ ـ أن اللوح المحفوظ محيط بالأشياء كلها ٦ ـ الرد على من أنكر صفة العلم من جهمية ومعتزلة ٧ ـ رد على القدرية الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء الا بعد وقوعها ٨ اثبات صفة الكلام لله والمأخذ من ان الله هو الذي تكلم به وقال وعنده مفاتح الغيب الآية .

٩ ـ ان الله يعلم المنظور والمحجوب والمعلوم والمجهول وجميع مافي الزمان والمكان على السواء فلا يخفى عليه شيء جل وعلا .

١٠ ـ الحث على خوف الله ١١ ـ الرد على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب .

١٢ ـ الرد على القدرية الذين يزعمون أن الله لا يعلم الاشياء قبل وقوعها

١٣ ـ إثبات الألوهية . ١٤ ـ إثبات خبرة الله بالأشياء كلها : بالأشياء كلها .

١٥ ـ دليل على علو الله على خلقه والمأخذ من قوله (وعنده مفاتح الغيب

١٦ ـ التعميم الشامل للموت والحياة والذبول والازدهار .

١٧ ـ ان حركات البذور والنماء المنشقة بن الغور الى السطح ومن كمون الى اندفاع يعلمها الله .

١٨ ـ فيها ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمالين وتجوهم من المدعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم .

١٩ ـ تنبيه المكلفين الى عدم اهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب ٢٠ ذكر البر لأن الانسان قد شاهد أحواله وكثرة ما فيه .

٢١ ـ الحث على المراقبة في السر والعلانية . ٢٢ ـ اثبات قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء . ٢٣ ـ ذكر البحر وكثرة مافيه لان الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر وطولها وعرضها أعظم ومافيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب .

٢٤ ـ دليل على ان الله يعلم الكليات والجزئيات فلا تخفى عليه خافية وان دقت وخفى محلها ، فهو سبحانه يعلم ماكان ، ومايكون ، ومالم يكن لو كان كيف يكون ، كما قال سبحانه (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ، وقال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وأخبر سبحانه عن أشياء لم تكن وستكون كإخباره عن محاجة أهل النار قال تعالى (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) الآيات الثلاث وقال (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً) الآيات السبع ، الى غير ذلك من الآيات .

٢٥ ـ أنه يفهم من الآية أن معلومات ما في البر وما في البحر حقير في جنب مادخل في عموم (وعنده مفاتح الغيب) الآية الثالثة المعنى : لا يكون حمل ولا وضع الا والله عالم به سبحانه يعلم في أي يوم تحمل وفي أي يوم تضع فلم يخرج عن علمه وتدبيره ويعلم هل هو ذكر أو أنثى ، ففي هذه الآية :

١ ـ إثبات صفة العلم .
٢ ـ انفراده سبحانه بعلم مافي الأرحام وعلم مدته فيها .
٣ ـ الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل .

٤ ـ صفة الكلام لله .

الآية الرابعة: اللام متعلقة بخلق أو يتنزل أوبمقدر أي فعل ذلك لتعلموا أنه بالغ القدرة لا يعجزه شيء فهذا عام يتناول أفعال العباد من الطاعات، وكل شيء، ومن كمال قدرته تعالى أنه اذا شاء فعل من غير مبانع ولامعارض فجميع الاشياء منقادة لقدرته تابعة لمشيئته ولا يخرج عن علمه شيء منها كائنا ماكان وانتصاب علما على المصدرية أو صفة لمصدر محذوف، ففي الآية:

١ ـ إثبات صفة العلم . ٢ ـ اثبات قدرة الله .
٣ ـ إثبات الألوهية . ٤ ـ عموم قدرته تعالى .
٥ ـ سعة علمه سبحانه .
٦ ـ إرشاد الخلق الى التفكر والعلم النافع .
٧ ـ الخوف من الله القادر على كل شيء .
٨ ـ الحث على مراقبة الله سرا وعلانية .
٩ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة المنكرين لعلمه المحيط بكل شيء . .
١٠ ـ الرد على القدرية القائلين ان أفعال العباد غير داخلة في قدرة الله .
١١ ـ إثبات صفة الكلام لله لأن الله هو الذي تكلم بالآية .
١٢ ـ وفي أول الآية مايدل على صفة الخلق .
١٣ ـ وفيه مايدل على علو الله على خلقه . ١٤ ـ حلم الله على الكافر والعاصي . ١٥ ـ أن العباد لا يقدرون الله حق قدره والا لما عصوه وهو قادر على اهلاكهم في لحظة .

٢٤ ـ صفة السمع والبصر

(« وقوله: (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) : وقوله: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ، وقوله: (ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا ») .

يخبر تعالى أنه المتفرد بالرزق لارازق سواه ولا معط غيره ، فما من دابة في الارض ولا في السماء الا على الله رزقها ، قال الله تعالى : (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) الآية ، فهو سبحانه له القوة الكاملة والقدرة التامة فلا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء ، ولا يخرج عن سلطانه أحد ، ومن قوته أن أوصل رزقه الى جميع العالم وأن السموات والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، وأنه يمسك السموات والارض أن تزولا ، وأنه يبعث الأموات بعدما تمزقوا ، ومن قوته ايجاد الأجرام العظيمة العلوية والسفلية ، ومن أسمائه المتين ، والمتانة تدل على القوة ، فالله تعالى بالغ القوة والقدرة قوي من حيث أنه شديد القوة والقدرة لا ينسب اليه عجز في حال من الأحوال .

قال الشيخ رحمه الله : ونحن نعلم أن الله خالق كل شيء ، وأنه لا حول ولا قوة الا به ، وأن القوة التي في العرش ، وفي حملة العرش هو خالقها بل نقول إنه خالق أفعال الملائكة الحاملين فاذا كان هو الخالق لهذا كله ولاحول ولا قوة الا به امتنع أن يكون محتاجا الى غيره ، ولا قال أحد انه محتاج الى شيء من مخلوقاته ، فضلا عن أن يكون محتاجا قوة شيء من مخلوقاته ولا يقول أحد إنه محتاج الى العرش مع أنه خالق العرش والمخلوق مفتقر الى الخالق ولا يفتقر الخالق الى المخلوق وبقدرته قام العرش وسائر المخلوقات وهو الغني عن العرش وكل ما سواه فقير اليه اهـ .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ اثبات الألوهية .   ٢ ـ اثبات صفة الرزق .

٣ ـ اثبات القوة .   ٤ ـ اثبات المتانة .

٥ ـ دليل على كثرة رزق الله وسعته والرزق رزقان الرزق المطلق وهو

ما استمر نفعه في الدنيا والآخر والآخرة وهو رزق القلوب الذي هو العلم والايمان والرزق الحلال والثاني مطلق الرزق وهو الرزق العام لسائر الخلق برهم وفاجرهم والبهائم وغيرها وهو إيصال القوة الى كل مخلوق وهـذا يكون من الحلال والحرام والله رازقه •

٦ ـ إثبات قدرة الله • ٧ اثبات عظمة الله •

٨ ـ رد على اليهود لقولهم ان الله فقير ونحن أغنياء تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ٩ ـ إثبات الاسماء لله •

١٠ ـ دليل على غناه سبحانه وفقر الخلائق إليه ١١ ـ في الآيـة مايوجب محبة العبد لربه لان النفوس مجبولة على حب من أحسن اليها والله المحسن على جميع الخلائق ١٢ ـ في الآية ما يبعث القلوب الطيبة الكريمة على شكر الله خالق الخلق ورازقهم جل وعلا • ١٣ ـ في الاية دليل على لطف الله حيث أوصل الرزق الى جميع الخلائق • ١٤ ـ إثبات حكمة الله الذي قسم معيشة الخلق وأعطى كلاما يناسب حاله • ١٥ـ الخوف من الله • ١٦ ـ ان الرزق لا يطلب الا من الله جل وعلا • ١٧ ـ اثبات علم الله واحاطته بالخلائق • ١٨ ـ اثبات المتانة • ١٩ ـ الحث على التوكل • ٢٠ ـ دليل على رحمة الله بخلقه ورأفته • ٢١ ـ دليل على حلم الله حيث يرزق الكافر والعاصي • ٢٢ اثبات وحدانية الله •

٢٣ ـ رد على من أنكر شيئاً من الصفات أو أولها بتأويل باطل •

أما قوله (ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) فقد تقدم الكلام عليها سبق في ص ٥٥

الآية الثالثة : نعم من ألفاظ المدح ، وما قيل نكرة موصوفة كأنه قيل نعم شيئاً يعظكم به ، أو موصولة ، أي نعم الشيء الذي يعظكم به فقوله (يعظكم به) أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل أنه لا يعظكم الا بما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدارين •

(إن الله كان سميعا بصيرا) من صفات الله تعالى الذاتية السمع والبصر

والسميع والبصير اسمان من أسمائه تعالى وهو تعالى له سمع يسمع به وبصر يبصر به حقيقة على ما يليــق بجلاله وعظمته ، ومعنى اســمه السميع أي الذي لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفي فيسمع « دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليــلة الظلماء » فأحاط سمعه بجميع المسموعات سرها وعلنها وقريبها وبعيدها فلا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات وعلى تفنن الحاجات وكأنها لديه صوت واحد .

وسمعه تعالى نوعان : أحدهما : سمعه جميع الاصوات كما تقدم ، والثاني : سمع اجابة منه للسائلين والداعين والعابدين ، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم (ان ربي لسميع الدعاء) .

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو السميع يـرى ويسمع ما   في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منــه سمع حاظر   فالسر والإعــلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا   يخفى عليــه بعيدها والدان

وأما معنى اسمه تعالى (البصير) أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات فهو سبحانه يشاهدها ، ويرى كل شيء وان خفي ، قريبا أو بعيدا فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار فيرى « دبيب النملة السوداء عــلى الصخرة الصماء في الليلة الظلماء » .. أي فعليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه ، فانه السميع لجميع الأصوات ، البصير بجميع المبصرات ، فاذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم وان أديتم الأمانة فهو بصير بذلك ففي الآية :

١ ـــ الأمر بحفظ الامانة .   ٢ ـــ الامر بأدائها .
٣ ـــ وعد عظيم للمطيع .   ٤ ـــ وعيد شديد للعاصي .
٥ ـــ الاهتمام بحكم القضاة والولاة لأنه فوض النظر في مصالح العبادلهم
٦ ـــ الامر بالعدل وهــذا يشمل الحكم بينهم في الــدماء والأموال

والإعراض القليل والكثير عـلى القريب والبعيد ، والبر والفاجر ، والعدو والصـديق •

٧ ــ وجوب العدل على الحكام والولاة حتى تصل الحقوق الى أربابها كاملة غير منقوصة • ٨ ــ مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما • ٩ ــ إثبات السمع ١٠ ــ إثبات الألوهية ١١ ــ اثبات البصر • ١٢ ــ أن أداء الأمانة يشمل أساس الاعتقاد •

١٣ ــ انه يشمل أساس العبادة • ١٤ انه يشمل أساس التعامل بين الناس وأساس العلاقات كلها بين الناس وأول أمانـة ترد الى أهلها أمانـة الايمان • ١٥ ــ اثبات صفة الكلام • ١٦ ــ ان صفة السمع غـير صفة البصر اذ العطف يقتضي المغايرة • ١٧ ــ وجوب أداء الامانة الى البر والفاجر • ١٨ ــ اثبات البعث • ١٩ ــ إثبات الجزاء • ٢٠ ــ إثبات الجزاء على الأعمال . ٢١ ــ إثبات الجنة والنار . ٢٢ ــ فيها رد على المعطلة . ٢٣ ــ التنبيه على مقام الاحسان . ٢٤ ــ الحث على ماهو سبب التآلف . ٢٥ ــ النهي عن الظلم •

٢٦ ــ الرد على المعتزلة القائلين سميع بلا سمع بصير بلا بصر • تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا • ٢٧ ــ دليل على اثبات صفة الكلام لله •

٢٨ ــ لطف الله بخلقه حيث أرشدهم الى مافيه صلاحهم في أمر دينهم

٢٩ ــ الخوف من الله وبالمأخذ من قوله سميعاً بصيرا • ٣٠ ــ الرد على من أنكر صفة الكلام لله أو قال ان كلام الله الكلام النفسي •

٥٠ ـ الارادة والمشيئـــة

(« وقوله : (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله) وقوله : (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد) وقوله : (أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ان الله يحكم ما يريد) وقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء ») •

في هذه الآيات وما ماثلها اثبات لمشيئة الله التامة وارادته الكونية القدرية والدينية الشرعية ، وقد أجمع العلماء من المسلمين وسلف الأمة وأئمتها وأهل السنة قاطبة على إثبات مشيئة الله وارادته •

الآية الاولى : أي وهلا اذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت اليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ، وقلت الأمر ماشاء الله والكائن ما قدره الله ليكون ذلك منك اعترافا بالعجز وبأنها وما فيها بمشيئة الله ان شاء أبقاها وان شاء أفناها وأن ما تيسر له من عمارتها انما هو بمعونة الله لا بقوتك وقدرتك ففي الآية :

١ ـ إثبات مشيئة الله • ٢ ـ ان الامر ماشاء الله والكائن ماقدره الله •
٣ ـ الحث على حمد الله والاعتراف بنعمه •
٤ ـ أنه لا تحول من حال الى حال الا بمعونة الله •
٥ ـ وصفه سبحانه بالألوهية • ٦ ـ النصح والتوبيخ لمن قال مقالة تنافي الشرع •

الآية الثانية : فيها أولا إخبارا عما وقع بين أتباع الرسول ومن بعدهم من التنازع والتعادي وأن ذلك انما كان بمشيئة الله عز وجل ولو شاء الله عدم الاقتتال لم يقتتلوا اذ لا يجري في ملكه الا ماشاء سبحانه ففي هذه الآية :

١ ـ إثبات لمشيئة الله وأنه لا بد من وقوع ما أراد وقوعه •
٢ ـ إثبات الفعل حقيقة •
٣ ـ اثبات صفة الحياة • ٤ ـ اثبات صفة القدرة •
٥ ـ في الآية دليل على أن أفعاله قائمة به ولولا ذاك لم يكن فعالا ولا موصوفا بصفات الكمال والفعل من لوازم الحياة والرب لم يزل فعالا ولايزال موصوفا بصفات الألوهية • ٨ ـ رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات •

[الإرادة المذكورة في الآية كونية قدرية] •

الآية الثالثة : وهي قوله : (أحلت لكم بهيمة الانعام) الارادة المذكورة فيها دينية شرعية ، أي أبيحت لكم بهيمة الانعام أي الإبل والبقر والغنم (إلا مايتلى عليكم) أي الا مايتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال وقوله (غير محلي الصيد وأنتم حرم) قال بعضهم : هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم ، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر الوحشية فاستثني من الأنسي ما تقدم واستثني من الوحشي الصيد حال الإحرام ، وقيل المراد أحللنا الأنعام الا ما استثني منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام لقوله : (فمن اضطر غير باغ) الآية .

وقوله : (ان الله يحكم ما يريد) أي يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه في الحكم فله الحكم سبحانه ، وهو الحكيم لا حاكم غيره فكل حكم سوى حكمه فهو باطل مردود وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله فهو طاغوت كافر بالله .

قال الله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وهذا عام شامل فما من قضية الا ولله فيها حكم ، قال الله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) وقال : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) وقال صلى الله عليه وسلم «تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي الا هالك» وقال فيما صح عنه « ما بعث من نبي الا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » وقال أبو ذر : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء الا ذكر لنا منه علما .

ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنهما بالقوانين الوضعية أنه كافر كفر ناقل عن الملة الاسلامية وكذا من استهزأ بالقرآن أو طلب تناقضه أو دعوى انه مختلف أو مختلق أو مقدور على مثله أو اسقاط لحرمته او استخف به أو جحد شيئا منه أو كذب به أو بشيء منه أو أثبت شيئاً نفاه القرآن أو نفا ما أثبته القرآن فقد كفر قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن

يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله الآية . وقال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا . ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفاً متفقاً عليه أنه كافر وقال علي من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وكذا من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى . أو زعم أن هدى غير محمد أفضل من هديه صلى الله عليه وسلم أو أحسن ، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور الا الخروج عن الشريعة ، وأنها كانت كافية في الزمان الاول فقط ، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن ولا بد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن ، فلا شك أن هذا الاعتقاد اذا صدر من انسان فانه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتنقصهما، ولا شك في كفره وخروجه من الدين الاسلامي بالكلية .

وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الباطن فقط أوفي علم الشريعة دون علم الحقيقة أو أن الانسان حر في التدين وفي أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك ، أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد ، أو استهان بدين الاسلام ، أو تنقصه أو هزل به أو بشيء من شرائعه أو بمن جاء به وكذلك ألحق بعض العلماء الاستهانة بحملته لاجل حمله فهذه الأمور كلها كفر . قال الله تعالى : (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) .

وقال ابن القيم :

والله ما خوفي الذنوب فإنها ... لعلى سبيل العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب من ... تحكيم هذا الوحي والقرآن
ورضاً بآراء الرجال وخرصها ... لا كان ذاك بمنة المنان
فبأي وجه ألتقي ربي إذا ... أعرضت عن ذا الوحي طول زمان
وعزلته عما أريد لأجله ... عزلا حقيقياً بلا كتمان

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة الحكم • ٢ حل بهيمة الأنعام
٣ ـ رحمته سبحانه بخلقه حيث أحل لهم بهيمة الأنعام •
٤ ـ تحريم صيد الوحش من بهيمة الانعام في حال الإحرام
٥ ـ إثبات صفة الارادة • ٦ اثبات الألوهية لله •
٧ ـ الرد على من أنكر شيئاً من ذلك أو أوله بتأويل باطل
٨ ـ إثبات قدرة الله . ٩ ـ لطف الله ورأفته بخلقه
١٠ـ إثبات صفة الكلام •

الآية الرابعة : يقول تعالى فمن كان أهلا بارادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة والهادي الى طريق الرشاد وجد لذلك في نفسه انشراحاً واتساعا بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعا من النظر الصحيح فيما ألقي اليه فيتأمله ، وتظهر له عجائبه ، وتتضح له دلائله فتتوجه اليه إرادته ، ويدعو له قلبه ، بما يرى من ساطع النور الذي يستضيء به لبه ، وباهر البرهان الذي يتملك نفسه •

ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قالوا : كيف يشرح صدره يارسول الله ؟•

قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها قال ؟ الإنابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل نزول الموت •

وقوله : (ومن يرد أن يضله الخ) •• أي من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد في صدره ضيقاً أيما ضيق اذا طلب اليه التأمل فيما يدعي له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الأكثر

من الناس وتضعف ارادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته المداعي الى دين الإسلام والتمسك به ثقيلة ويشعر بالعجز عن احتمالها ، ويكون مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء اذ يشعر بضيق شديد في النفس ، وكلما صعد في الجو أكثر شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع البقاء ، فإن هو قد بقي فيها مات.

وقيل : كأنه من ضيقه وشدته يصعد في السماء ، أي يتكلف الصعود الى السماء الذي لا حيلة فيه ٠

والخلاصة : أن هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر في شدة ضيقه عن وصول الايمان اليه بقبوله فمثله في امتناعه من قبول الايمان وضيقه عن وصوله اليه مثل امتناعه عن الصعود الى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه وطاقته الوصول اليه ٠

قال شيخ الاسلام : جعل الله القلوب ثلاثة أقسام : قاسية ، وذات مرض ومؤمنة مخبتة ، وذلك أنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافا وإذعانا ، أو لا تكون يابسة جامدة ، فالأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الايمان ولا يرتسم فيه العلم لأن ذلك يستدعي محلاً ليناً قابلاً ، والثاني لا يخلو إما أن يكون ثابتا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه أو يكون لينه مع ضعف وانحلال فالثاني هو الذي فيه المرض والأول هو القوي اللين ٠ قال ابن القيم :

والعلم يدخل قلب كل موفق   من غير بواب ولا استئذان
ويرده المحروم مـــن خذلانه   لا تشقنا اللّهم بالخذلان

يؤخذ من هذه الآية :

١ ــ إثبات الارادة   ٢ ــ ان الهداية والإضلال بيد الله
٣ ــ إثبات الألوهية   ٤ ــ ان العبد مفتقر الى الله في كل شيء
٥ ــ إن العباد لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ٠

٦ ــ إن من تفرد بالخلق والرزق فهو المستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال وسائر أنواع العبادة وأنه ليس عند أحد من هداية القلوب وتفريج الكروب شيء لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم .

٧ ــ في الآية رد على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يملك شيئاً من ذلك فضلا عن غيره .

٨ ــ إثبات العلة والحكمة في أفعال الله اذ لا يعقل مريد الا اذا كان المريد قد فعل الحكمة يقصدها بالفعل .

٩ ــ الرد على الجهمية الذين ينفون الحكمة عن الله في خلقه وأمره .

١٠ــ إثبات صفة الإرادة الكونية القدرية المرادفة للمشيئة .

١١ــ إثبات الألوهية لله .

١٢ــ أن من انشرح صدره للإسلام بأن اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان حتى يصفو اليقين فاطمأنت بذلك نفسه فإن هذا علامة على أن لله قد هداه ومن عليه بالتوفيق .

١٣ــ إن علامة من يرد الله أن يضلله يجعل صدره ضيقاً حرجاً .

١٤ــ إثبات قدرة الله ١٥ــ إن قلوب العباد يصرفها الله كيف يشاء

١٦ــ إثبات علـم الله ١٧ــ إثبات صفة الكلام لله .

١٨ــ أن لسعادة العبد علامة ولشقاوته وضلالته علامة .

١٩ــ إن على من شرح صدره للإسلام وارتاح لتعاليمه وقبلته نفسه وأحبه أن يشكر الله ويحمده ويسأل الله الثبات عليه حتى الممات .

تنبيه : الإرادة تنقسم إلى قسمين إرادة كونية قدرية وإرادة دينيةشرعية.

قال الشيخ رحمه الله **: الإرادة في كتاب الله على نوعين أحدهما : الإرادة الكونية وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها ماشاء الله كان وما لم يشأ** لم يكن والثاني الإرادة الدينية الشرعية وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاؤهم الحسنى ولهذا كانت الأقسام أربعة ما اجتمعت فيه الإرادتان وهو ما وقع من الإيمان والطاعات كلها وما انتفت عنه الإرادتان

وهو ما لم يكن من المباحات والمعاصي فإن الله لم يردها ديناً لأنه لا يحبها ولم يردها كوناً لأنه لم يقدرها وما تعلقت به الإرادة الدينية وحدها وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار فإن الله أرادها محبة ولكن لم يقضها ويقدرها ، وما تعلقت به الإرادة الكونية القدرية وحدها وهو ما قدر من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي وهذا واضح اهـ

بين الإرادتين عموم وخصوص ، فالكونية القدرية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق ، والإرادة الدينية الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور ، واقعاً كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية القدرية قد يكون غير مأمور به ، وليس بين الإرادتين تلازم بل قد تتعلق كل منها بما لا تتعلق به الأخرى ، وبينهما فروق أربعة :

١ ـ أن الكونية القدرية مستلزمة لوجود المراد ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وقوع مرادها .

٢ ـ أن الكونية القدرية شاملة للحوادث كلها وهي المتعلقة بالخالق بأن يريد ما يفعل هو ، قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فالكافر والمسلم والبر والفاجر والطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كلها تحتها .

٣ ـ أن الارادة الدينية لا تستلزم وجود المراد إلا أن يتعلق به الأول ، وهو الكوني القدري ، فيجتمعان في حق المطيع وتنفرد الكونية في حق العاصي .

٤ ـ أن الإرادة الدينية الشرعية تتعلق بالأمر ، بأن يريد من العبد فعل ما أمره به ، والله سبحانه يحبها وقعت أو لم تقع وهي المتضمنة للمحبة والرضا المتناولة لجميع ما أمر به شرعاً وديناً ، وهي مختصة بالإيمان والعمل الصالح .

٢٦ - صفـــة المودة والمحبـــة

(« وقوله : (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص وهو الغفور الودود) » ٠ .

في هذه الآيات الكريمات دليل على إثبات صفة المحبة لله وهي من الصفات الفعليه ، وقد دل عليها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، محبة تليق بجلاله كما يقال ذلك في سائــر الصفات ، والحب اشتقاقه في الأصل من الملازمــة والثبوت من قولهم : أحب البعير فهو محب ، إذا برك فلم يثر ، فالمحب ملازم لذكر محبوبه ثابت القلب على حبه مقيماً عليه ولا يروم عنه انتقالا ولا يبغي عنه تحولا ولا زوالا ، قد اتخذ له في سويداء قلبه وطناً وجعله له سكناً والحب بالضم والكسر والضم أولى ٠

ومن السنة مما يدل على صفة المحبة ما ورد عن عبد الله بن مسعود يرفعه قال : « ثلاثة يحبهم الله رجل قام من الليل يتلو كتاب الله ٠٠ الحديث » رواه الترمذي ٠ وعن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله ، فأما الذين يحبهم الله فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم لقرابة بينه وبينهم ، فتخلف رجل بأعيانهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه » الحديث رواه الترمذي والنسائي ٠

قال الشيخ : فأهل السنة والجماعة يقولون إن الله يحب ويرضى كما دل على ذلك الكتاب والسنة ويقولون إن المحبــة والرضــا أخص من الإرادة فيقولون إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه وإن كان داخلا في مراده كما دخلت سائر المخلوقات ا هـ ٠

الآية الأولى ـ الإحسان ضد الإساءة وهو نوعان إحسان في عبادة الله

فسره صلى الله عليه وسلم بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إما أن يكون بإيصال النفع الديني والدنيوي ويدخل في ذلك إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين ، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه البر والخيرات والعبادات وإما أن يكون بدفع الضرر عنهم حسب الاستطاعة أو بهما جميعاً .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة المحبة لله على ما يليق بجلاله وعظمته .
٢ ـ إثبات صفة الكلام لله . ٣ ـ إثبات الألوهية .
٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل .
٥ ـ أن الإحسان سبب لمحبة الله للعبد . ٦ ـ الرد على الجبرية .
٧ ـ إثبات فعل العبد وكسبه .
٨ ـ أن العبد يثاب على عمله الحسن ويعاقب على عمله السيء .
٩ ـ إثبات الحكمة .
١٠ـ أن الله يحب مقتضى أسمائه ، الحث على الإحسان .
١١ـ لطف الله بخلقه حيث حث على الإحسان إلى الخلق .

الآية الثانية ـ القسط العدل في المعاملات والأحكام مع كل أحد ، قريب أو بعيد ، عدو أو صديق ، والعدل في حقوق الله أن تصرف نعمه في طاعته ولا يستعان بها ولا بشيء منها على معصية الله أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ، إن الله يحب العادلين في أهليهم وما ولوا ، وفي جميع أعمالهم ، وفي حكمهم بين الناس ، وفي جميع الولايات التي تولوها ، حتى أنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا » .

قال الشيخ رحمه الله : العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال ، والظلم محرم مطلقاً لا يباح قط بحال ، والعدل محبوب باتفاق أهل الأرض ، مركوز حبه في القلوب وتحمده ، وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب وتحبه والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب فتبغضه وتذمه ، والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم أصلا بل حكم الله أحسن الأحكام ، والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل ، لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج .

وقال : أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه اشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم ، ولهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام ، وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة ا هـ . وقال : ومعلوم أن الناس تحت أمر الله ورسوله فليس لأحد أن يضر نفسه وماله ضرراً نهاه الله عنه ومن دفع ذلك الضرر عنه بما هو أخف منه فقد أحسن إليه وفي فطر الناس جميعهم إن من لم يقابل الإحسان بالإحسان فهو معتد وماعده المسلمون ظلماً فهو ظلم .

يؤخذ من الآية :

١ ــ الأمر بالعدل ٢ ــ فضل العدل

٣ ــ أن العدل سبب لمحبة الله للعبد ٤ ــ إثبات صفة المحبة لله

٥ ــ إثبات الألوهية ٦ ــ إثبات صفة الكلام

٧ ــ إثبات الحكمة والعلة

٨ ــ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات، كالجهمية ونحوهم
٩ ــ إثبات فعل العبد وكسبه وأنه يثاب على حسنه ويعاقب على سيئه.
١٠ــ أن الجزاء من جنس العمل ١١ــ الحث على الإحسان
١٢ــ لطف الله بخلقه حيث أمر بالإحسان إلى الخلق
١٣ــ أن المحسن كما أنه محبوب عند الله فهو أيضاً محبوب عند الناس،

قال بعضهم :

أحسن إلى الخلق كي تظفر بودهم فالمحسنون أحبـاء لدى البشر

وقال المتنبي :

وأحسن وجه في الورى وجه محسن وأيمن كف فيهم كف منعـم

الآية الثالثة ــ التواب : كثير التوبة الذي كلما أذنب تاب ورجع عن المعصية والطهارة : النظافة والنزاهة عن الأقذار . والطهارة تنقسم إلى قسمين :

(١) حسية ، وتكون عن الأحداث والأنجاس .
(٢) ومعنوية ، وتكون عن الذنوب والآثام والمعاصي .

والمعنى : أن الله يحب الذين يرجعون إليه تائبين غير مصرين على شيء من أفعالهم ويحب كل من نزه نفسه عن الأقذار وابتعد عن ارتكاب المحرمات ، وللتوبة ثلاثة شروط ، إذا كانت لا تتعلق بآدمي : الأول الإقلاع عن المعصية ، والثاني الندم على فعلها ، والثالث العزم على أن لا يعود إلى المعصية أبداً ، فإن فقد أحد هذه الشروط لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة ، الثلاثة المذكورة ، والرابع : أن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت مالا أو نحوه رده ، وإن كانت حد قذف أو نحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها إن كان عاقلا حليماً يغلب على الظن أنه إذا جاء معتذرا متنصلا من ذنبه تائباً نادماً عفا عنه وسامحه ، وإلا فيستغفر له لحديث « إن من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول : اللهم اغفر لنا وله » .

وقد حث الله على التوبة وبين ما للتائبين في آيات القرآن الكريم ، وقد نظم أركان التوبة الشيخ عثمان بن قائد الحنبلي رحمه الله في ثلاثة أبيـات وسماها شروطاً ، فقال :

شروط توبتهم إن شئت عدتها ... ثلاثة عرفت فاحفظ على مهل
إقلاعه ، نـدم ، وعزمه أبدا ... أن لا يعود لما منه جرى وقل
إن كان توبته من ظلم صاحبة ... لا بد من رده الحق على عجل

يؤخذ من الآية الكريمة :

١ ــ إثبات الألوهية ٢ ــ إثبات المحبة على ما يليق بجلاله وعظمته
٣ ــ الحث على التوبة ٤ ــ إثبات صفة الكلام •
٥ ــ أن التوبة سبب لمحبة الله للعبد •
٦ ــ أن التطهر سبب لمحبة الله ، الحث على الطهارة الحسيـة والمعنوية
٧ ــ لطف الله بخلقه حيث حثهم على ما هو سبب لمحبته لهم •
٨ ــ الرد على من أنكر صفة المحبة أو أولها بتأويل باطل من جهمية أو معتزلة أو نحوهم • ٩ ــ الابتعاد عن النجاسات والاقذار .

الآية الرابعة ــ الاستقامة ضد الاعوجاج ، ومعناها لغة الاستواء في جهة الانتصاب ، وأما صطلاحاً فهي اتبـاع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم •

وقوله : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أي مهما تمسكوا بمـا عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين فاستقيموا لهم الخ • • وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك والمسلمون ، واستمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاؤهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوهم معهم في الحرب أيضاً ، فعند ذلك غزاهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم في رمضان سنة ثمان ، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : (إن الله يحب المتقين) التقوى : التحرز بطاعة الله عن معصية الله فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات ، وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال الشاعر :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقي
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر مايرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

يؤخذ من الآية :

١ ـ الحث على الاستقامة ٢ ـ إثبات صفة المحبة
٣ ـ إثبات الألوهية ٤ ـ الحث على التقوى
٥ ـ أن التقوى سبب لمحبة الله للعبد
٦ ـ الحث على الوفاء بالعهد
٧ ـ استباحة نبذ العهد عند عدم الاستقامة كما يفيده مفهوم الآية
٨ ـ إثبات صفة الكلام لله والرد على من أنكرها .
٩ ـ الرد على من أنكر صفة المحبة أو أولها بتأويل باطل
١٠ـ سماحة الدين الإسلامي حيث أمر المسلمين بالوفاء مع من وفى معهم
١١ـ لطف الله بخلقه .
١٢ـ الحث على مكارم الأخلاق ١٣ ـ الحث على العدل والإنصاف .

الآية الخامسة ـ الحب والمحبة : ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه قال أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب ، قال الأزهري : محبة العبد لله ولرسوله طاعته لأمرهما واتباعه لهما ، ومحبة الله للعبد محبة تليق بجلاله وعظمته أثرها رحمته وإحسانه وإعطاؤه ، والمعنى قل يا محمد إن كنتم تحبون الله حقيقة فاتبعوني فإن ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأمره ونهيه ،

والمحب الصادق حريص على معرفة المحبوب ومعرفة أمره ونهيه ليتقرب إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه ، فإن اتبعتموني يحببكم الله الخ . . وهذا حجة على من يدعي محبة الله في كل زمان ومكان وأعماله تكذب ما يقول ، إذ كيف يجتمع حب مع الجهل بالمحبوب وعدم العناية بأوامره ونواهيه فهو كما قال الوراق :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديـع
لو كان حبك صادقـاً لأطعته ... إن المحب لمـن يحب مطيـع

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات الألوهية ... ٢ ـ إثبات صفة الكلام
٣ ـ إثبات صفة المحبة لله ... ٤ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة
٥ ـ الحث على محبة الله بالسعي في أسبابها
٦ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام جبريل أو كلام محمد صلى الله عليه وسلم
٧ ـ إثبات صفة المغفرة ، ومن أسمائه تعالى الغفور والغفار قال تعالى: (وإني لغفار لمن تاب) الآية . قال ابن القيم رحمه الله :

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابهـا ... سبحانه هو واسـع الغفران

فهو سبحانه الذي أظهر الجميل وستر القبيح ، والذنوب من جملة القبائح قال تعالى : (إن ربك واسع المغفرة) وفي الحديث « إن الله يقول يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة . . » .

ومما يؤخذ من الآية أيضاً :

٨ ـ الحث على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

٩ ـ أن هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى مجردة فعلامة محبة الله اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم •

قال الشيخ رحمه الله : وكلما كان الرجل اتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في الدين وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول • ا هـ •

الآية السادسة ـ الارتداد : الخروج عن الإسلام والدخول في الكفر

أذلة : جمع ذليل بمعنى عاطفين عليهم ، أعزة : جمع عزيز بمعنى متعالين عليهم أي يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين بمعنى قوله (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ، ففي قوله تعالى (أعزة على الكافرين) بعد قوله (أذلة على المؤمنين) احتراس فيه تتميم للمعنى وتكميل للمدح ، فإنه سبحانه لو اقتصر على وصفهم بالـذل لإخوانهم المؤمنين لاحتمل أن يتوهم أن ذلهم عن عجز وضعف ، فنفى ذلك بذكر عزتهم على الكافرين ليعلم أن ذلهم للمؤمنين عن تواضع • لومة لائم : أي عذل عاذل في نصرهم ، يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه ، وأن لله عبـاداً مخلصين ورجالا صادقين قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم ، وأنهم من أكمل الخلق أوصافاً وأقواهم نفوساً وأحسنهم أخلاقاً ، أجل صفاتهم أن الله يحبهم ، فجمعوا بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين ، متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الدين الإسلامي وما يفعله حزب الشيطان من إزراء بأهل الدين وقلب محاسنهم مساوىء ومناقبهم مثالب حسداً وبغضاً وكراهة للحق وأهله ، والإشارة في قوله ذلك إلى ما اختصهم الله به من الصفات الحميدة التي نالوا بها محبة الله التي هي الغاية المطلوبة •

يؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات صفة المحبة لله •

٢ ــ الرد على من أنكرها من جهمية أو نحوهم •

٣ ــ التحذير عن معصية الله •

٤ ــ أن الكافر والعاصي لا يضر إلا نفسه •

٥ ــ أن الله غني عن العالمين •

٦ ــ عظيم قدرة الله في أن من تولى عن دينه فإن الله يستبدل به غيره •

وقد وصف الله المؤمنين بست صفات :

(١) أنه تعالى يحبهم • (٢)أنهم يحبونه •

(٣ و ٤) أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين •

(٥) الجهاد في سبيل الله ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الله ورسوله •

(٦) كونهم لا تأخذهم في الله لومة لائم •

ومما يؤخذ :

٧ ــ إثبات فعل العبد حقيقة •

٨ ــ أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة •

٩ ــ إفراد الله بالمحبة •

١٠ــ التعريض بالمنافقين الذين يخافون لوم أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين •

١١ــ إثبات صفة الكلام لله •

١٢ــ الرد على من أنكر صفة المحبة أو صفة الكلام •

١٣ــ الخطاب على وجه الوعيد والتحذير والتخويف •

١٤ــ إعلام بارتداد بعض المؤمنين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه ثم وقع فارتد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وبنو مدلج قوم الأسود العنسي ، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ، الذي ادعى بالنبوة ثم أسلم وجاهد ، ثم كثر المرتدون وفشا أمرهم ، بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم حتى كفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه •

١٥ــ الحث على التمسك بدين الإسلام ، ثبتنا الله عليه وجميع المسلمين •

١٦ــ الحث على التواضع والعطف على المؤمنين •
١٧ــ الحث على الشدة والغلظة على الكفار •
١٨ــ الرد على الجهمية المنكرين لعلم الله •
١٩ــ الرد على القدرية •
٢٠ ــ أن الله إذا أحب عبداً يسر له الأسباب ، وهون عليه كل عسير ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات ، وأقبل بقلوب العباد إليه بالمحبةوالوداد، قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) •

ومن لوازم محبة العبد لربه أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً في أقواله وأعماله وجميع أحواله كما قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) كما أن من لوازم محبة الله للعبد أن يكثر العبد التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن الله « وما تقرب إلى عبدي بشيءأحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه » •

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى والإكثار من ذكره فإن المحبة بدون معرفة الله ناقصة جداً ، بل غير موجودة ، وإن وجدت دعواها ، ومن أحب الله أكثر من ذكره وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل ، وغفر له الكثير من الزلل •

اللهم ارزقنا حبك ، وألهمنا ذكرك ، وشكرك ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار •

الآية السادسة ــ يخبر فيها جل وعلا وتقدس أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله أن يصفوا أنفسهم حين القتال بنظام ودقة وحكمة ، ولا يكون بينهم فرج كأنهم البنيان المرصوص المتلاحم الأجزاء الذي كأنه قطعة واحدة ، والسر

في ذلك أنهم إذا كانوا كذلك نشط بعضهم بعضاً وزادت قوتهم المعنوية وتعاضدوا وتنافسوا في الطعان والنزال ، والكر والفر وأدخلوا الروع والفزع والذعر في نفوس الأعداء .

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات الألوهية .   ٢ـ إثبات صفة المحبة لله .

٣ ـ الحث على الجهاد في سبيل الله .

٤ ـ تعليم المجاهدين ما يعود عليهم بالمصلحة .

٥ ـ إثبات صفة الكلام .

٦ ـ أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال .

٧ ـ الحث على اجتماع الكلمة .

٨ ـ الحث على إخلاص العمل لله وحده .

٩ ـ الحث على تكاتف المسلمين وتعاضدهم وكونهم يدا واحدة .

١٠ـ الرد على من أنكر صفة المحبة .

١١ـ الحث على الثبوت والجد في القتال .

١٢ـ الندب إلى الصفوف في القتال .

تنبيه :

أنكرت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم محبة الله وقالوا : المحبة لا تكون إلا بين متناسبين وبهذه الشبهة الفاسدة ردوا صفة من صفات الله الثابتة له ، قال الإمام أحمد : لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين والمناسبة لفظ مجمل ، فإنه قد يراد بها التوالد والقرابة ، فيقال هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة الى الولاة والآدمية ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ويراد بها المماثلة ، فيقال : هذا يناسب هذا أي يماثله والله سبحانه

وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ويراد بها الموافقة في معنى من المعاني وضدها المخالفة ، والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة فإن أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه وفيما يحبه فيحبونه وفيما نهى عنه فيتركونه وفيما يعطيه فيصيبونه والله وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة محسن يحب المحسنين مقسط يحب المقسطين إلى غير ذلك من المعاني ، فإذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق وهي من صفات الكمال فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال أو لا يحب صفات الكمال وإذا قدر موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك لا يحب هذا ولا يبغض هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا ا هـ . (من مجموع الرسائل لشيخ الاسلام) .

الآية الثامنة ـ قوله تعالى : (وهو الغفور الودود) فالغفور من أبنية المبالغة أي كثير المغفرة وأصل الغفر الستر ، ومنه المغفر فهو سبحانه وتعالى ، يغفر لمن تاب إليه أي يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه .

قال ابن رجب : المغفرة محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذى لا كما ظنه بعضهم الستر فالعمامة لا تسمى مغفراً مع سترها فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية ا هـ .

وقوله : (الودود) من الود وهو خالص الحب وألطفه وأرقه وهو من الحب بمنزلة الرأفة والرحمة قال الجوهري وددت الرجل أوده وداً إذا أحببته والود المودة ، والودود المحب ، والودود من صفاته أصله من المودة ، واختلف فيه على قولين : فقيل هو ودود بمعنى واد كضروب بمعنى ضارب وقتول بمعنى قاتل ونؤوم بمعنى نائم ، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله فاعل كغفور بمعنى غافر وشكور بمعنى شاكر وصبور بمعنى صابر وقيل بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب وبذلك فسره البخاري في صحيحه فقال الودود الحبيب والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله (وهو الغفور الودود) وبالرحيم

في قوله (إن ربي رحيم ودود) وفيه سر لطيف وهو أنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فالتائب حبيب الله فالود أصفى الحب وألطفه ، ا هـ (من كلام ابن القيم) .

وقال رحمه الله :

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحب ثان
هذا هو الإحسان حقاً لا ... معاوضة ولا لتوقع الشكران

والخلاصة : أنه سبحانه المحب لأهل طاعته من أنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه وعباده المؤمنين المحسنين وهو سبحانه محبوبهم ولا تعادل محبة الله عند أصفيائه محبة أخرى ، وهذا هو الواجب ويتعين أن تكون المحاب تبعاً لها ، لأن محبة الله هي روح الأعمال وجميع الأعمال وجميع العبودية الظاهرة والباطنة تبع لها ومحبة العبد لربه فضل من ربه وإحسان ليست بحول العبد وقوته فهو الذي أحب عبده فوفقه وجعل المحبة في قلبه ثم لما أحبه جازاه بحب آخر .

قال ابن القيم :

وحياة قلب المرء في شيئين من ... يرزقهما يحيى مدى الأزمان
في هذه الدنيا وفي الأخرى يكو ... ن الحي ذا الرضوان والإحسان
ذكر الإله وحبه من غير إشراك به وهما فممتنعان
من صاحب التعطيل حقاً كامتنا ... ع الطائر المقصوص من طيران
أيحبه من كان ينكر وصفه ... وعلوه وكلامه بقرآن ؟
لا والذي حقاً على العرش استوى ... متكلماً بالوحي والفرقان !

٢٧ – صفـــة الرحمـــة والمغفرة

« وقوله : (بسم الله الرحمن الرحيم) (ربنا وسعت كل شيء رحمــة وعلماً) (وكان بالمؤمنين رحيماً) (ورحمتي وسعت كل شيء) (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (وهو الغفور الرحيم) (فالله خير حافظاً وهو أرحــم الراحمين) » .

في هذه الآيات إثبات صفة الرحمة والمغفرة .

الآيــة الأولى : الباء في بسم الله للاستعانة ، وهي متعلقة بمحذوف ، والتقدير ابتدىء ، والاسم مشتق من السمو وهو العلــو ، أو من السمـــة وهي العلامة ، ولفظ الجلالة مشتق من أله ، ومعنى كونه مشتقاً أنه دال على صفــة هي ألوهية كسائر الأسماء الحسنى ، وقوله (الرحمن الرحيم) قال ابن عباس: الرحمن الرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أوسع رحمة ا هـ . وهما من أبنية المبالغة ، والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، والرحمن خاص بالله سبحانه لا يسمى به غيره ولا يوصف ، بخلاف الرحيم فيوصف به غيره ، فيقال رجل رحيم، وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة .

قال ابن القيم : وأسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة عــلى صفات كماله فلا تتنافى بين العلمية والوصفية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته ، فمن حيث هي صفة جرى تابعاً على اسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم ، ولما كان هــذا الاسم مختصاً به تعالى حسن مجيئه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله فإنه دال على صفة الألوهية ، ولم يجيء قط تابعاً بل متبوعاً ، وهذا بخلاف العليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير ، ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هــذه النكتة

البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً .

وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال على أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله (وكان بالمؤمنين رحيماً) (إنه بهم رؤوف رحيم) ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن رحمن هو بالموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها .

وقال ابن القيم : تضمنت بسم الله الرحمن الرحيم إثبات النبوات من جهات عديدة : الأول من اسم الله وهو المألوه المعبود ولا سبيل إلى معرفة عبوديته إلا من طريق رسله ، الثاني من اسمه الرحمن فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة ، فمن أعطى هذا الاسم حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب فاقتضاء الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها ما يحصل به حياة الأبدان والأشباح اهـ .

يؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات صفة الرحمة   ٢ ــ إثبات الألوهية
٣ ــ إثبات صفة الكلام لله   ٤ ــ إثبات الأسماء لله
٥ ــ الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهما .

الآية الثانية :

أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فما من مسلم ولا كافر الا وهو يتقلب في نعمته ، ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الرحمة
٢ ـ إثبات صفة العلم وسعتها وشمولها
٣ ـ الرد على الجهمية ونحوهم
٤ ـ الرد على القدرية
٥ ـ إثبات الربوبية .

الآية الثالثة : يخبر تعالى أنه بالمؤمنين رحيم أما في الدنيا فإنه هداهم الى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة الى الكفر والبدع وأتباعهم من الطغام وأما رحمته في الآخرة التي قال عنها (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) الآية ، فإنه أمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار قال تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الرحمة
٢ ـ الحث على الإيمان
٣ ـ إثبات صفة الكلام
٤ ـ الرد على من أنكر صفة الرحمة أو أولها بتأويل باطل .

الآية الرابعة : يخبر تعالى أن رحمته عمت كل شيء في العالم العلوي والسفلي البر والفاجر والمؤمن والكافر فلا يخلو مخلوق الا وقد وصلت

إليه رحمته وغمره فضله وإحسانه ولكن الرحمة الخاصة ليست لكل أحـد ولهذا قال عنها (فسأكتبها) أى الخاصة المقتضية لسـعادة الدنيا والآخرة (للذين يتقون ويؤتون الزكاة (الآيتين . ففي الآية اولا إثبات صفة الرحمة ٢ ــ إثبات سعتها ــ ٣ ــ الرد على من أنكرها أو أولها بتأويل باطل ــ ٤ ــ إثبات صفة الكلام ــ ٥ ــ الرد على من أنكر صفة الكلام ٦ : أن الرحمة العامة يشترك فيها البر والفاجر .

الآية الخامسة : في الآية احتجاج أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين مقررا وملزما لهم بالتوحيد ؟ لمن ما في السموات والأرض : فإن أجابوك والا فقل إن الله هو الخالق لهذا الكون المالك المتصرف فيه وقوله (كتب ربكم الخ) هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عن الإقبال عليه وإخبار منه بأنـه رحيم بالعباد قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ولكنه كتب على نفسه الرحمة ووعـد بها فضلا منه وإحساناً ولم يوجبها عليه أحد .

والكتابة تكون شرعية وتكون كونية فالكتابة الشرعية الأمرية كقوله تعالى (كتب عليكم الصيام) ، (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) ، والكونية القدرية كقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) وقوله : (ولقد كتبنا في الزبور من بعـد الذكر أن الأرض يرثها عبـادي الصالحون) ، (كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه الى عذاب السعير) والكتابة في قوله (كتب ربكم) كونية قدرية فقد كتب على نفسه الرحمة تفضلا منه وإحسانا من غير أن يوجبها عليه أحد كما قيل :

ما للعباد عليـه حق واجب كلا ولا سعي لـديه ضائع
إن عـذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

وإذا كان معقولا من الإنسان أن يوجب على نفسه ويحرم ، ويأمرها وينهاها ، مع كونه تحت أمر غيره ونهيه ، فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ويكتب على نفسه ، وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ورضاه به وتحريمه على

نفسه يستلزم بغضه لما حرمه وكراهته له إرادة أن لا يفعله فان محبته للفعل تقتضي وقوعه منه وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه ، وهذا غير ما يحبه سبحانه من أفعال عباده ويكرهه فإن محبته ذلك منهم لا تستلزم وقوعه ، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه ، فرق بين فعله هو سبحانه وبين فعل عباده الذي يقع مع كراهته وبغضه له ويتخلف مع محبته له ورضاه به بخلاف فعله هو سبحانه ، فهذا نوع وذاك نوع ، فتدبر هذا الموضع .

وقال : واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف :

فطائفة منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بايجابه وتحريمه ، وهم كثير من مثبتي القدر الذين ردوا أقوال القدرية النفاة وقابلوهم أعظم مقابلة نفوا لأجلها الحكم والأسباب والتعليل . وأن يكون العبد فاعلا أو مختارا .

الطائفة الثانية : بإزاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم جعلوها شريعة له يجب عليه مراعاتها من غير أن يوجبها هو على نفسه ولا حرمها، وأوجبوا عليه من جنس ما يجب على العباد وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم ، ولذلك كانوا مشبهة في الأفعال ، والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين : تعطيل صفاته ، وجحد نعوت كماله ، والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه ، فشبهوا في أفعاله وعطلوا في صفات كماله ، فجحدوا بعض ماوصف به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيدا وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلا ، وقالوا : نحن أهل العدل والتوحيد فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لايخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها ، وتوحيدهم إلحاد في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه ، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلا وعدلهم شركا ، والمقصود أن هذه الطائفة مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات .

وهدى الله الأمة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فلم يقيسوه بخلقه ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك ، ولم يوجبوا عليه شيئا ولم يحرموا عليه شيئاً ، بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه ، وشهدت قلوبهم مافي ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء فان العباد لا يحصون ثناء عليه أبدا بل هو كما أثنى على نفسه .

وهذا بين بحمد الله عند أهل العلم والإيمان مستقرفي فطرهم ثابت في قلوبهم يشهدون انحراف المنحرفين في الطرفين وهم لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء بل هم إلى الله ورسوله متحيزون والى محض سنته منتسبون يدينون دين الحق أين توجهت ركائبه ويستقرون معه حيث استقرت مضاربه اهـ . (من كلام ابن القيم) .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة الرحمة . ٢ ـ اثبات الربوبية .

٣ ـ تربيته لخلقه نوعان عامة وخاصة ، فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم ، والخاصة تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكملهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر .

٤ ـ إثبات النفس على الوجه اللائق بجلاله وعظمته .

٥ ـ إثبات صفة الكلام .

٦ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما .

٧ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة المنكرين لصفة الرحمة القائلين الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم .

وهذا الزعم باطل من وجوه : أما أولا فلأن الضعف والخور مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة ؛ قال تعالى (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن فقال (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) وندبهم الى الرحمة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تنزع الرحمة الا من شقي » ، وقال : « من لايرحم لايرحم » ، وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن » ، وقال « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ومحال أن يقول لا ينزع الضعف والخور الا من شقي ، ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة النساء ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً ؛

وأيضا فلو قدر أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق الله تعالى مستلزمة لذلك ، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه .

وأيضا فنحن نعلم بالاضطرار أنا اذا فرضنا موجودين أحدهما يرحم غيره فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة والآخر قد استوى عنده هذا وهذا ، وليس عنده ما يقتضي جلب منفعة ولا دفع مضرة كان الأول أكمل اهـ (من مجموع الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام) .

وبعضهم تأول الرحمة بمعنى إرادة الإحسان والحق إثبات صفة الرحمة حقيقة على ما يليق بجلاله ، كما يقال في سائر الصفات ، والرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان فهي مستلزمة للاحسان أو إرادته استلزام الخاص للعام ، فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته .

ومنهم من تأول الرحمة بمعنى الثواب ، والله سبحانه فرق بين رحمته ورضوانه وثوابه المنفصل ، فقال تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) الآية ، فالرحمة والرضوان صفته والجنة ثوابه ، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثوابا منفصلا مخلوقاً ، وقول من قال هي ارادة الإحسان ،

فإن إرادته الإحسان هي من لوازم رحمته فانه يلزم مـن الرحمة أن يريد الإحسان الى المرحوم ، فاذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان وكذلك لفظ اللعنة والغضب والمقت هي أمور مستلزمة للعقوبة فإذا انتفت حقائق تلك الصفات انتفى لازمها فان ثبوت لازم الحقيقة ممع انتفائها ممتنع ، فالحقيقة لا توجد منفكة عن لوازمها ٠

الآية السادسة : قوله (وهو الغفور الرحيم) قد تقدم الكلام على هذين الاسمين وما في معناهما ٠

الآية السابعة : قال بعض المفسرين : لعله هنا إضمار ، والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه اليهم وقال (فالله خير حافظا) ، والمعنى : أن حفظ الله إياه خير من حفظهم فأنا أتوكل على الله في حفظ بنيامين لا حفظكم وهو أرحم الراحمين الذي يعلم حالي وكِبَرِي وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو منه أن يحفظه ويرده علي ويجمع شملي به وأن لا يجمع علي مُصِيبَتَين ، قيل : لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه ، ولما قال في يوسف (وأخاف أن يأكله الذئب) وقع له من الامتحان ما وقع ٠

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الرحمة ٠ ٢ ـ إثبات الألوهية ٠

ومن أسمائه تعالى الحفيظ وهو مأخوذ مـن الحفظ وهو الصيانة ، وللحفيظ معنيان : أحدهما أنه قد حفظ على عباده ما عملوا من خير وشر وطاعة ومعصية ،فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علمه بأحوال عباده كلها ، والمعنى الثاني أنه الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون ٠ وحفظه لعباده نوعان عام وخاص ، فالعام حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لهـا ما يقيها ويحفظ بنيتها وتمشي الى هدايته العامة ، قال الله تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) النوع الثاني حفظ خاص لأوليائه عما يضر إيمانهم ويزلزل

إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات قال تعالى (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وهذا عام في جميع ما يضرهم في دنياهم ودينهم ، وفي الحديث « احفظ الله يحفظك » .

تنبيـــه :

تنقسم الرحمة الى قسمين : قسم مشترك عام بين المسلم والكافر والبَر والفاجر والبهائم وسائر الخلق ، ودليل هـــذا القسم قوله تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) ، وقوله (وسعت كل شيء رحمة) وقسم خاص بأنبيائه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين ودليلها قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) وقوله (انه بهم رؤوف رحيم) .

والرحمة المضافة الى الله نوعان : أحدهما مضاف من إضافة المفعول الى فاعله ومنه مافي الحديث « احتجت الجنة والنار فقال للجنة انما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء » فهذه مخلوقة مضافة اليه إضافة المخلوق بالرحمة الى خالقه ، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة وخص بها أهل الرحمة لأن من يدخلها الرحماء ، ومنه خلق الله الرحمة يـــوم خلقها مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، ومنه قوله تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا) وقوله (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) ومنه تسمية المطر رحمة كقولـــه (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) والنوع الثاني مضاف إليه إضافة صفة الى موصوف ، وذلك مثل ما في قوله تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) وكما في الحديث « ياحي يا قيوم برحمتك أستغيث » ومن النوع الأول قوله صلى الله عليه وسلم « أنزل رحمة من رحمتك » .

وقال الشيخ رحمـــه الله : المضاف الى الله نوعان : أعيان وصفات ، فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت على أنها إضافة وصف له قائم به ليست مخلوقة لأن الصفة لا تقوم بنفسها بل لا بد لها من موصوف تقوم به فإذا أضيفت إليه علم أنها

صفة له ، وأما الأعيان إذا أضيفت الى الله تعالى فإما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة ومقدورة ونحو ذلك فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله (هذا خلق الله) وقد تضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ، وروح الله ، فهذه تقتضي التشريف والعناية وأنها امتازت عن غيرها من الأعيان بما يناسب السياق ، وقال ابن القيم :

والله أخبر في الكتاب بأنه منه ومجرور بمن نوعان
عين ووصف قائم بالعين فالـأعيان خلق الخالق الرحمن
والوصف بالمجرور قام لأنه أولى به في عرف كل لسان
ونظير ذا أيضاً سواء ما يضا ف إليه من صفة ومن أعيان
فإضافة الأوصاف ثابتة لمن قامت به كإرادة الرحمن
وإضافة الأعيان ثابتة له ملكاً وخلقاً ما هما سيان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه لما أضيفا كيف يفترقان
وكلامه كحياته وكعلمه في ذي الإضافة إذهما وصفان
لكن ناقته وبيت الهنا فكعبده أيضا هما وصفان
فانظر الى الجهمي لما فاته الحق المبين الواضح التبيان
كان الجميع لديه باباً واحداً والصبح لاح لمن له عينان

٢٨ـ صفة الرضا والغضب والسخط والكره . . الخ

(« قوله (رضي الله عنهم ورضوا عنه) ، وقوله (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما) ، وقوله (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) ، وقوله (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ، وقوله (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) ، وقوله (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ») .

في هذه الآيات الكريمات يصف الله جل وعلا نفسه بالرضا والغضب

واللعن والكراهة والأسف والسخط والمقت والانتقام وهي من صفات الأفعال التي يفعلها متى شاء إذا شاء ٠

قال الشيخ رحمه الله : وقد ثبت بالسمع اتصاف الباري بالأفعال الاختيارية القائمة به كالاستواء على العرش والقبض والبسط والنزول والخلق والرزق المتعلقة بنفسه والمتعدية الى الخلق ، والفعل المتعدي واللازم لا بد أن يقوم بالفاعل ويمتنع عقلا وشرعاً أن يقوم بغيره في الحالين وهذه الأفعال الاختيارية تبع لقدرته ومشيئته فما شاء قاله وتكلم به ، وما شاء فعله في الحال والماضي والمستقبل ، هذا أصل متفق عليه بين السلف وعليه دل الكتاب والسنة ٠

الآية الاولى : لما ذكر سبحانه أعمالهم الصالحة ذكر أنه أثابهم عليها رضاه الذي هو أعظم وأجل من كل نعيم ، قال تعالى (ورضوان من الله أكبر) وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون ومالنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » أخرجاه من حديث مالك ٠

قال ابن القيم رحمه الله :

أوما علمت بأنه سبحانه حقاً يكلم حزبه بجنان
فيقول جل جلاله هل أنتم راضون قالوا نحن ذو رضوان
أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم ينله قط من إنسان
هل ثم شيء غير ذا فيكون أفضل منه نسأله من المنان
فيقول أفضل منه رضواني فلا يغشاكم سخط من الرحمن

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة الرضا لله . ٢ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله .
٣ ـ الرد على من أنكر صفة الرضا أو أوله بتأويل باطل .
٤ ـ إثبات فعل العبد وأن له فعلا اختياريا .
٥ ـ إثبات الألوهية لله .

قال ابن القيم رحمه الله : الرضا ينقسم الى ثلاثة أقسام الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله فالرضا بالله فرض والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه ومشقته عليهم وأوجبه بعضهم ، وأما الرضا بكل مقضي فلا يجب بل المقضي ينقسم الى ما يجب الرضا به وهو الديني ، قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية ، ومقضي كوني قدري ، فإن كان فقرا أو مرضا ونحو ذلك استحب الرضا به ولم يجب ، وأوجبه بعضهم ، وإن كان كفرا أو معصية حرم الرضاء به فان الرضاء به مخالفة لربه فإنه سبحانه لا يرضى بذلك ولا يحبه قال تعالى : (ولا يرضى لعباده الكفر) الآية ، وأما القضاء الذي هو صفة الله وفعله فالرضاء به واجب اهـ .

قال الشيخ رحمه الله :

وأما رضانا بالقضاء فإنما ... أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة
كسقم وفقر ثم ذل وغربة ... وما كان من مؤذ بدون جريمة
فأما الأفاعيل التي كرهت لنا ... فلا نص يأتي في رضاها بطاعة
وقد قال قوم من أولى العلم لا رضا ... بفعل المعاصي والذنوب الكبيرة
فإن إله الخلق لم يرضها لنا ... فلا نرتضي مسخوطة لمشيئة
وقال فريق نرتضي بقضائه ... ولا نرتضي المقضي أقبح خصلة
وقال فريق نرتضي بإضافة ... إليه وما فينا فنلقى بسخطة
كما أنها للرب خلق وأنها ... لمخلوقة كسب كفعل الغريزة

فنرضى من الوجـه الذي هـو خلقـه
ونسخط من وجـه اكتسـاب بحيـلة

الآية الثانية : في هذه الآية وعيد شديد على من يقتل مؤمناً متعمداً بأن عقابه جهنم خالداً فيها أي مقيماً والخلود المكث الطويل وغضب الله عليـه ولعنه أي طرده عن رحمته ، واللعن البعد عن مظان الرحمـة ومواطنهـا ، قيل : واللعين من حقت عليه اللعنـة ، والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بهـا .

قال أبو السعادات : أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله ومن الخلق السب والدعـاء .

قال شيخ الإسلام رحمه الله ما معناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلي على من استحق الصلاة من عباده ، قال تعالى (هـو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ، تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقال (إن الله لعن الكافرين وأعـد لهم سعيراً) وقال (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) وهيأ له عذاباً عظيماً لا يدرك كنهه إلا العزيز الجبار لعظم ذنبه ، وهذا وعيد عظيم ترجف منـه القلوب وتتصدع له الأفئدة وينزعج منه أولوا العقول .

وقد اختلف العلماء هل للقاتل من توبة أم لا ؟ فروى البخاري عن سعيد ابن جبير قال : اختلف علماء الكوفة فيها فرحلت إلى ابن عباس رضي الله عنهما فسألته عنها ، فقال : نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) الآية ، وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء ، وقد روى النسائي عنه نحو هذا .

وروى النسائي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه نحوه ، وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبو سلمة وعبيد بن

عمير والحسن والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم عنهم ؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » .

وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » رواه أحمد والنسائي ، ولأبي داود من حديث أبي الدرداء كذلك .

وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ؛ ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في قتل مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم في النار ، وأن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر به » وعن جندب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سمع سمع الله به يوم يوم القيامة قال ومن يشاقق يشق الله عليه يوم القيامة فقالوا أوصنا فقال إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة ، بملء كفه من دم إهراقه فليفعل » رواه البخاري .

وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قتل مؤمناً فاعتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا» . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » رواه البخاري .

وذهب الجمهور إلى أن التوبة من القاتل مقبولة واستدلوا بمثل قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقوله (وهو الذي يقبل التوبة عن

عباده) وقوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وبقوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقى أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقالوا أيضاً : والجمع ممكن بين آية النساء وآية الفرقان فيكون معناها فجزاؤه جهنم إلا من تاب لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل ، والموجب وهو التوعد بالعقاب ، واستدلوا أيضاً بالحديث المذكور في الصحيحين عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم ، قال : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » ثم قال : « فمن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه » وبحديث أبي هريرة في الذي قتل مائة نفس وهو في صحيح مسلم ، قلت : ويؤيد هذا القول حديث « يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذي وحديث « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته .. الحديث » متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم . وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

ودهب جماعة منهم أبو حنيفه وأصحابه والشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب .

قال ابن القيم : والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق حق الله وحق المقتول وحق الولي فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً ندماً على ما فعله وخوفاً من الله وتوبة نصوحا سقط حق الله بالتوبة وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة

عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هـــذا ، انتهى .

وبتقدير دخوله فليس بمخلد في النار خلافاً للخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة :

ويغفر دون الشرك ربي لمن يشا ... ولا مؤمناً إلا له كافراً فـــدا
ولم يبق في نار الجحيم موحد ... ولو قتل النفس الحرام تعمدا

يؤخذ من الآية الكريمة :

١ ـ الوعيد الشديد لمن يقتل مؤمناً متعمداً .
٢ ـ إثبات صفة الغضب .
٣ ـ إثبات صفة اللعن .
٤ ـ إثبات الألوهية .
٥ ـ إثبات صفة الكلام لله .
٦ ـ تحريم قتل المؤمن عمداً وعدواناً .
٧ ـ أن جهنم حق أعدها الله للكافرين والعاصين ممن أراد الله تعذيبهم وعقوبتهم .
٨ ـ دليل على عدل الله بين عباده .
٩ ـ الـــرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من المنكرين للصفات أو المؤلين بتأويل باطل .
١٠ـ دليل على تحريم الاستهانة بأمر الله وحكمه وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوتـــه .
١١ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجنة والنـــار والجزاء على الأعمـــال .
١٢ـ تعظيم حق المؤمن .

١٣ـ لطف الله بخلقه حيث بين لهم عظم هذا الذنب ليجتنبوه .
١٤ـ تخليد القاتل عمداً في جهنم .
١٥ـ إثبات الأفعال الاختيارية .
١٦ـ بيان حكم القتل العمد . ١٧ـ عظم شأن الإيمان بالله .
١٨ـ التباعد عن أذية المؤمن . ١٩ـ أن العقوبات تتفاوت .
٢٠ـ أن هذا الوعيد خاص بقتل العمد .

الآية الثالثة : الإشارة في قوله تعالى ذلك بأنهم إلى التوفي المذكور على هذه الصفة المذكورة من الهول الذي يرونه من أجل أنهم انهمكوا في المعاصي وزينت لهم الشهوات وكرهوا ما يرضيه من الإيمان والتوحيد والطاعة فأحبط ماعملوا من الخير قبل الردة أو الأعمال التي صورتها صورة طاعة من البر والخير كالصدقات والأخذ بيد الضعيف ومساعدة البائس الفقير وإغاثة الملهوف إلى نحو ذلك من أنواع الإحسان .

يؤخذ من الآية :

١ ـ صفة السخط على ما يليق بجلاله وعظمته .
٢ ـ إثبات الألوهية . ٣ ـ إثبات الكلام لله .
٤ ـ الرد على الجهمية ونحوهم من منكري الصفات .
٥ ـ إثبات العلل والأسباب . ٦ ـ أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة .
٧ ـ أن الأعمال السيئة سبب للشقاء وإحباط الأعمال .
٨ ـ الرد على من زعم أن لا ارتباط بين العمل والجزاء .
٩ ـ ذم من أحب ما كره الله . ١٠ـ ذم من كره ما أحبه الله .
١١ـ أن النفع والضر بيد الله جل وعلا .
١٢ـ لطف الله بخلقه حيث بين لهم ما هو سبب سعادتهم وما هو سبب لحبوط الأعمال .

الآية الرابعة: الأسف : محركة يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة

الغضب والسخط وهو المراد في الآية والانتقام المكافأة بالعقوبة وانتقامه تعالى مبالغته في العقوبة لمن يشاء ، والمنتقم : مفتعل من نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط ، والمقت : أشد البغض ، المعنى فلما آسفونا وأسخطونا بأعمالهم السيئة التي لم يرتدعوا عنها رغم التنبيه وتوالي النذر انتقمنا منهم أي عاقبهم ومن أسمائه تعالى المنتقم كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه الترمذي في جامعه في عدد الأسماء الحسنى الثابتة .

وقال شيخ الاسلام : المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما جـاء في القرآن مقيداً كقوله (إنـا من المجرمين منتقمون) .

يؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات صفة الأسف .
٢ ــ صفة الانتقام ممن عصاه وخالف أمره .
٣ ــ فيها التحذير من مخالفة أمر الله وما هو سبب لغضبه .
٤ ــ الرد على من أنكر صفة الأسف والانتقام أو أولهما بتأويل باطل .
٥ ــ صفة القدرة لله .
٦ ــ إثبات القوة لله وأنه لا يعجزه شيء .
٧ ــ أن من الخلق من لا يقدر الله حق قدره .

الآية الخامسة : الانبعاث : توجيه الإنسان أو الحيوان إلى الشيء بقوة كبعث الرسل وبعث الموتى ، والتثبيط : التكسيل والتعويق عن الأمر ، كره : أبغض خروجهم معكم إلى الغزو فثبطهم قضاء وقدراً وإن كان قد أمرهم بالغزو وأقدرهم عليه ولكن ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثبطهم لما في خروجهم من المفاسد التي تترتب عليه والتي شرع الله في بيانها في الآية التي بعدها بقوله : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم) الآية .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الكره لله على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات صفة الألوهية .   ٣ ـ إثبات الحكمة .

٤ ـ إثبات صفة العلم .

٥ ـ لطف الله بالمؤمنين حيث أبعد عنهم المنافقين المفسدين .

٦ ـ في الآية رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من منكري الصفات .

٧ ـ رد على القدرية المنكرين لعلم الله .

٨ ـ أن الله يعلم ما تكنه الصدور وتضمره القلوب .

٩ ـ بيان الحكمة في تثبيطهم عن الخروج .

١٠ ـ أن المنافقين حريصون على إلقاء العداوة بين المؤمنين وفتنتهم .

١١ ـ أن خروج المنافقين مع المؤمنين في الغزو نقص وضرر عليهم ومن حكمة الله أن ثبطهم عن الخروج قضاء وقدراً .

الآية السادسة : كبر : عظم ، مقتاً : المقت أشد البغض أي عظم ذلك المقت والبغض عند الله أن تعدوا من أنفسكم ثم لم تفوا به وذلك أن الوفاء بالوعد دليل كرم الشيم وجميل الخصال وبه تكون الثقة بين الجماعة فترتبط برباط المودة والمحبة والعكس بالعكس فإذا فشا في أمة خلف الوعد قلت الثقة بين أفرادها وانحلت عرى الروابط بينهم وأصبحوا عقداً منتثراً لا ينتفع به ولا يخشى منهم عدو إذا اشتدت الأزمات وعظمت الخطوب لما يكون بينهم من التواكل وعدم ائتمان بعضهم بعضاً .

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة المقت .   ٢ ـ أن مقته سبحانه يتفاوت .

٣ ـ إثبات الألوهية .   ٤ ـ الحث على الوفاء بالعهد .

٥ ـ النهي الأكيد عن التخلف في الوعد وبها استدل بعض العلماء على أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا واحتجوا بما

ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان » •

٦ ــ أن الشخص قد يكون عدواً لله ثم يصير ولياً وقد يبغضه الله ثم يحبــه •

٧ ــ إثبات صفة الكلام •

٨ ــ الرد على من أنكر صفة الكلام •

كلام نفيس حول ما مر آنفاً من الصفات :

قال في شرح الطحاوية : ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبــات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات •

قال : ولا يقال إن الرضا إرادة الإحسان والغضب إرادة الانتقام فإن هذا نفي للصفة ، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاؤه وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده ، فقد يحب عندهم ويرضى مــا لا يريده ويكــره ويسخط ويغضب لما أراده ، ويقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسان لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول لأن الغضب غليان دم القلب والرضا الميــل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى ، فيقال له غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ويقال أيضاً وكذلك الإرادة والمشيئة فيناهي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج إلى مــا يريده ومفتقر إليه يزداد بوجوده وينتقص بعدمه فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء فإن جاز هــذا جاز هــذا وإن امتنع هذا امتنع ذلك ، فإن قالوا الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة

قيل له : فقل إن الغضب والرضاء الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف بــه العبد وإن كان كل منهما حقيقة ، فإذا كان كل ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه لأنك تسلم من التناقض وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليــه عقله إذ العقول مختلفة فكل يقول إن عقله دل على خــلاف مــا يقوله الآخــر .

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتناع ذلك في المخلوق فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود فإن وجود العبد كما يليق به ووجود الباري كما يليق به .

فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليــه العدم وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل الحي والعليم والقدير أو سمى بــه بعض صفاته كالغضب والرضا وسمى به بعض صفات عبــاده فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى وأنه حق ثابت موجود ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً لكن هذا المعنى لايوجد في الخارج مشتركا اذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد إلا في الأذهان ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصاً فيثبت في كل منهما كما يليق به بل لو قيل غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلا لكيفية غضب الآدميين لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه فغضب الله أولى ، وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك وقال إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه متصف في شيء من ذلك وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية فلا يرضى في وقت دون وقت ولا يغضب في وقت دون وقت كما في حــديث الشفاعــة « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعــده مثله » اهـ .

٢٩ - صفـــة المجيء والاتيان

« وقوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر) ،(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) ،(كلا إذا دكت الأرض دكاً دكا ه وجاء ربك والملك صفا صفا) ، (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا) » •

في هذه الآيات إثبات صفة مجيء لله وإتيانه على ما يليق بجلاله وعظمته وهذه من أفعاله الاختيارية •

الآية الأولى : هل حرف استفهام ، ينظرون ينتظرون ، قال امرؤ القيس :

فإنّكُما إنْ تنظُراني ساعةً ... مِن الدهرِ تنفعني لدى أمِّ جُندبِ

فإذا كان النظر مقروناً بذكر الوجه أو معدى بإلى لم يكن إلا بمعنى الرؤية ، الظلل : جمع ظلة وهي ما يظللك ، الغمام : السحاب الرقيق الأبيض ، سمي بذلك لأنه يغمّ أي يستر ، قضي الأمر : أي فرغ منه يقول تعالى : هل ينتظر الكفار الساعون في الأرض فساداً التاركون للدخول في السلم المتبعون لخطوات الشيطان النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي قد ملىء من الأهوال والشدائد والفظائـع التي تقلقل القلوب الظالمة ، وذلك أن الله تعالى يطوي السموات وتنتثر الكواكب ، وتكور الشمس وتنزل الملائكة فتحيط بالخلائق وينزل الجبار في ظلل من الغمام للفصل بالقضاء بين العباد بالعـدل •

ففي الآية :

١ ــ دليل لمذهب السلف المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية •
٢ ــ إثبات الصفات على ما يليق بجلاله وعظمته •
٣ ــ فيها تخويف ووعيد وتهديد لمن كفر بالله وعصاه •

٤ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٥ ـ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٦ ـ إثبات الألوهية لله .

٧ ـ دليل على علو الله على خلقه .

٨ ـ الرد على من أنكر صفة الإتيان أو أولها بتأويل باطل .

٩ ـ إتيان الملائكة .

١٠ـ في الآية عبرة للمؤمن ترغبه في المبادرة إلى التوبة لئلا يفاجئه وعد الله وهو غافل فإذا لم يفاجئه قيام الساعة وهلاك هذا العالم كله فاجأه قيام قيامته بموته بغتة فإذا لم يجئه بغتة جاءه المرض بغتة فلا يقدر على العمل وتدارك الزلل .

الآية الثانية : يقول تعالى : هل ينظر الذين استمروا في ظلمهم وعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، أو يأتي ربك لفصل القضاء بين العباد لمجازات المحسنين والمسيئين .

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب السلف أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية كالاستواء والنزول والمجيء ونحو ذلك من الصفات التي أخبر تعالى بها عن نفسه أو أخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم فيثبتونها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل خلافاً للمعطلة من جهمية أو معتزلة أو أشاعرة ونحوهم من نفات الصفات أو يتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي ولا عقلي .

أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ظاهرها بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة وأنها لا تحتاج لدلالتها على

مذهب المبتدعة الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص وهذا ــ أعني مذهب المبتدعة ــ لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما العقلي فليس في العقل ما يدل على نفي الصفات بل دل العقل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل ، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه قيل لهم الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات فصفاته تبع لذاته وصفات خلقه تبع لذواتهم فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً أو أثبت الأسماء دون الصفات إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض ففرق بين ما أثبته وما نفيته ولن تجد إلى الفرق سبيلا .

فإن قلت : ما أثبته لا يقتضي تشبيهاً ، قال لك أهل السنة : والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيهاً .

فإن قلت : لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه ، قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه ، فما أجبت به النفاة أجابك به أهل السنة .

والحاصل : أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي ، بل قد خالف المعقول والمنقول .

وقوله (أو يأتي بعض آيات ربك) أي الدالة على قرب قيام الساعة وهو طلوع الشمس من مغربها، وطلوعها من مغربها هو أحد أشراط الساعة الكبار . وأمارات الساعة ثلاثة أقسام : قسم ظهر وانقضى ، كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم ووقعة الجمل ، وصفين ، ونحوهما ، وملك بني أمية والعباسية ، ونار

الحجاز التي أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى ، وخروج الكذابين المدعين النبوة ، وكثرة المال والزلزال . وقسم متوسط ككون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع وإماتة الصلاة وإضاعة الأمانة والتباهي في المساجد وأكل الربا ونحو ذلك ، وكرفع العلم وكثرة الجهل ، وكثرة الزنا وشرب الخمر ، وقلة الرجال وكثرة النساء وتوسيد الأمور إلى غير أهلها ولحوق حي من الأمة بالمشركين وعبادة فئات من الأمة الأوثان وغير ذلك . والقسم الثالث العلامات العظام التي تعقبها الساعة وهي عشر ، نظمها السفاريني بقوله :

ومـا أتى بالنص من أشراط	فكله حـق بـلا شطـاط
منها الإمـام الخاتم الفصيح	محمـد المهـدي والمسيح
وأنـه يقتـل الدجـال	بباب (لُدٍّ) خلِّ عن جدال
وأمر يأجوج وماجوج اثبت	فإنه حـق كهدم الكعبة
وإن منهـا آيـة الدخـان	وأنـه يذهـب بالقـرآن
طلوع شمس الأفق من دبور	كذات أجياد على المشهور
وآخـر الآيات حشر النـار	كما أتى في محكم الأخبـار
فكلهـا صحت بهـا الأخبار	وسطرت آثارهـا الأخيـار

ففي الآية :

١ ـ دليل لمذهب السلف المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية .
٢ ـ إتيان الملائكة .
٣ ـ إتيان الرب جل وعلا على ما يليق بجلاله وعظمته .
٤ ـ التخويف والوعيد والتهديد لمن كفر بالله وعصاه .
٥ ـ إثبات صفة الكلام لله . إثبات الربوبية .
٧ ـ دليل على علو الله على خلقه .
٨ ـ الرد على من أنكر إتيان الرب أو أوله بتأويل باطل .
٩ ـ الحث على التوبة خوف مفاجأة القيامة العامة أو الخاصة .

١٠ـ الحث على مراقبة الله .

١١ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال .

١٢ـ أن الله قسم ونوع ، ففرق بين إتيان الرب وإتيان الملائكة .

الآية الثالثة : الدك : حط المرتفع بالبسط والتسوية ، ومنه اندكاك سنام البعير إذا انغرس في ظهره ، وناقة دكاً : إذا كانت كذلك قال الشاعر :

ليت الجبال تداعت عند مصرعها دكا فلم يبق من أحجارها حجر

وقوله : (وجاء ربك) أي لفصل القضاء ، (والملك) أي جنس الملائكة (صفا صفا) أي صف بعد صف .

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات المجيء على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ دليل على إتيان الملائكة . ٣ ـ دليل على علو الله على خلقه .

٤ ـ حث على التقلل من الدنيا والعمل للآخرة ٥ ـ إثبات الربوبية .

٦ ـ الرد على من أنكر صفة المجيء أو أولها بتأويل باطل .

٧ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٨ ـ الحث على المراقبة .

٩ ـ الحث على محاسبة النفس والاستعداد لذلك اليوم .

١٠ـ أن ما على الأرض من جبال وقصور وأبنية يزول وتكون قاعا صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا .

١١ـ دليل على هول ذلك اليوم الذي ترجف له القلوب وتخشع له الأبصار

١٢ـ أن الله هو الذي يتولى الحكم والفصل في ذلك اليوم .

١٣ـ أن الملائكة يأتون صفوفا ١٤ ـ دليل على قدرة الله .

الآية الرابعة : يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدائد والأهوال والكروب ومزعجات القلوب ، فقال واذكر يوم تشقق السماء بالغمام

وتنفتح عنه وذلك الغمام ينزل فيه من فوق سمواته وتنزل الملائكة ويحيطون بالخلائق في مقام الحشر •

فقي الآية :

١ ـ إثبات مجيء الله ونزوله ونفس الدليل من الآية على نزول الله لفصل القضاء بين عباده هو أن تشقق السماء مقدمة لنزول الله والنزول والمجيء بذاته سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته كما هو المتبادر من النصوص وأفعاله سبحانه قائمة به فيجب إثباتها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته قال القحطاني :

والله يومئذ يجيء لعرضنا — مع أنه في كل وقت دان
والأشعري يقول يأتي أمره — ويعيب وصف الله بالإتيان

ويؤخذ من الآية :

٢ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال •
٣ ـ الحث على الاستعداد لذلك اليوم ٤ ـ دليل على نزول الملائكة •
٥ ـ الرد على من أنكر المجيء • ٦ ـ إثبات صفة الكلام لله •
٧ ـ دليل على علو الله على خلقه • ٨ ـ دليل على نزول الملائكة •
٩ ـ أن السماء تتغير عن حالتها لعظم ذلك اليوم •

٣٠ ـ (انواع الاتيان والمجيء

وبيان الرد على من أول النزول والمجيء بمجيء الأمر ونحو ذلك

الإتيان والمجيء المضاف الى الله نوعان مطلق ومقيد فإذا كان مجيء رحمته وعذابه ونحو ذلك قيد بذلك كما جاء في الحديث « حتى جاء الله بالرحمة والخير » وكقوله (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) والنوع الثاني الإتيان والمجيء المطلق فهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه كقوله (هل ينظرون

إلا أن يأتيهم الله) وقوله (وجاء ربك والملك صفاً صفا) .

أما الرد على من أول النزول والمجيء بمجيء الأمر وأنه من مجاز الحذف فهذا باطل من وجوه : إحداها أنه اضمار مالا يدل عليه اللفظ لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام وإدعاء حذف مالا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب وبطريق كل مبطل على ادعاء إضمار ما يصحح باطله . الثاني أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار فإضماره مجرد خلاف الأصل فلا يجوز . الثالث : أنه اذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولا على المتكلم بلا علم واخبار عنه بارادة ما لم يقم دليل على ارادته وذلك كذب عليه . الرابع : في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله تعالى : (وجاء ربك والملك) فعطف مجيء الملك على مجيئه سبحانه يدل على تغاير المجيئين وان مجيئه حقيقة كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك وكذلك قوله : (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك) فقسم ونوع ومع هـذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحدا فتأمله ا هـ . (من كلام ابن القيم) .

قال : وأما من قال : يأتي أمره وينزل رحمته وأمره فإن أراد أنه سبحانه إذا نزل وأتى حلت رحمته وأمره فهذا حق وإن أراد أن النزول والمجيء والإتيان للرحمة والأمر ليس الا ذلك فهو باطل من وجوه عديدة قد تقدمت ونزيدها وجوها أخر منها : أن يقال أتريدون برحمته وأمره صفته القائمة بذاته أم مخلوقاً منفصلا سَمَّيتموه رحمةً وأمراً ؟ فإن أردتم الأول فنزوله يستلزم نزول الذات ومجيئها قطعا ، وإن أردتم الثاني كان الذي ينزل ويأتي لفصل القضاء مخلوقا محدثا لارب العالمين وهذا معلوم البطلان قطعا وهو تكذيب صريح فانه يصح معه أن يقال لا ينزل الى السماء الدنيا ويأتي لفصل القضاء وإنما ينزل ويأتي غيره ، ومنها : كيف يصح أن يقول ذلك المخلوق لا أسأل عن عبادي غيري ويقول من يستغفرني فأغفر له ؟ ونزول رحمته وأمره مستلزم لنزوله سبحانه ومجيئه وإثبات ذلك للمخلوق مستلزم للباطل الذي لا يجوز

نسبته إليه سبحانه مع رد خبره صريحاً ومنها أن نزول رحمته وأمره لا يختص بالثلث الاخير ولا بوقت دون وقت ففى كل وقت ينزل امره ورحمته فلا تنقطع رحمته ولا امره عن العالم العلوى والسفلى طرفة عين ا هـ (من مختصر الصواعق)

٣١ـ إثبات الوجه واليدين والعينين

[وقوله (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، (كل شيء هالك إلا وجهه) وقوله ، (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) ، (قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)] .

الآية الأولى : يخبر تعالى أن كل من في الأرض يعدم ويبقى وجهه سبحانه والضمير في عليها يعود على الأرض وإن لم يتقدم لها ذكر لكن يدل على ذلك السياق مثل قوله تعالى (ماترك على ظهرها من دابة) المراد على ظهر الأرض ، وقال (فلولا إذا بلغت الحلقوم) أي بلغت النفس الحلقوم وقال (إنها ترمي بشرر كالقصر) ولم يتقدم للنار ذكر وكقوله (حتى توارت بالحجاب) عليها من بني آدم وغيرهم من الحيوان ولكنه غلب للعقلاء وقوله (ذو الجلال) أي ذو العظمة والكبرياء وقوله (والإكرام) يحتمل أن يكون بمعنى أنه يكرم أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين كما قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) وقيل المستحق لأن يجل ويكرم بتوحيده وتسبيحه وعبادته ، والإجلال والاكرام الأول يتضمن التعظيم والثاني يتضمن الحمد والمحبة وقد دل الكتاب والسنة على إثبات هذه الصفة ، أما الكتاب فهذه الآية والتي بعدها فيها إثبات الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، وأما السنة فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بوجه الله وكان يقول في دعائه « أسألك لذة النظر الى وجهك » وقد أنكرت الجهمية ونحوهم أن يوصف الله بأن له وجهاً وتأولوا ما ورد في ذلك تأويلات فاسدة فمنهم من قال : الوجه صلة والتقدير ويبقى ربك ، ودعوى المجاز في ذلك باطلة ، فان المجاز لا يمتنع نفيه فعلى هذا لايمتنع

أن يقال ليس لله وجه ولا حقيقة لوجهه وهذا تكذيب لما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولو ساغ دعوى الزيادة في ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في صفات أخرى .

وأيضاً فقد ذكر الخطابي والبيهقي وغيرهما أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت الى الوجه فقال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة وأن قوله ذو الجلال والإكرام صفة للوجه وأن الوجه صفة للذات فتأمل قوله (ذو الجلال والإكرام) وأيضاً فإنه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه والوجه في اللغة مستقبل كل شيء لأنه أول ما يواجه منه ووجه الرأي والأمر ما يظهر أنه صوابه وهو في كل محل بحسب ما يضاف اليه فإن أضيف الى زمن كان الوجه زمنا وان أضيف الى حيوان كان بحسبه وإن أضيف الى ثوب أو حائط كان بحسبه ، وإن أضيف الى من ليس كمثله شيء كان وجهه تعالى كذلك ، وأما حمله على الثواب المنفصل فهو من أبطل الباطل فإن اللغة لا تحتمل ذلك ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجها للمجازي ثم إن الثواب مخلوق وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بوجه الله ، فقال « أعوذ بوجهك الكريم أن تظلني ، لا إله الا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » رواه أبو داود وغيره ، ومن دعائه يوم الطائف « أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » ولا يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ بمخلوق ولا يعرف تسمية الثواب وجهاً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ، وقوله صلى الله عليه وسلم « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » فإضافة السبحات التي هي الجلال والنور الى الوجه وإضافة البصر اليه تبطل كل مجاز وتبين أن المراد وجهه .

وقال عبد الله بن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه . فهل يصح أن يحمل الوجه في هذا على مخلوق

أو يكون صلة لا معنى له أو يكون بمعنى القبلة والجهة ؟! وهذا مطابق لقوله عليه السلام « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » فأضاف النور الى الوجه والوجه الى الذات واستعاذ بنور الوجه الكريم فعلم أن نوره صفة له كما أن الوجه صفة ذاتية •

وهذا الذي قاله ابن مسعود تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) وقد اتفق أهل الحق على رؤية المؤمنين لله في الجنة فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة ولا سيما إذا أنكر الوجه والعلو فيعود النظر عنده الى خيال مجرد وحيث ورد الوجه مضافاً الى الذات في جميع ما ورد •

ففي الآية :

١ــ إثبات الربوبية •

٢ ــ أن الله هو المستحق لأن يجل ويكرم •

٣ ــ الرد على من أنكر صفة الوجه أو أولها بتأويل باطل •

٤ ــ الحث على تعظيم الله وإجلاله ومراقبته •

٥ ــ إثبات صفة الوجه لله وأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت •

٦ ــ إثبات قدرته •

الآية الثانية : المعنى أن جميع أهل الأرض وأهل السموات سيموتون ويذهبون إلا ماشاء الله ولا يبقى الا وجهه سبحانه وتعالى ، والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية نظمها السيوطي بقوله :

ثمانيــة حــكم البقــاء يعمها من الخلق والباقون في حَيِّز العَدَم
هي العرش والكرسي ، نار وجنة وعَجْب وأرواح كذا اللوح والقَلَم

وقال ابن القيم : والعرش والكرسي لا يفنيهما أيضاً وإنهما لمخلوقــان

والحــور لاتنفنى كــذلك جنة الـــمأوى وما فيهــا من الولـــدان
والأنبيــاء فإنهمــا تحت الـــثرى أجسامهم حفظــت من الديــدان
مــا للبــلى بلحومهم وجسومهـــم أبــداً وهم تحــت التراب يــدان
وكــذاك عجب الظهر لا يبلى بــلى منـــه تركت خلقــه الانســان
وكذلك الأرواح لا تبـــلى كمــا تبــلى الجســوم ولا بلى اللحمــان

وأما قوله (كل شيء هالك) فإن المراد كل شيء كتب عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء وكذلك العرش فإنه سقف الجنــة والكرسي الى آخرها فان عموم كل في كل مقام بحسبه وتعرف ذلك بالقرائن كقوله تعالى (تدمر كل شيء بأمر ربهــا فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم) ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة ، وكقوله عن بلقيس (وأوتيت من كل شيء) فإن المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك •

وتقول صاحب هذا المعرض كل شيء عنده وأنت تريد الأشياء المناسبة لذلك المعرض وتقول صاحب هذه المكتبة كل شيء عنده وأنت تريد الكثير من الكتب •

ففي الآية :

١ ــ إثبات الوجه لله وأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يمــوت •
٢ ــ اثبات صفة الكلام لله •
٣ ــ رد على منكري صفة الوجه من جهمية أو معتزلة أو نحوهم •
٤ ــ الحث على تعظيم الله وإجلاله ومراقبته •
٥ ــ ان كل شيء مما كتب الله عليه الهلاك والفناء انه يفنى ويهلك •
٦ ــ إثبات قدرة الله •

٣٢ – المضاف الى الله نوعان

النوع الأول : أعيان قائمة بنفسها كبيت الله ، وعبد الله ، وروح الله ، فهـذه إضافتها الى الله تقتضـي الاختصاص والتشريف ، وهي من جملة المخلوقات لله .

النوع الثاني : صفات لا تقوم بنفسها كعلم الله وحياته وقدرته وعزته وسمعه وبصره ويده وإرادته وكلامه ووجهه ونفسه فهذه اذا وردت مضافة إليه فهي من باب اضافة الصفة الى الموصوف وكذلك ما أخبر انه منه فان كان اعياناً كروح منـه قال تعالى « وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً منه » فهذه منه خلقا وتقديرا وان كان ذلك أوصافا كقوله (تنزيل الكتاب من الله) دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى صراط مستقيم .

قال ابن القيم :

والله أخبر في الكتاب بأنـه ... منه ومجرور بمن نـوعان
عينٌ ووصفٌ قائمٌ بالعين فالـ ... أعيانُ خلْقُ الخالق الرحمان
والوصفُ بالمجرور قامَ لأنه ... أولى به في عُرفِ كل لسان
ونظيرُ ذا أيضاً سواءٌ ما يُضا ... فُ إليه مِن صفةٍ ومن أعيان
فاضافةُ الأوصافِ ثابتةٌ لمن ... قامتْ بـه كإرادةِ الرحمن
وإضافةُ الأعيانِ ثابتةٌ لـه ... مُلْكاً وخَلْقاً ما هما سيّان
فانظُر إلى بَيْتِ الإله وعلمه ... لَمَّا أضيفا كيفَ يَفْترِقان
وكلامُه كحياتِه وكعلمِه ... في ذي الإضافة إذهما وَصْفان
لكنّ ناقتَه وبَيْتَ إلهنا ... فكعبدِه أيضاً هما ذاتان
فانظر إلى الجهمي لَمَّا فاتَه الـ ... حَقُّ المبين الواضح التبيان
كان الجميع لديه باباً واحداً ... والصبحُ لاحَ لمَن له عَينان

٣٣ ـ صفة اليدين ، والرد على مدعي المجاز

الآية الثالثة : قال الله تعالى على سبيل الإنكار والتوبيخ والتقريع ﴿ يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ أي : أي شيء منعك وصرفك وصدك عن السجود ، لما توليت خلقه بيدي من غير واسطة ؟ وأضاف خلقه الى نفسه تكريما وتشريفا مع أنه سبحانه خالق كل شيء كما أضاف الى نفسه الروح والبيت والناقة والمسجد ، وفي تثنية اليد أعظم دلالة على أنها ليست بمعنى القدرة أو القوة أو النعمة بل للدلالة على أنهما صفتان من صفاته جل وعلا خلافاً للمبتدعة من جهمية أو معتزلة أو أشاعرة أو من حذا حذوهم .

وخلافاً للمشبهة الذين يشبهون صفات الله بصفات خلقه تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا .

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة اليدين . ٢ ـ فيها صفة الخلق .
٣ ـ إثبات صفة الكلام .

٤ ـ الرد على من أنكر هذه الصفات ، أو شيئا منها ، أو أولها بتأويل باطل .
٥ ـ إثبات قدرته التي لا يعجزها شيء .
٦ ـ فيها ما يدل على فضل آدم .
٧ ـ دليل على خساسة إبليس ولؤمه حيث عصى رب العالمين .
٨ ـ معاتبة العاصي .

الآية الرابعة : يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة أنهم وصفوه تعالى بالبخل كما وصفوه بأنه فقير وعبروا عن البخل بأن قالوا يد الله مغلولة ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، وقوله (غلت

أيديهم) هذا دعاء عليهم ويحتمل أن يكون خبرا ، ويحتمل أن يكون في الدنيا ويحتمل أن يكون في الآخرة ، وان كان في الدنيا فيحتمل أن يراد به البخل ويقوي هذا المحمل أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهودياً وإن كان ماله في غاية الكثرة الا وهو من أبخل خلق الله ، ويحتمل غل أيديهم في الأسر ، وإن كان في الآخرة فهو جعل الأغلال فيهم في جهنم وقوله (ولعنوا) أي أبعدوا وطردوا من رحمته بسبب قولهم •

ففي الآيــة :

١ ـ إثبات اليدين لله وهما من الصفات الذاتية •

٢ ـ إثبات الألوهية •

٣ ـ الرد على من أنكر صفة اليدين أو أولها بتأويل باطل •

٤ ـ دليل على كرم الله وجوده وغناه وفقر الخلائق إليه •

٥ ـ ذم اليهود لعنهم الله على جراءتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته •

٦ ـ إثبات صفة الكلام لله •

٧ ـ أن اليهود متقدم خبثهم وخستهم ولؤمهم •

٨ ـ النهي عن التشـــبه باليهود ، والبعد عنهـم وبغضهم ، لأجل الله جل وعلا •

٩ ـ إثبات قدرته •

١٠ـ أن اللسان يجني على الإنسان ما يكون سبباً لهلاكه وعذابه وقال صلى الله عليه وسلم : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » وقال الشاعر :

واحفظ لسانك واحترز من لفظه   فالمرء يســلم باللسان ويعطب

١١ ـ وصف الله بالصفات الحميدة التي وردت بالكتاب والسنة ، وقد قال بعض المنحرفين إن المراد باليدين النعمة أو القدرة ، ويرد عـلى هؤلاء

المتأولين المنحرفين بما ذكره الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق من وجوه تبطل تحريف الجهمية ومن نحا نحوهم فنذكر بعضها :

(١) أن الأصل في الكلام الحقيقة فدعوى المجاز مخالف للأصل •

(٢) أن ذلك خلاف الظاهر فقد اتفق الأصل والظاهر على بطلان هذه الدعوى •

(٣) أن اطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز ، ألا ترى الى قوله (خلقت بيدي) وقوله (يداه مبسوطتان) وقوله (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) فلو كان مجازا في القدرة أو النعمة لم يستعمل منه لفظ يمين. وقوله في الحديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » فلا يقال هذه يد النعمة أو القدرة وقوله : « يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك » فهنا هز وقبض وذكر يدين ، ولما أخبر صلى الله عليه وسلم جعل يقبض يديه ويبسطهما تحقيقاً للصفة لا تشبيها لها •

(٤) أن مثل هذا المجاز لا يستعمل بلفظ التثنية ولا يستعمل الا مفردا أو مجموعاً كقولك : عندي يد يجزيه الله بها ، وله عندي أيادي ، وأما إذا جاء بلفظ التثنية لم يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية •

(٥) أن ليس في المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة كقوله تعالى : (ان القوة لله جميعاً وكقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وقد يجمع الله النعم كقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) وأما أن يقول خلقتك بقدرتين وبنعمتين فهذا لم يقع في كلامه ولا كلام رسوله •

(٦) أنه لو ثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية لم يجز أن يكون المراد هنا القدرة فإنه يبطل تخصيص آدم فانه وجميع المخلوقات — حتى إبليس — مخلوق بقدرة الله •

(٧) أن هذا التركيب المذكور في قوله (خَلَقْتُ بيدي) يأبى حمل الكلام على القدرة لأنه نسب الخلق الى نفسه سبحانه. ثم عدى الفعل الى اليد ثم ثناها ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قولك كتبت بالقلم ومثل هذا نص صريح لا يحتمل المجاز بوجه .

قال بعدما ذكر عشرين وجهاً : ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ورودا متنوعاً متصرفاً مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط والمصافحة والحثيات والنضح باليد والخلق باليدين والمباشرة بها ، وكتب التوراة بيده ؛ وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم بيده ؛ ووقوف العبد بين يديه : وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة عن يمينه وتخيير آدم بين مافي يديه ، فقال اخترت يمين ربي وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها ، وكتابته على نفسه أن رحمته تغلب غضبه وأنه مسح ظهر آدم بيده ... الخ .

٣٤ ـ إثبات عيني الرحمن جل وعلا

[وقوله (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) ، وقوله (وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا) ، (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني)] .

الآية الأولى : الصبر لغة : الحبس والمنع ، واصطلاحاً حبس النفس على ما تكره تقربا إلى الله ، الحكم لغة : القضاء ، وحكم الله ينقسم الى قسمين حكم كوني قدري وحكم شرعي ديني فالشرعي متعلق بأمره والكوني متعلق بخلقه وهو سبحانه له الخلق والأمر ، وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب فإن المطلوب إن كان محبوبا له فالمطلوب فعله اما وجوبا واما استحبابا وإن كان مبغوضا له فالمطلوب تركه إما تحريما واما كراهة ، وذلك أيضاً موقوفا على الصبر ، فهذا حكمه الديني الشرعي ، وأما حكمه الكوني وهو ما يقضيه وما يقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ففرضه الصبر

عليها ، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء أصحهما أنه مستحب فرجع الدين كله الى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور ، انتهى (من كلام ابن القيم) .

الرب : الملك المتصرف ، وتربيته الناس نوعان تربية خلقية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد ، وتنمية قواهم عليها النفسية والعقلية ، وتربية دينية تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلغوا الناس ما به تكمل عقولهم وتصفوا نفوسهم وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحلل شيئاً ويحرم آخر الا بإذن منه : ــ يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن اصبر على أذاهم ولا تبالي بهم وامض لأمر الله وبلغ ما أرسلت به فإنك بمرأى منا ومنظر ، نراك ونرى أعمالك ونحوطك ونحفظك فلا يصل اليك منهم أذى .

ففي الآيــة :

١ ــ الحث على الصبر .
٢ ــ إثبات صفة الحكم لله .
٣ ــ إثبات صفة الربوبية
٤ ــ إثبات العينين لله .
٥ ــ إثبــات المعيــة
٦ ــ إثبات فعل العبد حقيقة .
٧ ــ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات أو أولها بتأويل باطل .
٨ ــ أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا غيره .
٩ ــ الحث على مراقبة الله . ١٠ ــ النهي عن الجزع .
١١ــ إثبات قدرة الله الذي نواصي الدواب بيده
١٢ــ لطف الله برسوله وحفظه له . ١٣ ــ إثبات صفة الكلام لله .
١٤ــ الحث على الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من الصبر . ١٥ ــ ان الرسول يعاني مشاقاً من الخلق حيث أمر بالصبر .

الآية الثانية : الألواح : خشب السفينة ، الدسر : المسامير . يخبر تعالى عن نبيه ورسوله نوح عليه السلام أنه سبحانه حمله على سفينة ذات خشب

ومسامير ، وأصحاب السفينة وأنها تجري بمنظر منه ومرأى وحفظ لها عن الغرق جزاء لهم على كفرهم وانتصارا لنوح حيث كذبه قومه وكفروا فصبر على دعوتهم واستمر على أمر الله فلم يزده راد ولا صده صاد كما قال تعالى في الآية الأخرى (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) الآية ، ويحتمل أن المراد أهلكنا قوم نوح وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي جزاء لهم على كفرهم وعنادهم .

ففي الآيـة :

١ ــ إثبات العينين لله وهما من الصفات الذاتية على مايليق بجلاله وعظمته
٢ ــ إثبات قدرة الله . ٣ ــ التحذير عن معصية الله .
٤ ــ عناية الله بعبده نوح عليه السلام .
٥ ــ إثبات صفة الكلام لله . ٦ ــ الرد على الجهمية ونحوهم .
٧ ــ في هذه الآية إيماء الى أن الله جل وعلا يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب السنين التي وضعها في الخليقة .
٨ ــ ان المعاصي سبب للعقوبات والانتقام من العصاة .
٩ ــ أنه سبحانه يمهل الظالمين ولا يهملهم .
١٠ ــ ان الله يهدي من أطاعه الى طريق النجاة وينصره .
١١ ــ إن العاقبة للمتقين .

الآية الثالثة : لما ذكر سبحانه منته على عبده ورسوله موسى بن عمران في الدين والوحي والرسالة وإجابة سؤاله ذكر نعمته عليه وقت التربية فقال (ولتصنع على عيني) أي ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي .

ويؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات العينين لله على مايليق بجلاله وهما من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله فيجب إثباتها لله على الوجه اللائق بجلاله وعظمته لثبوتهما بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فقد تقدم ، وأما السنة ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله ليس بأعور

ألا إن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى كأنها عنبة طافية » وفي الحديث الآخر « إذا قام العبد في الصلاة قام بين عيني الرحمن » .

٢ ـ عناية الله بعبده ورسوله موسى عليه السلام ولا حجة للمبتدعة على نفي العينين في إفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر لأن لغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرده أفردوه وإن أضافوا اسم جمع ظاهر أو مضمر فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كقوله (تجري بأعيننا) وإن أضيف إلى ضمير جمع جمعت كقوله تعالى (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون) وإن أضيف إلى مثنى فالأصح في لغتهم جمعه كقوله (فقد صغت قلوبكما) وإنما هما قلبان وقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) وكقول : العرب إضرب أعناقهما ، وهذا أفصح استعمالهم وتارة يفردون المضاف فيقولون لسانهما وقلبهما ، وتارة يثنون فيقولون ظهراهما مثل ظهور الترسين ، وإذا كان من لغتهم وضع الجمع موضع التثنية لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين تثنيتين ولا لبس هناك ، فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما إذا كان المضاف إليه تثنية أولى بالجواز يدل عليه أنك لا تكاد تجد في كلامهم عينان ويدان ونحو ذلك ، ولا يلتبس على السامع قول المتكلم : نراك بأعيننا ونأخذ بأيدينا ، ولا يفهم منه بشر على وجه الأرض عيوناً كثيرة على وجه واحد .

٣٥ ـ إثبات السمع والبصر

« وقوله : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) ، (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) » .

في هذه الآيات وصف الله بالسمع والبصر وأنه تعالى يسمع ويبصر يبصر حقيقة منزه عن صفات المخلوقين ومماثلتهم ، هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها وعلى نحو ذلك دل الكتاب والسنة .

الآية الأولى : المعنى قد سمع الله قول المرأة التي تجادلك في شأن زوجها وهي خولة بنت ثعلبة ، والحال أنها تشتكي إلى الله ضعفها وقلة حيلتها ، وذلك حين ظاهر منها زوجها بعد الصحبة الطويلة والأولاد قالت عائشة رضي الله عنها « تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها ، إن المرأة لتحاور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى علي بعض إذ أنزل الله (قد سمع الله) الآيات » فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه صريح لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه في إثبات صفة السمع لله حقيقة وأنه يسمع بنفسه .

ويؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات الألوهية .

٢ ــ إثبات صفة السمع ، ومن أسمائه تعالى السميع ومعناه الذي لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي فيسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء فأحاط سمعه بجميع المسموعات سرها وعلنها قريبها وبعيدها فلا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات وعلى تفنن الحاجات وكأنها لديه صوت واحد ، وفعل السمع يراد به أربعة معان : أحدهما سمع إدراك ومتعلقة الأصوات ، الثاني : سمع فهم وعقل ومتعلقة المعاني . الثالث : سمع إجابة وعطاء ما سئل ، الرابع : قبول وانقياد . فمن الأول (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) و (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) . ومن الثاني قوله (لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا) ليس المراد سمع مجرد الكلام بل سمع الفهم والعقل ومنه (سمعنا وأطعنا) ومن الثالث: سمع الله لمن حمده وفي الدعاء المأثور « اللهم اسمع ــ أي أجب ــ وأعطني ما سألتك » ومن الرابع : قوله تعالى (سماعون للكذب) أي قابلون له منقادون غير منكرين له ، ومنه على أصح القولين (وفيكم سماعون لهم) أي قابلون ومنقادون ، وقيل عيون وجواسيس وليس بشيء ، إذا عرف هذا فسمع الادراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول يتعدى باللام تارة وبمن أخرى ، وهذا بحسب المعنى فإن كان السياق يقتضي القبول عدى بمن وإن كان يقتضي

الانقياد عدى باللام . وأما سمع الإجابة فيتعدى باللام نحو : سمع الله لمن حمده ، لتضمنه معنى استجاب له . ولا حذف هناك وإنما هو مضمن وأما سمع الفهم فيتعدى بنفسه لأن مضمونه يتعدى بنفسه ، فله تعالى سمع يدرك به المسموعات وبصر يدرك به المرئيات بلاتكييف ، اهـ (من كلام ابن القيم) .

وفي الآية :

٣ ـ إشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها ولهذا ذكر حكمها وحكم غيرها على وجه العموم .

٤ ـ أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر .

٥ ـ إثبات الأفعال الاختيارية ٦ ـ إثبات قدرة الله .

٧ ـ لطف الله بخلقه حيث جعل لهم فرجاً ومخرجاً مما يقعون فيه .

٨ ـ إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

٩ ـ إثبات صفة الكلام .

١٠ ـ الرد على من أنكر صفة السمع أو البصر أو أولهما بتأويل باطل .

١١ ـ الرجوع إلى الحاكم في القضايا والفتاوى .

١٢ ـ تواضع النبي صلى الله عليه وسلم وحلمه .

١٣ ـ إحاطة سمع الله بالأصوات .

١٤ ـ إثبات صفة العلم لله وأنه يعلم الدقيق والجليل .

١٦ ـ الحث على خوف الله ومراقبته .

١٧ ـ مزية الخولة حيث نزل بسبب قضيتها قرآن وحكم من الأحكام

الآية الثانية : سبب نزولها ما ورد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس لما أنزل الله تعالى قوله (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) قالت اليهود يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) المعنى : يخبر تعالى عن هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح مقالة وأشنعها فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهي قتلهم الأنبياء بغير حق وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ، ولا غرابة فهم اليهود الذين مردوا على

النفاق ومردوا على السوآت ، فهم الذين قتلوا الأنبياء قديماً بغير حق ولا ذنب إلا أنهم يقولون ربنا الله ، وأنهم يرشدونهم إلى مصالح الدين والدنيا ، ونسبة القتل إلى اليهود الأحياء مع أنهم لم يباشروه لأنهم راضون عنهم وهم سلفهم ومن أمتهم والأمة تؤخذ بذنب أفرادها ولأنهم بين فاعل القبيح وتارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون مشتركاً بالقوة لا بالفعل ، وهؤلاء اليهود حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وما حادثة أكلته في خيبر ببعيدة وجزاء هؤلاء أن الله سينتقم منهم ويقول لهم تعالى إهانة وتنكيلا بهم وتعذيباً (ذوقوا عذاب الحريق) كما أذاقوا أولياء الله ما يكرهونه .

ويستنبط من الآية :

١ ــ إثبات صفة السمع لله على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ــ إثبات حلم الله . ٣ ــ إثبات صفة الألوهية .

٤ ــ إثبات قدرة الله . ٥ ــ اثبات البعث .

٦ ــ إثبات الجزاء . ٧ ــ إثبات الجنة لمن أطاع الله والنار لمن عصاه .

٨ ــ أن الله يمهل وأن كل شيء محصى .

٩ ــ إثبات صفة الكلام .

١٠ ــ يجب على أفراد الأمة الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره والنهي عنه لئلا يفش فيها فيصير خلقاً من أخلاقها وعـادة مستحكمة فيها فتستحق العقوبة في الدنيا بالضيق والفقر والعقوبة في الآخرة .

١١ ــ أن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة فيستحسن منها ما تستحسنه ويستهجن ما تستهجنه عد شريكاً له في إثمه ومستحقاً لمثل عقوبته .

١٢ ــ أن الجزاء من جنس العمل فكما أذاقوا أولياء الله ألواناً من العذاب قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق) .

١٣ ــ إثبات القول لله .

١٤ ــ هذا الأسلوب يتضمن التهديد والوعيد وليس المراد مجرد الإخبار

بالسمع والكتب لكن المراد مع ذلك الإخبار بما يترتب على ذلك من المجازاة بالعـــدل ٠ ١٥ـــ وجود الحفظة ٠

١٦ـــ دليل خساسة اليهود ولآمتهم حيث وصفوا الله بالفقر تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ٠

١٧ـــ الرد على المعطلة المنكرين لصفة السمع ، والمعتزلة القائلين سميع بلا سمع ، والمنكرين لصفة الكلام ٠

الآية الثالثة : السر : حديث الإنسان بينه وبين نفسه أو غيره في خفية ، والنجوى هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره ، بلى : كلمة تذكر لإثبات نفي سابق ، أي بل أيظنون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك ولا ما يتكلمون به فيما بينهم بطريق التناجي ، بلى إنا نسمع سرهم و نجواهم ، والحفظة الكرام يكتبون ما يصدر منهم من قول أو فعل صغير أو كبير حتى يردون يوم القيامة فيجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ٠

قال صاحب الزينبية :

واحذر مناقشة الحساب فإنه   لا بد يحصي ما جنيت ويكتب
لـــم ينسه الملكان حين نسيته   بـــل أثبتاه وأنت لاه تلعب

يؤخذ من الآية :

١ ـــ صفة السمع على ما يليق بجلاله وعظمته ٠

٢ ـــ أن السر والعلانية مستويان عند الله ٠

٣ ـــ فيها تحذير وتخويف فإن طريقة القرآن يذكر العلم والقدرة تهديداً وتخويفاً لترتيب الجزاء ٠ ٤ ـــ دليل على وجود الحفظة ٠

٥ ـــ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال ٠

٦ ـــ فيها رد على من أنكر صفة السمع أو أولها بتأويل باطل ٠

٧ ـــ التنبيه على مقام الإحسان ٠ ٨ ـــ إثبات صفة الكلام ٠

٩ ـــ إحاطة سمع الله بالسر والعلانية ٠ ١٠ـــ إثبات قدرة الله وعلمه ٠

٣٦ - إثبات الرؤية والسمع والمعية والعلم

« وقوله (إنني معكما أسمع وأرى) ، (ألم يعلم بأن الله يرى) ، (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم) ؛ (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) » .

في الآية الأولى : خطاب لموسى وهارون أن لا يخافا بطش فرعون بهما ومعاجلته لهما بالعقوبة قبل إتمام الدعوة وإظهار المعجزة ، وقوله (أسمع وأرى) أي أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى على من أمركم شيء ، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي فلا تهتما .

ففي الآية :

١ ــ إثبات المعية الخاصة .
٢ ــ الحث على الاعتماد على الله جل وعلا .
٣ ــ إثبات صفة السمع
٤ ــ إثبات صفة البصر .
٥ ــ إثبات قدرة الله
٦ ــ الرد على من أنكر صفة السمع .
٧ ــ الرد على من أنكر الرؤية أو أولها بتأويل باطل .
٨ ــ إثبات علم الله .
٩ ــ إثبات قدرة الله .
١٠ــ إثبات صفة الكلام لله .
١١ــ مزية وشرف لموسى وهارون لما حصل لهما من المعية الخاصة .

الآية الثانية : أي أما علم هذا الناهي عن الهدى بأن الله يراه ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء ، وهذا وعيد شديد ، قيل إن هذه الآية

نزلت في أبي جهل حين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند البيت ، ففي الآية إثبات الألوهية وأن الله يرى •

الآية الثالثة : أي الذي يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة وقت قيامك فيها وتقلبك راكعاً وساجداً وخصها بالذكر لفضلها وشرفها ، ولأن من استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها وبتكميلها يكمل سائـر عمله ويستعين بها على جميع أموره ، إنه هو السميع لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها ، العليم الذي أحـاط علمه بالظواهـر والبواطن والغيب والشهادة ، فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله وسمعه لكل ما ينطق به وعلمه بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والثبات مما يعينه على منزلة الإحسان •

ويستنبط من هذه الآية :

١ ــ إثبات صفة البصر •
٢ ــ إثبات صفة السمع •
٣ ــ إثبات علمه المحيط •
٤ ــ الحث على استحضار قرب الله •
٥ ــ متمسك لمن فضل السمع على البصر •
٦ ــ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات أو أولها بتأويل باطل •
٧ ــ إثبات صفة الكلام • ٨ ــ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد

الآية الرابعة : أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين اعملوا ما شئتم من الأعمال واستمروا على باطلكم فلا تحسبوا أن ذلك سيخفي فلا بد أن يتبين عملكم ويتضح ، قال مجاهد : هذا وعيد ، يعني من الله للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال تعالى (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا ، كما روى الإمام أحمد عن

أبي سعيد مرفوعـاً « لو أن أحدكم يعمل في صخرة ليس لها باب ولا منفذ لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان » .

قال زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ كما روى أبو داود الطيالسي حدثنا الصلت بن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » وقال البخاري قالت عائشة رضي الله عنها « إذا أعجبك حسن عمل امرىء مسلم فقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له فإن العامل يعمل زمناً من عمر أو برهة من دهر ، بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملا سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحاً وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته، قالوا : يا رسول الله : وكيف يستعمله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه .

ففي الآية :

١ ـ إثبات الألوهية . ٢ ـ أن الله يرى .

٣ ـ إثبات البعث .

٤ ـ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال .

٥ ـ صفة العلم . ٦ ـ أن الله لا يضل ولا ينسى .

٧ ـ إثبات صفة الكلام • ٨ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد
٩ ـ إن الله يعلم الغيب والشهادة •
١٠ـ الرد على من أنكر هذه الصفات أو شيئاً منها أو أولها بتأويل باطل •

المكر والكيد

« وقوله (وهو شديد المحال) وقوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وقوله (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) وقوله (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) » •

في هذه الآيات إثبات وصف الله بالمكر والكيد والمماحلة ، وهذه صفات فعلية تثبت لله كما يليق بجلاله وعظمته ، قال علي رضي الله عنه : شديد الأخذ ، وقال ابن عباس : شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة ، وقال أبو عبيدة : شديد العقوبة ، وقيل : شديد المكر ، والمماحلة والمحال المماكرة والمغالبة ، وقال أحد المفسرين في تفسيره : والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون •

والفرق بين أسماء الله التي بلفظ الاسم المضاف أن ما جاء على وجه التسمي به مثل الرحمن الرحيم الحكيم السميع العليم ونحو ذلك ، فهذه أسماء يدل كل واحد منها على صفة من صفات الله ويشتق منها الفعل ، وما جاء بلفظ الاسم المضاف كقوله (يخادعون الله وهو خادعهم) (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وقوله (وهو شديد المحال) فهذا الاسم يطلق على الله بلفظ الإضافة كما ورد ، وبلفظ الفعل ، فيقال : خادع المنافقين ويخادع من خادعه ، إن أخذ الله شديد ويأخذ من عصاه ويأخذ الظالمين ولا يشتق منها اسم فلا يقال من أسمائه المخادع ولا الخادع ولا الشديد ولا الآخذ •

وأما ما ورد بلفظ الفعل كقوله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ، (ومكروا مكرا ومكرنا مكراً وهم لايشعرون) وقوله (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا) فهذا يطلق على الله كما ورد ولا يجوز أن يشتق لله منه اسم فلا يقال من أسمائه الماكر ولا الكائد ، لأنه لم يرد ، وأما تسميته مكرا وكيدا فقيل من باب المقابلة نحو (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ونحو (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وقيل : إنه على بابه ، فإن المكر إظهار أمر وإخفاء خلافه ، ليتوصل به إلى مراده : وهو ينقسم إلى قسمين : محمود ومذموم ، فالقبيح إيصاله إلى من لا يستحقه ، وأما الحسن فإيصاله إلى من يستحقه عقوبة له ، فالأول وهو المحمود منه نسبته إلى الله لا نقص فيها . وأما الثاني وهو المذموم فلا ينسب إلى الله ، فمن المحمود مكره سبحانه بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم وجزاء لهم من جنس عملهم ، وكذا يقال في الكيد كما يقال في المكر ، والله إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة .

وفي المدارج قال : والمكرهوالأخذ في غفلة كما قال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) فنسبه الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى ، والفعل أوسع من الاسم ، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل كأراد وشاء وأحدث ، ولم يسم بالمريد والشائي والمحدث ، كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن ، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق الله أفعالها على نفسه ، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء ، وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل إسماً وبلغ بأسمائه زيادة على الألف ، فسماه الماكر والمخادع والفاتن ونحو ذلك ، وكذا باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به فإنه يخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد ولا يسمى بذلك ا هـ .

وهكذا ما أطلقه على نفسه من صفات العلى أكمل معنى ولفظاً مما لم يطلقه فالعليم الخبير أكمل من الفقيه والعارف ، والكريم الجواد أكمل من السخي ، والخالق البارىء المصور أكمل من الصانع الفاعل ، ولهذا لم تجيء

هذه في أسمائه الحسنى ، والرحيم والرؤوف أكمل من الشفيق ، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الاسماء والصفات والوقوف معها وعدم اطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقا لمعنى أسمائه وصفاته ، وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ ولا سيما اذا كان مجملا أو منقسما الى ما يمدح بسه غيره فانه لا يجوز اطلاقه الا مقيدا وهذه كلفظ الصانع والفاعل فانه لا يطلق عليه فى أسمائه الحسنى الا اطلاقا مقيدا أطلقه على نفسه كقوله تعالى (فعال لما يريد) (يفعل ما يشاء) وقوله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) فإن اسم الفاعل والصانع منقسم في المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم ، ولهذا المعنى والله أعلم لم تجيء في الأسماء الحسنى المريد كما جاء فيها السميع البصير ، ولا المتكلم ولا الآمر الناهي لانقسام مسمى هذه الأسماء بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش في اشتقاقه له من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً فأدخله في أسمائه الحسنى فاشتق له اسم الماكر والخادع والفاتن والمضل والكاتب ونحوها من قوله (ويمكر الله) ومن قوله (وهو خادعهم) ومن قوله (لنفتنهم فيه) ومن قوله (يضل من يشاء) وقوله (كتب الله لأغلبن) ، وهذا خطأ فإنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء فإطلاقها عليه لا يجوز ، فقد أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الاطلاق ثم إن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى الله بها سبحانه فلا يجوز أن يسمى بها ، ولو أن هذا القائل سمي بهذه الأسماء وقيل له هذه مدحتك وثناء عليك فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل الملاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى إطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة ، ولله المثل الأعلى ، ويلزم القائل أن يجعل من أسمائه اللاعن والجاني والآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر وأضعاف ذلك فيشتق له اسما من كل فعل أخبر به عن نفسه ، وإلا تناقض تناقضا بينا ولا أحد من العقلاء طرد ذلك فعلم بطلان قوله والحمد لله رب العالمين اهـ • (من كلام ابن القيم) •

٣٨ - إثبات صفة العفو والمغفرة والقدرة والعزة

[وقوله (إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) ، (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقوله (ولله العزة ولرسوله) وقوله عن إبليس (فبعزتك لأغوينهم أجمعين)]

في هذه الآيات إثبات وصف الله بالعفو والمغفرة والقدرة والعزة •

الآية الأولى :

يخبر تعالى أن فاعلي الخير سراً وجهرا والعافين عن الناس ممن يسيء إليهم يجزيهم ربهم من جنس ما عملوا فيعفو عن سيئاتهم والله من شأنه العفو وهو القدير الذي يعطي الثواب الكثير على العمل القليل •

يؤخذ من الآية :

١ - إثبات علم الله •
٢ - إثبات الألوهية •
٣ - إثبات قدرة الله •
٤ - إثبات صفة العفو •
٥ - دليل على كرم الله وجوده •
٦ - إرشاد الى التفقد في أسماء الله وصفاته •
٧ - أن الخلق والأمر صادر عنها وهي مقتضية له ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى كما في هذه الآية لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب ذلك بأن أحالنا على معرفة أسمائه تعالى ومن أسمائه تعالى العفو ومعناه المتجاوز عن سيئات عباده إذا تابوا وأنابوا ، قال ابن القيم رحمه الله :

وهو العفو فعفوه وسع الورى   لولاه غاض الأرض بالسكان

وهو قريب من اسمه تعالى الغفور ، ولكنه أبلغ منه فإن الغفران ينبىء عن الستر ، والعفو ينبىء عن المحو والمحو أبلغ من الستر ، ولما كان أكمل العفو ما كان من مقدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة ، قرن الله بين اسمه

تعالى العفو واسمه القدير كما في هذه الآية الكريمة ، فالقدير هو الـذي لا يعجزه شيء .

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو القدير وليس يعجزه إذا ما رام شيئاً قط ذو السلطان

٨ ـ الحث على العفو ومكارم الأخلاق والإحسان .

٩ ـ أن العفو والصفح عن الخلق سبب لعفو الله عن العافي .

١٠ـ أن الجزاء من جنس العمل .

١١ـ لطف الله بعباده مع ظلمهم لأنفسهم .

١٢ـ الرد على الجبرية الذين يزعمون أن العبد لافعل له وإنما ينسب إليـه على جهة المجاز .

١٣ـ أن السر والعلانية على السواء عند الله .

١٤ـ إثبات البعث والحساب والجزاء .

الآية الثانيـة :

العفو : الستر والتجاوز والصفح الإعراض، فأصبح معنى الآية : ليعفوا عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم وجنايتهم التي اقترفوها ، وليصفحوا بالإغضاء عن الجاني والإغماض عن جنايته ، ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا وصفح فقـال : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أي بسبب عفوكم وصفحكم عـن الفاعلين للإساءة عليكم وبسبب إحسانكم إليهم (والله غفور رحيم) أي كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم وتقدم الكلام على اسمه تعالى الغفور واسمه الرحيم .

ويؤخذ من الآية :

١ ــ الأمر بالعفو ومكارم الأخلاق ٠
٢ ــ الأمر بالصفح عمن أساء ٠
٣ ــ أن العفو سبب لمغفرة الله ٠ ٤ ــ إثبات صفة المغفرة ٠
٥ ــ إثبات صفة الرحمة ٠
٦ ــ في الآية دليل على أن الجزاء من جنس العمل ٠
٧ ــ فيها دليل على حلم الله ولطفه بعباده مع ظلمهم لأنفسهم ٠
٨ ــ أن الصفح سبب لمغفرة الله للعبد ٠
٩ ــ إثبات فعل العبد وأنه فاعل حقيقة ٠
١٠ــ الرد على الجبرية ٠ ١١ ــ النفقة على القريب ٠
١٢ــ أن النفقة لا تترك بسبب معصية الإنسان ٠
١٣ــ النهي عن الحلف على ترك العمل الصالح ٠
قال بعضهم : إن هذه الآية أرجى آية في القرآن لأن الله أوصى بالإحسان الى القــاذف ٠

١٤ــ ختم الآية بهاتين الصفتين إشارة الى أن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره ٠

١٥ ــ فيها دليل على أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعان قامت به سبحانه فهي أسماء وأوصاف وبذلك كانت حسنى ٠

قال ابن القيم رحمه الله :

أسماؤه دلت على أوصافه ... مشتقة منها اشتقاق معان
وصفاته دلت على أسمائه ... والفعل مرتبط به الأمران
والحكم نسبتها إلى متعلقا ... ت تقتضي آثارها ببيــان

الآية الثالثة :

الجملة حالية أي قالوا ما ذكر والحال أن كل من له نوع بصيرة يعلم أن القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده ، وعزة الله قهره وغلبته لأعدائه ، وعزة رسوله صلى الله عليه وسلم إظهار دينه على الأديان كلها ، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم ، فالمؤمن له من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه ، فإذا فاته حظه من العلو والعزة ، ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علماً وعملا ظاهرا وباطنا فالمؤمن عزيز عال مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أينما كان ولو اجتمع عليه من بأقطارها إذا قام بحقائق الإيمان وواجباته فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد بحسب ما نقص من إيمانه .

ويؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات صفة العزة وهي من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله وهي ثلاثة أقسام : عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين ، وعزة الامتناع فإنه الغني فلا يحتاج الى أحد ولن يبلغ العباد ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه ، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات وكل هذه المعاني ثابتة لله سبحانه وتعالى بمقتضى اسمه العزيز . قال ابن القيم :

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذو السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هــذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معــان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

الآية الرابعة : يخبر تعالى عن إبليس ــ لعنه الله ــ أنه أقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم أي بتزيين الشهوات والمعاصي لهم ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه فقال : إلا عبادك منهم المخلَصين .

ويؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات صفة العزة ٢ ــ جواز الحلف بهــا

٣ ــ أن صفات الله غير مخلوقة إذ الحلف بالمخلوق شرك ، والعزة المضافة الى الله قسمان الأول قسم يضاف إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق الى خالقه وهي العزة المخلوقة التي يعز بها أنبيائه وعباده الصالحين ، وقسم يضاف إليه من باب إضافة الصفة الى موصوف بها كما في هذه الآية وكما في الحديث « أعوذ بعزة الله وقدرته » .

ومما يؤخذ من الآية : الرد على منكري الصفات ومؤليها بتأويل باطل

٤ ــ أن الجن يتكلمون ٥ ــ إثبات صفة الكلام لله .

٣٩ ــ الرد على منكرى الجن

٦ ــ الرد على من أنكر الجن وقد كثر المنكرون لهم في زمننا وغالبهم يستندون في انكارهم ان طريق معرفة وجود الجن هي النظر أو السمع وأنهم لم يروا جناً ولم يسمعوهم ولكن عدم النظر أو عدم السمع أو عدم وصول أحد الحواس الإنسانية الى وجود الجن لا يقوم دليلا على عدم الوجود لا نقلا ولا عقلا .

أما العقل فانه يجوز وجود كائن حي غير مرئي بالعين بدون واسطة المجهر المكتشف أخيراً فان المكروب كائن حي خلقه الله وهو كثير في طبقات الجو لا يمكن رؤيته . ومن لم يقر ويعتقد وجود ماغاب عن نظره وبصره لزمــه انكار الروح أيضا لأنها ليست مرئية ، وهي حقيقة موجودة بها حياة الانسان ومع ذلك لم يرها أحد" ، قال تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي الآية » . وكذا أيضاً يلزمه انكار العقل مع انه حقيقي موجود .

وأما النقل فكثير : فمن الأدلة الدالة على وجودهم قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وقال تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه ان الجن استمعوا لقرائة القرآن فآمنوا به وصدقوا لما

قال وتلى وانقادوا له كما في قوله تعالى « قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآناً عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » الآيات • وقال تعالى « واذ صرفنا اليك نفـرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين » •

وقال تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » الآية • وقال تعالى « ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » الآية • وقال « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي » الآية • وقال تعالى « انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » • وهذا من حكمة الله ولطفه بعباده البشر فلو كشف لنا عن حقيقتهم وسلط نظرنا المحدود على ذواتهم لما أمكن والله أعلم أن يعيش الانسان معهم ، وقال تعالى « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس » • وقال « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » • وقال في من سخر لسليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه » الآيات • الى غير ذلك من الآيات •

وأما السنة فورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (ان عفريتا من الجن تفلّت عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه الى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه فذكرت قول أخي سليمان رب اغفرلي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) • وورد أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم جاءت تزوره وهو معتكف فقام معها مودعاً حتى بلغت باب المسجد فرآه رجلان من الأنصار فسلما عليه فقـال على رسلكما إنها هي صفية بنت حيي فقالا سبحان الله يارسول الله وكبر عليهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يبلغ من الانسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً • وهذا صريح واضح في أن الشيطان يخترق الجسم البشري ويسري فيه كما يسري الدم ومـع خفائه فقد التزم

الشيطان لعنه الله في عداوته سعة أمور أربعة في قوله تعالى « ولا أضلنهم ولا أمنينهم ولا آمرنهم فليبتكن آذان الأنعام فليغيرن خلق الله » وثلاثة منها في قوله تعالى « لأ قعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » . وهذا الالتزام يبين أنه عدو متظاهر بالعداوة ولذلك فصل الله عداوته باشتمالها على ثلاثة أشياء : (السوء) وهو متناول جميع المعاصي من القلب والجوارح ، (والفحشاء) وهي ما عظم جرمه وذنبه كالكبائر التي بلغت الغاية في الفحش وذلك كالزنا واللواط .

وروى مسلم ان فتى من الأنصار قتل حية في بيته فمات في الحال فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان في المدينة جناً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان .

وهكذا تكرر الروايات الصحيحة أن الجن كانوا بالمدينة وقد أسلم بعضهم . وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من مولود يولد الا نخسه الشيطان إلا ابن مريم وأمه) . وزوى مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وقد وكل الله به قرينه من الجن) فرأى الصحابة ان قوله صلى الله عليه وسلم عام فقالوا يا رسول وإياك) أي حتى أنت فقال صلى الله عليه وسلم وإياي (لكن الله قد أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني الا بالخير) .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فإني محتاج ولي عيال وبي حاجة شديدة . قال فخليت عنه فأصبحت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة) قال قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فعل ذلك ثلاث ليال كل ذلك والرسول

صلى الله عليه وسلم يقول أما أنه قد كذبك وسيعود فلما كان في الثالثة قلت لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود فقال دعني أعلّمك كلمات ينفعك الله بها فقلت وما هي قال اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم حتى ختم الآية فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة قلت لا قال ذلك شيطان) .

عن أبي السائب أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته قال فوجدته يصلي فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته فسمعت تحريكا في عراجين في ناحية البيت فالتفت فإذا حية فوثبت لأقتلها فأشار الي أن اجلس فجلست فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال أترى هذا البيت فقلت نعم فقال كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس قال فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع الى أهله فاستأذنه يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ عليك سلاحك فاني أخشى عليك قريظة فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة فأهوى اليها الرمح ليطعنها بـه فأصابته فقالت اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه فما يدري أيهما كان أسرع موتاً الحية أم الفتى قال فجئنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له وقلنا ادع الله يحييه لنا فقال استغفروا لصاحبكم ثم قال إن بالمدينة جناً قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان وفي رواية عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لهذه البيوت عوامر فاذا رأيتم شيئاً منها فحرجوا عليها ثلاثا فان ذهب والا فاقتلوه فإنه كافر وقال لهم اذهبوا فادفنوا صاحبكم » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا

يسمع التأذين فإذا قضي النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى اذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا واذكر كذا ـــ لما لم يذكر من قبل ـــ حتى يظل الرجل ما يدري كم صلى » متفق عليه «التثويب»: الإقامة يخطر : يوسوس •

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليلة حتى أصبح قال « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال أذنه » متفق عليه • عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فأرقد فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة فان توضأ انحلت عقدة فان صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس والا أصبح خبيث النفس كسلان » متفق عليه • قافية الرأس : آخره • وروى مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فانه زاد اخوانكم من الجن » •

وورد في السنة الصحيحة باللفظ الصريح أكل الشيطان وشربه فقد ورد إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويعطي بشماله ويأخذ بشماله وهذا لا يحتاج الى شرح ولا تأويل واضح وبالتالي فلا ينكر الجن إلا انسان لا عقل له منسلخ من الدين الاسلامي بالكلية لأنه مكذب لله ولرسوله ولما أجمع عليه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها والله سبحانه وتعالى أعلم) •

٤٠ـ النفي والاثبات

[وقوله تعالى : (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) وقوله : (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) ، (ولم يكن له كفواً أحد) ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) ، (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله)] •

الآيـة الأولى :

المعنى : تعالت أسماؤه وتعظمت صفاته وتقدست والجلال والعظمة صفتان لله جل جلاله وأما ذكره تباركه سبحانه ففي المواضع التي أثنى فيها على نفسه بالجلال والعظمة والأفعال الدالة على الربوبية والإلهية وحكمته وسائر صفات الكمال من إنزال القرآن وخلق العالمين وجعله في السماء بروجاً وانفراده بالملك وكمال القدرة وتباركه سبحانه من الصفات الذاتية ، والدليل على ذلك أنه يسند التبارك إلى اسمه ، والبركة نوعان بركة هي فعله سبحانه والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة وبأداة في تارة والمفعول منها مبارك وهو كذلك فكان مباركاً كما يجعله الله تعالى والنوع الثاني بركة هي صفته تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها تبارك ولهذا لا يقال لغيره كذلك ولا يصلح إلا له عز وجل فهو سبحانه المبارِك وعبده ورسوله المبارَك كما قال المسيح (وجعلني مُبَارَكاً) فمن بارك الله فيه فهو المبارك وأما صفته فمختصة به كما أطلق على نفسه بقوله (تبارك الله رب العالمين) .

الآية الثانيـة :

العبادة لغة الذل ، وعرفها شيخ الإسلام بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وقيل : إن العبادة غاية الذل مع غاية الخضوع ، قال ابن القيم رحمه الله :

وعبادة الرحمن غاية حبه	مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائـر	ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمـر رسوله	لا بالهوى والنفس والشيطان
فقيام دين الله بالإخلاص والإ	حسـان إنهمـا لـه أصلان
لم ينج من غضب الإله وناره	إلا الذي قامت به الأصلان
والله لا يرضى بكثرة فعلنا	لكن بأحسنه مـع الإيمان
فالعـارفون مرادهم إحسانه	والجاهلون عموا عن الإحسان

وقوله (واصطبر) أي اصبر ، قال الشاعر :

لولا اصطبار لأودى كل ذي مقة   لمـــا استقلت مطاياهن للظعـــن

أي لولا ذلك الصبر ، سمياً : شبيها ومثيلا ، الفاء للسببية لأن كونه رب العالمين سبب موجب لأن يعبد وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى

بها لتضمنه معنى الثبات . والمعنى : إذا علمت أنه المسيطر على مافي السموات والأرض ، وما بينهما القابض على أعنتهما ، فاعبده واصطبر على مشاق العبادة وشدائدها والاستفهام هنا بمعنى النفي أي لا تعلم له شبها ولا مثيلا يقتضي العبادة لكونه منعما متفضلا بجليل النعم وحقيرها ، ومن ثـــم يجب تعظيمه سبحانه غاية التعظيم بالاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له ، وليس المعنى هل تجد من يتسمى باسمه إذ بعضـــ أسمائه قد يطلق على غيره ، لكن ليس معناه إذا استعمل فيه كما كان معناه اذا استعمل في غيره .

ففي الآية :

١ ــ إثبات وحدانية الله   ٢ ــ الأمر بعبادة الله
٣ ــ إثبات الربوبية   ٤ ــ الأمر بالثبات على العبادة
٥ ــ الأمر بالصبر   ٦ ــ نفي الشبيه والمثيل
٧ ــ إثبات صفة الكلام .
٨ ــ الردعلى من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما
٩ ــ الرد على من قال إن كلام الله هو الكلام النفسي
١٠ــ الرد على المشبهة
١١ــ الحث على تعظيم الله والاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه
١٢ــ الأمر بإخلاص العبادة لله وحده
١٣ــ الحث على المراقبة
١٤ــ إقامة البراهين والأدلة على وجوب إفراد الله بالعبادة

١٥ــ وجوب إفراد الله بالعبادة ١٦ــ النهي عن عبادة غير الله

١٧ــ أن الله لطيف بالعباد حيث دلهم وحثهم على عبادته وحده

الآية الثالثة :

قوله (ولم يكن له كفواً أحد) أي لا كفو له في ذاتــه ولا أسمائه ولا في صفاتــه •

ففي الآية :

١ ــ نفي الشبيه والمثيل •

٢ ــ الرد على من جعل لله مكافياً في أسمائه أو في صفاته أو في أفعاله •

٣ ــ الرد على من جعل لله صاحبة أو ولداً •

الآية الرابعة :

قوله تعالى (فلاتجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) الأنداد: الأمثال والنظراء،

هذه الآية ضمنت الدعوة إلى عبادة الله وحده بطريقتين : إحداهما إقامة البراهين بخلقهم وخلق السموات والأرض والمطر ، والثانية : ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام • فذكر سبحانه أولا الربوبية لهم ، ثم ذكر خلقه لهم وآبائهم لأن الخالق يستحق أن يعبد ، ثم ذكر ما أنعم بــه عليهم من جعل الأرض فراشا والسماء بناء ، وإنزال المطر وإخراج الثمرات.لأن المنعم يستحق أن يعبــد ويشكر ، وانظر قوله تعــالى (رزقا لكــم) يــدلك على ذلك لتخصيصه ذلك بهم في ملاطفة وخطاب بديع • الثانيةالمقصود الأعظم من هذه الآية وهو الأمر بالتوحيد لله جل وعلا • • وترك ما عبد من دونه لقوله في آخرها (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) •

وفي الآية :

١ ــ دليل أن الخلق مفطورون على معرفة الله والإقرار به

٢ ــ فيها رد على المشبهة الذين يشبهون خلقه به
٣ ــ فيها رد على الذين يشبهونه بخلقه
٤ ــ فيها رد على القدرية ونحوهم   ٥ ــ النهي عن الشرك
٦ ــ إثبات الألوهية   ٧ ــ إثبات صفة الخلق لله
٨ ــ لطف الله بخلقه   ٩ ــ الرد على المعطلة

الآية الخامسة :

بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم من ظواهر الكون ما يدل على توحيده ورحمته وحكمته ، أخبر أنه مع هذا الدليل الظاهر قد وجد في الناس من لا يعقل تلك الآيات التي أقامها برهاناً على وحدانيته . فاتخذ معه نداً يعبده من الأصنام كعبادة الله ويساويه في المحبة والتعظيم ، والمحبة المذكورة هي المحبة الشركية المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال والإيثار على مراد النفس وهذه صرفها لغير الله شرك أكبر ينافي التوحيد بالكلية .

قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين : وفي معنى الآية قولان ، أحدهما : والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله ، والثاني : والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد لله فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) ، فإن فيها قولان أحدهما يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادا ، والثاني أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ثم بين أن محبة المؤمنون لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم ، وكان شيخ الإسلام يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون

لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة في العذاب (تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ٣٦ ، ٩٧ ، ٩٨) ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ٦) أي يعدلون بـه غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم وهو أصح القولين ا هـ .

ويستنبط من الآية :

١ ــ إثبات الألوهية

٢ ــ أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكاً لله واتخذه نداً لله وأن ذلك شرك أكبر .

٣ ــ أنه سبحانه يحتج على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية .

٤ ــ الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود الله سبحانه .

٥ ــ أن فيها دليل وآية على توحيد الله وإثبات أسمائه وصفاته وكماله وصدق رسله عليهم الصلاة والسلام .

٦ ــ دليل على سخافة عقولهم حيث أحبوا من لا يسمع ولا يبصر .

٧ ــ أن المشركين يحبون الله كما يحبون أندادهم .

٨ ــ دليل على إثبات صفة الكلام .

٩ ــ دليل على إثبات صفة العلم لله .

١٠ــ أن محبة الخوف والتعظيم والإجلال يجب صرفها لله وحده .

٤١ ــ اقسام المحبــة

أقسام المحبة خمسة : الأول محبة الله ، ولا تكفي وحدها للنجاة من النار والفوز بالجنة ، فإن المشركون يحبون الله . والثاني : محبة ما يحبه الله وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام وتخرج من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة . الثالث : محبة في الله ولله ، وهي فرض ، كمحبة أوليائه وبغض أعدائه ، هي من مكملات محبة الله ومن لوازمها ، فالمحبة التامــة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته ، ومن المعلوم

أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ويحب أولياءه .

قال الشيخ رحمه الله على قوله تعالى (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية : فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينفي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب .

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا) الآيتين ، فذكر جملة شرطية تقتضي إنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف لو التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال لو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل إليه .

ومثله قوله تعالى : (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمناً وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ا هـ .

وقال ابن القيم :

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حباً له ما ذاك في إمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة مع خضوع القلب والأركان
والحب نفس وفاقه فيما يحب وبغض ما لا يرتضي بجنان

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال فهذه لا تصلح إلا لله ، ومتى أحب العبد بها غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر .

الخامس : المحبة الطبيعية ، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة المال والولد ونحو ذلك ، فهذه لا تذم إلا إذا أشغلت وألهت عن طاعة الله .

قال الشيخ : حب الإنسان للأمور الدنيوية لا يلام العبد عليه، ولا يعاقب إلا إذا دعا إلى معصية الله ، أو تضمن ترك واجب ، وجامع المال إذا قام فيه بالواجبات ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه ، لكن إخراج الفضل والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم وأفرغ القلب ، وأجمع للهم ، وأنفع للدنيا والآخرة .

وقال الشيخ : ومطالب النفوس وأغراضها نوعان ، منها : ما هو محتاج إليه كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه ، فيكون المال عنده يستعمله في حوائجه بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي حاجته فيه ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، ومنها : ما لا يحتاج إليه العبد فهذا لا ينبغي أن يعلق قلبه بها ، فإذا تعلق قلبه بها كان مستعبداً لها وربما صار معتمداً على غير الله فيها فلا يبقى معه حقيقة العبادة ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله ، ا هـ .

٤٣ - النفي والاثبات

« وقوله : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) ، (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) ، (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً) » .

الآية الأولى : وتسمى آية العز : لما أثبت سبحانه في الآيــة الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص ، فقال : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) كما يقول اليهود والنصارى ومن قال من المشركين إن الملائكة بنــات الله ، تعالى الله عن قولهــم علواً كبيراً ، (ولم يكن له شريك في الملك) أي مشارك له في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعم الثانوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ، (ولم يكن له ولي من الذل) أي لم يحتج إلى موالاة أحد لــذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير ، وقوله (وكبِّره) أي عَظِّمْه وأجلّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وتكبيره سبحانه :

١ ــ يكون بذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته وأنه أغنى عن كل موجــود .

٢ ــ بتكبيره في صفاته بأن يعتقد أن كل صفة من صفاته سبحانه ، فهي صفة جلال وكمال وعظمة وعز ، وأنه منزه عن كل عيب ونقص .

٣ ــ بتكبيره في أفعاله ، فنعتقد أنه لا يجري في ملكه شيء ، إلا وفق حكمته وإرادته .

٤ ــ بتكبيره في أحكامه بأن يعتقد أنــه ملك مطاع لــه الأمر والنهي والخفض والرفع ، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء قال تعالى : (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) .

٥ ــ بتكبيره في أسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

ويستنبط من الآية :

١ ــ الحث على حمده سبحانه لأنه المستحق لأن يحمد لما اتصف به من صفات الكمال .

٢ ــ تنزيهه عن الولد لكمال صمديته ، وغناه ، وتعبد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك .

٣ ـ تنزيهه عن الشريك في الملك المتضمن تفرده بالألوهية والربوبية وسائر صفات الكمال .

٤ ـ نفي الولاية من الذل التي تحميه وتمنعه وتؤيده وتحفظه لأنه قوي عزيز غني عمن سواه . أما الولاية التي على وجه المحبة والكرامة لمن يشاء من عباده فلم ينفها وهي المذكورة في قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) فهذه موالاة رحمة وإحسان ، وأما المنفية فهي موالاة الحاجة والذل .

٥ ـ الرد على من زعم أن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

٦ ـ الرد على الثانوية ونحوهم ممن قال بتعدد الآلهة .

٧ ـ الرد على القدرية .

٨ ـ إثبات الألوهية لله تعالى .

٩ ـ إثبات الملك لله تعالى .

١٠ ـ الحث على مقام الإحسان وتعظيم الله واجلاله .

الآية الثانية : يخبر تعالى أنه يسبح له جميع المخلوقات التي في السموات والتي في الأرض أي تنزهه وتقدسه عما لا يليق بجلاله وعظمته ، وقد اختلف في كيفية هذا التسبيح فقيل هو تسبيح على حقيقته بلسان المقال ويدل على ذلك قوله تعالى : (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) وقوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة وثبت في الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديث حنين الجذع وحديث أن حجرا بمكة كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك من الأدلة . وقيل انه بلسان الحال أي بما تدل عليه صنعتها من قدرة وحكمة فهي تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجود الله وتفرده بالربوبية ووحدانيته ، قال الشاعر :

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقوله (له الملك وله الحمد) أي يختصان به ليس لغيره منهما شيء وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه فهو المالك وحده لجميع المخلوقات النافذ فيها أمره ، يتصرف فيها كيف يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، فلا يعجزه شيء .

يستنبط من الآية :

١ ــ تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته .
٢ ــ إثبات الملك لله وحده .
٣ ــ إثبات الألوهية لله تعالى .
٤ ــ اختصاصه سبحانه بالملك والحمد كما يفيده تقديم الظرف فهو سبحانه المختص به من حيث الحقيقة لأنه مبدىء كل شيء ومبدعه فالملك له بالحقيقة دون غيره ولأن أصول النعم وفروعها منه تعالى فالحمد له بالحقيقة وحمد غيره إنما يقع من حيث ظاهر الحال وجريان النعم على يديه .
٥ ــ إثبات قدرة الله .
٦ ــ الرد على القدرية .
٧ ــ إثبات جميع صفات الكمال ونفي النقائص والعيوب لأن التسبيح يقتضي ذلك .
٨ ــ الرد على المعطلة المنكرين لصفات الله .

الآية الثالثة : تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهم ثم في النبوة لأنها الواسطة ثم في المعاد لأنه الخاتم فقال (تبارك) مأخوذ من البركة وهي النماء والزيادة وهو فعل مختص بالله لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له أي تعاظم وكملت أوصافه ، وكثرت خيراته (الفرقان) أي القرآن

الفارق بين الحلال والحرام ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة والتعبير بنزل بالتشديد لإفادة التدريج في النزول وأنه لم ينزل جملة واحدة وقوله (على عبده) المراد به محمد صلى الله عليه وسلم وإيراده بهذا العنوان ، ولم يقل بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريفا له وإيذاناً بكونه عليه السلام في أقصى مراتب العبودية ، ولذلك وصفه بها في أشرف مقام : مقام الإرسال ومقام الإسراء •

قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله به في مقام الإسراء والضمير في قوله ليكون يعود على محمد صلى الله عليه وسلم وقيل على القرآن والمراد بالعالمين الثقلان الجن والإنس والإنذار الإعلام بسبب المخاوف وهذا الإنذار عام كقوله (لينذر بأساً شديداً من لدنه) والإنذار الخاص كقوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) ، وقوله (له ملك السموات والأرض) أي له التصرف فيهما وحده وجميع من فيهما مماليك له وعبيد له مذعنون لعظمته خاضعون لربوبيته فقراء الى رحمته قال تعالى : (إن كل من في السموات والأرض الا آت الرحمن عبدا) ، وقوله (الذي لم يتخذ ولدا) لكمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة كل شيء إليه وافتقار كل شيء إليه سبحانه وقوله (ولم يكن له شريك في الملك) أي لم يكن له مشارك في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعمه الثانوية والقدرية ونحوهم وقوله : (وخلق كل شيء فقدره) أي : أوجد وأنشأ كل شيء مخلوق ، فيدخل في ذلك كل مافي العالم العلوي والسفلي من حيوان وجماد ونبات ويدخل في ذلك أفعال العباد ولا يدخل في ذلك أسماء الله وصفاته لأن الأسماء والصفات تابعة للذات يحتذى بها حذوها ، وعموم كل في كل مقام بحسبه كقوله سبحانه (تدمر كل شيء بأمر ربها) أي كل شيء أمرت بتدميره وكقوله (وأوتيت من كل شيء) أي من كل شيء يصلح للملوك فلا يدخل في قوله تعالى (خالق كل شيء) القرآن ، لأن القرآن كلامه وهو صفة من صفاته والله سبحانه وتعالى بصفاته غير مخلوق كما في الصحيح من حديث خولة « من نزل منزلا وقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك »

فاستعاذ بكلمات الله والاستعاذة بالمخلوق شرك فدل على أن كلامه سبحانه غير مخلوق كما استدل بذلك أحمد وغيره .

قال ابن القيم رحمه الله : استدل الجهمية على خلق القرآن بهذه الآية فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه سبحانه وكلامه من صفاته وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه فليس لله سبحانه وتعالى أسماء لذات لا نعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين فإن ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان لا وجود له في الأعيان كإلاه الجهمية الذي فرضوه لاداخل العالم ولا خارجه ولا متصل فيه ولا منفصل عنه ولا محايد ولا مباين ، أما إله العالمين الحق فهو الذي دعت اليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته بائن من خلقه موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب فتجريد الذات عن الصفات ، والصفات عن الذات ، فرض وخيال ذهني لا حقيقة له ، انتهى .

وقوله : (فقدره تقديرا) أي فسواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت ، وقيل : قدر لكل شيء تقديرا من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق .

ويستنبط من الآيات :

١ ـ رد على اليهود لقولهم : عزير ابن الله .
٢ ـ رد على النصارى لقولهم المسيح ابن الله .
٣ ـ رد على المشركين القائلين إن الملائكة بنات الله .
٤ ـ الرد على الثانوية ونحوهم ممن يقول بتعدد الآلهة .
٥ ـ الرد على المشركين القائلين في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا تملكه وما ملك .
٦ ـ أن الآية تتضمن تنزيه الله عن كل عيب ونقص .
٧ ـ دليل على أن الله هو الموجد المبدع .

٨ ـ خلق أفعال العباد فهي خلق الله ، وفعل العبد .

٩ ـ إثبات القدر .

١٠ ـ فيها دلالة على التوكل لأن من وقر في قلبه أن الملك لله ، وأنه المتصرف النافع الضار لم يبال بأحد من الخلق .

١١ ـ أن العباد لا يملكون الأعيان ملكاً مطلقاً ، وإنما يملكون التصرف فيها على مقتضى الشرع .

١٢ ـ تحريم الإفتاء بغير علم ، لأن ربوبيته وملكه يمنع من الافتاء والحكم بغير علم .

١٣ ـ إثبات صفة العلم .

١٤ ـ الرد على القدرية الذين نفوا علمه سبحانه ، وهم الغلاة ، فكفرهم السلف .

١٥ ـ الرد على القدرية القائلين ان العباد يخلقون أفعالهم .

١٦ ـ الرد على الجبرية القائلين أن العبد لا فعل له .

١٧ ـ الرد على من قال : إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

١٨ ـ إثبات علو الله على خلقه .

١٩ ـ الرد على الدهرية القائلين ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا .

٢٠ ـ إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته .

٢١ ـ الرد على من أنكر رسالته صلى الله عليه وسلم .

٢٢ ـ التعليل لأفعال الله تعالى وأنه لا يفعل شيئا الا لعلة وحكمة .

٢٣ ـ الدلالة على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

٢٤ ـ الدلالة على أن الجن مكلفون ، وتتضمن الدلالة على أنهم يثابون على الحسنات ، ويجازون على السيئات .

٢٥ ـ أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة لقوله (وأوحِيَ الىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) .

٢٦ ـ إثبات ملك السموات والأرض لله تعالى .

٢٧ ـ إثبات صفة الخلق .

٢٨ ــ الرد على الذين رفعوه صلى الله عليه وسلم فوق منزلته •
٢٩ ــ الرد على الذين نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم •
٣٠ ــ الرد على من زعم أن كلام الله وكلام رسوله لا يفيد اليقين ؛ فلو كان الأمر كما زعم المبتدعة لم يقم بالقرآن حجة على المكلفين •
٣١ ــ الحكمة في إرسال الرسل ، وإنزال الكتب •
٣٢ ــ كمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة الخلائق إليه •
٣٣ ــ أن القرآن منزل غير مخلوق •
٣٤ ــ لطف الله بخلقه حيث أرسل إليهم مبشرين ومنذرين •
٣٥ ــ فيها دليل على عظمة الله وكمال صفاته •
٣٦ ــ فيها دليل على كثرة خيرات الله ونعمه ومن أعظمها إنزال القرآن الكريم •
٣٧ ن أن القرآن نزل منجماً مفرقا •
٣٨ ــ اعتناء الله بكتابه القرآن الكريم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم
٣٩ ــ تسمية القرآن « الفرقان » لأنه فرق بين الحلال والحرام والهدى والضلال •
٤٠ ــ إثبات قدرة الله •
٤١ ــ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال •

٤٤ ــ الدليل على إمتناع وجود إله ثاني)

[وقوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) ، (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)] •

الآية الأولى : ينزه سبحانه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة ثم إنه سبحانه لما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله ثان أوضح ذلك بالبرهان والحجة الباهرة فقال (إذاً) أي : لو كان معه آلهة كما يقول

المشركون (لذهب كل اله بما خلق) أي تفرد بما خلق فلم يرض أن يضاف خلقه وانعامه الى غيره ومنع الآخر من الاستيلاء على ما خلق وهـــذا ممتنع لأنه يقتضى التنافر والانفصال بين أجـــزاء العالم .

والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العـــالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت .

وقوله : (ولعلا بعضهم على بعض) أي ولغلب القوي الضعيف وقهره ، وأخذ ملكه كما هي عادة ملوك الدنيا ، وإذا تقرر عدم إمكان المشارك له في ذلك تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه وتعالى والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل منهما كانا عاجزين والواجب لايكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا . فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا .

وقال الشيخ رحمه الله : فأي شيء اعتبرته من العالم وجدته مفتقرا الى شيء آخر من العالم فيدلك مع كونه ممكناً مفتقرا ليس بواجب بنفسه الى أنه مفتقر الى فاعل ذلك الآخر حتى ينتهي الأمر الى الرب الخالق لكل شيء ويمتنع أن يكون فاعلان مفعول كل منهما مستغن عن مفعول الآخر ، كما قال تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) ويمتنع أن يكونا مستقلين لأنه جمع بين النقيضين ويمتنع أن يكونا متعاونين متشاركين كما يوجد ذلك في المخلوقين لاستلزام ذلك العجز والحاجة الى الآخر .

وقال ابن القيـم :

وشواهد الإحداث ظاهرة على ... ذا العالم المخلوق بالبرهان
وأدلة التوحيد تشهد كلها ... بحدوث كل ما سوى الرحمن
لو كان غير الله جل جلاله ... معه قديماً كان رباً ثان
إذ كان عن رب العلى مستغنياً ... فيكون حينئذ لنا ربان
والرب باستقلاله متوحد ... أفتمكن أن يستقل اثنان ؟
لو كان ذاك تنافياً وتساقطاً ... فإذا هما عدمان ممتنعان
والقهر والتوحيد يشهد منهما ... كل لصاحبه هما عدلان
ولذلك اقترنا جميعاً في صفا ... ت الله فانظر ذاك في القرآن
فالواحد القهار حقاً ليس في الـ ... إمكان أن تحظى به ذاتان

وقوله (سبحان الله عما يصفون) .. ختم سبحانه الآية بتنزيهه نفسه عن الولد والشريك ، وعما يصفه به المخالفون للرسل ، وقوله : (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) في هذه الآية تنبيه على عظمة صفته بأنموذج من صفات الكمال فأخبر أنه هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء وما شاهدوه ، فعلمه سبحانه محيط بكل شيء بالواجبات والممكنات والمستحيلات وبالماضي والحال والمستقبل ، والمراد به الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا فإنهم يقولون من غير علم ، وأنه الذي يعلم الأشياء شاهدها وغائبها، ولا تخفى عليه خافية من أمرها وقد نفى ذلك فخبره هو الحق دون خبرهم وقولهم (فتعالى عما يشركون) أي علا وتنزه وتقدس عما يقول الجاحدون الظالمون ، فهو سبحانه أعظم وأجل من أن يوصف بهذا الوصف .

ويفهم من الآية :

١ ـ تنزيه الله عن الولد
٢ ـ تنزيهه عن وجود إله ثان .
٣ ـ إثبات الألوهية
٤ ـ اثبات توحيد الربوبية .
٥ ـ الرد على النصارى لقولهم المسيح ابن الله .

٦ ــ الرد على اليهود لقولهم عزير ابن الله .
٧ ــ الرد على المشركين القائلين الملائكة بنات الله .
٨ ــ الرد على الثانوية ونحوهم ممن قال بتعدد الآلهة .
٩ ــ إثبات وحدانيته ١٠ ــ إثبات صفة العلم .
١١ ــ اختصاصه سبحانه بعلم الغيب .
١٢ ــ الرد على القدرية النافين لعلم الله .
١٣ ــ أن الله هو المتفرد بالخلق والرزق .
١٤ ــ إثبات كماله وعظمته وغناه .
١٥ ــ فيها دليل على قدرة الله .
١٦ ــ إثبات جميع صفات الكمال لله جل وعلا ونفي كل عيب ونقص لأن التسبيح يقتضي ذلك .

والغيب : ينقسم إلى قسمين : غيب لايعلمه إلا الله وهو ماغاب عن الخلق قال تعالى : (قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) ، والقسم الثاني غيب مقيد وهو ما علمه بعض المخلوقات من الجن والإنس فهو غيب عمن غاب عنه وليس هو غيباً عمن شهده فهذا يكون غيباً مقيداً .

الآية الثانية : ينهى سبحانه عباده عن أن يجعلوا له نداً أو شريكاً أو مثيلا فإنه واحد لا مثيل له لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه وضرب المثل تشبيه حال بحال وقوله (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) تعليل للنهي المذكور ووعيد على المنهي عنه ، أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره وتقدم فيما سبق على شرح قول المصنف « ولا يقاس بخلقه .. إلخ » زيادة لهذا البحث .

ويستنبط من الآية :

١ ــ إثبات الألوهية ٢ ــ إثبات صفة النهي .
٣ ــ النهي عن ضرب الأمثال . ٤ ــ في الآية رد على المشبهة .

٥ ــ الرد على المعطلة •
٦ ــ في الآية تهديد ووعيد لمن جعل الله مثلا أو شبهه بخلقه •
٧ ــ الرد على من أنكر صفة العلم •

الآية الثالثة : الفواحش : جمع فاحشة ، وهي ما عظم جرمه وذنبه ، كالكبائر التي بلغت الغاية في الفحش وذلك كالزنا ، واللواط ، والكبر ، والعُجْب ، والرياء ، والنفاق • والإثم : أي ما يوجب الإثم والذل ، فيتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم • والبغي بغير الحق : التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم من غير أن يكون على جهة القصاص والمماثلة ، والشرك : دعوة لله ودعوة غيره معه ، والسلطان : الحجة والبرهان •

ففي هذه الآيات المحرمات الخمس التي اتفق على تحريمها الرسل والشرائع والكتب ، وهي محرمات على كل أحد وفي كل حال لا تباح قط •• والمراد بالتحريم هنا التحريم الشرعي لا الكوني القدري وقوله (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) أي وحرم الشرك به بأن تجعلوا لله شريكاً ما لم ينزل به سلطاناً ، وحرم سبحانه القول عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وشرعه• وأصل الشرك والكفر القول على الله بلا علم فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس إذ القول على الله بلا علم ، قد يتضمن التعطيل والابتداع في الدين فهو أعم من الشرك والشرك فرد من أفراده ، ورتب هذه المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول على الله بلا علم •

وقال بعض المفسرين : الجنايات محصورة في خمسة أنواع :

١ ــ الجنايات على الأنساب وهي المرادة بالفواحش •
٢ ــ الجنايات على العقول وهي المشار إليها بالإثم •
٣ ــ الجنايات على النفوس ، والأموال ، والأعراض ، وإليها الإشارة بالبغي •

٤ ـــ الجنايات على الأديان وهي من وجهين إما طعن في توحيد الله وإليه الإشارة بقوله (وأن تشركوا بالله) •

٥ ـــ وإما القول في دين الله من غير معرفة وإليه الإشارة بقوله : (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) •

وهذه الخمسة أصول الجنايات ، وأما غيرها فهي كالفروع ومناسبة ذكرها هنا ما فيها من تحريم القول على الله بلا علم ، ومنه القول على الله في أسمائه وصفاته بلا علم ، لأن القول على الله بلا علم أشد تحريماً من الشرك ، لأن الله رتبها في الآية من الأدنى إلى الأعلى • •

وقال ابن القيم رحمه الله :أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة : تعلق القلب بغير الله وطاعة القوة الغضبية والقوة الشهوانية وهي الشرك والظلم والفواحش فغاية التعلق بغير الله الشرك وغاية القوة الغضبية القتل وغاية القوة الشهوانية الزنا ، ولهذا جمع الله الثلاثة في قوله : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) •

وقال الشيخ رحمه الله : ظلم العبد نفسه يكون بترك مـا ينفعها وهي محتاجة إليه وذلك فعل ما أمر الله به وبفعل ما يضرها وذلك المعاصي كلها كما أن ظلم الغير كذلك إما بمنع حقه أو التعدي عليه فإن الله أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم وجاء القرآن بالأمر بالإصلاح والنهي عن الفساد والصلاح كله طاعة والفساد كله معصية وقد لا يعلم كثير من الناس ذلك على حقيقته فعلى المؤمن أن يعلم أن الله يأمر بكل مصلحة وينهى عن كل مفسدة وكل ما أمر الله به راجع إلى العدل وكل ما نهى عنه راجع إلى الظلم ، والظلم الذي حرمه الله على نفسه أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها أو يعاقب البريء على ما لم يفعله من السيئات أو يعاقب هذا بذنب غيره أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك وذلك لكمال عدله وحمده ، اهـ •

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام مخلوق .
٢ ـ إثبات الربوبية .
٣ ـ تحريم الفواحش عامة .
٤ ـ أن الفواحش قسمان ظاهرة وباطنة.
٥ ـ تحريم الإثم .
٦ ـ تحريم الزنا لأنه فاحشة .
٧ ـ تحريم اللواط لأنه فاحشة .
٨ ـ تحريم البغي بغير حق .
٩ ـ أن القصاص بحق يجوز .
١٠ـ تحريم الشرك بالله .
١١ـ أن العلة في ذلك أنه لم ينزل به سلطاناً .
١٢ـ تحريم القول على الله بلا علم .
١٣ـ في الآية رد على الجهمية المنكرين لصفة العلم .
١٤ـ في الآية رد على المعتزلة القائلين عليم بلا علم .
١٥ـ في الآية رد على الأشاعرة المنكرين لبعض الصفات .
١٦ـ أن التحريم والتحليل إنما يكون من عند الله .
١٧ـ شمول الشريعة لكل الأحكام .
١٨ـ الرد على من يقول بعدم كمال الشريعة الإسلامية .
١٩ ـ الرد على من يطالب بالقوانين الوضعية والانظمة المخالفة للشرع
٢٠ـ الرد على المشركين القائلين بأن لأصنامهم ومعبوديهم شفاعة .
٢١ ـ ضرر الشرك على الخلق
٢٢ـ الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل .
٢٣ ـ إثبات صفة العلم ٢٤ ـ اثبات صفة الكلام لله والرد على من أنكرها أو أولها بتأويل باطل ٢٥ ـ قيام الحجة على الخلق .

٢٦ـ تحريم السرقة لأنها من الفواحش ٢٧ ـ تحريم أكل الربا لأنه من الفواحش .

٢٨ ـ تحريم أكل مال اليتيم لأنه من الفواحش ٢٩ ـ تحريم السحر لأنه من الفواحش .

٣٠ ـ تحريم القذف بالزنا أو اللواط لأنه فاحشة .

٣١ ـ تحريم شهادة الزور لأنها فاحشة .

٣٢ ـ تحريم القتل لأنه فاحشة .

٣٣ ـ تحريم التولي يوم الزحف لأنه فاحشة .

٣٤ ـ تحريم اتيان المرأة في دبرها لأنه فاحشة .

٣٥ـ تحريم اتيان من حاضت لأنه فاحشة ٣٦ ـ تحريم سوء الظن بالله لأنه فاحشة . ٣٧ ـ تحريم الطعن بالدين لأنه فاحشة .

٣٨ ـ تحريم سب الرسل لأنه فاحشة .

٣٩ـ ان الشرك جناية على الدين ٤٠ ـ ترتيب المحرمات الخمس

٤١ـ انها حرام في كل زمان ومكان ٤٢ ـ ان البغي ينقسم قسمين محرم وهو ما كان بغير الحق . وجائز وهو ما كان بحق

٤٣ ـ تعظيم حرمة المسلم . ٤٤ ـ ان الفواحش تنقسم الى قسمين ظاهرة وباطنة : ظاهر كالزنا وباطنة كالكبر والعجب ـ حسد وسوء الظن .

٤٥ ـ تحريم التعدي على الناس في أبدانهم وأموالهم لأنه من البغي بغير الحق . ٤٦ ـ ان الجنايات على الأنساب نعتبر من الفواحش .

٤٧ ـ ان الشرك بالله جناية على الدين .

٤٨ ـ ان هذه الآية على ايجازها حوت أحكاماً كثيرة .

٤٩ ـ في الآية ناحية اقتصادية : ترك اللواط والزنا واتـ

٥٠ ـ في الآية ناحية صحية ترك الزنا واللواط ،القتل والفواحش التي تبعث على الهموم وضعف الجسم أو هلاكه .

٥١ ـ في الآية ناحية صحية واقتصادية ترك الخمر .

٥٢ ـ دليل على عظمة الله وانه أحاط بكل شيء علما .

٥٣ ـ الحث على فعل الأوامر وترك النواهي .

٥٤ ــ ان القول على الله بلا علم أعظم من الشرك لأن المحرمات في الآية مرتبــة •

٥٥ ــ في الآية مناسبة لذكرها في كتاب التوحيد لأن الله حرم القول عليه بلا علم ومن ذلك القول عليه بأسمائه وصفاته •

٥٦ ــ ان القرآن شامل لجميع الأديان وناسخ لهــا •

٥٧ ــ في القرآن معجزة من المعجزات لتحقق مضار هذه التي نهى عنها

٥٨ ــ ان الدليل على ذلك ان من لم يحرّم هذه المحرمات الخمس تجد الفساد منتشر في جميع أرجائــه •

٥٩ ــ لطف الله بخلقه حيث أرشدهم الى مافيه صلاح دينهم ودنياهم وأبدانهم •   ٦٠ ــ قيام الحجة على الخلق •

٦١ ــ الحث على الخوف من الله ومراقبته •

٦٢ ــ أن أوامر الله ونواهيه في غاية الحسن فلا يأمر الا بخير ولا ينهى الا عن شر •   ٦٣ ــ ناحية اجتماعية ترك البغي

٦٤ ــ دليل على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم •

٦٥ ــ الرد على من أنكر رسالته صلى الله عليه وسلم •

٦٦ ــ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال •

٦٧ ــ عظم حرمة المسلم وأن البغي عليه بغير حق انتهاك لما حرم الله

٦٨ ــ ان الخلق لم يقدروا الله حق قدره وإلا لما عصوه واقترفوا هذه المحرمات •

٦٩ ــ ان علم الباطن والظاهر عند الله سوى كله يعلمه الله •

٧٠ ــ ان النبي صلى الله عليه وسلم بلغ الأمة ما أمر به •

٧١ ــ دليل على علو الله على خلقه ووجه الدلالة من قوله ما لم ينزّل •

٧٢ ــ دليل لأهل السنّة أن القرآن غير مخلوق وأنه منزّل •

٧٣ ــ جواز القول بالشرع عن عــلم •

٧٤ ــ الحث على طلب العــلم •

٧٥ ــ أن ما لم يكن فاحشة فليس يدخل في المنهي عنه في الآية هذه •

٧٦ ـ ذم الجهـل •

٧٧ ـ اتفاق التحريم الديني الشرعي والتحريم الكوني القدري •

٧٨ ـ دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى وما أتى بـه فهو وحي من الله •

٧٩ ـ اعتناء الله سبحانه وتعالى ولطفه برسوله صلى الله عليه وسـلم

٨٠ ـ أن الخلق لم يهملوا بدون أوامر ونواهي •

٨١ ـ رد على الجبرية •

٨٢ ـ ان أفعال العباد تصدر عنهم باختيارهم وإلا لما كان للأمر فائدة •

٤٥ ـ اقسام الشرك

ينقسم الشرك إلى قسمين : أكبر وأصغر ••

القسم الأول : اتخاذ الند ، بأن يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يحبه كمحبة الله أو يذبح له أو ينذر •

والقسم الثاني : شرك أصغر ، وحده بعضهم بأنه كل وسيلة وذريعة يتطرق بها إلى الأكبر • وذلك كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت ، وكالحلف بغير الله •

قـال ابن القيم رحمه الله : وأمـا الشرك الأصغـر فكيسير : الرياء ، والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت ، لم يكن كذا وكذا ، وقد يكون شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده ، اهـ •

٤٦- اقسام الشرك الاكبر

ينقسم إلى نوعين : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته ، وقسم يتعلق بمعاملته ٠

فالنوع الأول ينقسم الى قسمين : شرك تعطيل ، وينقسم الى ثــلاثة أقسام : وتقدمت أقسامه فيما سبق ، والثاني شرك تمثيل وينقسم الى قسمين وتقدما أيضاً فيما سبق ٠

النوع الثاني : وهو ما يتعلق بمعاملته ، وينقسم الى أقسام ، الأول : شرك الدعوة المشار إليه بقوله تعالى : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) ، الثاني : شرك في المحبة كما ذكر الله عن بعض الناس بقوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) ، الثالث : شرك في الطاعة المذكور في قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الرابع : شرك الإرادة والقصد قال الله تعالى (ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) الآية ٠

والفرق بين الشرك الأكبر والأصغر :

(أولا) أن الأكبر لا يغفر لصاحبه ، وأما الأصغر فتحت المشيئة ٠

(ثانياً) الأكبر محبط لجميع الأعمال ، وأما الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قارنه ٠

(ثالثاً) أن الأكبر مخرج عن الملة الإسلامية ، وأما الأصغر فلا يخرج منها

(رابعاً) أن الشرك الأكبر صاحبه خالد في النار وأما الأصغر فكغيره من الذنوب ، وقيل إنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة كالأكبر وهــذا أقرب ، والله أعــلم ٠

٤٧ - استواء الله على عرشه

[وقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) في سبعة مواضع : في سورة الأعراف قوله (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال في سورة يونس : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) ، وقال في سورة الرعد : (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) ، وقال في سورة طه (الرحمن على العرش استوى) وقال في سورة الفرقان (ثم استوى على العرش الرحمن) وقال في سورة السجدة (الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال في سورة الحديد (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش)] .

في هذه الآيات إثبات صفة الاستواء لله وهو من الصفات الفعلية ، ومعنى الإيمان بالاستواء : الاعتقاد الجازم بأن الله فوق سمواته مستوي على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته علي على خلقه بائن منهم وعلمه محيط بكل شيء . ومعنى الاستواء العلو والارتفاع والاستقرار والصعود .

قال ابن القيم :

ولهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وقد ار ... تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيبان
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن
والأشعري يقول تفسير استوى ... بحقيقة استولى على الأكوان

فهذه الأربعة هي التي تدور عليها تفاسير السلف رحمهم الله، قال البخاري رحمه الله في صحيحه : قال مجاهد : استوى على العرش ، علا . وقال إسحاق

ابن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون (الرحمن على العرش استوى) أي راتفع ، وقال محمد بن جرير في قوله (الرحمن على العرش استوى) : أي علا وارتفع ، وأنكـر الجهمية والمعتزلة علو الله على خلقـه واستواءه على عرشه وحرفوا معاني النصوص ففسروا الاستواء بالاستيلاء أو الإقبال على خلق العرش إلى غير ذلك من التأويلات الباطلة ، فإنه لا يقال استولى على الشيء إلا لمن له مضاد ، فيقال لمن غلب من المتضادين : استولى عليه ، والله تعالى لا مضاد له ، والذين أولوا الاستواء بالاستيلاء متأخروا النحاة ممن سلك طريق الجهمية والمعتزلة ، والذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلا وإنما قالوه استنباطاً وحملا منهم للفظة استوى على استولى ، واستدلوا بقول الشاعر :

قـد استوى بشر على العراق من غـير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت محرف وإنما هو هكذا :

* قد استولى بشر على العراق *

على أنه لا يصح ولا يعرف قائله ولو صح لم يكن فيه حجة لهم بل هو حجة عليهم وهو على حقيقة الاستواء ، فإن بشراً هذا كان أخا عبد الملك بن مروان وكان أميراً على العراق فاستوى على سريرها كما هي عادة الملـوك ونوابها أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هـذه اللفظة في اللغة .

وأيضاً فاستواء الشيء على غيره يتضمن استقراره وثباته وتمكنه عليه ، واستواء بشر على العراق يتضمن استقراره وثباته عليها ودخوله دخـول مستقر ثابت غير مزلزل ، وهذا يستلزم الاستيلاء أو يتضمنه فالاستيلاء لازم معنى الاستواء لا في كل موضـع بل في الموضـع الذي يقتضيه ولا يصلح الاستيلاء في كل موضع يصلح فيه الاستواء بل هذا له موضع وهذا له موضع ولهذا لا يصح أن يقال : استولت السنبلة على ساقها ، ولا استولت السفينة

على الجبل ، ولا استولى الرجل على السطح ، إذا ارتفع فوقه ، ولو كان المراد بالبيت استيلاء القهر والملك لكان المستوي على العراق عبد الملك بن مروان لا أخوه بشر لأنه نائب له بخلاف الاستواء الحقيقي وهو الاستقرار فيهـا ، والجلوس على سريرها ، فإن نواب الملك تفعل هذا بإذنهم ، ومما يبطل دعوى المجاز تجريد الاستواء من اللام واقترانه بحرف على وعطف فعله ثم على خلق السموات والأرض وكونه سابقاً في الخلق على السموات والأرض وذكر تدبير أمر الخلق معه الدال على كمال الملك فإن العرش سرير المملكة فأخبر أن له سريراً كما قال أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهل   ربنـا في السماء أمسى كبـيرا
بالبنـا الأعلى الذي سبق الخـلق وسوى فوق السماء سريرا

وصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستشهده الأسود بن سريع ، فقد استوى على سرير ملكه يدبر أمر الممالك ، وهذا حقيقة الملك فمن أنكر عرشه وأنكر استواءه عليه أو أنكر تدبيره ، فقد قدح في ملكه ، فهذه القرائن تفيد القطع بأن الاستواء على حقيقته ، ولو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر والدوام لجاز أن يقال استوى على ابن آدم وعلى الجبل وعلى الشمس وعلى القمر وعلى البحر وعلى الشجر وعلى الدواب وهذا لا يقوله مسلم وقد أطلق أعلم الخلق بربه عليه أنه فوق العرش كما في حديث ابن عباس : (والعرش فوق المـاء والله فوق العرش) وهذه الفوقية هي تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة .

ومن الوجوه التي يرد بها على من أول الاستواء بالاستيلاء ، على أن الاستواء خاص بالعرش والاستيلاء عام على جميع المخلوقات ، ومنها أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وأخبر أن عرشه على الماء قبل خلقهما ، والاستواء متأخر على خلقهن ، والله مستول على العرش قبل خلق السموات وبعده فعلم أن الاستواء على العرش الخاص غير الاستيلاء العام عليه وعلى غيره ، ومنها أن معنى الكلمة مشهور كما قال بعض السلف ، وأنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً لم يحتج الإمام مالك رحمه الله أن يقول والكيف مجهول ، لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي ما قد علم أصله

ومنها أنه يلزم من تفسير الاستواء بالاستيلاء أن الله مستوى على الأرض ، ومنها أن إحداث القول في كتاب الله الذي كان السلف والأئمة على خلافه يستلزم أحد أمرين إما أن يكون خطأ في نفسه أو تكون أقوال السلف المخالفة له خطأ ولا يشك عاقل أنه أولى بالغلط والخطأ من أقوال السلف ، ومنها أن هذا اللفظ قد اطرد في القرآن والسنة حيث ورد لفظ الاستواء دون الاستيلاء ولو كان معناه استولى لكان استعماله في أكثر موارده كذلك ، قال رحمه الله :

وكذلك اطردت بلا لام ولو ... كانت بمعنى اللام في الأذهان
لأتت بها في موضع كي يحمل البـاقي عليهـا في المحـل الثـاني

فإذا جاء في موضع أو موضعين بلفظ استوى حملا على معنى استولى لأنه المألوف المعهود وأما أن يأتي لفظ قد اطرد استعماله في جميع موارده على معنى واحد فيدعى صرفه في الجميع إلى معنى لم يعهد استعماله ففي غاية الفساد ولم يقصد ويفعله من قصد البيان ، ا هـ . (من كلام ابن القيم بتصرف).

وأنواع الاستواء في لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم اثنان مطلق ما لم يقيد بحرف كقوله تعالى (ولما بلغ أشده واستوى) ومعناه كمل وتم .

وأما المقيد فثلاثة أقسام مقيد بإلى كقوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) ومعناه العلو والارتفاع بإجماع السلف ، والثاني مقيد بعلى (كقوله لتستووا على ظهوره) وقوله (واستوت على الجودى) وقوله تعالى (فاستوى على سوقه) فهذا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة ، والثـالث المقرون بواو المعية كقولهم : استوى الماء والخشبة ، ومعناه ساواها ، فهذه معاني الاستواء المعقولة .

الآية الأولى من أدلة الاستواء : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) لما بسط القول فيما سلف في أمر المعاد وبين فئات الناس في ذلك اليوم وما يدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة قفى على ذلك بذكر الخلق والتكوين وبيان مقدوراته وعظيم

مصنوعاته لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وأنه لا معبود سـواه فأخبر تعالى أنه خلق العالم العلوي والسفلي أي السموات والأرض وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة : هو يوم الأحد والاثنين خلق فيهما الأرض ، قال تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلـق الأرض في يومين) والثلاثاء والأربعاء دحاها فيهما بأن جعل فيها رواسي مـن فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها قال تعالى (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) ، والخميس والجمعة خلق فيها السموات قال تعالى (فقضاهن سبع سموات في يومين) فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام مع أنه قادر على خلقهما في لحظة ، ولكنه مع أنه على كل شيء قدير كما قال تعالى (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فهو حكيم رفيق يحب الرفق ، فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقهما في هذه المدة المقدرة ليُعَلِّمَ العباد الرفق والتثبيت في الأمور ، والمتبادر أن الأيام الستة كهذه وقوله (ثم استوى على العرش) أي استواء يليق بجلاله وعظمته لا نكيفهُ ولا نمثله ولا يعلم كيف هو إلا هو ، وقد روى عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل (الرحمن على العرش استوى) قالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر • وقـد أسنـــد مسلم بن الحجـــاج عنهـا عـــن النبـي صلى الله عليـه وسلم وقال الإمام مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، ومعنى ذلك أي أن الاستواء في لغة العرب معلوم والكيف مجهول، أي كيفية استوائه جل وعلا لا يعلمها إلا هو والإيمان بالاستواء واجب لتكاثر الأدلة في إثباته والسؤال عن الكيفية بدعة إذ لا يعلم كيفية استوائه إلا هو ، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات فإثباتنا للصفات إثبات بلا تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل •

وأما العرش في اللغة فهو السرير قال تعالى عن يوسف (ورفع أبويه على العرش) وقال عن ملكة سبأ (ولها عرش عظيم) وأما عرش الرحمن الذي

استوى عليه فهو عرش عظيم كما قال تعالى (وهو رب العرش العظيم) وهو محيط بالمخلوقات وهو أعلاها وأكبرها كما في حديث أبي ذر أن النبي صلى الله وسلم قال : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

قال الشيخ رحمه الله : معنى الاستواء معلوم وهو التأويل والتفسير الذي يعرفه الراسخون في العلم والكيفية هي التأويل المجهول لبني آدم وغيرهم لا يعلمه إلا الله وكذلك ما وعدنا به في الجنة تعلم العباد تفسير ما أخبر الله به ، وأما كيفيته فقد قال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) فإذا كان هذا في المخلوقات فالخالق أعظم فإن مباينة الله لخلقه وعظمته وكبريائه وفضله أعظم وأكثر مما بين مخلوق ومخلوق .

وقال : والله تعالى لا يعلم عباده الحقائق التي أخبر عنها من صفاته وصفات اليوم الآخر ولا يعلمون حقائق ما أراد الله بخلقه وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها .

ففي الآية الأولى :

١ ـ إثبات الربوبية .
٢ ـ إثبات الألوهية . ٣ ـ إثبات صفة الخلق .
٤ ـ دليل على استواء الله على عرشه .
٥ ـ إثبات علو الله على خلقه . ٦ ـ إثبات قدرة الله .
٧ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بقدم المخلوقات .
٨ ـ إثبات أسماء الله وصفاته . ٩ ـ إثبات العرش .
١٠ـ إثبات الأفعال الاختيارية المتعدية واللازمة .

١١ـ أن الاستواء صفة فعل . ١٢ـ أن الاستواء خاص بالعرش .

١٣ـ أن الاستواء على العرش بعد خلق السموات والأرض .

١٤ـ تحديد الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض .

١٥ـ الإرشاد إلى التأني في الأمور والصبر والرفق لأن الله قادر على خلقها في لحظة قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

١٦ـ الرد على الجهمية ومن نحا نحوهم من المؤولين للاستواء بالاستيلاء.

١٧ـ أن هذه المخلوقات دليل على وجود خالقها ومدبرها .

١٨ـ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات أو أولها تأويل باطل .

١٩ـ وفيها إضافة الفعل والخلق إليه سبحانه على جهة الحقيقة لأنها الأصل وقد رد ابن القيم رحمه الله على من زعم أن خلقه وفعله مجاز من وجوه عديدة .

٢٠ـ دليل على عظمة الله خالق هذه المخلوقات العظيمة .

٢١ـ دليل على أولية الله .

٢٢ـ دليل على حكمة الله التي بها وضع هذه المخلوقات في مواضعها وأحكمها وجعلها متقنة في نظام معتدل متزن ، ذلك تقدير العزيز العليم .

٢٣ـ رد على من قال أن السموات أفضية منسابة يؤيد الرد عليه قوله تعالى (والسماء ذات الحبك) وقوله (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) وإخباره صلى الله عليه وسلم أنه عرج به إلى السماء فلم يدخل سماء منها هو وجبريل إلا بعد الاستفتاح وفتح الباب لهما .

الآية الثانية : قال في سورة يونس (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) هذه الآية مثل آية الأعراف حرفاً بحرف لفظها كلفظها فمعناها وما يؤخذ منها كالأولى سواء بالضبط فنكتفي بما ذكرنا عن الأولى صفحة ١٩٨ وفيها من الرد على من قال أن السموات أفضية منسابة ما لا يخفى على ذوي النهي .

الآية الثالثة : آية سورة الرعد وهي قوله (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) في هذه الآية يخبر الله تعالى عن كمال

قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض بُعداً لا تنال ولا تدرك فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء .

وقوله : (بغير عمد ترونها) روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا أنهم قالوا لها عمد ولكن لا ترى ، وقال إياس بن معاوية السماء على الأرض مثل القبة ، بمعنى بلا عمد ، وكذا روي عن قتادة ، وهو اللائق بالسياق من قوله (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فعلى هذا يكون قوله (ترونها) تأكيداً لنفي ذلك أي مرفوعة بغير عمد كما ترونها وهذا هو الأكمل في القدرة وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه ، كما ورد في الحديث ، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه :

وأنت الذي من فضل منٍ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له أأنت رفعت هذه ... بلا عمد ارفق إذاً تلك بانيا
وقولا له أأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ماجنك الليل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه العشب يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤسه ... ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

ففي الآية :

١ ـ إثبات الألوهية .
٢ ـ إثبات قدرة الله التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء .

٣ ـ إثبات صفة الاستواء . ٤ ـ إثبات صفة العلو لله .

٥ ـ دليل على إثبات العرش ، والعرش لغة هو السرير الذي للملك كما قال تعالى عن بلقيس (ولها عرش عظيم) فالعرش سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات قال البيهقي اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم خلقه وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق بيتاً في الأرض وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله .

٦ ـ في الآية دليل على استواء الله على العرش بعد رفع السموات .

٧ ـ في الآية رد على الجهمية ومن سلك سبيلهم ممن فسر الاستواء بالاستيلاء لأنه تحريف وزيادة في كتاب الله وحمل له على غير ما يحتمل .

٨ ـ الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود خالقها ومدبرها وأنه وحده المدبر والمسخر لهذه المخلوقات وهي مستلزمة للعلم بصفات كماله وتضمن ذلك بأنه المعبود الحق وأن عبادة غيره باطلة إذ ما سواه عاجز والعاجز لا يصلح للإلهية .

٩ ـ الرد على من قال إن ما فيه سماء إنما هو فضاء يؤيد ذلك ما ذكر حول الآية الأولى .

١٠ـ إرشاد الخلق إلى التفكر والتدبر في مخلوقات الله .

الآية الرابعة آية سورة طه :

١ ـ فيها دلالة واضحة على إثبات استواء الله على عرشه .

٢ ـ فيها رد على من زعم أن ذلك مجاز عن القهر أو الاستيلاء .

٣ ـ دليل على إثبات العرش وأنه مخلوق .

٤ ـ الرد على من زعم أن معنى العرش الملك .

٥ ـ دليل على علو الله على خلقه .

٦ ـ إثبات قدرة الله التي لا يعجزها شيء .

٧ ـ إثبات صفة الرحمة لله جل وعلا وفي الآية الحث على محبة الله الذي شملت رحمته كل شيء .

الآية الخامسة . آية سورة الفرقان وفيها .

١ ــ إثبات صفة الرحمة • ٢ ــ إثبات صفة الاستواء •
٣ ــ إثبات قدرة الله • ٤ ــ إثبات العرش •
٥ ــ الرد على من زعم أن معنى العرش الملك •
٦ ــ دليل على علو الله على خلقه وأدلة الاستواء كلها أدلة على علو الله على خلقه •

الآية السادسة : آية ألم السجدة : وهي مثل آية الاعراف وآية يونس إلا أنهما افتتحا في بقوله تعالى (إن ربكم) وهذه افتتحت بلفظ الجلالة فالمعنى وما يؤخذ منها متقارب إلا أنهما فيهما إثبات الربوبية •

الآية السابعة : آية سورة الحديد : وهي مثل آيــة الأعراف ويونس والسجدة ، إلا أن لفظ الجلالة ليس فيها ، وقد ذكرها ابن عدوان في نظمه لهذه العقيدة مرتبة فقال :

وذكر استواء الرب جــل جلاله   على العرش في سبع المواضع فاعدد
ففي سورة الأعراف ثمت يونس   وفي الرعد مــع طه فللعد أكد
وفي سورة الفرقان ثمت سجدة   كذا في الحديد إفهمه فهم مؤيد

٤٨ ـ علو الله على خلقه

[وقوله تعالى : (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي) ، (بل رفعه الله إليه) ، (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ، يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى إله موسى ، وإني لأظنه كاذبا) ، (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير)] •

الآية الأولى : للعلماء فيها قولان : أحدهما أنه من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ومتوفيك أي إني رافعك الآن ومميتك بعد النزول من السماء في الحين الذي قدر لك وعلى هذا فهو قد رفع حياً بجسمه وروحه، وأنه سينزل آخر الزمان حكما عدلا : يقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبلَ موته) والضمير في قوله (قبل موته) يعود الى عيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض ، ونزوله ثابت وهو أحد أشراط الساعة الكبار ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً مقسطاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » .

وقال شيخ الإسلام : والصواب الذي عليه المحققون أن عيسى لم يمت بحيث فارقت روحه بدنه بل هو حي مع كونه توفي ، انتهى .

والقول الثاني : أن الآية على ظاهرها وأن التوفي هو الإماتة العادية التي كتبها الله على الخلق .

ففي الآيـة :

١ ــ إثبات صفة الكلام لله . ٢ ــ إثبات علو الله على خلقه .
٣ ــ إثبات قدرة الله .
٤ ــ الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي .
٥ ــ أن عيسى رفعه الله إلى السماء وقبضه إليه .
٦ ــ في الآية رد على اليهود الذين تنقصوا عيسى وجعلوه ابن زنا .
٧ ــ الرد على النصارى الذين غلوا فيه ورفعوه فوق منزلته الى مقام الربوبية ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

الآية الثانيـة :

١ ـ فيها دليل على علو الله على خلقه .

٢ ـ فيها إثبات قدرة الله .　　٣ ـ فيها رد على اليهود والنصارى .

٤ ـ فيها إثبات صفة الكلام لله والرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسـي .

٥ ـ فضل عيسى حيث رفعه الله إليه .

٦ ـ عناية الله برسله وأوليائه ولطفه بهم .

الآية الثالثة : قوله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) : أي أنه سبحانه يقبل طيب الكلام كالتوحيد والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والعمل الصالح يرفعه : صلاح العمل بالإخلاص فيـه ، وما كان كذلك قبله وأثاب عليـه ورفعه الله إليه كالكلم الطيب وقيل العمل الصالح يرفع الكلم الطيب فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي ترفع كلمة الطيب فإذا لم يكن له عمل صالح لم يرفع له قول إلى الله . وعن الحسن : لا يقبل الله قولا إلا بعمل فمن قال وأحسن قبل الله منه .

والخلاصة : أن القول إذا لم يصحبه عمل لا يقبل ، قال تعالى (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ، وقال بعضهم في هذا المعنى :

لا تَرْضَ مِن رَجُلٍ حلاوةَ قَولِهِ　　حتى يُزَيِّنَ ما يَقُولُ فِعَـالُ
وإذا وَزَنْتَ فِعَـالَه بِمَقَالِهِ　　فَتَـوَازَنَا فإخَاءُ ذاكَ جَمَالُ

ففي الآيـة :

١ ـ إثبات علو الله على خلقه .

٢ ـ صعود أقوال العباد وأعمالهم .

٣ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينكر صفة العلو .

٤ ــ أن الله يقبل طيب الكلام ويرفعه إليه •

٥ ــ ان الاخلاص شرط لقبول العمل • قال ابن القيم : العمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة •

٦ ــ إثبات قدرة الله •

٧ ــ أن الأعمال محفوظة ومحصاة على العباد •

٨ ــ الحث على الأعمال الصالحة •

٩ ــ الحث على الاستكثار من الكلم الطيب •

١٠ــ الحث على الإخلاص •

الآية الرابعة : قوله (يا هامان ابن لي صرحاً) الآية •

مفردات الآية : فرعوان : ملك القبط في الديار المصرية ، وفرعون لقب لكل من ملك مصر ، هامان : وزير فرعون ، الصرح : القصر الشامخ المنيف الأسباب : واحدها سبب ، وهو ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو سلم أو طريق ، والمراد هنا الأبواب • قال زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

فاطلع : فانظر إليه نظر مشرف عليه بالنصب على جواب الترجي عند الكوفيين فإنهم يجوزون النصب بعد الفاء في جواب الترجي كالتمني ، ومنع ذلك البصريون وخرجوا النصب هنا على أنه في جواب الأمر وهو ابن ، كما في قوله :

يا ناقُ سِيْرِي عَنَقًا فَسِيْحاً إلى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحَا

وجوزوا أن يكون بالعطف على خبر لعلى بتوهم أن فيه لأنه كثيرا ما جاء مقرونا بها أو على الأسباب على حد :

* ولبس عباءة وتقر عيني

المعنى : بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف تكبر فرعون وجبروته أبان هنا أنه بلغ من عتوه وتمرده وافترائه في تكذيب موسى أن أمر وزيره هامان أن

يبني له قصرا شامخا منيفاً من الاجر ليصعد به إلى السماء ليطلع الى إلــه موسى ثم قال وإني لأظنه كاذبا ، أي فيما ادعاه من أن له إلهاً غيري وأنــه أرسله ، وأراد بذلك التمويه والتلبيس على قومه توصلا بذلك إلى بقائهم على الكفر .

ففي الآيــة :

١ ــ دليل على علو الله على خلقه ووجه الدلالة من الآية الكريمة هو أن موسى كان يدعو فرعون الى معرفة ربه بأنه فوق السماء فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح ورام الاطلاع إليه ولم يرم الاطلاع عليه في أقطار الأرض .

٢ ــ الرد على الجهمية ونحوهم من نفاة العلو مع أن علو الله سبحانه مما تواطأ عليه العقل والنقل وفطر الله عليه الخلق فإن الصبيان إذا تضرعوا الى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء .

٣ ــ دليل على حماية الله لرسله ٤ ــ أن نواصي الخلق بيد الله جل وعلا ٥ ــ تمكن العتو والتمرد في فرعون لعنه الله .

٦ ــ شجاعة موسى عليه السلام حيث أبلغ هذا العاتي الطاغي .

٧ ــ ثقة موسى بربه وقوة توكله عليه .

٨ ــ أن الله يقيم حجة على خلقه يؤيد ذلك قوله عز من قائل(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).

٩ ــ الرد على من أنكر رسالة موسى ١٠ ــ ان فرعون مــع تعمقه بالكفر لم يكن ينكر وجود السموات .

١١ ــ ان التلبيس والتمويه سجية متقدمة لا سيما عند الطغاة .

١٢ ــ في الآية دليل على أن فرعون كان بمكان عظيم من الجهــل وبمنزلة سافلة من فهم الحقائق .

١٣ ــ أن القصور الشامخة كانت في قديم الزمان .

الآيتان الخامسة والسادسة : المفردات : يخسف بكم : يغيبكم فيها ، تمور : تضطرب ، حاصباً : ريحاً شديدة فيها حصباء . نذير : أي إنذاري

وتخويفي والأمن ضد الخوف ، أي أأمنتم عقاب من في السماء وهو الله إن عصيتموه وهذا عند أهل السنة على وجهين إما أن يراد بالسماء العلو وإما أن تكون في بمعنى على كما في قوله (فامشوا في مناكبها) وقوله (ولأصلبنكم في جذوع النخل) لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .

والمعنى : بعد أن ذكر جل ذكره ما أعد للكافرين وما أعد الذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والأجر الكبير ، ثم ذكرهم بنعمه كصلاحية الأرض للمعيشة ، ثم حذرهم عاقبة التمادي في الباطل وأن من الحكمة أن لا يأمنوا زوال النعم ، فإن الله قادر على سلبهم إياها فبعد أن تكون ذلولا ترجف وتضطرب وينالهم خسف وهلاك ، حتى تبتلعهم ، كما خسفها بقارون ، ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على علو الله على خلقه ، وقد تواترت في ذلك الأدلة واتفقت على إثبات العلو له سبحانه .

فمن أدلة علو الله مع ما سبق التصريح بالفوقية مقروناً بأداة من المعينة للفوقية بالذات كقوله (يخافون ربهم من فوقهم) .

الأول:أدلة استواء الله على عرشه كلها تدل على العلو .

الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة كقوله (وهو القاهر فوق عباده) .

الثالث : التصريح بالعروج نحو (تعرج الملائكة والروح إليه) .

الرابع : التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وشرفاً وقدرا كقوله تعالى (وهو العلي العظيم) ، (وهو العلي الكبير) ، (سبح اسم ربك الأعلى) .

الخامس : التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) ، (تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته) ، (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) .

السادس : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض كقوله (إن الذين عند ربك) ، (وله من في السموات والأرض ومن عنده) ففرق بين من له عموماً وبين من عنده من ملائكة وعبيد خصوصاً وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه أنه عنده فوق العرش .

السابع : التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصا بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات مصاحبا في الأكثر لأداة ثم الدالة على الترتيب والمهلة .

الثامن : التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى كقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا » .
التاسع : التصريح بنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة .

العاشر : الإشارة إليه حساً الى العلو كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم قال لهم إنكم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون قالوا نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعاً لها الى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلا اللهم اشهد .

الحادي عشر : التصريح بلفظ الأين كقول أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه أين الله في غير موضع .

الثاني عشر : شهادته صلى الله عليه وسلم لمن قال إن ربه في السماء بالإيمان .

الثالث عشر : إخباره صلى الله عليه وسلم أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة .

الرابع عشر : النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة وإخباره صلى الله عليه وسلم أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب فلا يرونه إلا من فوقهم ، وعلوه سبحانه كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة . أما ثبوته بالعقل فمن وجوه : أحدها العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر .

الثاني : أنه لما خلق العالم فإما أن يكون خلقهم في ذاته أو خارجاً عن ذاته والأول باطل بالاتفاق لأنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات ، تعالى عن ذلك علواً كبيرا . والثاني يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته فيكون منفصلا فتعيين المباينة لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول .

الثالث : كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية لأنه غير معقول فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله ، قال بعضهم :

وقد فطر الله العظيم عباده على أنه من فوقهم ذلهم سلوا
لهذا تراهم رافعين أكفهم إذا اجتهدوا عند الدعاء إلى العلو
أقروا بهذا الاعتقاد جبلة ودانوا به مالم يصدوا ويخذلوا

وقال ابن القيم مشيراً الى بعض أدلة العلو :

وإليه يصعد كل قول طيب وإليه يرفع سعي ذي الشكران
والروح والأملاك منه تنزلت وإليه تعرج عند كل أوان
وإليه أيدي السائلين توجهت نحو العلو بفطرة الرحمن

وإليه قد عرج الرسول فقدرت   من قربه من ربه قوسان
وإليه قد رفع المسيح حقيقة   ولسوف ينزل كي يرى بعيان
وإليه يصعد روح كل مصدق   عند الممات فتنثني بأمان
وإليه آمال العباد توجهت   نحو العلو بلا تواصي اثنان
بل فطرة الله التي لم يفطروا   إلا عليها الخلق والثقلان
ونظير هذا أنهم فطروا على   إقرارهم لا شك بالديان

قال شيخ الإسلام : إذا عرفت تنزيه الرب عن صفة النقص فلا يوصف بالسفول ولا علو شيء عليه بوجه من الوجوه بل هو العلي الأعلى الذي لا يكون إلا أعلى وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء وأنه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من الأفعال اللازمة والمتعدية لا النزول ولا الاستواء ولا غير ذلك فيجب مع ذلك إثبات ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله والأدلة العقلية توافق ذلك ولا تناقضه ولكن السمع والعقل يناقضان البدع المخالفة للكتاب والسنة والسلف من الصحابة والتابعين يقرون أفعاله كالاستواء والنزول وغيرهما على ماهي عليه •

وقال : فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له كما أن عظمته وكبرياءه كذلك فأما الإستواء فهو فعل يفعله تعالى بمشيئته وقدرته ، ولهذا قال (ثم استوى على العرش) ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية والعلو من الصفات السمعية العقلية إ هـ .

وقد نفت الجهمية المعطلة علو الله على خلقه وقالوا إنه في كل مكان بذاته وأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا محايثه تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا • وتأولوا فوقيته بقولهم إن هذا مثل قول الناس في الذهب وأنه فوق الفضة أي فوقية القدر والأمير فوق الوزير وهذا مما تنفر منه العقول السليمة   قال ابن القيم رحمه الله :

وأصخ لفائدة عظيم قدرها   تهديك للتحقيق طول زمان
إن الكلام إذا أتى بسياقه   يبدى المراد لمن له أذنان
أضحى كنص قاطع لايقبل التأويل   يعرف ذا أولوا الأذهان

فسياقــة الألفاظ مثــل شواهــد الــ أحوال إنهما لنــا صنــوان
إحداهمــا للعين مشهــود بهــا · لكــن ذاك لمسمــع الإنســان
فاذا أتى التأويــل بعد سياقــة تبــدي المراد أتى على استهجــان
وأذا أتــى الكتمان بعد شواهــد الــأحوال كان كأقبــح الكتمــان
فتــأمل الألفــاظ وانظر ما الذي سيقت لــه إن كنت ذا عرفــان
والفوق وصف ثابت بالذات من كل الوجــوه لفاطر الأكوان
لكن نفاة الفوق ما وفوا به جحدوا كمــال الفوق للديان
بل فسروه بأن قدر الله أعــلى لا بفــوق الذات للرحمن
قالوا وهذا مثل قول الناس في ذهبٍ يرى من خالص العقيان
هو فوق جنس الفضة البيضاء لا بالذات بــل في مقتضى الأثمان
والفوق أنواع ثلاث كلهــا لله ثابتــة بــلا نــكران
هذا الذي قالوا وفوق القهر والــفوقية العليا عــلى الأكوان

٤٩ - المعية العامة والخاصة

[وقوله : (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) (ما يــكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) وقوله : (لا تحزن إن الله معنا) ، (إنني معكما أسمع وأرى) (إن الله مع الــذين اتقوا والذين هم محسنون) ، (واصبروا إن الله مــع الصابرين) ، (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)]•

في هذه الآيات إثبات معيته لخلقه والمعية الواردة في الكتاب والسنة نوعان : معية عامة ومن مقتضاها العلم والإحاطة والاطلاع • قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره في آية المجادلة : ابتدأها بالعلم وختمها به حيث قال (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) ثم قال آخرها (إن الله بكل شيء عليم) •

والنوع الثاني من المعية : المعية الخاصة ومن مقتضاها الحفظ والنصر والتأييد والتوفيق والحماية عن المهالك .

الآية الأولى : يخبر تعالى عن خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن وتقدم الكلام على أول هذه الآية في أدلة صفة العلم وقوله (وهو معكم الخ ..) أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، فهذه معية العلم والاطلاع والإحاطـة .

ويستنبط من الآية :

١ ــ إثبات صفة الخلق . ٢ ــ اثبات الأفعال الاختيارية .
٣ ــ اثبات السموات . ٤ ــ إثبات صفة العلم لله تعالى .
٥ ــ إثبات علو الله على خلقه . ٦ ــ الرد على من أنكر صفة العلو أو صفة الخلق .
٧ ــ المعية العامة . ٨ ــ تحديد الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض .
٩ ــ إرشاد الخلق الى التأني في الأمور .
١٠ ــ إثبات القوة . ١١ ــ إثبات البصر .
١٢ ــ إثبات سعة علمه سبحانه . ١٣ ــ الرد على الجهمية ومن نحا نحوهم من المؤولين للاستواء بالاستيلاء .
١٤ــ أن هذه المخلوقات دليل على وجود خالقها ومدبرها .
١٥ــ إثبات قدرة الله . ١٦ــ دليل على سعة علم الله .
١٧ــ إثبات صفة الكلام .
١٨ــ أن الله غني عن العرش وغيره وإنما خلقه لحكمة .
١٩ــ إثبات صفة الاستواء على العرش على ما يليق بجلاله وعظمته .
٢٠ــ إن استواء الله على عرشه بعد خلق السموات والأرض .
٢١ــ في الآية رد على من أول الاستواء بالاستيلاء ووجه الدلالة على

جميع الخلق متقدم واستواءه على العرش بعد خلق السموات والأرض •

٢٢ــ في الآية ما يدع الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة من الله •

٢٣ــ في الآية ما يبعث على الحذر من المعاصي والمأخذ من قوله وهو معكـم • • الخ •

٢٤ــ دليل على سعة رحمة الله وحلمه على الكافر والعاصي حيث لـم يعاجلهم في العقوبـة وهـو الذي خلقهم ورزقهم وجعل لهم أرضـه قراراً التي عصوه فيهـا •

٢٥ــ أن العباد لم يقدروا الله حق قدره وإلا لما عصوه واستعانوا بنعمه عـلى المعصيـة •

٢٦ــ دليل على أن العباد لم يهملوا ويتركوا سـدى •

٢٧ــ أن الله يعلم كـلما دخـل في الأرض من مياه وكنوز وأموات وبـذور ووحـوش الخ •

٢٨ــ أن الله يعلم مايخرج من الأرض من نبات ومعادن ومياه وغيرذلك •

٢٩ــ أن الله يعلم مـا ينزل من السماء من ملائكة وأرزاق ومصائب وحـر وبـرد الخ •

٣٠ــ أن الله يعلم ما يعرج في السماء من حفظة وأعمال وغير ذلك ممـا يعلمـه الله •

٣١ــ في الآية رد على القدرية المنكرين لعلم الله وكل من سلك سبيلهم •

٣٢ــ في الآية رد على من قال إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات •

٣٣ــ في الآية مـا يدل على عظمة الله لأن عظمة المخلوق دالة عـلى عظمـة الخـالق •

٣٤ــ في الآية رد على من أنكر السموات وقال ما فيه إلا فضاءمنسابة •

٣٥ــ دليل على إحاطة الله بالخلق القريب منهم والبعيد والدقيق والجليل

٣٦ــ في الآية دليل على البعث والنشور والمأخذ من قوله بما تعملون بصير

٣٧ــ في الآية دليل على الحشر والجزاء على الأعمال والجنة والنار

٣٨ــ لطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى أنهم غير مهملين •

٣٩ــ أن القريب والبعيد في علم الله على السواء •

٤٠ـ دليل على أن الله غني عن العالمين لا يحتاج إلى أعوان وأنصار •
٤١ـ دليل على إثبات العرش وأنه مخلوق لله جل وعـلا •
٤٢ـ الحث على مراقبة الله •
٤٣ـ أن تقدير الأيام متقدم على خلق السموات والأرض •
٤٤ـ أن سمع الله جل وعلا لا تحول دونه الاستار والحجب •

الآية الثانية : النجوى : التناجي ، والمسارة ، أدنى : أقل ، فينبئهم : يخبرهم يقول تعالى : ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم ولا خمسة إلا هـو سادسهم ويعلم مـا يقولون ومـا يدبرون ، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد ولا أقل منها إلا وهو عليم بنجواهم ، وعليم بزمانها ومكانها ، لا يخفى عليه شيء من أمرها ثم ينبئهم أي يخبرهم أي المتناجين بما عملوا من خير وشر ، وقال ابن القيم رحمه الله : وتأمل كيف جعل نفسه رابع ثلاثة ، وسادس الخمسة إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل وقال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) فإنهم ساووا بينهم وبين الاثنين في الألوهية • والعرب تقول رابـع أربعة وخامس خمسة وثالث ثلاثة ، لمـا يكون فيه المضاف إليـه من جنس المضاف كما قال تعالى (ثاني اثنين إذهما في الغار) رسول الله صلى الله عليـه وسلم وصديقه فإن كان من غير جنسه قالوا رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة •

ويفهم من الآية :

١ ـ أنها دليل على المعية العامة ٢ ـ إثبات صفة العلم •
٣ ـ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال ، والبعث
٤ ـ الحث على مراقبة الله
٥ ـ الرد على من قال إن القرآن من كلام محمد صلى الله عليه وسلم
٦ ـ إثبات صفة الكلام
٧ ـ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات ، أو أولها بتأويل باطل

٨ ـ الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي .
٩ ـ إثبات الألوهية ١٠ـ شمول علمه وإحاطته بكل شيء

الآية الثالثة : وهي من أدلة المعية الخاصة ففيها حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي بكروهما في الغار ، وقد أحاط المشركون بفم الغار عند ما خرجوا في طلبه عليه السلام فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحزن إن الله معنـا » .

ففي الآيـة :

١ ـ دليل على المعية الخاصة ٢ ـ الحث على التوكل على الله .
٣ ـ ما كان النبي صلى الله عليه وسلم عليه من ثقته بربه .
٤ ـ إثبات الألوهية لله .
٥ ـ مزية لأبي بكر رضي الله عنه ، ولذلك قال العلماء من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فهو كافر لإنكاره كلام الله .

الآيات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة : هذه الآيات كلها من أدلة المعية الخاصة .

في الآية الرابعة : خطاب لموسى وهارون أن لا يخافا بطش فرعون بهما ومعالجته لهما بالعقوبة قبل اتمام الدعوة وإظهـار المعجزة ، وقوله : (إنني معكما) تعليل لموجب النهي ومزيد تسلية لهما ، وقوله : (أسمع وأرى) أي أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علي من أمركم شيء ، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ، ولا يبطش إلا بإذني ، وبعد أمري وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي ، فلا تهتما .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات المعية الخاصة ٢ ـ الحث على الاعتماد على الله
٣ ـ إثبات السمع ٤ ـ إثبات البصر
٥ ـ إثبات قدرة الله تعالى

الآية الخامسة : تقدم الكلام على تعريف التقوى والإحسان في صفة المحبة وأما ما يؤخذ منها :
١ ـ إثبات الألوهية ٢ ـ معيته الخاصة للمتقين والمحسنين
٣ ـ أن التقوى والإحسان سبب لحفظ الله ونصره وتأييده للعبد القائم بهما .
٤ ـ الحث على التقوى والإحسان .

الآية السادسة : الصبر : حبس النفس على ما تكره تقرباً إلى الله تعالى ، وهو ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معاصي الله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة .

قال الشيخ رحمه الله : والله تعالى مدح الصبر والشكر في كتابه فقال (إن في ذلك لآيات لكل صبار وشكور) فالصبر والشكر على ما يقدره الرب بعبده من السراء والضراء ، من النعم والمصائب التي يبلوه بها والسيئات فعليه أن يتلقى المصائب بالصبر والنعم بالشكر ومن النعم ما ييسره له من أفعال الخير ومنها ما هي خارجة عن أفعاله فيشهد القدر عند فعله الطاعات وعند إنعام الله عليه فيشكره ويشهده عند المصاب فيصبر ، وأما عند الذنوب فيكون مستغفراً تائباً وأما من عكس شهد القدر عند ذنوبه وشهد فعله عند الحسنات فهو من أعظم المجرمين ومن شهد فعله فهو قدري ومن شهد القدر فيهما ولم يعترف بالذنب ويستغفر فهو من جنس المشركين وأما المؤمن فيقول أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي ا هـ .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات المعية الخاصة .

٢ ـ الحث على الصبر وإثبات الألوهية .

٣ ـ أن الصبر سبب لحفظ الله ونصره وتأييده لمن صبر ، ووثق بالله وتوكل عليه .

الآية السابعة : الفئة : الجماعة ، بإذن الله : أي بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته ، ويفهم من الآية :

١ ـ المعية الخاصة .

٢ ـ الحث على الصبر المؤدي إلى التوكل والثقة بالله عند الشدائد ، ومدلهمات الحوادث ، والرجوع إليه إذا فدح الخطب ، وعظم الأمر ، فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له .

٣ ـ إثبات قضاء الله وقدره وإرادته .

٤ ـ أن النصر من عند الله لا عن كثرة عدد ولا عدد ، وإنما تلك أسباب .

٥ ـ أن الصبر من أعظم الأسباب في تحصيل المقصود .

٦ ـ إثبات الألوهية .

٥ ـ الفروق بين المعيتين

١ ـ العامة من مقتضاها العلم والإحاطة والإطلاع على جميع الخلق .

٢ ـ المعية العامة من الصفات الذاتية ، وأما الخاصة فمن الصفات الفعلية

٣ ـ العامة تكون في سياق التخويف والمحاسبة على الأعمال ، وحث على المراقبة .

٤ ـ الخاصة من مقتضاها الحفظ والعناية والنصرة والتوفيق والتسديد ، والحماية من المهالك واللطف بأنبيائه ورسله وأوليائه .

٥ ـ أن الخاصة مرتبة على الاتصاف بالأوصاف الجميلة والأخلاق الحميدة .

إثبات صفة الكلام لله

[وقوله : (ومن أصدق من الله قيلا) ، (ومن أصدق من الله حديثاً) ، (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم) ، (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) ، (وكلم الله موسى تكليما) ، (منهم من كلم الله) ، (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) ، (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) ، (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) ، (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) ، (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) ، (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) ، (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) ، يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) ، (واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) ، (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) ، (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) ، (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) ، (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) ، (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) ، (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)] .

في هذه الآيات الكريمات إثبات صفة الكلام لله حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته وحقيقة الإيمان بصفة الكلام لله أنه الاعتقاد الجازم بأن الله متكلم بكلام قديم النوع ، حادث الآحاد ، وأنه لم يزل يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء ، وأنه يتكلم بحرف وصوت بكلام يسمعه من شاء من خلقه سمعه منه موسى ، والأبوان بلا واسطة ، ومن أذن له من ملائكته ورسله ، وأنه يكلم المؤمنين ويكلمونه في الآخرة ، هذا مذهب أهل السنة والجماعة .

وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أنه سبحانه يتكلم بمشيئته ، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته وهو صفة ذات وفعل .

وقد دلت النصوص على أن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلام الله حقا لا تأليف ملك ولا بشر ، وأنه سبحانه الذي قال بنفسه (المص) و (حمعسق) و (كهيعص) .

الآيتان الأولى والثانية : من : لفظة استفهام ، ومعناه ، لا أحد أصدق من الله في حديثه ولا أحد أصدق من الله قولا ولا خبراً وهذا إخبار منه تعالى بأن حديثه وإخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق ، بل هي أعلاها ؛ فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله بـه فهو باطل لمناقضته الخبر الصادق .

ففي الآيتين :

إثبات صفة الكلام .
٢ ـ أنها صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته .
٣ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي .
٤ ـ إثبات الألوهية .
٥ ـ أنه لا أحد أصدق من الله قولا ولا خبراً .

الآية الثالثة : هذا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائـلا له يوم القيامـة بحضرة من اتخذه وأمـه إلهين من دون الله (يا عيسى . . الخ) .

وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد ، وهـذا السؤال لإظهار براءة عيسى ابن مريم عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الظالمين .

ففي الآية :

١ ـ إثبات القول لله سبحانه وأنه يقول متى شاء إذا شاء وأن الكلام

والقول المضاف إلى الله سبحانه قديم النوع حادث الآحاد ، وفيه دليل على أنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله .

٢ ـ الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي إذ المعنى المجرد لا يسمع .

الآية الرابعة : قد تطلق الكلمة على الجملة والطائفة من القول في غرض واحد فإذا كتب أحد أو خطب في موضوع ما ، قيل كتب أو قال كلمة ، وكانوا يسمون القصيدة كلمة ، وقالوا كلمة التوحيد يعنون (لا إله إلا الله) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد » : يريد قوله :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

والمعنى : وتمت كلمة ربك ، صدقاً فيما قال ، وعدلا فيما حكم ، فهو صدقاً في الإخبار وعدلا في الطلب فكل ما أخبر به فهو حق لا مرية فيه ولا شك وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه وكل ما نهى عنه فباطل فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة كما قال (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) والمراد بكلمة ربك : أمره ونهيه ووعده ووعيده فما وعد به رسوله من النصر وما أوعد به المستهزئين من الخذلان والهلاك ، تم كما تم في الرسل وأعدائهم من قبل كما قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) فتمامها صدقاً هو حصولها على الوجه الذي أخبر به ، وتمامها عدلا باعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون ، والمؤمنين بما يستحقون أيضاً ، وقد يزادون على ذلك فضلا من أن الله ورحمة وقوله (لا مبدل لكلماته) قال ابن عباس : لا راد لقضائه ولا مغير لحكمه ولا خلف لوعده .

والخلاصة : أنه لا يستطيع أحد من الخلق أن يزيل كلمات الله بكلمات أخرى تخالفها أو تمنع صدقها ، ولا يستطيع أن يصرفها عما رأاده الله بها قال

تعالى (والله يحكم لا معقب لحكمه) وقال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، وقال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) •

وكلمات الله نوعان :

النوع الأول : كونية قدرية وهي التي استعاذ بها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » وكقوله (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) •

قال ابن القيم :

والله ربي لم يزل متكلماً ... وكلامه المسموع بالآذان
صدقاً وعدلا أحكمت كلماته ... طلباً وإخباراً بلا نقصان
ورسوله قد عاذ بالكلمات من ... لدغ ومن عين ومن شيطان
أيعاذ بالمخلوق حاشاه من الإ ... شراك وهو معلم الإيمان
بل عاذ بالكلمات وهي صفاته ... سبحانه ليست من الأكوان

النوع الثاني : الكلمات الدينية وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي أمره ونهيه ، وقوله (وهو السميع العليم) أي السميع لأقوال العباد العليم بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازى كل عامل بعمله ، وتقدم الكلام على اسمه تعالى السميع واسمه العليم •

ففي الآية :

١ ــ إثبات الربوبية •   ٢ ــ إثبات صفة الكلام لله •
٣ ــ أنه ليس لكلمات الله مبدل ولا معقب في الدنيا ولا في الآخرة •
٤ ــ أنه لا أحد أصدق ولا أعدل من الله عز وجل •
٥ ــ إثبات صفة السمع •   ٦ ــ إثبات صفة البصر •
٧ ــ الحث على مراقبة الله •   ٨ ــ حفظ كلمات الله وأحكامها •
٩ ــ الرد على من قال بالقوانين الوضعية .

٩ ــ أنه لا أحسن من كلمات الله ولا أبلغ ولا أصدق منها •

١٠ــ الحث على العدل • ١٢ــ النهي عن الكذب •

١٣ــ النهي عن الجور •

١٤ــ أن أحكام الله نافذة على كل الخلق •

١٥ــ أن الله لا يخلف الميعاد • ١٦ــ التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم •

١٧ــ الوعيد لمن خالف الرسل •

١٨ــ الرد على من أنكر صفة الكلام •

١٩ــ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما •

٢٠ــ في الآية معجزة لأن الله أخبر أنه لا مبدل لكلماته ووقع كما أخبر •

٢١ــ إثبات قــدرة الله •

٢٢ــ الرد على من أنكر صفة العلم كالجهمية والقدرية •

٢٣ــ الرد على من أنكر صفة السمع كالجهمية ونحوهم •

الآيات الخامسة ، والسادسة ، والسابعة : خصص الله موسى عليه السلام بهذه الصفة تشريفاً له ولذا يقال له الكليم ، وهذا دليل على أن التكليم الذي حصل له عليه السلام أخص من مطلق الوحي ثم أكده بالمصدر الحقيقي رفعاً لما توهمه المعطلة من أنه إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غــير التكليم فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز •

ففي الآية :

١ ــ إثبات صفة الكلام • ٢ ــ إثبات الألوهية •

٣ ــ إثبات الربوبية •

٤ ــ تخصيص موسى بهذه الصفة تشريفاً له •

٥ ــ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي •

٦ ــ دليل على أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء متى شاء كيف شاء •

٧ ــ دليل على أن نوع الكلام قديم فكلام الله سبحانه قديم النوع

حادث الآحاد وهو نوعان قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وكقوله (إنما أمرنا لشيء إذا أردنا أن تقول له كن فيكون) وهذا النوع يقال له الكوني القدري •

والنوع الثاني : الديني الشرعي ، وذلك قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) الآية ، وكقوله (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) والشرعي هو الذي منه الكتب المنزلة على رسله وكلامه سبحانه نوعان بلا واسطة وذلك ككلام الله لموسى وككلامه للأبوين آدم وحواء وكلامه لجبريل ، والنوع الثاني ما كان بواسطة إما بالوحي للأنبياء وإما بإرساله اليهم رسولا يكلمهم من أمره بما يشاء قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم) •

الآية الثامنة : النداء : الصوت الرفيع ، والنجاء : الصوت الخفي ، الطور : اسم جبل بين مصر ومدين ، الأيمن : من موسى في وقت مسيره أو الأيمن أي الأبرك من اليمن والبركة ، وفي تفسير القرطبي : وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر قاله الطبري وغيره ؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال وقوله (وقربناه نجيا) أي مناجيا •

ففي الآية :

١ ــ إثبات صفة الكلام لله وأنه يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله إذ لا يعقل النداء إلا ما كان حرفاً وصوتاً وقد استفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين من أئمة السنة بذلك • قال ابن القيم :

والله قد نادى الكليم وقبله ... سمع الندا في الجنة الأبوان
وأتى النداء في تسع آيات له ... وصفا فراجعها من القرآن
أيصح في عقل وفي نقل لندا ... ء ليس مسموعاً لنا بأذان

أم أجمع العلماء والعقلاء من أهل اللسان وأهل كل لسان
أن النداء الصوت الرفيع وضده فهو النجاء كلاهما صوتان

وفي الآية :

١ ــ إثبات النــداء .
٢ ــ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي إذ المعنى المجرد لا يسمع .
٣ ــ تخصيص موسى بهذه الصفة تشريفاً له .

الآية التاسعة : أي اذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله حين كلمه ونبأه وأرسله فقال أن أئت القوم الظالمين يعني الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية والكفر والتكبر في لأرض والعلو على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية وظلموا بني اسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب .

ففي الآية :

١ ــ إثبات صفة الكلام لله . ٢ ــ إثبات الربوبية .
٣ ــ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي .
٤ ــ أنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت إذا لا يعقل النداء إلا ما كان حرفاً وصوتاً .
٥ ــ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو غيره .

الآية العاشرة : قال الله تعالى معاتباً وموبخاً لآدم وحواء على ترك التحفظ والحيطة والتدبر في العواقب وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين أي ظاهر العداوة لكما فإن أطعتماه أخرجكما من الجنة ؟

ففي الآية :

١ ــ إثبات صفة الكلام وأنه بحرف وصوت .

٢ ـ إثبات الربوبية .
٣ ـ الأمر بالتحفظ والحيطة والتدبر في الأمور .

الآية الحادية عشر : قال ابن كثير على هـذه الآية : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسأل العبد في قبره من ربك ومن نبيك وما هو دينك فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول هاه هاه لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى . . ا هـ .

أفادت هذه الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام لله .
٢ ـ أنه يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله .
٣ ـ إثبات البعث والرسالة والحشر والجزاء على الأعمال .
٤ ـ إثبات النـداء ٥ـ إثبات القول
٦ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي إذ المعنى المجرد لا يسمع

قال بعض العلماء : من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي زعم أن الله لم يرسل رسولا ولم ينزل كتاباً . وقال آخر : من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي فقد زعم أن الله أخرس . وقال ابن حجر في شرح البخاري : ومن نفى الصوت فقد زعم أن الله لم يُسمع أحداً من ملائكته ولا رسله كلامـاً بل ألهمهم إياه إلهاماً .

وقال ابن القيم : ولفظ النداء الإلهي قد تكرر في الكتاب والسنة تكراراً مطرداً في محاله متنوعاً تنوعاً يمتنع حمله على المجاز فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة ونادى كليمه وأنه ينادي عباده يوم القيامـة وقد ذكر الله النداء في تسعة مواضع من القرآن أخبر فيها عن ندائه بنفسه ولا حاجة إلى أن

يقيد النداء بالصوت فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعاً كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » ، وروى أبو داود عن عبدالله قل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفاة فيصعقون ولا يزالون حتى يأتيهم جبرائيل فإذا جاءهم جبرائيل فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك قال الحق فينادون الحق الحق » وإسناده ثقاة ، وقد فسر الصحابة الآية بما يوافق هذا الحديث الصحيح ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو يعلي الموصلي عن عبد الله ابن أنيس قال : « فينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان » وفي تفسير شيبان عن قتادة (فلما أتاها نودي أن بورك من في النـار) قال : صوت رب العالمين ، ذكره بن خزيمة والأحاديث والآثار عن السلف كثيرة في ذلك جداً ، وتقدم حديث أبي سعيد في الصحيح الذي بلغناه الصحابة والتابعون وتابعوهم وسائر الأمة تلقته بالقبول وتقييده بالصوت إيضاحـاً وتأكيداً كما قيد التكلم بالمصدر في قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إن الله قـد أحب فلاناً فأحبه » الحديث والذي تعقله الأمم من النداء انما هو الصوت المسموع كما قال تعالى (واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب) وقال : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) وهذا النداء هو رفع أصواتهم الذي نهى الله عنه المؤمنين وأثنى عليهم بغضها في قوله (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية ، وكل ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دال على أنه تكلم حقيقة لا مجازاً ، وكذا نصوص الوحي الخاص كقوله (إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح) وقد نوع الله هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعاً يستحيل معه نفي حقائقها بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة

الكلام والعلو والفعل والقدرة بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالى وإذا انتفت منه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة ، والرب تبارك وتعالى يخلق بكلامه وقوله كما قال تعالى (إنما أمرنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون) فإذا انتفت حقيقة الكلام انتفى الخلق وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تكلم عابديها ، ولا ترجع إليهم قولا . والجهمية وصفوا الرب تبارك وتعالى بصفة هذه الآلهة ، وقد ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار الأرض كلها أقلام فيفنى المداد والأقلام ولا تنفذ كلماته أفهذه صفة من لا يتكلم ولا يقوم به كلام ؟ فإذا كان كلامه وتكليمه وخطابه ونداؤه وقوله وأمره ونهيه ووصيته وعهده وإذنه وحكمه وإخباره وشهادته كل ذلك مجاز لاحقيقة له بطلت الحقائق كلها فإن الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينية ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون ، فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله ، وقال في النونية :

والله عز وجل موصٍ آمِرٌ ناهٍ مُنَبٍ مرسلٌ لبيان
ومخاطب ومحاسب ومنبيء ومحدث ومخبر بالشأن
ومكلم متكلم بل قائل ومحذر ومبشر بأمان
هاد يقول الحق يرشد خلقه بكلامه للحق والإيمان
فإذا انتفت صفة الكلام فكل هذا منتف متحقق البطلان
وإذا انتفت صفة الكلام كذلك الإ رسال منفي بلا فرقان
فرسالة المبعوث تبليغ كلا م المرسل الداعي بلا نقصان

ومما يؤخذ من الآية المتقدمة :

٧ ـ الرد على من زعم أن كلام الله هو معنى قائم بذاته لا يتجزأ ولا يتبعض فإن الأمر لو كان كما زعموا لكان موسى سمع جميع كلام الله .

٨ ـ الرد على من زعم أن كلام الله مخلوق فإن صفاته داخلة في مسمى اسمه فليس الله اسماً لذات لا سمع ولا بصر ولا حياة ولا كلام لها فكلامه

وحياته وقدرته داخلة في مسمى اسمه فهو سبحانه بصفاته الخالق وما سواه المخلـوق •

الآية الثانية عشرة : استجارك : طلب جوارك أي حمايتك وأمانك ، فأجره : أي فأمنه ، ومأمنه : أي مسكنه الذي يأمن فيه وهو دار قومه •

المعنى : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره ، أي كن جاراً له ، مؤمناً محامياً حتى يسمع كلام الله ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة مـا تدعـو إليه •

ويستنبط من الآية :

١ ـ دليل على أنه إذا استأمن مشرك ليسمع القرآن وجب تأمينه ليعلم دين الله وتنتشر الدعوة •

٢ ـ إثبات الألوهية •

٣ ـ أن الكلام إنما ينسب الى من قاله مبتدئاً لا من قال مبلغاً مؤدياً •

٤ ـ أن في الآية حجة صريحة لمذهب السلف أن القرآن منزل غـير مخلوق لأن الله تعالى هو المتكلم به وإنما أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها •

٥ ـ دليل على بطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم الباطل أن القرآن مخلوق مستدلين على بدعتهم بقوله تعالى : (الله خالق كل شيء) فيدخـل في عموم (كل) فيكون مخلوقاً ، وهذا من أعجب العجب فإن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى وإنما يخلقها العباد جميعها فأخرجوها من عموم كل شيء وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة إذ بأمـره تكون المخلوقات قال تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) ففرق بين الخلق والأمر فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقا بأمر آخر الى مالا نهاية له فيلزم التسلسل وهو باطل وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم

والقدرة وغيرها وذلك صريح الكفر وكيف يصح أن يكون متكلما بكلام يقوم بغيره ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه وكذلك أيضا ما خلقه في الحيوان بل يلزم أن يكون متكلما بكل كلام خلقه في غيره زورا كان أو كذباً أو كفراً وهذياناً ، تعالى الله عن ذلك ، وقد طرد هذا الاتحادية فقال ابن عربي :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير أعمى وللأعمى بصير ، لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره والأعمى قد قام وصف البصر بغيره ، ولصح أن يوصف الله بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك . وقال الإمام عبد العزيز المكي في مناظرته لبشر بن غياث المريسي : إن قال بشر إنه خلق كلامه في نفسه فهذا محال لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة ولا يكون منه شيء مخلوق وإن قال خلقه في غيره فهو كلام ذلك الغير وإن قال خلقه قائما بنفسه وذاته فهو محال ، لايكون الكلام إلا من متكلم كما لاتكون الإرادة الا من مريد ، ولا العلم إلا من ، عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته ، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً علم أنه صفة الله .. اهـ .

قال ابن القيم : احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى (خالق كل شيء) ونحو ذلك من الآيات فأجاب الأكثرون أنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه . قال ابن عقيل في الإرشاد : ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله ، قال : لأنه به حصل عقد الإعلام بكونه خالقاً لكل شيء وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلا تحت الخبر . قالوا : ولو أن شخصا قال لا أتكلم اليوم كلاماً إلا كان كذباً لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به ، قلت : ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورا في قوله تعالى في قصة مريم (فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا) وانما أمرت بذلك لئلا تسأل

عن ولدها ، فقولها فلن أكلم اليوم إنسيا به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس ، ولم يكن ما أخبرت به داخلا تحت الخبر وإلا كان قولها مخالفا لنذرها •• اهـ

وأما استدلالهم بقوله (إنا جعلناه قرآناً عربياً) فما أفسده من استدلال فإن جعل اذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وإذا تعدى الى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) وكذلك قوله (جعلناه قرآناً عربيا) وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى (نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة) على أن الكلام خلقه الله في الشجرة فسمعه موسى وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها فإن الله تعالى قال (فلما أتاها نودي من شاطيء الوادي الأيمن) والنداء هو الكلام من بعد فسمع موسى النداء من حافة الوادي • ثم قال : (في البقعة المباركة من الشجرة) أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ، ومن لابتداء الغاية ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون أنا ربكم الأعلى صدقاً ، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة إن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة وهذا كلام خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله •• اهـ •• (من شرح الطحاوية) ••

أما قوله تعالى في عيسى عليه السلام (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فالمعنى أنه خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها الروح فعيسى ناشيء عن الكلمة وليس هو نفس الكلمة • وقوله تعالى (وروح منه) يعني أنه كائن منه تعالى أي هو موجوده وخالقه فهو روح من الأرواح التي خلقها الله • كما قال تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) أي مخلوق بأمره •

الآية الثالثة عشر : الفريق : الجماعة من الناس ولا واحد له من لفظه ، يحرفون : يغيرون ، وتقدم معنى التحريف وبيان أقسامه وضابط كل قسم وأمثلته ، من بعد ما عقلوه : أي عرفوه وفهموه وضبطوه ، أعني كلام الله التـــوراة .

والمعنى لهذه الآية الكريمة : أنسيتم أفعالهم وأعمالهم فتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء اليهود وقد كان جماعة منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ، أي يتأولونه على غير تأويله من بعد ما عقلوه ، أي فهموه على الجلية ، ومع هذا فهم يخالفونه على بصيرة وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريف.

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام . ٢ ـ إثبات الألوهية .
٣ ـ الذم لمن يحرف كلام الله ٤ ـ أن التحريف من صفات اليهود
٥ ـ قطع لأطماع المؤمنين من إيمان هؤلاء
٦ ـ فيها دليل على تعمدهم وسوء قصدهم
٧ ـ إبطال لما عساه أن يتعذر لهم من سوء الفهم
٨ ـ في الآية دليل على تعمق الفسق والعصيان في اليهود
٩ ـ الرد على من زعم أن الله لا يتكلم
١٠ ـ الرد على من قال إن القرآن مخلوق
١١ ـ أن الكلام إنما ينسب الى من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً مؤدياً .
١٢ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد

الآية الرابعة عشر : المعنى : يريدون أن يبدلوا كلام الله أي وعد الله لأهل الحديبية وذلك أن الله وعدهم أن يعوضهم من غنيمة مكة غنيمة خيبر وفتحها وأن يكون ذلك مختصاً بهم دون غيرهم وأراد المخلفون أن يشاركوهم في ذلك. ثم قال قل يا محمد لهم لن تتبعونا أي إلى خيبر وهذا خبر بمعنى النهي ، وقوله

تعالى (كذلكم قال الله من قبل) أي من قبل عودتنا إليكم ، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب .

ويفهم من الآيـة :

١ ـ إثبات صفة الكلام لله   ٢ ـ إثبات القول لله سبحانه
٣ ـ إثبات الألوهية لله سبحانه وحده
٤ ـ أن الكلام إنما ينسب الى من قال مبتدئاً
٥ ـ الرد على من قال إن الله لا يتكلم
٦ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم أو كلام ملك أو بشر .
٧ ـ فيها دليل على بطلان قول المعتزلة ومن أخذ بقولهم أن القرآن مخلوق

الآية الخامسة عشر : اتل : أتبـع ما أوحي أي اتبع ما أوحي إليك ، الوحي لغة : الإعلام بخفاء ، وفي الاصطلاح : إعلام الله أنبياءه بالشيء إما بكتاب أو رسالة أو ملك أو منام أو إلهام ، من كتاب ربك : أي القرآن ، لا مبدل لكلماته : أي لا مغير ولا محرف ولا مزيل لها ، ملتحدا : ملتجأ تلجأ إليه .

المعنى : يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم واتل الكتاب الـذي أوحي إليك والزم العمل به واتبع مافيه من أمر ونهي فإنـه الكتاب الجليل المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل فإن أنت لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه .

ويستنبط من الآية :

١ ـ تعظيم القرآن .
٢ ـ الحث على الإقبال على القرآن وتدبره وتفهمه والعمل به .
٣ ـ إثبات الربوبية لله .

٤ ـ أن القرآن لا يستطيع أحد أن يغير ما فيه .

٥ ـ أن الكتاب هو القرآن خلافاً للكلابية فإنه سبحانه سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتاباً وكلاماً .

٦ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو ملك أو بشر أو غير ذلك

٧ ـ الحث على الالتجاء الى الله في كل الأمور لأنه الملجأ وحده

٨ ـ إثبات قدرة الله وأنها محيطة بجميع خلقه فلا يقدر على الهرب من أمر أراده به .

الآية السادسة عشر : يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل أكثر الذي هم فيه يختلفون كلاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه فاليهود افتروا والنصارى غلوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله ونبي من أنبيائه ورسله الكرام .

يفهم من الآية :

١ ـ دليل عظمة هذا الكتاب وهيمنته على الكتب السابقة وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه واختلاف .

٢ ـ أنه جاء حكماً على بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه فأبان لهم الحق .

٣ ـ الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي .

٤ ـ وجوب الرجوع الى القرآن واتباعه .

٥ ـ أن الاختلاف متقدم في لأمم ٦ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٧ ـ الرد على من أنكر صفة الكلام أو أولها بتأويل باطل .

الآية السابعة عشر : يقول جل شأنه مخبرا عن عظمة هذا الكتاب وهذا كتاب أي القرآن أنزلناه يعني على محمد صلى الله عليه وسلم مبارك أي كثير الخير والمنافع دائم البركة يبشر بالثواب والمغفرة والرحمة ويزجر عن الأفعال القبيحة والمعصية .

ففي هذه الآية :

١ ـ دليل على إثبات صفة الكلام .
٢ ـ الحث على تدبر القرآن والاعتناء بما فيه من أحكام وإرشادات .
٣ ـ لطف الله بخلقه حيث أنزل إليهم هذا الكتاب العظيم .
٤ ـ إثبات قدرة الله .
٥ ـ الرد على الجهمية القائلين إن القرآن مخلوق .
٦ ـ دليل لقول أهل السنة إن القرآن منزل غير مخلوق .
٧ ـ دليل علو الله على خلقه .
٨ ـ فيه رد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو بشر أو غير ذلك .
٩ ـ رد على من قال إن القرآن مخلوق كالمعتزلة ومن أخذ بقولهم .
١٠ ـ أن القرآن كثير الخير دائم المنفعة والبركة .
١١ ـ وفيه رد على من قال إن كلام الله المعنى النفسي .

الآية الثامنة عشر : يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ومبينا علو شأنه وقدره وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة معانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال لرأيته مع كونه في غاية الصلابة وضخامة الجرم وشدة القسوة خاشعاً متصدعاً أي منقادا متذللا متشققاً من خوف الله .

ويستنبط من الآية :

١ ـ علو شأن القرآن وقوة تأثيره لما فيه من المواعظ والزواجر .
٢ ـ توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه حين قراءته للقرآن وتدبر ما فيه من القوارع التي تذل لها الجبال الراسيات .

٣ ـ فيه دليل لمذهب السلف من أن القرآن منزل غير مخلوق •
٤ ـ دليل على علو الله على خلقه •
٥ ـ الرد على من قال إن القرآن مخلوق كالمعتزلة ونحوهم •
٦ ـ أنه سبحانه خلق في الجمادات إدراكا بحيث تخشع وهذا حقيقة كما دلت على ذلك الأدلة ولا يعلم كيفية ذلك إلا الله •
٧ ـ الحث على الخوف من الله والخشوع عند سماعه لكلام الله •
٨ ـ فيها رد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي •
٩ ـ الرد على من قال إنه كلام جبريل أو بشر أو غير ذلك •
١٠ـ إثبات الألوهية •

الآيات الأخيرة : قوله (وإذا بدلنا آية) الخ •• التبديل : رفع شيء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية نسخها بأخرى ، روح القدس : جبريل ، لأنه ينزل بما يطهر القلوب ، بالحق : بالصدق والعدل ، ليثبت : أي ليزيدهم يقينا وإيمانا ، البشرى والبشارة هو أول خبر سار بشر به إنسان ، سمي بذلك لبدو بشرته ، والمراد جبر الرومي غلام ابن الحضرمي ، كان قد قرأ التوراة والإنجيل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس عنده إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل ، أي يميلون ويشيرون ، لسان : أي لغته وكلامه ، وأطلق اللسان على القرآن لأن العرب تطلق اللسان وتريد به الكلام فتؤنثها وتذكرها• ومنه قول أعشى باهلة :

إني أتتني لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها ... مِن عُلْوَ لا عَجَبٌ فيها ولا سَخَرُ

وقول الآخر :

لِسَانُ الشَّرِ تُهْدِيهَا إلينا ... وخُنْتَ وما حَسِبْتُكَ أَنْ تَخُونا

ومنه قوله تعالى : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي ثناء باقيا ، ومن إطلاق اللسان بمعنى الكلام مذكرا قول الحطيئة :

ندمت على لسان فات مني　　فليت بأنه في جوف عكم

أعجمي : العجمية في لسان العرب الإخفاء وضد البيان ، فالأعجمي المراد به الذى لا يفصح وإن كان ينزل البادية .

المعنى : هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبه كفرية ودفعها ، أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى والله أعلم بالذي هو أصلح فيما ينزل ، قال المشركون لرسوله إنما أنت متقول على الله ، تأمر بشيء ثم تنهى عنه ، وأكثرهم لا يعلمون ما في التبديل من حكم بالغة ، ثم قال تعالى مبيناً لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عندالله وأن الرسول افتراه (قل نزله روح القدس) الآية ، أي قل لهم يا محمد قد جاء جبريل بما أتلوه عليهم من عند ربي على مقتضى حكمته البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على وحدانية خالق الكون وباهر قدرته وواسع علمه وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله . ثم قال تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بني آدم غير ملك ، ثم أجاب سبحانه عن قولهم هــذا فرد عليهم وكذبهم في قيلهم فقال : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) أي ان لسان الذي تميلون وتشيرون إليه بأنه يعلم محمدا أعجمي أي لا يتكلم بالعربية ، والقرآن كلام عربي تفهمونه بأدنى تأمل فكيف يكون الذي يقوله أعجميا ، فهذا القول لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل وفي التشبث بمثل هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز :

فدعهم يزعمون الصبح ليــلا　　أيعمى العالمون عــن الضياء

ويستنبط من الآيات الكريمات :

١ ـ إثبات النسخ . ٢ ـ أنه لحكمة ومصلحة .
٣ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى ٤ ـ إثبات الألوهية .
٥ ـ إثبات علو الله على خلقه .
٦ ـ دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن منزل غير مخلوق .
٧ ـ الرد على من زعم أنه مخلوق .
٨ ـ الرد على من قال إنه كلام ملك أو بشر أو غير ذلك .
٩ ـ الرد على من قال إنه خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية .
١٠ ـ الرد على من قال إنه فاض على النبي صلى الله وسلم كما يقوله طوائف من الفلاسفة .
١١ ـ ان السفير بين الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام .
١٢ ـ الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي فإن جبريل سمعه من الله والمعنى المجرد لا يسمع .
١٣ ـ الدليل على أن القرآن نزل باللغة العربية وتكلم الله بالقرآن بها .
١٤ ـ التوبيخ للمعترضين والإيمان الى أن التبديل لم يكن للهوى بل للحكمة التي اقتضت ذلك .
١٥ ـ إبطال شبه المعترضين ١٦ ـ إثبات صفة الربوبية .
١٧ ـ أن القرآن نزل بالصدق والعدل
١٨ ـ أن القرآن نافع للخلق كل النفع في دينهم ودنياهم ، فبه تثبت العقائد وتطمئن القلوب .
١٩ ـ أن فيه الهداية من الزيغ والضلالات ففيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ويرد الظالم عن ظلمه ويدفع عدوان الناس بعضهم عن بعض .
٢٠ ـ أن فيه بشارة للمسلمين بما سيلقونه من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار .
٢١ ـ أن قدح الجاهل لا عبرة به لأن القدح في الشيء فرع عن العلم به

وقدح هؤلاء عن جهل وعناد وهذه عادة الغبي إذا سمع شيئا لم يفهمهُ ولم يعلمه قدح فيه فإذا عاب إنسان قولا صحيحا فذلك لأنه لم يفهمه وإنما أتى من قبل قريحته وهذا معنى رائع بديع قال تعالى (وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) ، وقال المتنبي أخذا من هذه الآية :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القريحة والعلوم

أخذه الآخر فقال :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وقال الآخر :

كم من كلام قد تضمن حكمةً نال الكسادَ بسوق من لا يفهم

ومما يؤخذ من الآية الكريمة :

٢٢ ــ أن القرآن نزل بالتدريج كما تشعر به صيغة التفعيل في الموضعين:
٢٣ ــ التنويه بروح القدس وهو جبريل عليه السلام المنزه عن الخيانة والكذب •
٢٤ ــ الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل •
٢٥ ــ الرد على من قال إن محمداً سمعه من الله ولم يسمعه من جبريل •
٢٦ ــ الرد على القدرية النافين لعلم الله •
٢٧ ــ التهديد والمأخذ من قوله ولقد نعلم الخ •

مسألة الكلام

افترق الناس في مسألة الكلام على عدة أقوال : أحدها ــ مذهب الجهمية والمعتزلة : أن القرآن مخلوق •

الثاني ــ الكلابية وأتباعهم من الأشاعرة : أن القرآن نــوعان ألفاظ ومعاني ، فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة والمعاني قديمة قائمة بالنفس ، وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وأنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته •

الثالث ــ الكرامية : أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب وهو حروف وأصوات مسموعة وهو حادث بعد أن لــم يكن وأخطأوا في قولهم إن له ابتداء في ذاته •

الرابع ــ الماتريدية : أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذات الله هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبي منصور •

الخامس ــ مذهب الاتحادية : أن الكل كلام الله نظمه ونثره حقه وباطله وسحره وكفره والسب والشتم والهجر والفحش وأضداده كله عين كلام الله تعالى القائم بذاته قال ابن القيم حاكياً كلام الاتحادية :

وأتت طوائف الاتحاد بملة ... طمت على ما قال كل لسان
قالوا كلام الله كل كلام هـــذا الخلق من جن ومن إنسان
نظماً ونثراً زوره وصحيحه ... صدقاً وكذباً واضح البطلان
فالسب والشتم القبيح وقذفهم ... للمحصنات وكل نوع أغان
والنوح والتعزير والسحر المبـــين وسائر البهتان والهذيان
هو عين قول الله جل جلاله ... وكلامه حقــاً بــلا نكران
إذا أصلهم أن الإله حقيقة ... عين الوجود وعين ذي الأكوان

السادس ــ مذهب السالمية : أنه صفة قائمة بذات الله لازمة له كلزوم الحياة ولا يتعلق بالمشيئة والقدرة ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات لا يسبق بعضها بعضاً بل مقترنة : الباء مع السين مع الميم في آن واحد لم تكن

معدومة في وقت من الأوقات ولا تعدم بل هي لم تزل قائمة بذات الله •

السابع ــ مذهب الصابئة والمتفلسفة أن كلام الله هو مــا يفيض على النفوس من المعاني ، إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره •

الثامن ــ أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وهو يتكلم بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً وهو المأثور عن أئمة الحديث والسنة •

قال ابن القيم :

وإذا أردت مجامع الطرق التي ... فيها افتراق الناس في القرآن
فمدارها أصلان قــام عليهما ... هــذا الخلاف هما له ركنان
هل قوله بمشيئة أم لا وهل ... في ذاته أم خــارج هــذان
أصل اختلاف جميع أهل الأرض في القــ ... ـرآن فاطلــب مقتضى البرهــان

رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة

[وقوله : (وجوه يومئذ ناظــرة إلى ربهــا ناظرة) ، (على الأرائك ينظرون) ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ، (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) وهذا الباب في كتاب الله كثير ، من تدبر القرآن طالباً للهــدى منه تبين له طريق الحق •] •

الإيمان برؤية الله في الآخــرة هو الاعتقاد الجازم بأن المؤمنين يرون ربهم عياناً بأبصارهم في عرصة القيامة وفي الجنة ، ويزورونه ويكلمهم ويكلمونه ومسألة الرؤية من المسائل التي وقع فيها النزاع بين أهل السنة وغيرهم ، وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون ، وأئمة الإسلام على

تتابع القرون ، والمخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة .

الآية الأولى : يخبر تعالى عن وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة أنها حسنة بهية مشرقة مسرورة ، مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح (إلى ربها ناظرة) أي تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب ، قال جمهور العلماء : المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة « من أن العباد من ينظرون إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر » .

قال ابن القيم رحمه الله : وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديه بأداة « إلى » الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بإلى خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فإن عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله تعالى (انظرونا نقتبس من نوركم) وإن عدى بفي فمعناه التفكر والاعتبار كقوله (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) وإن عدى بإلى فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر ا هـ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك » وعن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة أربعة عشر ، فقال : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

وفي بعض ألفاظه « فستعاينون ربكم كما تعاينون هذا القمر » .

وسئل مالك عن قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . فقال : لما حجب أعداءه فلم يروه ، تجلى لأوليائه حتى رأوه ، وقال الشافعي رضي الله عنه : في الآية دلالة على أن أولياء الله يرونه عياناً ، قال بعضهم :

وقل يتجلى الله للخلق جهرة ... كما البدر لا يخفى وربك أوضح
وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا ... بمصداق ما قلنا حديث مصرح
رواه جرير عن مقال محمد ... فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح

ففي هذه الآية :

١ ـ إثبات الربوبية ٢ ـ إثبات الرؤية
٣ ـ أنها خاصة بالمؤمنين
٤ ـ أنها في الدار الآخرة دون الدنيا
٥ ـ الرد على من أنكر الرؤية .

الآية الثانية : يخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا به وصدقوا رسله وعملوا الخير في الحياة الدنيا أنهم في الجنة على الأسرة في حجالها ينظرون إلى وجهه الكريم وإلى ما أعد لأعدائه الكفار المذنبين .

ويفهم من الآية كالتي قبلها :

١ ـ إثبات الرؤية .
٢ ـ فيه ترغيب في الطاعة وحفز لعزائم المحسنين ليزدادوا إحسانا .
٣ ـ دليل على وجود الله وكرمه ٤ ـ فيها دليل على علو الله تعالى
٥ ـ إن الرؤية في الآخرة دون الدنيا .
٦ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة المنكرين للرؤية .
٧ ـ أنها خاصة بالأبرار . ٨ ـ أن الجنة حق .

٩ ــ فيها دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال •

الآية الثالثة : يخبر تعالى عن الأعمال الموصلة إلى دار السلام بقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أي الذين أحسنوا في عبادة الخالق فقاموا بما أوجبه الله عليهم من الأعمال وكفوا عما نهاهم عنه من المعاصي وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي ، لهم الحسنى وهي الجنة ، وزيادة وهي النظر إلى وجه الله كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما عطف الزيادة على الحسنى دل على أنها جزاء آخر وراء الجنة وقدر زائد عليها • واختلف السلف والخلف هل حصلت الرؤية لنبينا صلى الله عليه وسلم، فالأكثرون على أنه لم يره سبحانه وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي بإجماع الصحابة ، قال ابن كثير على قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) اختلفوا في معنى الرؤية فقال بعضهم جعل بصــره في فؤاده فرآه بفؤاده وهو قول ابن عباس ، وقال آخرون : هو الله عز وجل • وعن ابن عباس (ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى) قال رآه بفؤاده مرتين • وذهب جماعة الى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة قالوا : رأى محمد ربه •

وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال : إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمدا بالرؤية • وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه • وتحمل الآية على رؤية جبريل عليه السلام ، وورد عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : نور أنى أراه •

قال ابن القيم رحمه الله : "والناس في إثبات الرؤية وعدمها طرفان ووسط فقسم غلوا في إثباتها حتى أثبتوها في الدنيا والآخرة وهم الصوفية وأحزابهم ، وقسم نفوها في الدنيا والآخرة وهم الجهمية والمعتزلة ، والوسط هم أهل السنة الذين أثبتوها في الآخرة حسبما تواترت به الأدلة •

الآية الرابعة : أي لهم في الجنة ما يشاؤنه وما تشتهيه أنفسهم من أنواع

النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقوله (ولدينا مزيد) أي وعندنا فوق ذلك وهو النظر إلى وجهه سبحانه وتعالى كما قال ذلك علي بن أبي طالب وأنس وجابر رضي الله عنهم وعن جميع الصحابة .

وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . قال الله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدلهم أجراً كريما) قال البغوي تحية المؤمنين يوم يلقونه أي يرون الله سلام أي يسلم عليهم . وقال أبوعبدالله ابن بطة سمعت أبا أحمد بن عبد الواحد صاحب اللغة يقول سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلبا يقول في قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدلهم أجراً كريما) أجمع أهل اللغة على أن اللقاء ههنا لا يكون إلا معاينة ونظراً بالأبصار وحسبك بهذا الإسناد صحة واللقاء ثابت بنص القرآن كما تقدم ، وبالمتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وكل أحاديث اللقاء صحيحة كحديث أنس في قصة حديث بئر معونة « إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » وحديث عبادة وعائشة وأبي هريرة وابن مسعود « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وحديث أنس « فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله » وفي حديث أبي ذر « لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لاتشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » وحديث أبي موسى « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » اهـ .

وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم » وفي رواية « ولا ينظر إليهم ... الحديث » رواه مسلم . ومن الأدلة أيضا قوله تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) فمفهوم الآية والحديث أنه تعالى ينظر إلى من عداهم من المؤمنين .

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة

وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عنـد الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون ماهو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة وبذلك فسرها الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام وقال غير واحد من السلف في الآية ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة بعد النظر إليه •

ففي الآية :

١ ـ الحث على السعي الى ما يوصل الى رضا الله للفوز بما ذكر •

٢ ـ دليل على صدق وعد الله •

٣ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال •

٤ ـ دليل على جود الله وكرمه ولطفه بخلقه حيث حثهم على مايحفز هممهم الى ما فيه رضاه وفوزهم : قال ابن القيم رحمه الله :

ويرونه سبحانه مـن فوقهم ... نظر العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم ... ينكره إلا فاسـد الإيمـان
وأتى به القرآن تصريحاً وتعـريضاً ... همـا بسياقه نوعان
وهي الزيادة قد أتت في يونس ... تفسير من قد جاء بالقرآن
وهو المزيد كذاك فسره أبو ... بكر هو الصديق ذو الإيقان
وعليه أصحاب الرسول وتابعو ... هم بعدهم تبعية الإحسان
ولقد أتى ذكر اللقاء لربنا الر ... حمن في سور مـن الفرقان
ولقاؤه إذ ذاك رؤيته حكى الإ ... جماع فيـه جماعة ببيـان
وعليه أصحاب الحديث جميعهم ... لغـة وعرفاً ليـس يختلفان
هذا ويكفي أنـه سـبحانه ... وصف الوجوه بنظرة بجنان
وأعاد أيضا وصفها نظراً وذا ... لا شك يفهـم رؤية بعيـان
وأتت أداة إلى لرفع الوهم من ... فكر كذاك ترقب الإنسان
وإضافة لمحل رؤيتهم بذكـر الوجه إذ قامت به العينان

وقد استدل نفاة الرؤية بقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) وبقوله تعالى لموسى (لن تراني) والآية حجة عليهم من وجوه :

(١) أن سؤال موسى الرؤية يدل على إمكانها لأن العاقل فضلا عن النبي لا يطلب المحال فكيف يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل مالا يجوز عليه بل هو عندهم من أعظم المحال •

(٢) أنه لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) •

(٣) أنه قال (لن تراني) ولم يقـل إني لا أرى أو لا يجوز رؤيتي أو لست بمرئي •

(٤) قوله (ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فعلق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن في نفسه والمعلق على الممكن ممكن لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة •

(٥) قوله (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته •

(٦) أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ومن جاز عليه التكليم والتكلم وأن يسمع مخاطبة كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ويرد عليهم أيضاً بما استدلوا به على نفيها وهو قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) وذلك من وجه حسن لطيف وهو أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العـدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به وإنما يمدح تعالى بالنفي إذا تضمن أمرا وجودياً كمدحه بنفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته ، فقوله (لا تدركه الأبصار) لعظمته وجلاله وكماله أي لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه في الآخرة وتفرح به وبالنظر لوجهه الكريم فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية بل يثبتها بالمفهوم فإنه إذا نفى الإدراك الـذي هو أخـص أوصـاف الـرؤية دل عـلى أن الرؤيـة ثابتـة فإنـه لـو أراد

نفي الرؤية لقال لا تراه الأبصار ونحو ذلك فعلم أنه ليس للمعطلة في الآية حجة وتمسكوا أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل عن الإسلام ، وفيه « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وتعقب بأن المنفي فيه رؤيته في الدنيا لأن العبادة خاصة بها فلو قال قائل إن فيه إشارة الى جواز الرؤية في الآخرة لما أبعد ٠

وقال البيهقي : إذا أثبت أن ناظرة هنا بمعنى رائية انقطع قول من زعم أن المعنى ناظرة إلى ثواب ربها. لأن الأصل عدم التقدير وأيد منطوق الآية في حق المؤمنين بمفهوم الآية الأخرى في حق الكافرين أنهم عن ربهم لمحجوبون وقيدها بالقيامة إشارة الى أن الرؤية تحصل للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا وقد أخرج أبو العباس السراج عن مالك بن أنس وقيل له يا أبا عبد الله قول الله تعالى (إلى ربها ناظرة) يقول قوم الى ثوابه فقال كذبوا فأين هم عن قوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ٠

ومن حيث النظر أن كل موجود يصح أن يرى وهذا على سبيل التنزل وإلا فصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوقين وتعقب ابن التين من زعم أن الرؤية بمعنى العلم بأن الرؤية بمعنى العلم تتعدى الى مفعولين تقول رأيت زيداً فقيهاً أي علمته فإن قلت رأيت زيدا منطلقا لم يفهم منه إلا رؤية البصر ويزيد تحقيقاً قوله في الخبر « إنكم سترون ربكم عياناً » لأن اقتران الرؤية بالعيان لا يحتمل أن يكون بمعنى العلم ٠

وقال ابن بطال ذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله في الآخرة ومنع الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وتمسكوا بأن الرؤية توجب كون المرئي محدثاً وحالا في مكان وأولوا قوله ناظرة بمنتظرة وهو خطأ لأنه لا يتعدى بإلى ، وما تمسكوا به فاسد لقيام الأدلة على أن الله موجود والرؤية في تعلقها بالمرئي بمنزلة العلم في تعلقه بالمعلوم فإذا كان تعلق العلم بالمعلوم لا يوجب حدوثه فكذلك المرئي اهـ ٠

وأما ما روي عمن تأول ذلك بأن المراد بإلى مفرد الآلاء وهي النعم فقد أبعد النجعة وأخطأ فيما ذهب إليه ، وأين هو من قوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

وقال الشافعي رحمه الله : ما حجب الفجار إلا وقد علم أن المؤمنين يرونه عز وجل ، ثم قوله : تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دل عليه سياق الآية الكريمة (وهي قوله إلى ربها ناظرة) . اهـ .

وقوله : وهذا الباب في كتاب الله كثير من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق ، يريد باب معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ومايستحقه سبحانه من إفراده بالعبادة وترك عبادة ما سواه فقد أفصح القرآن عنه كل الإفصاح ، وأغلب سور القرآن متضمنة لذلك بل كل سورة من القرآن فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العملي الخبري . وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دون الله ، وهو التوحيد الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته . وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج من توحيده والقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي الشرك وأهله وجزائهم .

وقوله : من تدبر القرآن : التدبر التفكر وهو إعمال النظر في الشيء طالباً الهدى أي الرشاد اتضح له الطريق واستبان .

قال ابن القيم رحمه الله : إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من يتكلم به إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله قال تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وذلك أن كمال التأثير لما كان موقوفاً

على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك بأوجز لفظ وأبينه على المراد • اهـ •

وقال رحمه الله تعالى في النونية :

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

فوائد

بين السابق واللاحق

١ ــ حد التوحيد علم العبد واعترافه واعتقاده ، وإيمانه بتفرد الرب بكل صفة كمال وتوحيده في ذلك • واعتقاده أنه لا شريك له في كماله وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين • ومنزلة علم التوحيد من بين العلوم أنه أجلها وأشرفها وهو معرفة الله بأسمائه في صفاته وأفعاله •

٢ ــ أنواع التوحيد ثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية •

٣ ــ توحيد الربوبية : هو اعتقاد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بأصناف النعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة •

٤ ــ توحيد الأسماء والصفات : هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة ويقال لهذا النوع التوحيد القولي الاعتقادي •

٥ ــ توحيد الألوهية هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده ويقال لهذا النوع توحيد العبادة والتوحيد الفعلي وسمي فعلياً لتضمنه لأفعال

القلوب والجوارح كالصلاة والزكاة والحج ، وهذا النوع هو الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب ، قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) وقال (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدو الله) ، (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله) ، (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله) ، (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدو الله) وقال يوسف (إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) ، (ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله) فكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه يقول يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره فهذه دعوة الرسل من أولهم نوح عليه السلام إلى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : عمـــوم خلقه وربوبيته وعموم إحسانه وحكمته أصلان عظيمان في الكتاب والسنة والنصوص الدالة عليهما شيء كثير وجميع الكائنات آيات له شاهدة مظهرة لمـــا هو مستحق من الأسماء الحسنى والصفات العليا وعن مقتضى أسمائه وخلقه الكائنات وكما علينا أن نشهد ربوبيته وتدبيره العام المحيط وحكمته ورحمته فعلينا أن نشـــهد ألوهيته العامة ، فإنه (الذي في السماء إله وفي الأرض إله) إله في السماء وإله في الأرض ونشهد أن كل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه فإنه باطل إلا وجهه الكريم وكما نشهد أنها كلها مفتقرة إليه في مبدئها نشهد أنها مفتقرة إليه في منتهاها وإلا كانت باطلة والكائنات ليس لها من نفسها شيء بل هي عدم محض ونفي صرف وما بها من وجود فمنه وبه ثم أنه إليه مصيرها ومرجعها وهو معبودها وربها لا يصلح أن يعبد إلا هو كما لم يخلقها إلا هو لما هو مستحقه في نفسه ومتفرد به من نعوت الإلهية التي لا شريك له فيها ولا سمي له وليس كمثله شيء وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء وهو الباطن الذي ليس دونه شيء وهو معنا أينما كنا ونعلم أن معيته مع عباده على أنواع وهم فيها درجات وكذلك ربوبيته لهم وعبوديتهم التي هم بها متعبدون له وكذلك ألوهيتهم إياه وألوهيته لهم وعبادتهم التي هم بها عابدون وكذلك قربه منهم وقربهم منه .

٦ ـ أركان توحيد العبادة اثنان الإخلاص والصدق ، فالأول توحيد المراد فلا يزاحمه مراد والثاني توحيد الإرادة ببذل الجهد والطاقة في عبادة الله وحده لا شريك له .

٧ ـ ضد توحيد الربوبية أن يجعل له شريك أو يجعل لغيره تدبير فالربوبية منه لعباده والتأله من عباده له .

٨ ـ ضد توحيد الأسماء والصفات أمران التعطيل والتشبيه ، فمن نفى صفاته تعالى وعطلها ناقض تعطيله توحيده وكذبه ومن شبهه بخلقه ناقض تشبيهه توحيده وكذله .

٩ ـ ضد توحيد الألوهية أمران أولا الإعراض عن محبته تعالى والإنابة إليه والتوكل عليه ، ثانياً الإشراك به واتخاذ أولياء شفعاء من دونه .

١٠ ـ بين أنواع التوحيد الثلاثة تلازم فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة فهو منه كالمقدمة من النتيجة ، فإنه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له فإنه لايصلح أن يعبد إلا من كان رباً خالقاً مالكا مدبرا وما دام ذلك له وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده الذي لا يجوز أن يكون لأحد معه شركة في شيء من صور العبادة كلها ولهذا جرت سنة القرآن على سوق آيات الربوبية ثم الخلوص منها الى الدعوة إلى توحيد الألوهية فيجعل الأولى برهاناً على الثانية كما في قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) الآيتين وكما في قوله : (أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) الآيات الثلاث وأما توحيد الإلهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية ومعنى كونه متضمنا له أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الإلهية فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً لا بد أن يكون قد اعتقد أن الله هو ربه ومالكه الذي لارب له غيره ولا مالك له سواه فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه

وأن كل ما يدعى من دونه فهو لا يملك لعابديه ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولاحياة ولا نشــورا .

وأما توحيد الأسماء والصفات وأنه شامل للنوعين فهو يقوم عــلى إفراد الله سبحانه بكل ماله من الأسماء الحسنى والصفات العليا التى لا تنبغي إلا له ومن جملتها كونه رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته وكونه إلهــاً واحداً لا شريك له في إلهيته فاسم الرب لا ينصرف إلا إليه عند الإطلاق فله وحده الربوبية المطلقة الشاملة لجميع خلقه وكذلك اسم الجلالة (الله) لا يطلق إلا عليه وحده فهو ذو الألوهية على جميع خلقه ليس لهم إله غيره فهذه الأنواع الثلاثة متكافلة متلازمة يكمل بعضها بعضا ، ولا ينفع أحدها بدون الآخرين ، فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الإلهية فكذلك لا يصح توحيــد الإلهية بدون توحيد الربوبية ، فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئا في عبادته ولكنه اعتقد مع ذلك أن لغيره تأثيرا في شيء أو قدرة على مالا يقدر عليه إلا الله أو أنه يملك ضر العباد أو نفعهم ونحو ذلك ، فهذا لا تصح عبادته، فإن أساسها الإيمان بالله رباً له شئون الربوبية كلها وكذلك من وحد الله في ربوبيته وإلهيته ولكنه ألحد في أسمائه فلم يثبت له ما دلت عليه تلك الأسماء من صفات الكمال أو أثبت لغيره مثل صفته لــم ينفعه توحيده في الربوبية والإلهية فلا يكمل لأحد توحيده إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة .

١١ ــ الكلام في باب التوحيد والصفات من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات والكلام في الشــرع والقدر من باب الطلب والإرادة الدائر بــين الإرادة والمحبة وبين الكراهة والبغض نفياً وإثباتاً قال الشيخ فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال وينفي عنه ما يجب نفيه مما يضاد هذه الحال ولا بد له في أحكامه أن يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرعه وقدره إيماناً خالياً من الزلل ، وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول اهـ .

١٢ — ما ينزه عنه الله ينقسم إلى قسمين متصل ومنفصل وضابط المتصل نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من كل ما يضاد الصفات الكاملة وضابط المنفصل تنزيه الله عن أن يشاركه أحد من الخلق في شيء من خصائصه التي لا تكون لغيره •

١٣ — مثال المتصل مما ينزه عنه الله ، النوم والإعياء والتعب واللغوب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان والسِّنَة •

١٤ — مثال المنفصل مما ينزه عنه الله : الزوجة والولد والشريك والكفو والظهير والشفيع بغير إذن الله والولي من الذل •

١٥ — قال الشيخ : يجب أن يعلم أن الكمال ثابت لله بل الثابت له أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى يستحقه بنفسه المقدسة وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز وإن الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية مع دلالة السمع على ذلك •

١٦ — وقال : وثبوت معنى الكمال لله قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة دالة على معاني متضمنة لهذا المعنى فما في القرآن من إثبات الحمد له وتفصيل محامده وأنه له المثل الأعلى وإثبات معاني أسمائه ونحو ذلك دال على هذا المعنى وقد ثبت لفظ الكامل في تفسير ابن عباس للصمد أن الصمد المستحق للكمال وهو السيد الذي كمل في سؤدده والعليم الذي كمل في علمه والعظيم الذي كمل في عظمته وهكذا سائر أسمائه الحسنى على هذا المنوال وهذا المعنى هو المستقر في فطر الناس فكما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق فإنهم مفطورون على أنه أجل وأكبر وأعلى وأعلم وأكمل من كل شيء •

١٧ — أسماء الله جل جلاله وعلا كلها حسنى لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول ومثالها : الله الحي القيوم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر •

١٨ ــ أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة الإيمان بالاسم وبما دل عليه من المعنى وبما تعلق به من الآثار مثال ذلك أن تؤمن بأنه رحيم هذا الاسم وذو رحمة هذا المعنى وأنه يرحم من يشاء هذا الأ قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء عليم ذو علم يعلم كل شيء وهلم جرا •

قال ابن القيم رحمه الله :

١٩ ــ الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجبات العلم بها والتحقيق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية فعلم العبد بتفرد الرب بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل ظاهراً وهكذا بقية الصفات علم العبد بها يثمر من أنواع العبودية ما يناسب ذلك وقال التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه . فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها وأما أولياؤه فيجنبهم من كرب الدنيا والآخرة وشدائدها فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجي منها إلا التوحيد •

٢٠ ــ أسماء الله من قبيل المحكم لأن معانيها واضحة في لغة العرب وإنما الكنه والكيف مما استأثر الله بعلمه •

٢١ ــ إن الوصفية فيها لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد وكل أسماء الله دالة على معانيها وكلها أوصاف مدح •

٢٢ ــ إن أسماء الله توقيفية ومعنى ذلك أنه لا يتجاوز بها الوارد في الكتاب والسنة فهي تتلقى من طريق السمع لا بالآراء فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يسمى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله صلى عليه وسلم •

٢٣ ــ أسماء الله من قبيل المترادف بالنظر إلى الذات لدلالتها على مسمى واحد وبالنظر إلى الصفات من قبيل المتباين لأن كل صفة غير الأخرى •

٢٤ ــ أن أسماء الله ليست محصورة بعدد معروف وأما الحديث الوارد

في أن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة فلا يفيد أنها محصورة بذلك وإنما غايته أن هذه الأسماء موصوفة بأن من أحصاها دخل الجنة .

٢٥ ــ مراتب إحصاء الأسماء الحسنى ثلاث: حفظها وفهمها ودعاء الله بها دعاء مسألة ودعاء عبادة .

٢٦ ــ إحصاء أسماء الله الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم لأن المعلومات القدرية والشرعية صادرة عن أسماء الله وصفاته ولهذا كانت في غاية الإحكام والإتقان والصلاح والنفع .

٢٧ ــ أنواع دلالة الأسماء الحسنى ثلاثة دلالة مطابقة إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله ودلالة تضمن إذا فسرناه ببعض مدلوله ودلالة التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها ، مثال ذلك لفظة الرحمن دلالتها على الرحمة والذات دلالة مطابقة وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنها داخلة بالضمن ودلالتها على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والقدرة ونحوها دلالة التزام .

٢٨ ــ ينبغي لمن أراد أن يسأل الله أن يسأله بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتى كأن الداعي يستشفع إليه متوسلا به مثال ذلك طالب المغفرة يقول يا غفار اغفر لي وطالب الرحمة يقول يا رحمن ارحمني وطالب التوبة يقول يا تواب تب علي وهلم جرا .

٢٩ ــ إذا كان الاسم منقسماً الى مدح وذم لا يدخل بمطلقه في أسماء الله وذلك كالمريد والصانع والفاعل فهذه ليست من الأسماء الحسنى لانقسامها إلى محمود ومذموم بل يطلق عليه منها كمالها .

٣٠ ــ لا يلزم من اتحاد الاسمين تماثل مسماهما فإن الله سمى نفسه بأسماء تسمى بها بعض خلقه فلا يلزم من ذلك التشبيه وكذلك وصف نفسه بصفات وصف بها بعض خلقه فلا يلزم من ذلك التشبيه ، مثال ذلك أنه تعالى وصف بالسمع والبصر والعلم والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب ووصف بذلك بعض خلقه ولكن ليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير فصفات

كل موصوف تناسب ذاته وتليق به ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق لأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير •

٣١ ـ الأسماء المزدوجة المتقابلة لها ميزة عن غيرها ، مثال ذلك المانع المعطي الضار النافع المعز المذل القابض الباسط الحافظ الرافع فهذه لا يطلق واحد منها بمفرده على الله ولكن يكون مقروناً مع الآخر والحكمة في ذلك أن في إفرادها ما يوهم نوع نقص تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ولأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما •

٣٢ ـ صفات الله تنقسم إلى قسمين : صفات ذات ، وصفات فعل ، وضابط صفات الذات هي التي لا تنفك عن الله ، وضابط صفات الفعل هي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة •

٣٣ ـ مثال صفات الذات : النفس العلم الحياة القدرة السمع البصر الوجه اليد الرجل الملك العظمة الكبرياء العلو الأصبع العين الغنى القدم الرحمة الحكمة القوة العزة الخبرة الوحدانية الجلال ، وهي التي لا تنفك عن الله •

٣٤ ـ مثال صفات الفعل الاستواء النزول الضحك المجيء العجب الفرح الرضى الحب الكره السخط والإتيان والمقت والأسف وهذه يقال لها قديمة النوع حادثة الآحاد ويصلح أن تقول قبلها إذا شاء •

٣٥ ـ مثال آيات الصفات : قوله تعالى (ويبقى وجه ربك) ، (بل يداه مبسوطتان) ، (ولتصنع على عيني) ، (الرحمن على العرش استوى) ، (يحبهم ويحبونه) ، (غضب الله عليهم) ، (كره الله انبعاثهم) •

٣٦ ـ مثال أحاديث الصفات : قوله صلى الله عليه وسلم « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » ، « لله أشد فرحاً بتوبة عبده » ، « يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » ، « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » « عجب ربنا من قنوط عباده » •

٣٧ ـ القول في الصفات لا يخالف القول في الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات ، فالصفات فرع الذات يحذي

بها حذوها • قال بعضهم : إذا قال لك السائل كيف ينزل أو كيف استوى أو كيف يعلم أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق فقل له كيف هو في نفسه فإذا قال أنا لا أعلم كيفية ذاته فقل له وأنا لا أعلم كيفية صفاته فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف • فإثباتنا للصفات إثبات بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيـــل •

٣٨ ــ وقال الشيخ رحمه الله : لا نعرف ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه فنحن نعرف أشياء بحسب الظاهر أو الباطن وتلك معرفة معينة مخصوصة ثم إنا بعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد فيبقى في أذهاننا قضايا كلية عامـــة ثم إذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ماقيل لنا إلا بمعرفة المشهود لنا فلولا إنا نشهد من أنفسنا جوعاً وشبعاً ورياً وحباً وبغضا ولذة وألما وسخطا ورضا لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا بـــه عن غيرنا وكذلك لو لم نعلم في الشاهد حياة وقدرة وعلماً وكلاماً لم نفهم ما نخاطب به إذا وصف الغائب عنا بذلك وكذلك لو لم نشاهد موجوداً لم نعرف وجود الغائب عنا فلا بد فيما شهدناه وغاب عنا من قدر مشترك لنفهم الغائب •

٣٩ ــ الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة ، قسمان يقولون تجرى على ظاهرها فقسم قالوا تجري على ظاهرها اللائق بالله من غير تشبيه وهؤلاء هم السلف الصالح

والقسم الثاني المشبهة الذين غلـــوا في الإثبات وقالـــوا تجعل كصفات المخلوقين ومذهبهم باطل أنكره السلف •

وقسمان ينفيان ظاهرها وهم الجهمية ومن تفرع عنهم فقسم منهم يؤلونها بمعـــان أخـــر •

وقسم يقولون الله أعلم بما أراد منهـــا • •

وقسمان واقفان فقسم يقولون يجوز أن يكون المراد اللائق بالله ويجوز أن لا يكون المـــراد صفة لله وهذه طريقة كثير من الفقهـــاء وغيرهم وقسم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين

بقلوبهم وألسنتهم عن هــذه التقادير والصواب في آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة السلفية .

٤٠ ــ الواجب في آيات الصفات وأحاديثها التصديق بها وإثباتها وإمرارها كما جاءت من غير تحريف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف .

٤١ ــ الأشاعرة يثبتون من الصفات سبعاً وينفون ماعداها وهي المذكورة في بيت :

لــه الحياة والكلام والبصر   ســمع إرادة وعلم واقتدر

٤٢ ــ قال الشيخ رحمه الله: أهل البدع من الجهمية ونحوهم في تحريفهم لنصوص الصفات ارتكبوا أربعة عظائم ردهم لنصوص الأنبياء وردهم لما يوافق ذلك من عقول العقلاء وجعل ما خالف ذلك من أقوال المجملة الباطلة أصول الدين وتكفيرهم أو تفسيقهم أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتــدعة المخــالفة للعقل والنقل . . وأما أهل العلم والايمان فهم على نقيض هذه الحال يجعلون كلام الله وكلام رسوله هو الأصل الذي يعتمد عليه وإليه يرد ما تنازع الناس فيه فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلا ومن كان قصده متابعته من المؤمنين وأخطأ بعد اجتهاده الذي استفرغ فيه وسعه غفر الله له خطأه في المسائل العلمية الخبرية أو المسائل العملية ا هـ .

٤٣ ــ مذهب الجهمية في التوحيد هو نفي جميع الأسماء والصفات والرد عليهم بأن يقال بأنه يلزم من نفي الأسماء والصفات العدم فكل موجود لا بد له من صفات فلا يوجد ذات مجردة عن الصفات .

ومذهب المعتزلة هو نفي جميع الصفات وإثبات الأسماء والرد عليهم أن يقال : القول في الصفات كالقول في الأسماء فإذا كان يمكن إثبات الأسماء لله بدون تشبيه فكذلك الصفات ، ومذهب الأشاعرة إثبات الأسماء مع بعض الصفات والرد عليهم أن يقال : القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر فإذا كان يمكن إثبات بعض الصفات دون تشبيه فكذلك البعض الآخر .

٤٤ ــ قال بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم وهذا القول خطأ ومنشأ خطئه من أمرين أولا

جهله بطريقة السلف وادعاءه أن طريقتهم هي التفويض . ثانياً جهله وخطؤه في تصويب طريقة الخلف أما جهله بطريقة السلف فإنه ظن أن طريقتهم هي الإيمان بمجرد ألفاظ نصوص الصفات بدون فهم لمعانيها وحقيقة طريقتهم هي العلم بمعانيها والتصديق بها تصديقاً لا يتطرقه الشك وعدم التعرض لها بالتحريف والتكييف والتشبيه : وأما جهله وخطؤه في تصويب طريقة الخلف فإنه ظن أن الخلف هم الذين بحثوا وفهموا المعاني المجازية والغرائب والشواذ التي لا تقتضي التشبيه وصرفوا النصوص عن ظواهرها إلى تلك المعاني كقولهم استوى استولى ، واليدين القدرة ، والتكليم التجريح ، والرحمة إرادة الإنعام ، والغضب إرادة الانتقام ونحو ذلك من تأويلاتهم الفاسدة .

والحقيقة هي أن الخلف إنما بحثوا عن معان لم يردها الله ولا رسوله ولا تتفق مع لغة العرب وحرفوا من أجلها النصوص عن معانيها الحقيقية التي أرادها الله ورسوله منها والتي لا تقتضي تمثيل صفات الله بصفات خلقه بوجه من الوجوه ، وسبب خطئه في فهم مذهب السلف وتصويبه لمذهب الخلف هو اعتقاده أنه ليس في الواقع صفة دلت عليها النصوص بسبب شبهات عقلية عرضت له ولغيره من المعطلة وهي ترجع إلى أن إثبات الصفات يقتضي التشبيه كما أن بعضهم يبقى مذبذباً بين الطريقتين على حسب فهمه عنهما .

٤٥ ــ من الأدلة المبطلة للحكم بأن الخلف أعلم وأحكم في أسماء الله وصفاته وذاته وآياته ما يلي :

أولا : اضطراب الخلف في مباحث الإيمان بالله وإقرارهم على أنفسهم بالحيرة في ذلك وبالندم على ما اعتقدوه في الله لما تبين لهم تناقضه دليل على أنهم ليسوا أعلم من السلف أهل العلم واليقين والثبات وذلك واضح من أقوال أئمتهم وأذكيائهم .

ثانياً : إن السلف هم الذين ورثوا الرسول صلى الله عليه وسلم وقاموا بالدين علماً وعملا ودعوة وجهاداً والخلف إنما ورثوا الأوهام الفلسفية والمجوس والنصارى واليهود وخيالاتهم وشكوكهم .

ثالثاً : إنطريقة السلف يشهد لها العقل والنقل بخلاف طريقة الخلف فإنما

يشهدان عليها بالبطلان •

٤٦ ــ سبب كثرة التأويل والقيل والنزاع في الدين هو الإصغاء إلى شبه المبطلين والخوض في الكلام المذموم الذي عابه السلف ونهوا عنه وعن النظر فيه والإعراض عن الكتاب والسنة •

٤٧ ــ وجه الشبه بين المنافقين الذين قال الله فيهم (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) الآيات وبين المتكلمين والمتفلسفة هو أن كلا منهم تحاكم إلى غير الله فالمنافقون تحاكموا إلى طواغيتهم والمتكلمون حكموا عقولهم ، ثانياً أن كلا منهم يريد التوفيق فالمنافقون يريدون التوفيق بين الكافر والمسلم وأهل الفلسفة والمتكلمون يريدون التوفيق بين العقل والنقل ، ثالثاً أن كلا منهم يدعي أنه محسن في عمله •

٤٨ ــ قال الشيخ رحمه الله : والله خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها وبعث إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة وهؤلاء الفلاسفة بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته خلقه وأمره وأفسدوا اعتقادات الناس وإراداتهم إدراكهم وحركاتهم قولهم وعملهم وأمروهم أن يتركوا الفطرة الربانية والعلوم النبوية ويمحو من قلوبهم ذلك ويستبدلوا به العلوم الفلسفية المخالفة للعقل والنقل •

٤٩ ــ سبب ضلال من ضل في أصول الدين تفريطهم في اتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته فلما أعرضوا عن الكتاب والسنة ضلوا قال الله تعالى (فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) • وقال الشيخ بعد أن ذكر نصوصاً كثيرة من القرآن في الأمر بالرجوع إلى القرآن في كل شيء ثم قال فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل وبيان ما اختلف فيه الناس وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ورد ما يتنازعون فيه إلى الكتاب والسنة وأن من لم يتبع ذلك كان منافقاً وأن من

اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذلك حشر ضالا شقياً معذباً وان الذين فارقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم •

قال ابن القيم : لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم وكدر في أفهامهم ومحق في عقولهم وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتى ربى فيها الصغير وهرم عليها الكبير فلم يروها منكراً الخ ا هـ •

٥٠ ــ قال في كتاب دعوة التوحيد :

يلجأ النفاة لصفات الله عز وجل إلى بعض الحجج التي يدعمون بها مذاهبهم في النفي ونحن نذكر هنا أقوى حججهم ونرد عليها :

قالوا : إن الدليل العقلي دل على استحالة تلك الظواهر فلو اعتقدناها كان ذلك مكابرة للعقل وإن أنكرناها كان ذلك تكذيباً بالشرع فوجب إزالة للتعارض تأويلها بما يوافق حكم العقل وما دامت اللغة العربية قد وردت بالحقيقة والمجاز واستحال حمل هذه الظواهر على معانيها الحقيقة عند العقل وجب صرفها إلى معان أخر بطريق المجاز •

والجواب : أن دعوى حكم العقل باستحالة هذه الظواهر إنما بنوه على استلزامها للماثلة لأنهم لا يفهمون من هذه الظواهر عند إطلاقها على الله عز وجل إلا ما يفهم منها عند إطلاقها على المخلوق وقد بينا خطأ ذلك ، فإن ظاهر لفظ اليد مثلا إذا أضيف إلى الله فهم منه معنى غير ما يفهم منه إذا أضيف إلى غيره ، وكذلك لفظ العين والوجه والاستواء والنزول وغيرها •

ولكن هؤلاء لما جعلوا اللفظ حقيقة في صفة المخلوق ولا يفهم منه عند الإطلاق غيرها أوجبوا تأويله وصرفه عن هذه الحقيقة عند إطلاقه على الله وقد قدمنا أن لكل لفظ من هذه الألفاظ معنى كلياً هو حقيقته التي يدل عليها عند الإطلاق وأن هذه الحقيقة تحتها أفراد وخصوصيات فإذا أضيف اللفظ تعين مسماه وكان دالا بالحقيقة على واحدة من هذه الخصوصيات فيقال يد زيد مثلا ويد الدابة ويد الإبريق ويد الله الخ فيكون اللفظ في كل منها دالا

على معنى خاص هو صفة للمضاف إليه • على أن دعوى المجاز لا يمكن أن تسمع فإن اللفظ المستعمل في معنى بطريق الحقيقة لا يجوز صرفه عن معناه إلى معنى آخر بطريق المجاز إلا إذا اجتمع له أربعة أشياء :

(الأول) أن يكون ذلك المعنى المجازى مما يصح أن يراد من اللفظ بأن يكون اللفظ مستعملا فيه في لغة العرب وإلا لأمكن لكل أحد أن يفسر أي لفظ بأي معنى وإن لم يكن له أصل في اللغة •

(الثاني) أن تكون مع اللفظ قرينة سمعية أو عقلية توجب صرفه عن حقيقته إلى مجازه •

(الثالث) أن لا يكون هناك معارض لتلك القرينة يقتضى إرادة الحقيقة وإلا وجب إرادتها من اللفظ وامتنع تركها •

(الرابع) أن المتكلم بكلام يريد به خلاف ظاهره لا بد أن يبين ذلك لا سيما في الخطابات العلمية التي يراد بها الاعتقاد ، ويتأكد ذلك إذا كان المتكلم هو أفصح الخلق وأقدرهم على البيان وأحرصهم على إفادة الحق والنصح للخلق لا يجوز أبداً أن يلقى القول على عواهنه دون أن يبين للناس ما عناه به ، وإلا كان ذلك قصوراً في البيان يجب أن يتنزه عنه أفصح الكلام •
ولما ذكر ابن القيم رحمه الله أقوال النفاة للصفات قال بعد ذلك في النونية :

يا من يظن بأننا حفنا عليهم كتبهم تنبيك عن ذا الشان
فانظر ترى لكن نرى لك تركها حذراً عليك مصائد الشيطان
فشباكها والله لم يعلق به من ذي جناح قاصر الطيران
إلا رأيت الطير في قفص الردى يبكي له نوح على الأغصان
ويظل يخبط طالباً لخلاصه فتضيق عنه فرجة العيدان
والذنب ذنب الطير خلي أطيب الثمرات في عال من الأفنان
وأتى إلى تلك المزابل يبتغي الـ فضلات كالحشرات والديدان
ياقوم بالله العظيم نصيحة من مشفق وأخ لكم معوان
جربت هذا كله ووقعت في تلك الشباك وكنت ذا طيران

حتى أتاح الإله بفضله   من ليس تجزيه يدي ولسان
حبراً أتى من أرض حران فيا   أهلا بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هـو أهله   من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي وسارفلم يرم   حتى أراني مطلع الإيمان
ورأيت أعلام المدينة حولهـا   نزل الهدى وعساكر القرآن
ورأيت آثاراً عظيماً شأنها   محجوبة عن زمرة العميان
ووردت رأس الماء أبيض صافياً   حصباؤه كلآلىء التيجـان
ورأيت أكوازاً هناك كثيرة   مثل النجوم لوارد ظمـآن
ورأيت حوض الكوثر الصافي الذي   لا يزال لا يشخب فيه ميزابان
ميزاب سنته وقول إلهـه   وهما مدى الأزمان لا ينيان
والناس لا يردونه إلا من الـ   آلاف أفراد ذوو إيمـان

٥٥ - « فصل في سنة رسول الله صلى عليه وسلم »

[فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه وما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم به ربه عزوجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهـل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغرني فأغفر له » متفق عليه] .

السنة تفسر القرآن وتبينه وتوضحه وتكشفه وتـدل عليه وتعبر عنه وتفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه ، قال ابن عدوان :

وسنة خير المرسلين محمـد   تفسر آيـات الكتاب الممجد
تبينه للطالبي سبل الهدى   تدل عليه بالدليل المؤكد

ويرون أنها الأصل الثاني الذي يجب الرجوع إليه والتعويل عليه ، فحكمها حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل ، قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وقال (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) وقال : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقال : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) .

وثبت في السنن عن المقدام بن معدى كرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكئاً على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه » قال الترمذي حديث حسن .

وعن العرباض بن سارية قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر » الحديث ، رواه أبو داود وفيه أشعث بن شعبة المصيصي قد تكلم فيه .

وقال الأوزاعي عن حسان بن عطية : كان جبريل ينزل بالقرآ والسنة على النبي صلى الله عليه وسلم ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن ، كما وصف الله بالصفات العلى في القرآن كذلك جاءت السنة بذلك وهي موافقة للقرآن لا تخالفه أصلا ، وأهل السنة يؤمنون بذلك ، فيجب الإيمان بما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم به ربه من الأحاديث الصحاح التي نقلها وتلقاها أهل المعرفة بالقبول ، كما يجب الإيمان بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف .

وأما أهل البدع فقد خالفوا في ذلك وردوا نصوص السنة وقالوا لا تقبل أخبار الآحاد في المسائل الاعتقادية ، ومنهم من ردها بالتأويلات المتعسفة ، وأهل السنة يؤمنون بما جاء في الكتاب والسنة جميعاً .

قال ابن القيم : فهذه الأحاديث تقرر نصوص القرآن وتكشف معانيها كشفاً مفصلا وتقرب المراد وتدفع عنه الاحتمالات وتفسر المجمل منه وتبينه وتوضحه لتقوم حجة الله به ويعلم أن الرسول بين ما أنزل إليه من ربه وأنه أبلغ ألفاظه ومعانيه بلاغاً مبيناً حصل به العلم اليقيني ، بلاغاً أقام به الحجة ، وقطع المعذرة ، وأوجب العلم وبينه أحسن البيان وأوضحه ، ولهذا كان أئمة السلف وأتباعهم يذكرون الآيات في هذا الباب ثم يتبعونها بالأحاديث الموافقة لها كما فعل البخاري ومن قبله ومن بعده من المصنفين في السنة .

ونحن نقول قولا كلياً يشهد الله تعالى عليه وملائكته أنه ليس في حديث رسول الله ما يخالف القرآن . ولا ما يخالف صريح العقل بل كلامه بيان للقرآن وتفسير له وتفصيل لما أجمله ، وكل حديث رده من رد الحديث لزعمه أنه يخالف القرآن فهو موافق للقرآن مطابق له وغايته أن يكون زائداً على مافي القرآن . وهذا الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبوله ونهى عن رده بقوله لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول لا أدري ، ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه » فهذا الذي وقع من وضع قاعدة له لرد الأحاديث بها بقولهم في كل حديث زائد على مافي القرآن ، هذا زيادة على النص فيكون نسخاً ، والقرآن لا ينسخ بالسنة ، فهذا بعينه الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهاهم عنه وأخبرهم أن الله تعالى أوحى إليه بالكتاب ومثله معه فمن رد السنة الصحيحة بغير سنة تكون مقاومة لها متأخرة عنها ناسخة لها ، فقد رد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد وحي الله .

وقال الشيخ رحمه الله : وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسله من صفاته ليس موقوفاً على أن يقوم دليل على تلك الصفة بعينها فإنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا . ومن لم يقر بما جاء به الرسول

حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذي قال الله عنهم (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمناً بالرسول ، ولا متلقياً عنه الأخبار بشأن الربوبية ، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشي من ذلك أو لم يخبر به فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه ، وما يخبر به إن علمه بعقله أمن به ولا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول وإخباره ، وبين عدم الرسول وعدم إخباره • وكان ما يذكره من القرآن والحديث والإجماع في هذا الباب عديم الأثر عنده، وقد صرح به أئمة هذا الطريق • وقال : على الناس أن يجعلوا كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم هو الأصل الإمام المقتدى به سواء فهموا معناه أو لم يفهموه ، فيؤمنوا بلفظ النصوص وإن لم يعرفوا حقيقة معناها ، وأما ما سوى كلام الله وكلام رسوله فلا يجعل أصلا بحال • وقال : ما أخبر به الرسول عن ربه فإنه يجب الإيمان به سواء عرفنا معناه أو لم نعرفه لأنه الصادق المصدق فما جاء بالكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيما به وإن لم يفهم معناه وكذا ما يثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصاً عليه في الكتاب والسنة متفق عليه بين سلف الأمة •

وما تنازع فيه المتأخرون نفياً وإثباتاً فليس لأحد بل ولا له أن يوافق على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده فإن أراد حقاً قبل وإن أراد باطلا رد وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يرد جميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ا هـ •

حديث « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا • • » الخ :

يخبرنا صلى الله عليه وسلم بنزول ربه جل وعلا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر وأنه من لطفه بعباده وإحسانه إليهم يحثهم ويرغبهم في دعائه وسؤله واستغفاره ويتكفل لهم جل وعلا بالإجابة •

ما يؤخذ من حديث النزول من الفوائد :

(١) إثبات علو الله على خلقه . (٢) إثبات صفة النزول .

(٣) إثبات الربوبية . (٤) إثبات القول لله .

(٥) إثبات صفة الكلام . (٦) إثبات الأفعال الاختيارية .

(٧) أن ثلث الليل الآخر من أوقات إجابة الدعاء .

(٨) فيه رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من المنكرين لعلو الله .

(٩) الرد على من أنكر صفة النزول أو أولها بتأويل باطل .

(١٠) الرد على الحلولية الذين يزعمون أن الله حالٌ في كل مكان .

(١١) الحث على الدعاء في ثلث الليل الآخر .

(١٢) أن الدعاء ينفع . (١٣) الحث على الاستغفار .

(١٤) الرد على من قال ينزل ملك .

(١٥) إثبات صفة المغفرة . (١٦) دليل على فضل الدعاء .

(١٧) أن الدعاء والاستغفار وغيرهما من أنواع العبادات يختلف فضلها بحسب الزمان والمكان .

(١٨) لطف الله بخلقه لحثه إياهم على دعائه .

(١٩) أن الله يجيب دعاء من دعاه ما لم يكن هناك مانع .

(٢٠) دليل على كرم الله وإحسانه .

(٢١) دليل على أن الله عز وجل في السماء على العرش .

(٢٢) دليل على قدرة الله فإن العاجز لا يدعى .

(٢٣) دليل على رحمة الله فإن القاسي لا يدعى .

(٢٤) دليل على غناء الله .

(٢٥) دليل على السمع فإن الأصم لا يدعى .

(٢٦) فيه تحريض على عمل الطاعة وإشارة الى جزيل الثواب عليها .

(٢٧) تفضيل صلاة آخر الليل على أوله وأن آخر الليل أفضل للدعاء

والاستغفار يشهد له قوله (والمستغفرين بالأسحار) وأن الدعاء في ذلك الوقت مجاب ولا يعترض على ذلك بتخلفه عن بعض الداعين لأن سبب التخلف وقوع الخلل في شرط من شروط الدعاء كالاحتراز في المطعم والمشرب أو لاستعجال الداعي أو بأن يكون الدعاء بإثم أو قطعية رحم أو تحصل الإجابة وبتأخر وجود المطلوب لمصلحة العبد أو لأمر يريده الله •

(٢٨) الرد على من أنكر وجود السماء وقال مافيها إلا فضاء •

(٢٩) أن كلام الله بحرف وصوت إذ لا يعقل الكلام والقول إلا ماكان حرفاً وصوتاً •

(٣٠) دليل على قرب الله من خلقه •

(٣١) مزية للسماء الدنيا على غيرها من السموات لنزول الله إليها •

(٣٢) فقر الخلائق إلى الله •

(٣٣) الحث على دعاء الله دعاء العبادة ودعاء المسألة فالأول هو سائر الطاعات والثاني هو دعاء المسألة وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر •

(٣٤) أن في الحديث ما يدعو إلى محبة الله لأن النفوس مجبولة على محبة من أحسن إليها أو عرض عليها ما ينفعها •

(٣٥) أن الإنسان يسأل الله ولا يستعظم ما يسأل ربه فإنه لا يستعظم شيئاً أعطاه • (٣٦) أن الله يحب من عباده أن يدعوه ويستغفروه ويسألوه •

قال بعضهم :

ولا تسألن الناس مسلوب ملكهم وسل من له الملك الذي لايسلب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال الشيخ رحمه الله في شرح حديث النزول : وأما النزول الذي لايكون من جنس نزول أجسام العباد فهذا لا يمتنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثيرين ويكون قدره لبعض الناس أكثر أو أقل بل لايمتنع أن يقرب إلى

خلق من عباده دون بعض فيقرب إلى هذا الذي دعاه دون الذي لم يدعه ، وجميع ما وصف الرب به نفسه من القرب فليس فيه ما هو عام لجميع المخلوقات كما في المعية ، فإن المعية وصف نفسه فيها بعموم وخصوص ، وأما قربه ما يقرب منه فهو خاص لمن يقرب كالداعي والعابد وكقربه عشية عرفة ودنوه إلى سماء الدنيا لأجل الحجاج وإن كانت تلك العشية قد تكون وسط النهار في بعض البلاد وتكون ليلاً في بعض البلاد فإن تلك البلاد لم يدن إليها ولا إلى سمائها الدنيا وإنما دنا إلى السماء التي على الحجاج وكذا نزوله بالليل وهذا كما أن حسابه لعباده كحسابهم كلهم في ساعة واحدة وكل منهم يخلو به كما يخلو العبد بالقمر ليلة البدر فيقرره بذنوبه وذلك المحاسب لا يرى أنه يحاسب غيره ، كذلك في حديث أبي رزين .

وكذلك في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم « إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي ... » الى آخر الحديث ، فهذا يقوله سبحانه لكل مصل قرأ الفاتحة ممن لا يحصي عدده إلا الله كل واحد منهم يقول الله له كما يقول لهذا . كما يحاسبهم كذلك فيقول لكل واحد ما يقول من القول في ساعة واحدة وكذلك سمعه لكلامهم يسمع كلامهم كله مع اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم ،يسمع دعاءهم سمع إجابة ويسمع كل مايقولون سمع علم وإحاطة ، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، فإنه سبحانه هو الذي خلق هذا كله وهو الذي يوصل الغذاء الى كل جزء من البدن على مقدار وصفته المناسبة له ، وكذلك من الزرع ، وكرسيه وسع السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما فإذاً كان لا يؤوده خلقه ورزقه على هذه التفاصيل فكيف يؤده العلم بذلك أو سمع كلامهم أو رؤية أفعالهم وإجابة دعائهم ، سبحانه وتعالى علوا كبيرا (وما قدروا الله حق قدره) الآية ، فمن كانت هذه عظمته كيف يحصره المخلوق سماء أو غير سماء ، حتى يقال إنه إذا نزل الى سماء الدنيا صار العرش فوقه ويصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به سبحانه وهو قادر أن ينزل سبحانه وهو على عرشه فقوله

إنه ينزل مع بقاء عظمته وعلوه على العرش أبلغ في القدرة والعظمة هو الذي فيه موافقة لشرع والعقل اهـ . قال ابن القيم :

وكذا نزول الرب جل جلاله   في النصف من ليل وذاك الثان
فيقول لست بسائل غيري بأحـــوال العباد أنا العظيم الشان
من ذاك يسألني فيعطى سؤله   من ذا يتوب إلي من عصيان
من ذاك يسألني فأغفر ذنبه   فأنا الودود الواسع الغفران
من ذا يريد شفاءه من سقمه   فأنا القريب مجيب من نادان
ذا شأنه سبحانه وبحمده   حتى يكون الفجر فجراً ثان

٥٦ - اثبات صفة الفرح والضحك والعجب

[وقوله صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته » الحديث متفق عليه ، وقوله صلى الله عليه وسلم « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخلان الجنة » متفق عليه ، وقوله : « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب » حديث حسن] .

في الأحاديث المذكورة إثبات صفة الفرح ، والضحك ، والعجب ، وهي من صفات الأفعال الاختيارية .

الحديث الأول :

المفردات : الفرح لغة السرور ، التوبة : الرجوع من المعصية الى الطاعة ، الراحلة ، من الإبل ماكان صالحاً لأن يرحل ، اللام لام الابتداء .

هذا حديث جليل فيه بشارة عظيمة ترتاح لها قلوب التائبين المحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين في توبتهم ، الخالعين ثياب الإصرار على المعاصي البعيدين عن سوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده الطالبين لعفوه الملتجئين إليه في مغفرة ذنوبهم وحصول مطلوبهم . روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة ، والبراء بن عازب ، والنعمان ابن بشير ، وأنس . ولفظ حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » متفق عليه ولمسلم « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له فهذا الكشف والبيان والإيضاح لا مزيد عليه في ثبوت هذه الصفة ونفي الإجمال والاحتمال وفرحه تعالى بتوبة عبده لأن رحمته سبقت غضبه وكل ماكان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب فإنه سبحانه رحيماً ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك ، ليس كذلك غضبه فإنه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضباناً دائماً غضباً لا يتصور انفكاكه ورحمته وسعت كل شيء وغضبه لم يسع كل شيء وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب ووسع كل شيء رحمة وعلماً ولم يسع كل شيء غضباً وانتقاما .

ففي الحديث :

(١) إثبات الألوهية . (٢) صفة الفرح . (٣) الحث على التوبة . (٤) فضل التوبة . (٥) أن الله يقبل توبة العبد إذا وقعت على الوجه المشروع . (٦) متمسك لمن قال إن للقاتل توبة . (٧) دليل

على البعث والحساب والجزاء على الأعمال • (٨) فيه رد على من أنكر صفة الفرح أو أولها بتأويل باطل • (٩) فيه دليل على أن الإنسان إذا جرى على لسانه كلمة كفر من شدة دهش ونحوه أنه لا يكفر بذلك ولا يؤاخذ به ، ولهذا لم يكفر بقوله : أنت عبدي وأنا ربك •

الحديث الثاني :

في هذا الحديث الجليل يخبرنا صلى الله عليه وسلم عن كرم الله وجوده وأنه متنوع • فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر جعل الله لكل منهما سبباً أو صله الى الجنة ، فالأول قاتل في سبيل الله فأكرمه الله على يد الرجل الآخر الذي لم يسلم بعد بالشهادة التي هي أعلى المراتب بعد مرتبة الصديقين ، وأما الآخر فإن الله جعل باب التوبة مفتوحاً لكل مـن أراد التوبة بالإسلام فما دونه فلما تاب محا الله عنه الكفر وآثاره ثم من عليه بالشهادة فدخل الجنة كأخيه الذي قتله •

ويستنبط من الحديث :

(١) إثبات صفة الضحك لله ، وهي من الصفات الفعلية • (٢) إثبات الألوهية • (٣) الترغيب في الدخول في الإسلام • (٤) فيه دليل على تنوع كرم الله • (٥) أن القتل في سبيل الله يكفر الذنوب • (٦) أن التوبة تأتي على جميع الذنوب حتى القتل • (٧) الحث على الجهاد في سبيل الله• (٨) إثبات الأسباب . (٩) الرد على من أنكر صفة الضحك أو أولها بتأويل باطل . (١٠) أن التوبة من أجل الطاعات . (١١) فى الحديث متمسك لمن قال إن للقاتل عمدا توبة .

الحديث الثالث :

العجب : لغة استحسان الشيء ، القنوط : شدة اليأس ، وقرب غيره : أي تغييره الحال من شدة إلى رخاء ، أزلين : الأزل : بمعنى الشدة والضيق •

المعنى : يخبرنا صلى الله عليه وسلم أن الله ـ جل وعلا ـ يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر ويأسهم من نزوله ، وقد اقترب وقت الفرج ورحمته لعباده بإنزال الغيث عليهم وتغييره لحالهم وهم لا يشعرون .

قال الشيخ : والسبب في أن فرج الله يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق هو تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ومن كمال نعمة الله على عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد ، وقال ابن عدوان :

ويعجب ربي من قنوط عباده ... فألق لما بينت سمعك واهتد
وفي رقية المرضى مقال نبينا ... ألا أراق بهمرضاك ياذا التسدد
رواه أبو داود ياذا وغيره ... ألا احفظ هداك الله سنة أحمد

ويفهم من الحديث :

(١) إثبات صفة العجب . (٢) إثبات الربوبية . (٣) إثبات نظره إلى عباده سبحانه وتعالى . (٤) فيه دليل على أن الفرج مع الكرب . (٥) لطف الله بخلقه . (٦) الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينفون صفة الضحك والعجب . (٧) إثبات صفة الضحك . (٨) إثبات صفة العلم . (٩) الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل . (١٠) أن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته . (١١) أن نزول الغيث مما انفرد الله بعلمه . (١٢) دليل على وجود الله وكرمه . (١٣) وجوب حسن الظن بالله والابتعاد عن القنوط من رحمة الله .

صفة الرجل والقدم والكلام

[قوله : وقوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها رجله وفي رواية عليها قدمه فينزوي

بعضها إلى بعض فتقول قط قط » متفق عليه وقوله « يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النـــار » متفق عليه وقوله « ما منكم أحد إلا سكلمه ربــه ليس بينه وبينه ترجمان »] .

الحديث الأول : جهنم علـــم على طبقة من طبقات النـــار ، قط حسبي ويكفيني يلقي يطرح ، ينزوي ينضم بعضها إلى بعض ، الرب المالك المتصرف المربي لجميع الخلق بأصناف النعم ــ .

قال بعضهم :

رب يربي العـــالمين ببره ونواله أبداً إليهم واصل

هل من مزيد : أي من زيادة ، تطلب الزيادة لسعتها وبعد قعرها ، العزة : القوة والغلبة والامتناع . هذا الحديث يتضمن الإنذار والتخويف مما أمامنا وذلك أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أخبر أن جهنم لا تزال يطرح فيها من أهلها المستحقين لها وهي تطلب الزيادة الى أن يضع الرب جل وعلا فيها رجله فعند ذلك ينضم بعضها إلى بعض وتقول حسبي ويكفيني .

ففي الحديث :

(١) إثبات الرجل لله جل وعلا . (٢) إثبات القدم .

(٣) إثبات الربوبية . (٤) إثبات صفة العزة .

(٥) إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال .

(٦) الحث على الأعمال الصالحة . (٧) الخوف من النـــار .

(٨) إثبات النار وأنها مخلوقة . (٩) أن جهنم تتكلم .

الحديث الثاني :

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال يارب : وما بعث النار ؟ قال من كل ألف — أراه قال : تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قال النبي صلى الله عليه وسلم « من يأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا » .

المفردات : لبيك من ألب في المكان إذا أقام به أي أنا مقيم على طاعتك ، وسعديك : من المساعدة وهي المطاوعة ، ومعناها إسعاد بعد إسعاد ، النداء : الصوت الرفيع ، البعث : يعني المبعوث ، ويقال بعث النار حزبها .

المعنى يخبرنا صلى الله عليه وسلم عما سيكون يوم القيامة من أن الله عز وجل يأمر أبانا آدم أن يخرج من ذريته بعثاً الى النار .

ففي الحديث :

(١) إثبات القول لله . (٢) إثبات الألوهية .
(٣) إثبات النداء . (٤) إثبات الأفعال الاختيارية .
(٥) تخصيص آدم بذلك لكونه والد الجميع .
(٦) قال ابن القيم رحمه الله أن قوله لبيك يتضمن إجابة داع دعاك ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلم ولا يدعو من أجابه .

(٧) أنها تتضمن المحبة ، ولا يقال لبيك إلا لمن تحبه وتعظمه .

(٨) وأنها تتضمن التزام دوام العبودية .

(٩) وأنها تتضمن الخضوع والذل .

(١٠) أنها تتضمن الإخلاص .

(١١) أنها تتضمن الإقرار بسمع الرب إذ يستحيل أن يقول الرجل لمن لا يسمع دعاء لبيك .

(١٢) أنها تتضمن التقرب من الله تعالى .

(١٣) في الحديث دليل على عدد بعث النار وأنه من الألف ٩٩٩ .

(١٤) أن بعث الجنة من الألف واحد فقط .

قال ابن القيم رحمه الله :

يا سلعة الرحمن ليست ينالها ... بالألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ليست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها ... إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن سوقك كاسد ... بين الأرذال سلفة الحيوان
ياسلعة الرحمن أين المشتري ... فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب ... فالمهر قبل الموت ذو إمكان
يا سلعة الرحمن كيف تصبر الـ ... ـخطاب عنك وهم ذوو إيمان
ياسلعة الرحمن لولا أنها ... حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف ... وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ... ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى ... رب العلى بمشيئة الرحمن

الحديث الثالث :

الخطاب للصحابة رضوان الله عليهم ويلتحق بهم المؤمنون كلهم سابقهم

ومقتصدهم ، والترجمان المعبر عن لغة بلغة ، قال بعضهم :

ومن يفسر لغـــة بلغـــــة   مترجم عنـد أهيـل اللغـــة

ففي الحديث :

(١) إثبات صفة الكلام لله ٠   (٢) إثبات الربوبية ٠
(٣) إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال ٠
(٣) الرد على من أنكر صفة الكلام ٠
(٥) الحث على الأعمال الصالحة ٠
(٦) حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل السنة إلى الأئمة ٠
(٧) إثبات قدرة الله ٠   (٨) إثبات صفة الحياة لله ٠

٥٧ ـ صفة العلـو للـه

[وقوله في رقية المريض : « ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك ، أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء مـن شفائك على هذا الوجع فيبرأ » حديث حسن ، رواه أبو داود وغيره ، وقوله « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء »حديث صحيح ، وقوله « والعرش فوق الماء والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه » حديث حسن رواه أبو داود وغيره ، وقوله للجارية : « أين الله ؟ قالت : في السماء قال : من أنا ٠ ٠ ؟ ؟ قالت : أنت رسول الله ٠ قال : أعتقها فإنها مؤمنة » رواه مسلم] ٠

الحديث الأول :

الرب : السيد المربي لجميع الخلق بأصناف النعم ، تقدس : تنزه ، الرقية القراءة على المريض ، حوبنا ، الحوب : الإثم ، الخطايا : هي الذنوب ولآثام ٠

هذا وفي الحديث التوسل إلى الله بربوبيته وهي تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، فالعامة هي : خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا وأما الخاصة : فتربيته لأنبيائه وأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكلأهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر ، ولعل هـذا هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة •

ويؤخذ من الحديث :

(١) إثبات الربوبية • (٢) إثبات الألوهية •

(٣) إثبات علو الله على خلقه والمأخـذ من قوله : (في السماء) ، وفي تكون بمعنى على ، كقوله : (فامشوا في مناكبهـا) وقوله : (فسيحوا في الأرض) وكقوله : (فسيروا في الأرض) أي عليها وقوله (ولأصلبنـكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل • الثاني : أن المراد بالسماء العلـو ، وعلى الوجهين فهي نص في علو الله على خلقه •

ويستنبط من الحديث :

(٤) أمر الله الكوني والقدري •

(٥) تنزيه الله عما لا يليق بجلاله وعظمته •

(٦) التوسل إلى الله برحمته •

(٧) التوسل إلى الله بسؤال المغفرة للحوب والخطايا •

(٨) التوسل إلى الله بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده •

(٩) إثبات أمر الله الديني الشرعي ، ودليله قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) ودليل الكوني (وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) •

(١٠) عموم أمره الكوني القدري والديني الشرعي .

(١١) الإتيان من صفات الله في كل مقام بما يناسبه .

(١٢) إثبات الرقية وأنها مباحة ، قال العلماء بجوازها عند اجتماع ثلاثة شروط :

(أ) أن تكون بأسمائه أو بكلامه أو بصفاته .

(ب) أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه .

(جـ) أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله .

(١٣) الرد على الجهمية وأتباعهم من المنكرين لعلو الله .

(١٤) إثبات قدرة الله .

(١٥) إثبات صفة الرحمة .

(١٦) فيه دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

(١٧) إثبات الأسماء الله .

الحديث الثاني :

هـذا الحديث أخرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : بعث علي من اليمن بذهيبة في أديم مقروض ولم تحصل من ترابها ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة : زيد الخير والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، وعلقمة بن علاثة — أو عامر بن الطفيل ، شك عمارة — فوجد من ذلك بعض الصحابة من الأنصار وغيرهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء » وقوله « ألا تأمنوني » ألا أداة استفتاح ، المعنى : ألا تأمنوني وأنا أمين الله سبحانه وتعالى الذي في السماء على تبليغ شرعه ودينه . قيل : إن القائل للنبي هو ذو الخويصرة التميمي ، فاستأذنه بعض الصحابة في قتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « دعه فإنه يخرج من ضئضيء هذا — أي من

جنسه ـ قوماً تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وقراءتكم مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتوهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم » الحديث .

فأول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين ، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ففاجئوه بهذه المقالة ، ثم كان ظهورهم في أيام علي بن أبي طالب فقتلهم في النهروان ، ثم شعبت منهم شعوب وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة . ثم حدثت بعدهم بدعة القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق بقوله : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النـار إلا واحدة ، قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ ؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي » أخرجه الحاكم من مستدركه .

ويستنبط من الحديث :

١ ـ إثبات علو الله على خلقه .

٢ ـ ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الحلم والصبر على ما يأتيه من الأذى و (في) التي في الحديث يقال فيها كما قيل في (في) التي في الحديث الذي قبل هذا .

٣ ـ الرد على من أنكر علو الله .

٤ ـ الرضا والتسليم لأمر الله ورسوله وما صدر عنهما من الأحكام .

الحديث الثالث :

وهو قوله « والعرش فوق ذلك » الحديث رواه أبو داود في سننه وأحمد في مسنده وغيرهما ، ولفظ أحمـد في المسند عن ابن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء فمرت سحابة

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما هذا ؟ قال قلنا : السحاب ، قال والمزن ، قلنا والمزن ، قال والعنان قلنا والعنان قال : فسكت فقال : هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله تبارك وتعالى فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء » .

والحديث دليل على :

١ ـ علو الله على خلقه .

٢ ـ واستوائه على عرشه .

٣ ـ تفسير الاستواء بالعلو كما هو مذهب السلف .

٤ ـ الرد على من أنكر صفة العلو أو أولها بتأويل باطل كمن زعم أن الفوقية فوقية رتبة وشرف فإن حقيقة الفوقية علو ذات الشيء على غيره .

٥ ـ الرد على من نفى العرش وزعم أن عرشه ملكه وقدرته .

٦ ـ إثبات الألوهية .

٧ ـ أن العرش فوق المخلوقات .

٨ ـ الجمع بين الإيمان بعلو الله واستوائه على عرشه .

٩ ـ الرد على من أول الاستواء بالاستيلاء .

١٠ ـ إثبات صفة العلم .

١١ ـ إحاطة علمه سبحانه بالموجودات كلها .

١٢ ـ الرد على من أنكر صفة العلم أو قال عليم بلا علم كالمعتزلة .

١٣ ـ إثبات قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء .

الحديث الرابع :

وقوله للجارية « أين الله ؟ » هذا حديث صحيح روي من طرق متواترة عن معاوية بن الحكم السلمي قال : كانت لي غنم بين أحد والجوانية فيها

جارية لي فأطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة منها فأسفت فصككتها فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك ، فعظم ذلك علي ، فقلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال أدعها فدعوتها ، فقال لها : « أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال اعتقها فإنها مؤمنة » أخرجه مسلم في صحيحه ورواه أبو داود والنسائي .

ويستنبط من الحديث :

١ ـ دليل على علو الله على خلقه .
٢ ـ الرد على الجهمية ونحوهم من المنكرين لعلو الله على خلقه .
٣ ـ جواز الاستفهام عن الله بأين ، قال ابن عدوان :

وقد جاء لفظ الأين من قول صادق رسول إله العالمين محمد
كما قد رواه مسلم في صحيحه كذاك أبو داود والنسئي قد

٤ ـ جواز الإشارة إلى العلو .
٥ ـ أن من شهد هذه الشهادة أنه مؤمن ، قال الصرصري :

لقد صح إسلام الجويرية التي بإصبعها نحو السماء تشير

٦ ـ أن يشترط في صحة العتق الإيمان .
٧ ـ شهادته صلى الله عليه وسلم بالإيمان لهذه الجارية التي اعترفت بعلو الله على خلقه .
٨ ـ أن من شهد هذه الشهادة يكتفى بإيمانه .
٩ ـ أن العباد مفطورون على أن الله عال عليهم .
١٠ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٥٨ ـ المعية والاحاطة والقرب

الأدلة من السنة وقوله : [« أفضل الإيمان : أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » حديث حسن •

وقوله : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه ، ولا عن يمينه ، فإن الله قبل وجهه ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه » متفق عليه •

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم رب السموات ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، أقض عني الدين وأغنني من الفقر » رواه مسلم .

وقوله لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم • فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » متفق عليه »] •

الحديث الأول :

في الحديث يبين لنا صلى الله عليه وسلم فضل الإيمان وأنه يتفاضل وأن بعض خصاله أفضل من بعض ، ويحثنا على استحضار قرب الله واطلاعه ومعيته •

ففي الحديث :

١ ـ دليل على المعية العامة وهي معية العلم والإحاطة والاطلاع •
٢ ـ أن الإيمان يتفاضل • ٣ ـ فضل عمل القلب •
٤ ـ أن أعمال القلوب داخلة في مسمى الايمان •
٥ ـ أن بعض خصال الايمان أفضل من بعض •

٦ ـ الرد على من زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص .

٧ ـ أن الإحسان أكمل مراتب الدين ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه .

٨ ـ الحث على مـا يوجب خشية الله وتعظيمه وإخلاص العبادة له سبحانه ، وبـذل الجهد في تحسينها وإتمامها فيجمع بين الإيمان بعلـو الله واستحضار قربه .

الحديث الثاني :

يحث صلى الله عليه وسلم على لزوم الأدب مع الله خصوصاً إذا دخـل الإنسان في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه ، فيخضع ويخشع ويعلم أنه واقف بين يدي الله فيقلل من الحركات ولا يسيء الأدب معه بالبصاق أمامه أو عن يمينه ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه .

ويستنبط من الحديث :

١ ـ الحث على استحضار قرب الله ومعيته .

٢ ـ دليل على قرب الله .

٣ ـ فيه دليل على جواز العمل اليسير في الصلاة وأنه لا يبطلها . وأن البصاق يجوز والإنسان يصلي .

٥ ـ استحباب ازالة ما يستقذر وما يتنزه عنه في المسجد .

٦ ـ النهي عن البصاق قبل وجهه ، وعن يمينه تشريفاً لها .

٧ ـ جواز البصاق تحت القدم أو عن اليسار والمراد إذا كان خارجاً عن المسجد ، والا في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها كما في الحديث .

٨ ـ لزوم الأدب مع الله خصوصاً في الصلاة .

« اللهم » معناه يا الله ، ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب ، فلذا لا يقال اللهم غفور رحيم ، بل يقال : اللهم اغفر لي وارحمني ، زيدت فيه الميم للتعظيم والتفخيم على الصحيح ، والميم تدل على الجمع وتقتضيه ومخرجها يقتضي ذلك لأنها حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه فوضعته العرب علماً على الجمع ، وإذا علم هذا من شأن الميم فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم « اللهم » الذي يسأل العبد ربه سبحانه في كل حاجة وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه تعالى وصفاته ، فإذا قال السائل : اللهم إني أسألك ، فكأنه قال أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته ، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلها فالداعي مندوب الى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، كما في الاسم الأعظم « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم » وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى •

والدعاء ثلاثة أقسام : أحدها أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، الثاني : أن تسأل بحاجتك وفقرك ، وذلك بأن تقول أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك ، الثالث : أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين فالأول أكمل من الثاني والثاني أكمل من الثالث فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل •

وهذه عامة أدعية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول قد جاء عن غير واحد من السلف ، قال الحسن البصري : اللهم مجمع الدعاء ، وقال أبو رجاء العطاردي : إن الميم في قوله اللهم فيها تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله ، وقال النضر بن شميل : من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه •

رب : تأتي بمعنى المربي والمالك ، والخالق : أي خالق العالم العلوي الذي هو السموات السبع ، ورب العرش العظيم أي مالك كل شيء وخالقه

لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع المخلوقات من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله ، علمه محيط بكل شيء وقدرته نافذة في كل شيء وهو على كل وكيل • فالق الحب والنوى : أي شاق ، والفلق الشق ، منزل التوراة والانجيل والقرآن : أي منزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم • أعوذ : ألتجيء وأعتصم وألتصق بجناب الله من شر كل ذي شر ، والعياذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير ، قال أبو الطيب مادحاً لابن كيغل :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وهذان البيتان فيهما غلو عظيم ، نسأل الله العافية • قال بعض العلماء : ربما دعوت الله بمعنى هذين البيتين ، الدابة لغة اسم لما دب على وجه الأرض وأطلق عرفاً على ذوات الأربع وقوله آخذ بناصيتها أي تحت قهره وسلطانه فهو الذي يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء : أي أعوذ بك من شر كل شيء من المخلوقات لأنها كلها في سلطانه ، والناصية : قصاص الشعر في مقدم الرأس • وفي حديث ابن عباس قال للحسين لما أراد العراق : لولا أنني أكره لنصوتك ، أي أخذت بناصيتك ولم أدعك تخرج ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها « لم تكن واحدة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تناصيني غير زينب » أي تنازعني وهو أن يأخذ كل واحد من المتنازعين بناصية الآخر •

قوله « وأنت الأول فليس قبلك شيء الخ •• » قد تقدم الكلام على قوله تعالى (هو الأول والآخر) الآية في ص ٧٩ •

اشتمل هذا الحديث على التعليم الكامل لكيفية الثناء على الله عز وجل قبل سؤاله والاستعاذة به • إذ هو صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يثني على الله عز وجل بربوبيته التي عمت كل شيء ثم يعوذ ويعتصم به من شر نفسه

ومن شر كل دابة هو آخذ بناصيتها ثم يتوسل إليه بأسمائه أن يقضي عنه دينه ويغنيه من الفقر .

ففي الحديث :

١ ــ إثبات الربوبية . ٢ ــ إثبات ملكه .
٣ ــ الرد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يخلق فعله فإن الربوبية العامة تشمل أفعال خلقه . ٤ ــ إثبات أسماء الله .
٥ ــ أن الله هو المنعم الحقيقي على كل الخلق .
٦ ــ تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته كيف تثني على الله قبل أن تسأل
٧ ــ تقديم الثناء على الله . ٨ ــ فيه دليل على عظمة العرش .
٩ ــ أن العرش مخلوق لله . ١٠ ــ فيه دليل على عظمة الله .
١١ ــ إثبات قدرة الله . ١٢ ــ إثبات علو الله على خلقه .
١٣ــ أن هذه الكتب منزلة من عند الله .
١٤ــ الرد على من قال إن هذه الكتب مخلوقة .
١٥ــ الالتجاء والاعتصام بالله . ١٦ ــ إثبات صفة الخلق لله .
١٧ــ إثبات أولية الله سبحانه وسبقه لكل شيء .
١٨ــ إثبات دوامه وبقائه . ١٩ ــ إثبات قربه ودنوه .
٢٠ــ إثبات إحاطته . ٢١ ــ أن نواصي الدواب بيد الله آخذ بها .
٢٢ــ عظم شأن الدين يؤيده حديث صلوا على صاحبكم .
٢٣ــ عظم شأن الفقر يؤيده حديث كاد الفقر أن يكون كفرا .
٢٤ــ أن الكمال في ما طلبه صلى الله عليه وسلم وهو الغنى من الفقر فقط
٢٥ــ أن من أعدى ماللانسان نفسه ولهذا تعوذ من شرها صلى الله عليه وسلم .
٢٦ــ ان الله يعلم البواطن كما يعلم الظواهر .

٢٧ــ أن نواصي الخلق بيد الله •

٢٨ــ الاهتمام بشأن الدين وأنه لاينبغي الاستهانة به بل يحرص على وفائه

٢٩ــ أن الفقر ربما كان فيه ضرر على الإنسان ولهذا سأل صلى الله عليه وسلم أن يغنيه الله منه • ٣٠ ــ إثبات علم الله بكل شيء •

٣١ــ نصح النبي صلى الله عليه وسلم لأمته •

٣٢ــ ان الله هو الذي تطلب منه الأشياء • ٣٣ ــ أن من أطاع نفسه أوقعته في المعصية • ٣٤ ــ أن في الدواب شر فلهذا استعاذ من شرها •

٣٥ ــ أن القادر على قضاء الدين هو الله جل وعلا •

٣٦ ــ سعة فضل الله وكرمه وجوده • ٣٧ ــ الحث على التأدب في السؤال • ٣٨ ــ بيان عدد السموات وأنها سبع •

٣٩ــ إثبات الربوبية الخاصة • ٤٠ ــ اثبات الأفعال الاختيارية •

٤١ ــ منع الوسائط الشركية التي بين الله وبين خلقه •

٤٢ ــ إثبات رأفة الله ورحمته بخلقه حيث بعث اليهم الرسل يدلونهم على مافيه صلاحهم • ٤٣ ــ ان العرش أكبر وأعظم من السموات •

٤٤ ــ أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بربه وأحبهم له •

٤٥ ــ الحث على المراقبة • ٤٦ ــ في الحديث ما يدعو الى محبة الله جلّ وعلا واستحقار الأعمال أمام جوده وكرمه •

٤٧ ــ الرد على من أنكر السموات وقال مافيه إلا فضاء •

٤٨ ــ اثبات صفة الفلق • ٤٩ ــ دليل لأهل السنة أن الكتب منزلة التي هي القرآن والتوراة والانجيل •

٥٠ ــ عناية الله بخلقه حيث فلق لهم الحب والنوى •

٥١ ــ اثبات البعث • ٥٢ ــ اثبات الحساب والجزاء على الأعمال•

٥٣ ــ الرد على من قال ان القرآن والتوراة والانجيل شيء واحد •

٥٤ ــ عظم شأن حقوق الخلق •

٥٥ ـ الرد على من قال ان القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .
٥٦ ـ صفة الأخـذ .

الحديث الرابع ا

« اربعوا » : ارفقوا بأنفسكم وإخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه أو لعدم سماعه وأنتم تدعون الله تعالى وهو ليس بأصم ولا غائباً بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة والاطـلاع .

ويستنبط من الحديث :

١ ـ الندب الى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع الحاجة الى رفعه .
٢ ـ الحكمة في ذلك أنه إذا حفظه كان أبلغ في التوقير والتعظيم كما جاءت به أحاديث .
٣ ـ دليل على قرب الله .
٤ ـ إثبات صفة السمع .
٥ ـ إثبات صفة البصر .
٦ ـ إثبات قرب الله ممن يتقرب منه بالدعاء ، وقربه سبحانه وتعالى نوعان قرب عام وقرب خاص . فالعام : يقتضي الإحاطة والعلم والاطلاع على جميع الأشياء . والثاني قرب خاص وينقسم الى قسمين : قرب من داعيه بالإجابة وقرب من عابده بالإثابة ، فالأول كقوله (واذا سألك عبادي عني فاني قريب) والثاني كقوله صلى الله عليه وسلم « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد وأقرب مايكون الرب من عبده في جوف الليل » فهذا قرب من أهل طاعته وهذا القرب لا ينافي كمال مباينته لخلقه واستوائه على عرشه بل يجامعه ويلازمه فإنه ليس كقرب الأجسام .

قال الشيخ : وفي الحديث المتفق عليه « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » وذلك لأن الله قريب من قلب الداعي فهو أقرب إليه من عنق راحلته وقربه من قلب الداعي له

معنى متفق عليه عند أهل الإثبات الذين يقولون إن الله فوق العرش ومعنى آخر فيه نزاع فالمعنى المتفق عليه عندهم بتقريبه قلب الداعي كما يقرب إليه قلب الساجد فالساجد يقرب إليه قلبه فيدنو قلبه من ربه وإن كان بدنه على الأرض ومتى قرب أحد الاثنين من الآخر تحرك بذاته كما أن من قرب من مكة قربت مكة منه ، وقد وصف الله أنه يقرب إليه من يقربه من الملائكة والبشر فقال : (لن يستنكف المسيح) الآية . وأما قرب الرب قرب يقوم به بفعله القائم بنفسه فهذا تنفيه الكلابية ومن يمنع قيام الأمور الاختيارية بذاته ، وأما السلف وأئمة الحديث والسنة فلا يمنعون ذلك اهـ .

قال ابن القيم في المدارج على قوله « وأنت الباطن فليس دونك شيء » قال : فهذا أقرب للإحاطة العامة ، وأما القرب المذكور في الكتاب والسنة فقرب خاص من عابديه وسائله وداعيه وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) الآية ، وفي الصحيح « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون اهـ.

٥٩ - إثبات الرؤية من السنة

[وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا » متفق عليه . إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به] .

تقدم الإيمان برؤية المؤمنين ربهم في الآخرة وأدلتها من القرآن في ص ٢٤٦ وهذا دليل من السنة وأحاديث الرؤية متواترة . قال يحيى بن معين : عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية كلها صحاح ، وقال الإمام أحمد : والأحاديث التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم « إنكم ترون ربكم » صحيحة وأسانيدها غير مدفوعة والقرآن شاهد أن الله سبحانه يرى في الآخرة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون ربكم » الخطاب للمؤمنين والرؤية بصرية ، وقوله « كما ترون القمر ليلة البدر » تحقيقاً للرؤية وأنها لاشك فيها وهو تشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي ، فإنه سبحانه لا شبيه له ولا نظير ، ومناسبة ذكر هاتين الصلاتين لأنهما أفضل الصلوات فقد ورد عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صلى البردين دخل الجنة » متفق عليه . وفي حديث أبي هريرة : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر » الحديث متفق عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصبح فهو في ذمة الله » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » يعني الفجر والعصر رواه مسلم . وسُميا بالبَرْدَين لوقوعهما في الوقت البارد ، وهو طرف النهار ، وهما يقعان أول النهار وآخره وهذا وقت رؤية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى فناسب الأمر بالمحافظة على هاتين الصلاتين .

ومن الأدلة على الرؤية ما ورد عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى : أتريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال : فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) » رواه مسلم . وروى أبو داود وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته ، وأيما والد جحد ولده وهو ينظر إليه إلا احتجب الله عنه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين وفي الحديث الذي رواه النسائي لما صلى عمار فأوجز وقال دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، إلى أن قال : وأسألك لذة النظر إلى وجهك » الحديث .

وفي الحديث المتقدم :

١ ـ دليل على الرؤية ٢ ـ إثبات الربوبية
٣ ـ الرد على من أنكر الرؤية •
٤ ـ أنه لا يحصل للمؤمنين ازدحام في الرؤية ولا يلحقهم ضيم ولا يراه بعضهم دون بعض • ٥ ـ الحث على المسابقة إلى ما يرضي الله •
٦ ـ الحث على المحافظة على الصلوات الخمس وبالأخص الصبح والعصر
٧ ـ دليل على علو الله على خلقه •
٨ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة •

قال السفاريني :

فنسأل الله النعيم والنظر لربنا من غير ما شين غبر
بإنه ينظر بالأبصار كما أتى في النص والأخبار
لأنه سبحانه لم يحجب إلا عن الكافر والمكذب

وقوله : « إلى أمثال هذه الأحاديث » لما كان ما ورد في باب الأسماء والصفات ليس محصورا فيما ذكر المؤلف رحمه الله نبه على أن أمثال الأحاديث التي ذكرها مما يخبر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به فإن حكمه كذلك في وجوب الإيمان بما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ثم عاد فأكد ما اعتقد أهل السنة والجماعة وهو أنهم يؤمنون بما وردت به السنة الصحيحة من الصفات كإيمانهم بما أخبر الله به في كتابه الخ فقال :

فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبه •

وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم •

وفي باب أسماء الايمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرافضة والخوارج قد تقدم الكلام على التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل في ص ٥٢ ، ٥٣ وأما معنى كون أهل السنة وسطاً في فرق الأمة فلأنهم وسط بين الطرفين المنحرفين بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار كالنصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام وقالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقالوا : المسيح ابن الله ، وقالوا : ثالث ثلاثة ، وغلوا في الرهبان كما أخبر الله عنهم بقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم) •

والقسم الثاني : جفوا الأنبياء وأتباعهم وقتلوهم وردوا دعوتهم، كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى وحاولوا قتل المسيح ورموه وأمه بالعظائم فجعلوها زانية ، وقد حملت بولد من ذلك قال الله تعالى : (وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) وقال : (وقتلهم الأنبياء بغير حق) •

وأما هذه الأمة فوحدت الله ووصفته بصفات الكمال ، ونزهته عن جميع صفات النقص ، ونزهته عن أن يماثله شيء من المخلوقات ، وآمنت بكل رسول أرسله الله ، واعتقدت رسالتهم ، وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها فهذه الأمة أفضل الأمم على الإطلاق ، كما قال تعالى (كنتم خيرأمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) •

وقال الشيخ رحمه الله : دين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة فهم وسط في التوحيد بين اليهود التي تصف الرب بالنقائص ويشبهون الخالق بالمخلوق وبين النصارى التي تصف المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها ويشبهون المخلوق بالخالق •

فالمسلمون وحدوا الله ووصفوه بصات الكمال ونزهوه عن جميع النقص ونزهوه أن يماثله شيء من خلقه في شيء من الصفات فهو موصوف بصفات الكمال لا بصفات النقص وليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعالـه .

وقال رحمه الله : وكذلك في العبادات النصارى يعبدون بيدع ما أنزل الله بها من سلطان واليهود معرضون عن العبادات والمسلمون عبدوا الله بمـا شرع ولم يعبدوه بالبدع وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به جميع النبيين وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره وهو الحنيفية دين إبراهيم ، وقال : كذا في أمر الحلال والحرام في الطعام واللباس ومـا يدخل في ذلك من النجاسات فالنصارى لا تحرم مـا حرم الله ورسوله ويستحلون الخبائث المحرمة ولا يتطهرون ، واليهود حرت عليهم طيبات أحلت لهم ، وقال : اليهود مقصرون عن الحق والنصارى غالون فيه فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال فله أسباب متعددة ليس هذا موضعها ، وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولا أو عملا أو لا قولاً ولا عملا وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله ويقولون على الله ما لا يعلمون وكان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ا هـ .

وأما توسطهم بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة فوجه ذلك أن المعطل من ينفي صفات الله أو بعضها وينكر قيامها بذات الله المقدسة ، فهو بالحقيقة مقصر عن أهل السنة ، ويقال له جافي وهذا هو أصل الجهمية هو نفي الصفات بما يزعمونه من دعوى العقليات التي عارضوا بها النصوص إذ كان العقل الصريح الذي يستحق أن تسمى قضاياه عقليات موافقاً للنصوص لا مخالفاً ولما كان قد شاع في عرف الناس أن قول الجهمية مبناه على النفي صار الشعراء ينظمون هذا المعنى كقول أبي تمام :

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء

فهؤلاء ارتكبوا أربع عظائم أحدها ردهم نصوص الأنبياء والثاني ردهم مايوافق ذلك من المعقولات ، الثالث جعل ماخالف ذلك من أقوالهم المجملة أو الباطلة هي أصول الدين الرابع تكفيرهم أو تفسيقهم أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول والمشبه هو من يشبهها بصفات المخلوقين ، أو يشبه بعض الصفات بصفات المخلوق فهو غال متجاوز للحد .

وأما أهل السنة فهم فيما بين ذلك على صراط مستقيم يثبتون لله ما أثبته لنفسه ، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً بلا تمثيل ، وينزهونه عن مشابهة المخلوقين تنزيهاً بلا تعطيل ، فهم جمعوا بين التنزية والإثبات على حد قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . وقوله (قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد) . . الخ .

وأما توسطهم في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية فوجه ذلك أن الجبرية هم أتباع الجهم بن صفوان الترمذي زعيم المعطلة مذهبهم أن العبد مجبور على فعله وحركاته وأفعاله اضطرارية كحركة المرتعش والعروق النابضة وكحركات الأشجار في مهب الريح ، وإضافتها إلى الخلق مجاز ، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال فهي فعله حقيقية لا أفعالهم ، والعبد ليس له قدرة ولا إرادة ولا فعل له البتة ، وإلى مذهبهم أشار ابن القيم رحمه الله في النونية :

والعبد عندهم فليس بفاعل بل فعله كتحرك الرجفان
وهبوب ريح أو تحرك نائم وتحرك الأشجار للميلان
والله يصليه على ما ليس من أفعاله حر الحميم الآن
لكن يعاقبه على أفعاله فيه تعالى الله ذو السلطان

إلى أن قال :

لكنهم حملوا ذنوبهم على   رب العباد بعزة وأمـان
وتبرءوا منها وقالوا إنها   أفعاله مـا حيلة الإنسان
ما كلف الجبار نفساً وسعها   أنى وقد جبرت على العصيان
وكذاعلى الطاعات أيضاقدغدت   مجبورة فلهـا إذاً جبران
والعبد في التحقيق شبه نعامة   قـد كلفت بالحمل والطيران
إذ كان صورتها تدل عليهما   هذا وليس لها بذاك يدان
فلذاك قال بأن طاعات الورى   وكذاك ما فعلوه من عصيان
هي عين فعل الرب لا أفعالهم   فيصيح عنه عند ذا نفيان
نفي لقدرتهم عليهـا أولا   وصدورها منهم بنفي ثـان
فيقال ما صلوا ولا صاموا ولا   زكوا ولا ذبحوا من القربان
وكذلك ما شربوا وماقتلوا وما   سرقوا ولا فيهم غـوى زان
وكذاك لم يأتوا اختياراً منهم   بالكفر والإسلام والإيمان
إلا على وجه المجاز لأنهـا   قامت بهم كالطعم والألوان
جبروا على ما شاءه خلاقهم   ما ثم عون وغير معـان
الكل مجبور وغير ميسر   كالميت أدرج داخل الأكفان
وكذاك أفعال المهيمن لم تقم   أيضاً به خوفـاً من الحدثان
فإذا جمعت مقالتيه أنتجـا   كذبـاً وزوراً واضح البهتان
إذ ليست الأفعال فعل إلهنا   والرب ليس بفاعل العصيان
فإذا انتفت صفة الإله وفعله   وكلامـه وفعائل الإنسان
فهناك لا خلق ولا أمـر ولا   وحي ولا تكليف عبد فـان
وقضى على أسمائه بحدوثها   وبخلقها من جملة الأكوان
فانظر إلى تعطيله الأوصاف والـ   أفعـال والأسماء للرحمن
ماذا الذي في ضمن ذا التعطيل مـن   نفي ومن جحد ومن كفران
لكنه أبدى المقالة هكذا   في قالب التنزيـه للرحمن

وأتى إلى الكفر الصريح فصاغه عجلا ليفتن أمـة الثيران
وكساه أنواع الجواهر والحلي من لؤلؤ صاف ومن عقيان
فرآه ثيران الورى فأصابهم كمصاب إخوتهم قديم زمان
عجلان قد فتنا العباد بصوته إحداهما وبحرفة ذا الثاني
ولذا تقاسمت الطوائف قوله وتوارثوه إرث ذي السهمان
لم ينج من أقواله طراً سوى أهل الحديث وشيعة القرآن
فتبرؤا منها براءة حيـدر وبراءة المولود من عمران

ولا شك في فساد هذا المذهب وأدلة الكتاب والسنة بل والعقل متواطئة على رده والجبرية سموا جبرية لأنهم يقولون إنا مجبورون على أفعالنا فغلوا في إثبات القدر •

وأما القدرية فهم أتباع معبد الجهني ، لأنـه أول من تكلم بالقدر ، وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقين وأوصافهم ، ونفوا قدرة الله على أفعال المكلفين ، وقالوا : إنه لم يردها ولم يشأها منهم وهم الذين أرادوها وشاءوها وفعلوها استقلالا وأنكروا أن يضل من يشاء ويهدي من يشاء فأثبتوا خالقاً مع الله ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ، وهم الذين ورد فيهم الحديث : « إنهم مجوس هـذه الأمـة » ويقال لهم : القدرية النفاة ، ومذهبهم باطل لأنه إشراك في الربوبية •

وأما أهل السنة والجماعة فأثبتوا أن العباد فاعلون حقيقة وأن أفعالهم تنسب إليهم على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم• قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وقال : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وأهل السنة أثبتوا للعبد مشيئة واختياراً تابعين لمشيئة الله ، قال تعالى : (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العلمين) •

وأما كونهم وسطاً في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية فلأن المرجئة المنسوبين إلى الإرجاء لتأخيرهم الأعمال عن الإيمان حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسق وقالوا لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة وعندهم أن الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان وأن الإيمان لا يتبعض وأن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان غير معرض للوعيد .

ومذهبهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة ، وأما الوعيدية فهم القائلون بإنفاذ الوعيد وأن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب منها فهو خالد مخلد في النار وهو أصل من أصول المعتزلة وبه تقول الخوارج قالوا لأن الله لا يخلف الميعاد وقد توعد العاصين بالعقوبة فلو قيل إن المتوعد بالنار لا يدخلها لكان تكذيباً لخبر الله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية » رواه الترمذي وعن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكون في أمتي ضعف ومسخ وذلك في المكذبين بالقدر » رواه أبو داود وروى الترمذيين نحوه .

وأهل السنة توسطوا في ذلك فقالوا : إن مرتكب الكبيرة ناقص الإيمان آثم وهو معرض نفسه للعقوبة وهو تحت مشيئة الله إذا مات من غير توبة إن شاء الله عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ولكنه لا يخلد في النار بل يخرج منها بعد التطهير والتمحيص من الذنوب والمعاصي إما بشفاعة وإما بفضل الله ورحمته قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية . قالوا وإخلاف الوعيد كرم يمدح به بخلاف الوعد قال الشاعر :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمُخْلِفٌ إيعادي ومُنْجِزٌ مَوْعِدي

والمراد بأسماء الإيمان والدين والأحكام مثل مؤمن كافر فاسق منافق والمراد بالأحكام أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة وقبل أن نذكر توسط أهل

السنة بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية نذكر سبب تسميتهم بذلك فالحرورية هم الخوارج سموا بذلك نسبة إلى قرية قرب الكوفة اجتمع فيها الخوارج حين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفارقوه بسبب التحكيم وبدعتهم حدثت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه رئيسهم ذو الخويصرة فقال اعدل يامحمد فقال النبي صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل إذا لم أعدل وأمر بقتالهم في أحاديث مشهورة ومعروفة عند أهل العلم وقاتلهم علي يوم النهروان ثم حدثت بدعة المعتزلة .

وأما المعتزلة فهم أتباع عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وأصحابهما سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في أوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره أولئك المعتزلة ويقال إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول المعتزلة وتابعة عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل كتابين وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة التي سموها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولبسوا فيها الحق بالباطل .

وأما بيان أن أهل السنة وسط في باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية فلأن كلا من الخوارج والمعتزلة يرى أن الدين والإيمان قول وعمل واعتقاد ولكن لا يزيد ولا ينقص ومن أتى كبيرة كفر عند الحرورية وصار فاسقاً عند المعتزلة في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر ، واتفق الفريقان على حكمهم في الآخرة فعندهم أن من أتى كبيرة فهو خالد مخلد في النار لايخرج بشفاعة ولابغير شفاعة ، وعند الخوارج أن من أتى كبيرة أنه مباح الدم والمال في الدنيا خلافاً للمعتزلة فوقع الاتفاق بينهما في أمرين ووقع الخلاف بينهما في موضعين ، وأما المرجئة فيقولون إن الإيمان مجرد التصديق بالقلب والقول باللسان أو أنه قول فقط ، قال ابن القيم رحمه الله في النونية حاكياً مذهبهم :

وكذلك الإرجاء حين تقر بالمعبود تصبح كامل الإيمان

وعند الجهمية أن الإيمان مجرد المعرفة والأعمال ليست من الإيمان فإيمان أفسق الناس كإيمان أكمل الناس ويقولون لا يضر مع الإيمان معصية ، وقال ابن القيم رحمه الله حاكياً مذهبهم :

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان
قالوا وإقرار العباد بأنه خلاقهم هو منتهى الإيمان

وأما أهل السنة فقالوا الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . قال بعضهم :

وإيماننا قول وفعل ونية ويزداد بالتقوى وينقص بالردى

وعند أهل السنة أن من أتى كبيرة يسمى مؤمناً ناقص الإيمان وبعبارة أخرى يسمى مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، أو يقال مؤمن عاصي وفي الآخرة تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر الله له ذنوبه وأدخله الجنة لأول مرة وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ومآله الى الجنة ، والكبيرة هي مافيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة كالربا وعقوق الوالدين المسلمين ، زاد شيخ الإسلام : أو ترتب عليه لعنة أو غضب أو نفي إيمان والصغيرة ما دون ذلك ، قال ناظم الكبائر :

فما فيه حد في الدنا أو توعد بأخرى فسم كبرى على نص أحمد
وزاد حفيد المجد أو جا وعيده بنفي الإيمان وطرد لمبعد

والرافضة هم الذين غلوا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغلوا في أهل البيت ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة كالثلاثة وكفروهم ومن والاهم وقالوا لا ولاء إلا ببراء أي لا يتولى أحد علياً حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر وكفروا من قاتل علياً وقالوا إن علياً إمام معصوم وسبب تسمية الشيعة بالرافضة أنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين وارفضوا عنه حينما قالوا له تبرأ من الشيخين

أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال معاذ الله وزيرا جـدي فتركوه فسموا الرافضة وأما الزيدية فقالوا نتولاهما ونبرأ ممن تبرأ منهما فخرجوا مع زيد فسموا الزيدية • وأول من ابتدع الرفض عبد الله بن سبأ كان منافقاً زنديقاً أراد بذلك فساد دين الإسلام كما فعل بولص صاحب الرسائل التي بأيـدي النصارى حيث ابتدع لهم بدعاً أفسد بها دينهم وكان يهودياً فأظهر النصرانية نفاقاً لقصد إفساد ملتهم وكذلك كان ابن سبأ يهودياً فقصد ذلك وسعى في الفتنة ولم يتمكن لكن حصل بسببه بين المؤمنين تحريش وفتنة قتل فيها عثمان رضي الله عنه ، ولما حدثت بدعة الشيعة في خلافة علي رضي الله عنه ردها وكانت ثلاث طوائف غالية وسبئية ومفضلة فحرق على الغالية لما خرج إليهم من باب كندة فسجدوا له فقال ماهذا قالوا أنت هو الله فخدد الأخاديد وأضرم فيها النار ثم قذفهم فيها ، وفيهم قال علي رضي الله عنه :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت ناري ودعوت قنبرا

وأما السبئية فلما بلغ علياً أن ابن سبأ يسب أبابكر وعمر رضي الله عنهما طلبه ليقتله فهرب إلى قرقيسياء وكان علي رضي الله عنه يداري أمراءه لأنه لم يكن متمكناً ولم يكونوا مطيعين له في كل ما يأمرهم به وأما المفضلة فقال لهم لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري •

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه بسبب التحكيم وكانوا اثني عشر ألفاً فأرسل إليهم عبد الله بن عباس فجادلهم ووعظهم فرجع بعضهم وأصر بعضهم على المخالفة له ثم أنهم أعلنوا الفرقة وأخذوا في نهب من لم يرى رأيهم وقد ثبت عن النبي صلى الله عليهوسلم أنه قال « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلها أولى الطائفتين بالحق » فقتلهم علي وطائفته فهم والرافضة في طرفي نقيض لأن الرافضة غلو في علي وأهل البيت وأما الخوارج فكفروا علياً وعثمان ومن والاهما •

وأما أهل السنة فكانوا وسطاً بين غلو الرافضة وجفاء الخوارج فهداهم الله لموالاة الجميع ومحبتهم وعرفوا لكل حقه وفضله ورأوا أنهم أكمل الأمة إسلاماً وإيماناً وعلماً وعملا وحكمة وأنزلوهم منازلهم وبهذا يتبين توسطهم بين هاتين الفرقتين الظالمتين ويجب هجران أهل البدع ومباينتهم وترك الجدال والخصومات في الدين وترك النظر في كتب المبتدعة والإصغاء الى كلامهم وكل محدثة في الدين بدعة وكل متسم بغير الإسلام والسنة مبتدع . قال الشيخ رحمه الله : ومن أعظم أسباب بدع المتكلمين من الجهمية وغيرهم في مناظرة الكفار والمشركين فإنهم يناظرونهم ويحاجونهم بغير الحق والعدل لينصروا الإسلام زعموا بذلك فيتسلط عليهم أولئك لما فيهم من الجهل والظلم ويحاجونهم بممانعات ومعارضات فيحتاجون حينئذ إلى جحد طائفة من الحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، والظلم والعدوان لإخوانه المسلمين بما استظهر عليهم أولئك المشركون ، فصار قولهم مشتملا على إيمان وكفر وهدى وضلال ورشد وغي وجمع بين النقيضين ، وصاروا مخالفين للكفار والمؤمنين ، وقال : وكثير من أذكياء أهل الباطل ورؤسائهم تراجعوا عن باطلهم واعترفوا بالضلال والحيرة فمنهم من وفق بعد ذلك لسلوك طرق أهل العلم والإيمان فصار إماماً في الهدى بعد ما كان إماماً في الضلال ، ومنهم من لم يتيسر له ذلك فاعترف ببطلان ما كان عليه أولا وبقي على دين العجائز وأهل الفطر الصحيحة ، وكثير منهم في طغيانهم يعمهون وفي غيهم يترددون ،.وذلك أن الهدى هو ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً فكيف بمن عارضه بما يناقضه وقدم مناقضه عليه ؟

وقال : أهل البدع الذين ذمهم الله نوعان : أحدهما عالم بالحق يتعمد خلافه ، والثاني جاهل متبع لغيره ، فالأولون يبتدعون ما يخالف كتاب الله ويقولون هو من عند الله إما أحاديث مفتريات وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل ويتعضدون ذلك بما يدعون من الرأي والعقل وقصدهم بذلك الرئاسة والمآكل وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية وقيل هذه تخالفكم

حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة ، وأما النوع الثاني فهم الأميّون الجهال الذين لايعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم الا يظنون .

وقال : ومما يدل على فساد مقولات الفلاسفة وأهل الكلام الباطل بقطع النظر عما يدل على فسادها عقلا ونقلا كثرة التناقض والاضطراب بين أهلها وعدم الاستقرار والاتفاق على رأي واحد بل ربما قال الواحد من أئمتهم ورؤسائهم القول وقال إنه مقطوع به ثم في كتاب آخر يقول إنه مقطوع بخلافه فعقول هذه حالها لا تصلح أن تكون معتبرة في الأمور الجزئية فضلا عن تقديمها على نصوص الأنبياء والمرسلين في الأمور العظيمة من أصول الدين اهـ .

أنشد الشهرستاني في أول كتابه لما قال : قد أشار على من إشارته غنم وطاعته حتم أن أجمع له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول ولعله استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

ويقول الفخر الرازي :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن إقرأ في الإثبات (الرحمن على العرش استوى) (إليه يصعد الكلم الطيب) واقرأ في النفي (ليس كمثله شيء) (ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

ومن آخر ما قال الفخر الرازي :

لعمري وما أدري وقد آذن البلى بعاجل ترحالي إلى أين ترحالي
وأين محل الروح عند خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالي

ويقول أبو المعالي الجويني : لقد خضت البحر الخضم وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان وها أنا أموت على عقيدة أمي .

ويقول الآخر وأظنه الغزالي :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بي الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا دقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

ويقول القشيري :

تجاوز حد الأكثرين إلى العلا وسافرت واستبقتهم في المفاوز
وخضت بحاراً ليس يدرك قعرها وسيرت طرفي في قسيم المفاوز
واججت في الأفكار ثم تراجع اخ تيارى الى استحسان دين العجائز

وقد انتهى الأنموذج الدال على اضطراب المتأخرين وتناقضهم وحيرتهم وندمهم اهـ .

قال الناظم :

فطالب دين الحق بالرأي ضائع ومن خاض في علم الكلام فما هدى
كفانا بهم نقصاً تناقض قولهم فكل يقول الحق عندي فقلد
ولو كان حقاً لم يكن متناقضا ولم يتنقل ربه ذا تلدد

وما الحق إلا ليـله كنهاره يزيد ضياء خالياً من تردد
به يطمئن القلب غير مروع ولا خائف بل آمن من تنكد
فمن قلد الآراء ضل عن الهدى ومن خاض في علم الكلام فماهدي
فما الدين إلا الاتباع لما أتى عن الله والهادي البشير محمد
ومحض التلقي والقبول له بلا تاويل أو تشبيه أو رَدّ جحد
فكيف يرجى بالعقول الهدى امرؤ وأكثر دين الحق محض تعبد
يعرفك المعقول وحدة خالق وصدق رسول بالدليل المؤيد
ويكفي ارتسام للدليل بعقله ومن بعده فاعزله والرسل قلد

وقال ابن القيم :

وانظر إلى الأقدار جارية بمـا قد شاء مـن غي ومن إيمان
واجعل لقلبك مقلتين كلاهما بالحق في ذا الخلق ناظرتان
فانظر بعين الحكم وارحمهم بها إذ لاتـرد مشيئة الـديان
وانظر بعين الأمر واحملهم على أحكامه فهمـا إذاً نظـران
واجعل لوجهك مقلتين كلاهما من خشية الرحمن باكيتان
لو شاء ربك كنت أيضاً مثلهم فالقلب بين أصابع الرحمن

٦٠ ـ العلو والاستواء والمعية

[وقوله : وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله : الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله وأجمع عليه سلف الأمة من أنـه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليٌّ على خلقه وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ماهم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله : (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها وماينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

وليس معنى قوله (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته] .

شرح المصنف رحمه الله في هذا الفصل مسألة العلو والاستواء والمعية وأن ذلك داخل في الإيمان بالله ووجه دخوله فيه أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر به ورسوله وهو قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقضي بالمعصية والاستواء والمعية والعلو فما أخبر الله به ورسوله وتقدم الإيمان بالاستواء وأدلته في ص ١٩٥ .

وتقدم أيضاً العلو وأدلته في ص ٢٠٤ ، وتقدم ايضا الكلام على المعيتين من ص ٢١٢ الى ص ٢١٩ ، وحيث أن مسألة العلو علو الله على خلقه واستوائه على عرشه حصل فيها اختلاف كثير ومخاصمات طويلة بين أهل السنة والجماعة وبين طوائف الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم في هذه المسألة من أشاعرة ونحوهم وصنفت فيها المصنفات المستقلة في مسألة العلو وأورد فيها أهل السنة من نصوص الكتاب والسنة مما لا يمكن دفعه أو دفع بعضه وحققوا في ذلك بالعقل الصحيح وأن الفطر والعقول معترفة بل مضطرة إلى الإيمان بعلو الله إلا من غيرت فطرته العقائد الباطلة . قال الشيخ رحمه الله في الحموية : فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها الى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الأمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى ، وهو فوق كل شيء وهو عال على كل شيء وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء .

ثم ساق رحمه الله أدلة من القرآن ، قال بعدها : إلى أمثال ذلك مما

لا يكاد يحصى إلا بكلفة وفي الأحاديث الصحاح والحسان مالا يحصى إلا بكلفــة .

ثم ساق رحمه الله الأدلة من السنة، ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألوفاً ، ثم قال : ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولاعن أحد من سلف الأمة ، لامن الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك ، لا نصاً ولا ظاهرا ، ولم يقل أحد منهم قط : إن الله ليس في السماء ، ولا أنه ليس على العرش ولا أنه بذاته في كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا أنــه لا متصل ولا منفصل ولا أنه لاتجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها ، بل قد ثبت في الصحيح عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات في أعظم مجمع حضره الرسول صلى الله عليه وسلم جعل يقول « ألا هل بلغت ؟ » فيقولون : نعم ، فيرفع أصبعه الى السماء وينكبها إليهم ويقول : « اللهم اشهد » غير مرة ، وأمثال ذلك كثير .

قال ابن القيم رحمه الله :

وله العلو من الوجوه جميعها ... ذاتاً وقدراً مع علو الشان
وعلوه فوق الخلائق كلها ... فطرت عليه الخلق والثقلان
لا يستطيع معطل تبديلهـا ... أبداً وذلك سنة الرحمن
كل إذا ما نابه شيء يرى ... متوجهاً بضرورة الإنسان
نحو العلو فليس يطلب خلفه ... وأمامه أو جانب الإنسان

إلى أن قال :

شتان بين مقالة أوصى بها ... بعض لبعض أول للثان
ومقالة فطر الإله عبــاده ... حقاً عليها ما هما عدلان

وقد تقدم الكلام على قوله هو الذي (خلق السموات والأرض في ستة أيام) في ص ٢٠٥ .

قال ابن القيم رحمه الله : ليس ظاهر اللفظ ولا حقيقته أنه مختلط بالمخلوقات ممتزج بها ولا تدل لفظة « مع » على هذا بوجه من الوجوه فضلا عن أن يكون هو حقيقة اللفظ وموضوعه ، فإن « مع » في كلامهم للصحبة اللائقة ، وهي تختلف باختلاف متعلقاتها ، ومصحوبها ، فكون نفس الإنسان معه لون ، وكون علمه وقدرته وقوته معه لون ، وكون زوجته معه لون ، وكون أميره ورئيسه معه لون ، وكون ماله معه لون، فالمعية ثابتة في هذا كله مع تنوعها واختلافها فيصح أن يقال زوجته معه وبينهما شقة بعيدة ، وكذا يقال : فلان معه دار كذا وضيعة كذا .

فتأمل نصوص المعية كقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكافرين) ، (واركعوا مع الراكعين) ، (لن تخرجوا معي أبدا) ، (ينادونهم ألم نكن معكم) ، (وكونوا مع الصادقين) ، (وما آمن معه إلا قليل) ، (فأنجيناه والذين آمنوا معه) ، (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه) ، (فاكتبنا مع الشاهدين) ، (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) وأضعاف ذلك هل يقتضي موضع واحد منها مخالطة مافي الذوات التصاقاً وامتزاجاً فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالى عن ذلك حتى يدعى أنها مجاز لا حقيقة فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم ، ولاملاصقة لهم ولا مخالطة ولا مجاورة بوجه من الوجوه ، وغاية ما تدل عليه « مع » المصاحبة والمرافقة والمقارنة في كل أمر من الأمور وذلك اقتران في كل مقام بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقه فإذا قيل الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك علمه بهم وتدبيره لهم وقدرته عليهم وإذا كان خاصاً كقوله (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة فعلوه سبحانه لا يناقض معيته ومعيته لا تبطل علوه بل كلاهما حق ، انتهى (من مختصر الصواعق ج ٢ الصفحة ٢٦٦) .

وقوله : « بل القمر آية من آيات الله الخ .. » الآية : العلامة ، وتنقسم الآيات إلى قسمين : آيات مشاهدة كالنجوم والقمر والشمس والليل والنهار ، وآيات مسموعة كالقرآن ، وآيات الله العيانة تدل على صدق آياته المسموعة المتلوة ، قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أي أن القرآن حق ، فأخبر بأنه يدل بآياته المرئية على صدق آياته المسموعة ، ولما ذكر المصنف أنه ليس معنى قوله (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق وأن هذا لا توجبه اللغة ضرب لتقريب المعنى مثلا بالقمر الذي هو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغيره أينما كان ، وتقول العرب : ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا ، وهو في مكانه غير مختلط بهم ولا محاذ ولا مماس ولا مجاور ، ولا يفهم أحد منه هذا فإذا كان هذا في القمر الذي هو من أصغر مخلوقات الله فكيف تكون حقيقة المعية في حق العلي الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً ؟ فيجب الإيمان بكل من علوه تعالى ومعيته واعتقاد أن ذلك كله حق على حقيقته لتواطؤ الأدلة على إثباته .

قوله : « رقيب على خلقه » الرقيب : المطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع أحوالهم .

قال ابن القيم :

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

المهيمن : الحافظ لخلقه المتصرف فيهم وقال ابن عباس وغير واحد : المهيمن : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم .

وقوله « ولكن يصان عن الظنون الكاذبة .. الخ » يعني أنه يجب على الإنسان قبول هذه النصوص المتقدمة وتنزيهها عن الدلالة على تشبيه أو أن يفهم منها مالا يليق بجلاله وعظمته ومن الظنون الكاذبة أن يظن أن ظاهر قوله في السماء أنها تقله أي تحمله أو أنه بحاجة إلى أن تظله أي تصير ظلالا فوقه

تعالى الله عن هذا الظن علوا كبيرا ووجه بطلانه أن يعلم أنه سبحانه ليس بحاجة إلى شيء من خلقه وأنه الغني عما سواه وأن الخلق كلهم فقراء إليه قال الله تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله .. الآية) .

وقال الشيخ :

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا　　　كما الغنى أبدا وصف لـه ذاتي

وقوله : «فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض» لما ذكر رحمه الله علو الله على خلقه وفوقيته وأنها حقيقة ثابتة على مايليق بجلاله وعظمته ساق بعد ذلك الأدلة النقلية والعقلية في إثبات ذلك فقال : فإنه قد وسع كرسيه السموات والأرض ، فكيف تحويه السموات والأرض أو تحوطه أو تظله .. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا .

وقوله « وهو يمسك السموات والأرض أن تزولا » أي أنه تعالى هو الذي يمسك السموات والأرض عن الزوال فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق ، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما ، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار ، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته مابه تمتلىء قلوبهم إجلالا وتعظيما ومحبة وتكريما وليعلموا كمال حلمه .

وقوله « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه أي إلا بأمره ومشيئته .. قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ، وقوله : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أي ومن آياته العظيمة أن قامت السموات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره فلم تزلزلا ولم تسقط السماء على الأرض .

قال الشيخ رحمه الله : فأهل السنة إذا قالوا إنه فوق العرش ، أو إنه في السماء ، لا يقولون إن هناك شيء يحويه ، أو يحصره ، ويكون محلا له أو ظرفاً أو وعاء تعالى الله عن ذلك ، بل هو فوق كل شيء ومستغن عن كل شيء ، وكل شيء مفتقر إليه ، وهو عال على كل شيء ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته وهو غني عن العرش وعن كل مخلوق جل وعلا •

٦١ - فصـــــل

(وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جمع بين ذلك في قوله (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ••• الآية) وقوله صلى الله عليه وسلم للصحابة لما رفعوا أصواتهم بالذكر : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وماذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ماذكر من علوه وفوقيته ، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في نعوته وهو علي في دنوه قريب في علوه] •

خصص المصنف رحمه الله هذا المبحث بهذين الأمرين وذلك لشدة الحاجة إلى الإيمان بقربه وإجابته ليكون العبد مراقباً لله إذا آمن بقربه إيماناً تاماً ، وكان منيباً إليه على الدوام إذا آمن بإجابته للسائلين وإثابته للمطيعين ، ثم ذكر رحمه الله الجمع بين الإيمان بعلو الله وقربه ومعيته لئلا يظن الظان أن ذلك مثل صفات المخلوقين وأنه إذا قيل : إنه فوق خلقه ، كيف يكون معهم وقريباً منهم ، فأجاب بما تضمنه هذا الأصل الثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته ، ومن نعوته اللازمة العلو المطلق والقرب العام والخاص وأن القرب والعلو في حق الله يجتمعان لعظمته وكبريائه وإحاطته من كل وجه فهو العلي في دنوه القريب في علوه •

والآية التي صدر بها المصَنف هذا الفصل قيل إن سبب نزولها ما ورد عن أبي موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فجعلنا لا نصعد جَبلا ولا نعلو ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير • قال : فدنا فقال « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيرا ، إن الذي تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » الحديث ، أخرجاه في الصحيحين •

المعنى : أن الله سبحانه وتعالى لما أمر عباده في الآية السابقة بصوم الشهر وإكمال العدة وحثهم على التكبير ليعدوا أنفسهم للشكر عقب بهذه الآيةالدالة على أنه خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم ، فيجيب دعوة الداعين ويجازيهم بأعمالهم فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابةالدعاء كأكل الحرام ونحوه ، فإن الله قد وعد بالإجابة ، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء وهي الاستجابة بالانقياد لأوامره والانتهاء عما نهى عنه • ففي الآية إثبات قربه من عباده وهو نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه وقرب من عابده وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق •

وقال ابن القيم رحمه الله على الآية الكريمة (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) : فهذه الآية لها شأن قد اختلف فيها السلف والخلف على قولين فقالت طائفة نحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة وعلى هذا فيكون المراد قربه سبحانه بنفسه وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه وإحاطة علمه به ، والقول الثاني المراد قرب ملائكته منه وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم ، فيقول الملك نحن قتلناهم وهزمناهم قال تعالى (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) وجبريل هو الذي يقرؤه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (فَلَمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم) فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه وملائكته هم الذين باشروه إذ هو بأمره ، وهذا القول هو أصح من الأول لوجوه :

أحدها : أنه قيد القرب في الآية بالظرف وهو قوله (إذ يتلقى المتلقيان) فالعامل في الظرف مافي قوله (ونحن أقرب إليه) من معنى الفعل ولو كان المراد قربه سبحانه بنفسه لم يتقيد ذلك بوقت تلقي الملكين ولا كان في ذكر التقييد به فائدة فإن علمه سبحانه وقدرته ومشيئته عامة التعلق .

الثاني : أن الآية تكون قد تضمنت علمه وكتابة ملائكته لعمل العبد ، وهذا نظير قوله (أم يحسبون أنّا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبـــون) .

الثالث : أن قرب الرب تعالى إنما ورد خاصاً لا عاماً وهو نوعان قربه من داعيه بالإجابة ومن مطيعه بالإثابة ولم يجيء القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة ، فليس في القرآن ولا في البسنة أن الله قريب من كل أحد ، وأنه قريب من الكافر والفاجر ، وإنما جاء خاصا كقوله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) فهذا قريب من داعيه وسائله به ، وقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولم يقل قريبة وإنما كان الخبر عنها مذكرا ، والدي عندي : أن الرحمة لما كانت من صفات الله تعالى وصفاته قائمة بذاته فإذا كانت قريبة من المحسنين فهو قريب سبحانه منهم قطعا ، ويوضح ذلك أن الإحسان يقتضى قرب العبد من ربه فيقرب ربه منه بإحسان إليه بإحسانه لانه يتقرب إلى من تقرب إليه فإنه من تقرب منه شبرا يتقرب منه ذراعا ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً ، فهو قريب من المحسنين بذاته ورحمته قرباً ليس له نظير ، وهو مع ذلك فوق سمواته على عرشه كما أنه سبحانه يقرب من عباده في آخر الليل وهو فوق عرشه ويدنو من أهل الموقف عشية عرفة وهو على عرشه فإن علوه سبحانه عــلى سمواته من لوازم ذاته فلا يكون قط إلا عالياً ولا يكون فوقه شيء البتة ، كما قال أعلم الخلق « وأنت الظاهر فليس فوقك شيء » وهو سبحانه قريب في علوه عال في قربه .

والذي يسهل عليك فهم هذا معرفة عظمة الرب وإحاطته بخلقه وأن السموات السبع في يده كخردلة في يد العبد وأنه سبحانه يقبض السموات بيد

والأرض بيده الأخرى ثم يهزهن فكيف يستحيل في حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه ويقرب من خلقه كيف شاء وهو على العرش اهـ ؟!

وقوله صلى الله عليه وسلم للصحابة لما رفعوا أصواتهم بالذكر : « اربعوا على أنفسكم » أي ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه والله سبحانه وتعالى ليس هو بأصم ولا غائباً بل سميع قريب وهو معكم بعلمه وإحاطته واطلاعه .

ففي الحديث :

(١) الندب الى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه .
(٢) الحكمة في ذلك وهو أنه اذا خفض صوته كان أبلغ في التوقير والتعظيم كما جاءت به أحاديث .
(٣) دليل على قرب الله . (٤) صفة السمع . (٥) صفة البصر .
(٦) شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته حيث أرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم .
(٧) الأمر بالمعروف وإرشاد الخلق إلي مافيه خير لهم .
(٨) إثبات صفة الحياة لله جل وعلا . (٩) الحث على مراقبة الله .
(١٠) الحث على دعاء الله واستحضار قربه .
(١١) الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات .
(١٢) أنه سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته .
(١٣) إثبات قدرة الله .
(١٤) أن الله جل وعلا لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي وأنه لا تختلط عليه الأصوات على اختلاف الحاجات .
(١٥) أن ماذكر من علوه وفوقيته لا يتنافى فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في نعوته وهو علي في دنوه قريب في علوه .

والخلاصة : أن ما ورد من صفات الله الثابتة يجب إثباتها بلا توقف فإن

الذي أثبتها هو الله الذي هو أعلم بنفسه ورسوله الذي هو أعلم الخلق وأورعهم وأنصحهم للمخلوقين فإن خطر بالبال تمثيل أو تشبيه فاذكر قوله تعالى ليس كمثله شيء كما أنه لا نظير له في ذاته فكذلك لا نظير له في صفاته .

٦٢- فصل في الايمان بالقرآن

[ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وأن الله تكلم به حقيقة وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة فإن الكلام إنما يضاف الى من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغا مؤدياً وهو كلام الله حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف] .

وجه دخول هذا الفصل في الإيمان بالله أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر الله ورسوله الخ وقد أخبر الله ورسوله أنه كلامه وتوعد من قال أنه قول البشر ولأن الإيمان بكلام الله على هذا الوصف الذي ذكره المصنف وأنه من الإيمان بالله لأنه وصفه والكلام صفة للمتكلم ، فإنه تعالى موصوف بأنه متكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء ، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم ، وكلامه تعالى لا ينفد قال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) ، وقال (ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ، وقال غير واحد من السلف من أنكر أن يكون الله متكلما أو أن يكون القرآن كلامه فقد أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بل ورسالة جميع الرسل التي حقيقتها تبليغ كلام المرسل وهو الله عز وجل فإذا لم يكن ثم كلام فماذا يبلغ الرسول وكيف يعقل كونه رسولا ؟ ونوع الكلام أزلي أبدي ومفرداته لا تزال تقع شيئاً فشيئا بحسب حكمة الله تعالى قال الله تعالى (ورتلناه ترتيلا

ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسير) قال ابن كثير على قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الآيتين : يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج من الأحكام .

وقوله : « منزل غير مخلوق » هذا قول أهل السنة والجماعة ، خلافا لقول الجهمية والمعتزلة وغيرهم ممن يقول كلام الله مخلوق .

فالجهمية يقولون : إن الله لا يتكلم بل خلق كلاماً في غيره وجعل غيره يعبر عنه ، وما جاء من الأدلة على صفة الكلام ، قالوا مجاز .

والمعتزلة قالوا : إن الله متكلم حقيقة لكن معنى ذلك أنه خالق للكلام في غيره ، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء وقول الطائفتين باطل مخالف لقول السلف والأئمة ، ومخالف للأدلة العقلية والنقلية والسمعية .

قال الشيخ : ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ليس مخلوقاً منفصلا عنه وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته لم يقل أحد منهم أن القرآن والتوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته ، وقالوا : إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية ، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء وكلمات الله لا نهاية لها والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية ، قال : ولما ظهر من قال إنه مخلوق

قالوا رداً لكلامه إنه غير مخلوق ، وأول من عرف أنه قال قديم هو عبد الله ابن سعيد بن كلاب اهـ . قال الشاعر :

إستغفر الله واترك ماحكى لهمُ ... أبو الهذيل وما قال ابن كلاب

فالقرآن كلام الله حيث تصرف سواء كان محفوظا في الصدر أو متلواً بالألسنة أو مكتوباً في المصاحف ، فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، وأما كتابة العباد وأصواتهم والورق الذي كتب عليه القرآن والمداد الذي كتب به ، فهذه كلها مخلوقة وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فإنه كلامه غير مخلوق ، فإن جميع ما يعود الى العباد وأوصافهم مخلوق ، وأماالذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فإنه كلامه غير مخلوق ، وقول السلف منه بدأ وإليه يعود ، أي ظهر وخرج منه فهو المتكلم به لاغيره .

وقال الشيخ في المناظرة : ولما جاءت مسألة القرآن ومن الإيمان به الإيمان بأن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، نازع بعضهم في كونه منه بدأ وإليه يعود ، وطلبوا تفسير ذلك ، فقلت : أما هذا القول فهو المأثور عن السلف مثل ما نقله عمرو بن دينار قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون الله الخالق وما سواه مخلوق . إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأما معناه : فإن قولهم منه بدأ ، أي هو المتكلم به وهو الذي أنزله من لدنه وإليه يرجع في آخر الزمان بأن يسري به ويرفع فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف ، ورفع القرآن من أشراط الساعة ، ورد ذلك في عدة آثار .

وقوله : « فإن الله تكلم به حقيقة » والآيات والأحاديث في إثباته صفة الكلام وأن الله تكلم حقيقة كثيرة، وكذلك الآيات والأحاديث الدالة على أن الله تكلم بالقرآن كثيرة ، وكلها دالة على أنه سبحانه تكلم حقيقة لا مجازا ، وتقدمت الآيات الدالة على ذلك في صفحة ٢٢٢ .

وقوله : « ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة عنه » فالكلابية قالوا حكاية ، والأشاعرة قالوا عبارة عن كلام الله ، وبعض هؤلاء

يقولون : الخلف لفظي لا طائلة تحته ، فالأشاعرة والكلابية يقولون القرآن نوعان : ألفاظ ومعاني ، فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة والمعاني قديمة قائمة بالنفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، أو بالسريانية كان إنجيلا ، وكلا القولين من أقوال أهل البدع •

وقوله : « فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً مؤدياً » يعني أن الكلام إنما يضاف الى من قاله ابتداء لأنه الذي ألفه فإنه قال (قول رسول) ولم يقل ملك ولا نبي فإن الرسول يبلغ كلام مرسله ، وأيضا قوله (أمين) دليل على أنه لا يزيد ولا ينقص ، بل هو أمين على ما أرسل به ، يبلغه عن مرسله ، وقد توعد الله من قال إنه قول البشر ، والقرآن كلام الله حروفه ومعانيه ومن الأدلة الدالة على أنه حروف قوله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف منه عشر حسنات ، ومن قرأه ولحن فيه فله بكل حرف حسنة » حديث صحيح ، وقال عليه الصلاة والسلام « اقرءوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمون حروفه إقامة السهم لا يجاوز تراقيهم ، يتعجلون أجره ولا يتأجلونه » وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه ، وقال علي رضي الله عنه : من كفر بحرف منه فقد كفر به كله ، واتفق المسلمون على عد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفاً متفقاً عليه أنه كافر . وفي ذلك حجة قاطعة على أنه حروف

قال ابن القيم رحمه الله :

وتلاوة القرآن أفعال لنا وكذا الكتابة فهي خط بنان
لكنما المتلو والمكتوب والمحفوظ قول الواحد الرحمن
والعبد يقرؤه بصوت طيب وبضده فهما له ضدان
وكذاك يكتبه بخط جيد وبضده فهما له خطان

ولقد أتى في نظمه من قال قو ل الحق غير جبان
إن الذي هو في المصاحف مثبت بأنامل الأشياخ والشبان
هو قول ربي آيه وحروفه ومدادنا والرق مخلوقان
فشفي وفرق بين متلو ومصنوع وذاك حقيقة العرفان
الكل مخلوق وليس كلامه المتلو مخلوقاً ، هنا شيئان
فعليك بالتفصيل والتمييز فالا طلاق والإجمال دون بيان
قد أفسدا هذا الوجود وخبطا الآراء والأذهان كل زمان
وتلاوة القرآن في تعريفها باللام قد يعنى به شئان
يعنى به المتلو فهو كلامه هو غير مخلوق لذي الأكوان
ويراد أفعال العباد كصوتهم وأدائهم وكلاهما خلقان
هذا الذي نصت عليه أئمة الإ سلام أهل العلم والعرفان
وهو الذي قصد البخاري الرضا لكن تقاصر قاصروا الأذهان
عن فهمه كتقاصر الأفهام عن قول الإمام الأعظم الشيبان
في اللفظ لما أن نفى الضدين عنه واهتدى للنفي ذو العرفان
فاللفظ يصلح مصدر هو فعلنا كتلفظ بتلاوة القرآن
وكذاك يصلح نفس ملفوظ به وهو القرآن فذان محتملان
فلذاك أنكر أحمد الإطلاق في نفي وإثبات بلا برهان

وعدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثم اختلف في مازاد على ذلك على أقوال ، فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتي آية وأربع آيات ، وقيل : وأربعة عشر آية ، وقيل : مائتان وتسع عشرة آية ، وقيل : ومئتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية •

وأما كلماته فقيل سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وأما حروفة فقيل : ثلاثمائة ألف حرف واحدى وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً ، وأما نصفه فقيل هو إلى الفاء من قوله في الكهف

(وليتلطف) وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء والثالث إلى آخره وسبعه الأول إلى الدال من قوله تعالى : (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) والسبع الثاني إلى التاء من قوله تعالى في سورة الأعراف (أولئك حبطت) والثالث الى الألف الثانية من قوله في الرعد (أكلها) والرابع إلى الألف في الحج من قوله (جعلنا منسكاً) والخامس الى الهاء من قوله في الأحزاب (ولا مؤمنة) والسادس الى الواو من قوله تعالى في الفتح (الظانين بالله ظن السوء) والسابع إلى آخر القرآن •

٦٣ - فصـــــل

[وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحوا ليس دونها سحاب وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته يرونه سبحانه وهم في عرصة القيامة ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله تعالى] •

قد تقدم الإيمان برؤية المؤمنين ربهم في الآخرة وأدلتها من القرآن والرد علـى منكريهـا في ص ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ورؤية المؤمنين ربهـم في الآخرة أعلا نعيم الجنة ، وقد دل عليها الكتاب والسنة والاجماع ، وقد ذكرتْ في الكتب السماوية وأخبرت بها الرسل ، وذلك لما تلقوه من الوحي الذي ينزل به الرسول من الملائكة على الرسول البشري ، ومن ثم كان الإيمان بها من جملة الإيمان بالله وملائكته ورسله ، والمنكر للرؤية مكذب بهذا كله ، والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر ، وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخـر كالصراط والميزان والجنة والنار والرؤية وغـيرها •

وقوله : « عياناً بأبصارهم » أي رؤية بالعين حقيقة رؤية لا شك فيها ولا امتراء ولا يحصل فيها مشقة ولا نصب •

وقوله : « في عرصة القيامة » العرصة : كل موضع واسع لا بناء فيه ، وعرصة الدار وسطها ، وكل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء قال مالك ابن الريب :

تحمل أصحابي عشاء وغادروا   أخا ثقة في عرصة الدار ثاويا

وعرصات القيامة : مواقف الحساب والعرض ، والجنة البستان ، والمراد بالجنة هنا الدار التي أعدها الله لأوليائه فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيرى المؤمنون الله في الموقف ، وبعد دخول الجنة ، ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه ، فلا نسبة للذة مافيها من المأكول والمشروب والملبوس والقصور إلى هذه اللذة أبدا فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان ومافيها من ذلك قال تعالى : (ورضوان من الله أكبر) .

وفي السنن من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، قال : وذلك قوله (سلام قولاً من رب رحيم) قال : فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم » .

قال الشيخ : وأما احتجاج النفـاة بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فالآية حجة عليهم لا لهم لأن الادراك إما أن يراد به مطلق الرؤية أو الرؤية المقيدة بالإحاطة والأول باطل لأنه ليس كل من رأى شيئاً يقال أدركه ، كما لا يقال أحاط به ، كما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك فقال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى قال : أكلها ترى ؟ قال : لا . ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال إنه أدركها ، وإنما يقال أدركها اذا أحاط بها رؤية ، ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك وإنما ذكرنا هـذا

بياناً لسند المنع ، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية ، وأن كل من رأى شيئا يقال في لغتهم إنه أدركه ، وهذا لاسبيل إليه كيف وبين لفظ الادراك والرؤية عموم وخصوص فقد تقع رؤية بلا إدراك وقد يقع إدراك بلا رؤية أو اشتراك لفظ وأن الإدراك يستعمل في إدراك العلم وإدراك القدرة فقد يدرك لشيء بالقدرة وإن لم يشاهد كالأعمى الذي طلب رجلا هارباً فأدركه ولم يره وقد قال تعالى (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معي ربي سيهدين) فنفى موسى الإدراك مع إثبات الترائي ، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك ، والإدراك هنا هو إدراك القدرة أي ملحوقون محاط بنا ، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد انتفى إحاطة البصر أيضا .

ومما يبين ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه سبحانه وتعالى ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح لأن النفي المحض لايكون مدحاً إن لم يتضمن أمراً ثبوتياً لأن المعدوم أيضاً لا يرى والمعدوم لا يمدح فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه وإن كان المنفي هو الإدراك فهو سبحانه لايحاط به علما ولا يلزم من نفي إحاطة العلم الرؤية بل يكون ذلك دليلا على أنه يرى ولا يحاط به فإن تخصيص الإحاطة يقتضي أن الرؤية ليس بمنفي وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم .

وقد روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره فلا تحتاج الآية إلى تخصيص ولا خروج عن ظاهر الآية فلا نحتاج أن نقول : لانراه في الدنيا أو نقول : لا تدركه الأبصار بل المبصرون ، أو لا يدركه كلها بل بعضها ونحو ذلك من الأقوال التي فيها تكلف . اهـ .

وقال ابن القيم رحمه الله بعد أن ساق خمسة أدلة على الرؤية : الدليل السادس : قوله عز وجل لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار والاستدلال بهذا أعجب فإنه من أدلة النفاة وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير

وألطفه وقال لي أنا التزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله فيها فمنها هذه الآية وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها فإن الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية وأما العدم المحض فليس لكمال ولا يمدح به وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمرا وجودياً كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفي المثال المتضمن لكمال ذاته وصفاته ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً ، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكمال بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فلو كان المراد بقوله (لاتدركه الأبصار) أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار ، والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض فإذاً المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به كما كان المعنى في قوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة) أنه يعلم كل شيء ، وفي قوله (وما مسنا من لغوب) أنه كامل القدرة وفي قوله (ولا يظلم ربك أحدا) أنه كامل العدل وفي قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أنه كامل القيومية فقوله (لا تدركه الأبصار) يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية كما قال تعالى (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا) فلم ينف موسى الرؤية ولم يريدوا بقولهم : إنا لمدركون إنا لمرئيون، فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله (كلا) ، وأخبره

الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله (ولقد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ، لا تخاف دَرَكاً ولا تخشى) فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به وهذا هو ما فهمه الصحابة والأئمة من الآية .

قال ابن عباس : (لاتدركه الأبصار) لا تحيط به الأبصار ، قال قتادة هو أعظم من أن تدركه الأبصار ، وقال عطية : ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم ، فذلك قوله تعالى (لاتدركه الأبصار) وهو يدرك الأبصار ، فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً ، ولا تدركه أبصارهم ، بمعنى أنها لا تحيط به إذ كان غير جائز أن يوصف الله عز وجل بأن شيئاً يحيط به وهو بكل شيء محيط .

وتأمل حسن هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به ، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفى عليه فهو العظيم في لطفه اللطيف في عظمته العالي في قربه القريب في علوه الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، اهـ .

وأما قوله تعالى (لن تراني) فإنما يدل على النفي في المستقبل ولا يدل على دوام النفي ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت قال تعالى (ولن يتمنوه أبداً) مع قوله (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها وقد جاء ذلك في قوله تعالى (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) فثبت أن لن لا تقتضي النفي المؤبد . قال ابن مالك :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا   فقوله اندذ وسواه فاعضدا

الايمان باليوم الآخر

[وقوله : ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر

ونعيمه فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل من ربك ومادينك ومن نبيك فيثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فيقول المؤمن الله ربي والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي .

وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولوسمعها الإنسان لصعق ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب] .

الإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت وهذا الركن الخامس من أركان الإيمـان وجمهور بني آدم يؤمنون بالبعث بعد الموت وهـو ـ أي البعث ـ إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها وقد دل على ذلك العقل والفطرة كما صرحت بهجميع الكتب السماوية ونادى بهالأنبياء والمرسلون قال تعالى (إن ماتوعدون لصادق وإن الدين لواقع)وقال (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) ومما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه والبعث والحشر والنشر والصحف والميزان والحساب والجزاء والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار وأحوالهما وما أعد الله لأهلهما إجمالا وتفصيلا .

والمراد بفتنة القبر ماورد من أن الناس يمتحنون في قبورهم ففي الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) نزلت في عذاب القبر ، وزاد مسلم : فيقال له من ربك فيقول ربي الله ونبيي محمد فذلك قوله سبحانه (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وفي رواية للبخاري إذا قعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وأخرج الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اذا قبر الميت ــ أو قال أحدكم ــ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير ، فيقولان : ماكنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ماكان يقول هو ، عبد الله ورسوله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً ، ثم ينور له فيه ــ وإن كان منافقاً قال سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت مثله ، ولا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض التئمي عليه ، فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه » .

وفي الصحيحين من حديث أبي قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع في قبره أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ــ لمحمد صلى الله عليه وسلم ــ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، فيراهما جميعا . قال : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره مد البصر ، ثم رجع إلى حديث أنس ، قال : وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر . قال : « نعم عذاب القبر حق » وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لقد أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل ــ أو قريباً ــ من فتنة المسيح الدجال » ، وفيهما عن أبي أيوب قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس وقد سمع صوتاً فقال يهود تعذب في قبورها » وعن أبي داود فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : ديني الاسلام ،

فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولان له : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت فينادي مناد : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة . وافتحوا له باباً إلى الجنة ، وألبسوه من الجنة ويفسح له مد بصره » . وقال في الكافر: « فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، إلى أن قال : فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه » .

ومن الأدلة الدالة على عذاب القبور قوله تعالى في حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ... الخ وقوله (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون)

وقال ابن مسعود في قوله تعالى (فإن له معيشة ضنكا) قال : المعيشة الضنك هي عذاب القبر .

وقوله : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية ، وقوله تعالى (وأن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال بلى إنه كبير ، أما أحدهما فلا يستبرىء من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » الحديث . وفي حديث أنس رضي الله عنه « تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه » وعن زيد بن ثابت قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به وكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة ، فقال : « من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال : في الشرك ، فقال : إن هذه الأمة

تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه » ثم أقبل بوجهه علينا فقال : « تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر » الحديث ، رواه مسلم .

وعن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى قال : اقرأ (تبارك الذي بيده الملك) وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية ، والمجادلة تجادل — أو تخاصم — يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن ينجيه من عذاب النار ، وينجي بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » .

ورد أن رجلا غل شملة من الغنم فجاء سهم عائر فأصابه فقتله فقال الناس: هنيئاً له بالجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم التي لم تصبها المقاسم تشتعل عليه ناراً » .

وعذاب القبر ونعيمه يحصل للروح والبدن جميعاً ، قال بعضهم :

ونؤمن أن الموت حق وأننا ... سنبعث حقاً بعد موتتنا غدا
وأن عذاب القبر حق وأنه ... على الجسم والروح الذي فيه ألحدا

والروح تبقى بعد مفارقة البدن إما منعمة وإما معذبة ، وتتصل بالبدن أحياناً . والعذاب في القبر نوعان : دائم كما في قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشيا) الآية ، والنوع الثاني إلى أمد ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم ثم يخفف عنهم العذاب ، كما يعذبون في النار مدة ثم يزول عنهم العذاب ، وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء ، أو صدقة ، أو استغفار ، أو ثواب حج ، أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم .

وللروح بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام ، أحدها : تعلقها به في البطن جنيناً ، الثاني تعلقها به بخروجه إلى وجه الأرض ، الثالث : تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه ، الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة ، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، وهذا الرد خاصة إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة ، الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق اليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساد ، قال السفاريني :

فكل ما صح من الأخبار ... أو جاء في التنزيل والآثار
من فتنة البرزخ والقبور ... وما أتى في ذا من الأمور
وأن أرواح الورى لم تعدم ... مع كونها مخلوقة فاستفهم
فكل ما عن سيد الخلق ورد ... من أمر هذا الباب حقاً لا يرد

قال ابن القيم : ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قُبرَ أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهوى أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه من العذاب ما يصل إلى المقبورين . والرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل إخبارهم قسمان ، أحدهما : ما تشهد به العقول والفطر ، الثاني : مالا تدركه بمجردها كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب ، ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً .

وكل خبر يظن أن العقول تحيله فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون الخبر كذباً عليهم ، أو يكون ذلك العقل فاسداً ، وهو شبه خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح فيجب أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو

ولا تقصير فلا يحمل كلامه مالا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان •

وقد جعل الله الدور ثلاثاً دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تخصها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبعا لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن اضمرت النفوس خلافه وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن اضمرت النفوس خلافه وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، فإذا كان يوم القيامة عند بعث الأجساد وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين صار النعيم والعذاب على الأرواح والأجسام جميعاً ، وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه ، وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر ، فأمر البرزخ أعجب من ذلك •

واختلف في مستقر الأرواح مابين الموت إلى قيام الساعة ، والراجح في ذلك أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، فمنها أرواح في أعلا عليين في الملأ الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، ومن أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي أرواح بعض الشهداء لاجميعهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في المسند عن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال « الجنة ، فلما ولى قال : إلا الدين ، سارني به جبريل آنفاً » ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة ، ومنهم من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

« والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه نارا في قبره » ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس : « الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشيا » رواه أحمد ، وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، ومنهم من يكون محبوساً في الأرض لم تعلُ روحه إلى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفلية ، ومنها أرواح في تنور الزناة والزواني وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، بل روح في أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

والحياة التي امتاز بها الشهداء هي أن الله جعل أرواحهم في جوف طير خضر كما في حديث ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم ـ يعني يوم أحد ـ جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مظللة في ظل العرش » الحديث رواه أحمد ، ورواه بمعناه مسلم من حديث ابن مسعود، فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة ، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها ، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير ، ونسمة الشهيد في جوف طير ، وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال « نسمة المؤمن طير » فهذا يعم الشهيد وغيره ، ثم خص الشهيد بأن قال « هي في جوف طير » ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير ، فنصيبهم من هذا النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه اهـ . (من كتاب الروح لابن القيم) .

قال في شرح الطحاوية على قوله (كل شيء هالك إلا وجهه) : قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون :

لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد قبضها في نعيم أو في عذاب اهـ .

وأجمعت الرسل عليهمَ السلام أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة ، وهذا معلوم بالاضطرار من دينهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وإنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة حتى زعم أنها قديمة غير مخلوقة .

قال شيخ الإسلام : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين اهـ .

[وقوله : إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح الى الأجساد وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق وتنصّب الموازين ، فتوزن فيها أعمال العباد فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون] .

قوله : « الى أن تقوم القيامة الكبرى » إشارة إلى أن فيه قيامة صغرى وهي تقوم في خاصة كل إنسان من خروج روحه وانقطاع سعيه ، والدليل على أن كل من مات قامت قيامته قول النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من الأعراب

سألوه عن الساعة فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال « أن يعيش هذا حتى يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » رواه مسلم وغيره ، وقال الشاعر :

(خرجت من الدنيا وقامت قيامتي غداة أقل الحاملون جنازتي)
(وعجل أهلي حفر قبري وصيروا خروجي وتعجيلي إليه كرامتي)
(كأنهم لم يعرفوا قط صورتي غداة أتى يومي علي وليلتي)

وأما القيامة الكبرى فتعاد فيها الأرواح إلى الأجساد التي كانت تعمرها في الدنيا وهذه القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا قال تعالى (ونفخ في الصور فإذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) إلى قوله (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) ، وقال : (خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) ، (ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون) .

قال في شرح الطحاوية : والإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه وأقام الدليل عليه ورد على المنكرين في غالب سور القرآن وذلك أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين وكان قد بعث هو والساعة كهاتين وكان هو الحاشر المقفى بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء .

وقال : فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم .

وقال : وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة ، وأمر نبيه أن يقسم على المعاد فقال (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ، عالم الغيب) الآيات ، وقال (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) ، وقال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن) الآية •

وأخبر عن اقترابها فقال (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) ، وقال (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين) إلى قوله (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً) وذم المكذبين بالمعاد فقال (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها) ، (ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) ، (وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا) إلى أن قال (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) ، وقال (إن الساعة آتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لايؤمنون) ، (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا ، أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا) ، (وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقاً مما يكبر في صدوركم) إلى قوله (إن لبثتم إلا قليلا) •

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا أولا (أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا) فقيل لهم في جواب هذا السؤال :

إن كنتم تزعمون أنه لاخالق لكم ولا رب لكم فهلا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك ؟ فإن قلتم كنا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديدا ؟ أو للحجة تقريرا آخر وهو : لو كنتم من حجارة أو حديد أوخلقاً أكبر منهما قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالا آخرا بقولهم : من يعيدنا إذا استحالت جسومنا وفنيت ؟ فأجابهم بقوله (قل الذي فطركم أول مرة) فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم متى هو ؟ فأجيبوا بقوله (عسى أن يكون قريبا) .

وقال : والقول الذى عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل تراباً ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار عظاماً ولحماً ثم أنشأه خلقاً سوياً ، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب » وفي حديث آخر « إن السماء تمطر مطراً كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات » اهـ .

قال ابن القيم رحمه الله :

وإذا أراد الله إخراج الورى بعد الممات إلى المعاد الثاني
ألقى على الأرض التي هم تحتها والله مقتدر وذو سلطان
مطراً غليظاً أبيضاً متتابعاً عشرا وعشرا بعدها عشران
فتظل تنبت منه أجسام الورى ولحومهم كمنابت الريحان
حتى إذا ما الأم حان ولادها وتمخضت فنفاسها متدان

أوحى لها رب السما فتشققت فبدا الجنين كأكمل الشبان
وتخلت الأم الولود وأخرجت أثقالها أنثى ومن ذكران
والله ينشيء خلقه في نشأة أخرى كما قد قال في القرآن
هذا الذي جاء الكتاب وسنة الهـــادي به فاحرص على الإيمان

وقال في شرح الطحاوية : فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجوه ، والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداء فرق فعجب الذنب هو الذي يبقى وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخاً علم أن هذا هو ذاك مع أنــه دائماً في تحلل واستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم رآها كبيرة قال هذه تلك وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال إن الصفات هي المغيرة لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعاً كما ثبت في الصحيحين وغيرها وروي أن عرضه سبعة أذرع وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات وهذه النشأة فانية معرضة للآفات اهـ .

٦٥ – النفخات الثلاث

والنفخات ثلاث : الأولى نفخة الفزع وهي التي يتغير بها العالم قال تعالى (ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) .

والثانية : نفخة الصعق قال الله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) والنفخة هذه هي التي فيها الهلاك لكل شيء .

والثالثة : نفخة البعث والنشور قال الله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون) .

وقوله : « فيقوم الناس من قبورهم إلخ .. » الحفاة الذين ليس على أرجلهم نعال ولا خفاف ، والعراة الذين ليس عليهم لباس ، غرلاً أي غير مختونين ، والغرلة القلفة .. ويلجمهم العرق أي يصير لهم كاللجام الذي يربط به فم الدابة . والمعنى : أن يصل إلى أفواههم .

وروى مسلم عن المقداد بن الأسود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق قدر أعمالهم منهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه الى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً » قال بعض العلماء ظاهر الحديث التعميم ، ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله ، فأشدهم في العرق الكفار ، ثم أصحاب الكبائر ، ثم من بعدهم . والمسلمون منهم قليل بالنسبة إلى الكفار كما تقدم تقريره في بعث النار .

ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها وذلك أن النار تحف بأرض الموقف وتدني الشمس من الرؤوس قدر ميل فكيف تكون حرارة تلك الأرض وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً مع أن كل واحد لا يجد إلا موضع قدمه ؟ فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه ؟ ! إن هذا لما يبهر العقول ويدل على عظيم القدرة ، ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة وأن ليس للعقل فيها مجال ، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب ، ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه .

وفائدة الإخبار بذلك أن يتنبه السامع فيأخذ بالأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ويبادر الى التوبة من التبعات ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ويتضرع إليه في سلامته من دار الهوان وإدخاله دار الكرامة اهـ .

وقوله : « وتنصب الموازين » جمع ميزان ، وهو ميزان حقيقي حسي له لسان وكفتان ، وتوزن به أعمال العباد قال الله تعالى : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) الآيتين ، وقال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الآيات ، ومن السنة حديث البطاقة « فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الرحمن الرحيم » ، وخص ممن يحاسب وتوزن أعمالهم طائفتان فمن الكفار من لاذنب له إلا الكفر ولم يعمل حسنة فإنه يقع في النار من غير حساب ولا ميزان ، ومن المؤمنين من لا سيئة له وله حسنات كثيرة زائدة على محض الإيمان فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، كما في قصة السبعين ألفاً ومن شاء الله أن يلحقه بهم ، وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف وكالريح وكأجاود الخيل ، ومن عدا هذين من الكفار والمؤمنين يحاسبون وتعرض أعمالهم على الموازين .

قال أبو اسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العبد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال ، وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا : هو عبارة عن العدل ، فخالفوا الكتاب والسنة لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة فيكونوا على أنفسهم شاهدين ، والحق عند أهل السنة .

وقد اختلف العلماء هل الذي يوزن العمل أو صاحبه : فقيل الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً . قال البغوي : يروى هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن « سورتي « البقرة » و « آل عمران » تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف » ، ومن ذلك مافي الصحيح قصة القرآن وأنه « يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول : من أنت فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك » ، وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر : « فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح » وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة مايدل على ذلك ، وقيل : يوزن صاحب العمل مع عمله ، ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » قال : اقرؤوا إن شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) •

وروى الإمام أحمد — رحمه الله — عن ابن مسعود — رضي الله عنه — أنه كان يجني سواكاً وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفيه ، فضحك القوم منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مم تضحكون ؟ » قالوا : يانبي الله من دقة ساقيه فقال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد » وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك صحيحاً ، فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها •

والميزان قيل : إنه واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال وأتى بلفظ الجمع باعتبار تعدد الأعمال والأشخاص أو للتفخيم كما في قوله تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحدا وكقوله : (يا أيها الرسل) الآية ، وقيل : لكل عبد ميزان وقيل : الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلق به ، وقيل : جمعه لأن الميزان يحتوي على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن إلا باجتماعهما •

٦٦ — « نشر الدواوين » والحساب

[قوله : وتنشر الدواوين — وهي صحائف الأعمال — فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره ، كما قال سبحانه وتعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ويحاسب الله الخلائق ، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه ، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة • وأما الكفار :

فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته • فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقرون بها ويجزون عليها] •

الدواوين : هي صحائف الأعمال ، ونشرها فتحها وبسطها ، فيجب الإيمان بها وأخذها بالأيمان أو بالشمائل لثبوت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع قال الله تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابية) (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوتى كتابيه) وقوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) وطائره هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ويلزمه به ويجازى عليه ، وقوله (في عنقه) أي جعلنا عمله لازماً له لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه ، وقوله (ونخرج له الخ ••) يذكر جل وعلا في الآية الكريمة أن ذلك العمل الذي لزم الإنسان إياه يخرجه له يوم القيامة حين البعث والحساب يلقاه منشورا أي مفتوحا غير مطوي لتمكن قراءته وفيه إشارة الى أنه أمر مهيء له غير مغفول عنه ، وقوله تعالى (اقرأ كتابك) الآية ، أي يقال له إقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا •

وفي هذه الآية إخبار عن كمال عدله جل وعلا قال الحسن : لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك ، قال قتادة : سيقرأ من لم يكن قارئا في الدنيا •

في الآيـة :

أولاً ــ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال •

ثانياً ــ كمال عدل الله •

ثالثاً ــ أن أعمال الإنسان محصاة عليه ، قال تعالى (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) الآية ، وقال (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، وقال السفاريني :

ووكـل اللهُ من الكرام اثنـين حافظـين للأنـام
فيكتبان كل أفعال الورى كما أتى بالنص من غير امترا

رابعاً ــ أن أعمال الإنسان لا تتعداه الى غيره فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله •

وفي الآية دليل على أن الإنسان يذكر جميع ماكان منه ويعرفه ولا ينسى أحد ماكان منـه •

قوله « ويحاسب الله الخلائق » الحساب : هو توقيف الله عباده قبل الانصراف من الحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً ، والدليل قوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) الآية ، وقال (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسـير) الآيتين ــ وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك فقلت : يارسول الله أليس قد قال الله تعالى : (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يـوم القيامة إلا عذب » •

ولهما عن ابن عمر ــ رضـي الله عنهما ــ قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته » •

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشـماله » •

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما يبكيك » قالت : ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال هؤم اقرءوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم »

وعنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لايعبأ الله به شيئاً ، وديوان لايترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله ، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية ، وقال (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة فإنه يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محالة » . رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه .

وبين محاسبة المؤمن والكافر فرق فإن المؤمن توزن حسناته وسيآته فمن رجحت حسناته بسيئآته دخل الجنة ، ومن خفت موازينه بأن رجحت سيئآته بحسناته دخل النار ، وأما من تساوت حسناته وسيئآته فقيل أولئك أصحاب الأعراف ، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئآته فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ، قال الله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وقال (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) وقال (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الآية ، قال السفاريني :

واجزم بأمر البعث والنشور   والحشر جزماً بعد نفخ الصور
كذا وقوف الخلق للحساب   والصحف والميزان للثواب

٦٧ـ الحوض والصراط والقنطرة

[وقوله : وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي صلى الله عليه وسلم ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل آنيته عدد نجوم السماء ، طوله شهر وعرضه شهر ، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا .. والصراط منصوب على متن جهنم ــ وهو الجسر الذي بين الجنة والنار ــ يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل ، ومنهم من يعدو عدواً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم ، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مر على الصراط دخل الجنة ، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ويقتص بعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة] .

الحوض المورود هو حوض النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعنى الإيمان به التصديق الجازم بما أجمع عليه أهل الحق من أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضاً في عرصات القيامة ترد عليه أمته صلى الله عليه وسلم .

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من ريح المسك ، كيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبدا » وفي صحيح مسلم : « ليردن على الحوض أقوام فيختلجون دوني فأقول أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » وثبت في صحيح مسلم عن أنس قال : أغفى بالنبي صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إنه أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » ورواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تردون على الحوض وأنا أردُّ عنه الناس بعصاي ، قلنا : يا رسول الله ما عرضه ؟ قال كما بين مقامي هذا إلى عمان ، قلنا : وما آنيته ؟ قال عدد النجوم ، فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا » قال ثوبان : فادعوا الله عز وجل أن يجعلني من رواديه .

وعن أنس قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم مضى به جبريل إلى السماء الدنيا فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يشم ترابه فإذا هو مسك ، قال يا جبريل ماهذا النهر ؟ قال : هــو الكوثر الذي خبأه لك ربك .

وقال أبو عبد الله القرطبي في المفهم : مما يجب على المكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي إذ روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة نيف على الثلاثين ، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين وفي غيرهما بقية ذلك ، مما صح نقله واشتهرت رواته ، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم ، ومن بعدهم أضعاف أضعافهم ، وهلم جرا ، وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف ، وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة وأحالوه عن ظاهره وغلو في تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته ولا حاجة تدعو إلى تأويله ، فخرق من حرف إجماع السلف وفارق مذهب أئمة الخلف . اهـ .

قال في شرح الطحاوية : والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض أنه حوض عظيم ومورد كريم يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من المسك ، وهو في غاية الاتساع عرضه وطوله سواء كل زاوية من زواياه مسيرة شهر ، وفي بعض الأحاديث : إن كل ماشرب منه وهو في زيادة واتساع وإنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ، ويثمر ألوان الجواهر ، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء ، وقد ورد في أحاديث أن لكل نبي حوضاً وأن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

قال العلامة أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في التذكرة : واختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر فقيل الميزان وقيل الحوض ، قال أبو الحسن القابسي : والصحيح أن الحوض قبل ، قال القرطبي : والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط ، وقال القرطبي : ذهب صاحب القوت وغيره إلى أن الحوض يكون بعد الصراط وذهب آخرون إلى العكس والصحيح أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والآخر داخل الجنة ، وكل منهما يسمى كوثراً ، قال الحافظ : وفيه نظر لأن الكوثر نهر داخل الجنة وماؤه يصب في الحوض ويطلق على الخوض كوثر لكونه يمد منه .

فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط فإن الناس يردون الموقف عطاشاً فيرد المؤمن الحوض وتتساقط الكفار في النار بعد أن يقولوا ربنا عطشنا فترفع لهم جهنم كأنها سراب فيقال ألا تردون ؟ فيظنونها ماء فيتساقطون فيها .

وقال ابن القيم : مافي حديث لقيط بن عامر « فتطلعون على حوض نبيكم على أظماء والله ناهلة عليها قط » : ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر

وكأنهم لا يصلون إليه حتى يقطعوا الجسر ، وللسلف في ذلك قولان ، وغلط من قال إنه بعد الجسر ، وقد روى البخاري عن أبي هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال « بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم هلم فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، قلت : ماشأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم » قال فهذا الحديث مع صحته أدل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط لأن الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم فمن جازه سـلم من النار .

قلت : وليس بـين أحاديث رسـول الله صلى الله عليه وسلم تعارض ولا تناقض ولا اختلاف وحديثه كله يصدّق بعضه بعضاً ، وأصحاب هـذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط فحديث أبي هريرة وغيره يرد قولهم وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا وهو لا يناقض كونه قبل الصراط فإنه قال طوله شهر وعرضه شهر فإذا كان بهذا الطول والسعة فما الذي يحيل امتداده إلى ما وراء الجسر فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعـده في حيز الإمكان ووقوعه موقوف عـلى خبر الصادق ، والله أعـلم .

وقوله : « على أظمأ ناهلة قط » الناهلة الواردون الماء أي يردونه أظمأ ماهم إليه وهذا يناسب أن يكون بعد الصراط فإنه جسر النار وقد وردها كلهم فلما قطعوها اشتد ظمؤهم الى الماء فوردوا حوضه صلى الله عليه وسلم كما وردوه في موقف القيامة . والصراط لغة : الطريق الواسع الواضح سمي بذلك لأنه يصترط المارة أي يبلعهم إذا سلكوه ، والمراد به هنا الذي يسلكه الناس في القيامة وهو الجسر المنصوب على متن جهنم بين الجنة والنار يرده الأولون والآخرون والإيمان به واجب لما في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يضرب الصراط بين ظهري جهنم ويمر المؤمنون عليه فرقاً ومنهم

من يمر كالبرق ثم كمر الريح ثم كمر الطير وأشد الرجال ، حتى يجيء الرجل ولا يستطيع السير إلا زحفاً » وفي حافتيه كاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه فمخدوش ناج ومكردس في النار والمرور عليه متفاوت على حسب الأعمال وعلى حسب استقامتهم على الصراط المعنوي في الدنيا الذي هو دين الإسلام فمن استقام على الصراط المستقيم في الدنيا وهو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم استقام على صراط الآخرة ، ومن زل عن الصراط المعنوي زل عن الصراط الحسي وعلى قـوة إيمانهم يكون قدر مرورهم والكلاليب جمع كلوب وهو حديدة محنية الرأس يعلق فيهـا اللحم ويدلى في النار ، والمرور على الصراط بعد مفارقة الناس للموقف وحشرهم وحسابهم يكون قبل الصراط وينجو من يعبره وهم أهل الجنة ويسقط أهل النار فيها .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ قال : عـلى الصراط ، وله أيضاً عن ثوبان أن حبرا من اليهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ قال : « هـم في ظلمة دون الجسر ، قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : فقراء المهاجرين » .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة ، قالت حفصة : فقلت يا رسول الله أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) فقال : ألم تسمعيه قال (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) أشار صلى الله عليه وسلم الى أن ورود النار لا يستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم ، ولهذا قال تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هوداً) ، (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً) (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً) ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذا

حال الواردين في النار يمرون فوقها على الصراط ، ثـم ينجي الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا ، فقد بين صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور أن الورود المذكور في الآية هو المرور على الصراط ، وفي الصحيحين مـن حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر حديثاً طويلا ، وفيـه قال « ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهـم سلم سلم ، قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد ، فيها شنويكة يقال لها السعدان ، فيمره المؤمن كطرف العين ، وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ومكردس على وجهه في النار » وفي رواية للبخاري « حتى يمر آخرهم سحباً » .

وفي رواية لمسلم قال أبو سعيد الخدري : بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر الحديث ، وفيه قال : « ويضرب الجسر بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزه ، ولا يتكلم إلا الرسل ، ودعـوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، غير أنـه لا يعلم قدر عظمتها إلا لله عز وجل ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو ... » الحديث .

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يجمع الله الناس يوم القيامة فذكر الحديث ، وفيه « فيعطون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخرهم من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفيء قام ، فيمر ويمرون عـلى الصراط ، والصراط كحد السيف ، دحض مزلة ، فيقال لهم امضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم كالريح ومنهم من يمر كأشد الرجال ويرمل

رملا ، فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تخر يد وتتعلق يد وتخر رجل وتتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، قال فيخلصون فإذا خلصوا قالوا الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أرانا إياك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد » الحديث رواه الحاكم وصححه ورواه البيهقي وغيره .

وأما القنطرة فهي الجسر ، قيل : هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة ، وقيل : إنهما صراطان ، ولكن القنطرة صراط خاص بالمؤمنين وليس يسقط أحد منهم في النار . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » .

وحوض رسول الله حقاً أعَدَّهُ ... له الله دُون الرُّسْل ماءٌ مُبرَّدا
ويشْربُ منه المؤمنُون وكل من ... سقي منه كأساً لم يذق بعده صدا
أباريْقُه عَدُّ النُّجوم وعَرْضُه ... كبُصرى وصنعا في المسافة حُددا

٦٨ ـ الشفاعـــة

[وقوله : وأول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته ، وله صلى الله عليه وسلم في القيامة ثلاث شفاعات ، أما الشفاعة الأولى فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه ، وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة وهاتان الشفاعتان خاصتان له ، وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فيمن استحق النار ، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها ، ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ، ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من

أهل الدنيا فينشيء الله لها أقواما فيدخلهم الجنة ، وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء والآثار من العلم المأثورة عن الأنبياء ، وفي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ما يشفي ويكفي فمن ابتغاه وجـده] .

ولما ذكر المصنف رحمه الله أنهم بعد التهذيب والتنقية يؤذن لهم فيدخول الجنة أعقب ذلك بيان من يستفتح لهم باب الجنة وأنه محمد صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيح عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم : « آتي اب الجنة يوم القيامة فاستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » .

(وقوله « وله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات ... الخ » الشفاعة لغة الوسيلة والطلب ، وعرفها بعضهم بأنها سؤال الخير للغير ، وقيـل : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ، والشفاعة تنقسم الى قسمين مثبتة ومنفية فالمثبتة هي التي أثبتها الله تعالى لأهل الإخلاص ، ولها شرطان مذكوران في قوله : (وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يـأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وأما المنفية فهي التي تطلب من غير الله أو بغير إذنه أو لأهل الشرك قال تعالى : (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون).

وأقسام الشفاعة المثبتة المذكورة في الواسطية ثلاثة ، وأنهاها فيالطحاوية وشرحها إلى ثمانية :

١ ــ العظمى وهي شفاعته صلى الله عليه وسـلم لأهل الموقف حتى يقضى بينهم حين يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وهي المقام المحمود .

٢ ــ شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها •

٣ ــ له ولسائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وغيرهم فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها •

٤ ــ وفيمن دخلها أن يخرج منها •

٥ ــ في رفع درجات من يدخل الجنة فوق ماكان يقتضيه ثواب أعمالهم فيشفع صلى الله عليه وسلم فيهم ، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشــفاعة خاصة وخالفوا فيما عداها •

٦ ــ الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب •

٧ ــ الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب •

٨ ــ شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوها فيخرجون منها •

وانقسم الناس في الشفاعة الى طرفين ووسط ، قسم نفوا الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة فنفوا شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وقسم أثبتوها حتى للأصنام وهم المشركون كما ذكر الله عنهــم بقوله (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقسم توسطوا وهم أهل السنة فأثبتوها بشرطيها وهما : إذن الله للشافع أن يشفع ، والثاني رضاه عن المشفوع له ولا يرضى من العمل إلا ماكان خالصاً صواباً ، ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة كما في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعــالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبــق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم ، في نهر في أمواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه » • وقال بعضهم :

وقل يخرج الله العظيم بفضله ... من النار أقواماً من الفحم تطرح
على النهر في الفردوس تحيا بمائــه ... كحب حميل السيل إذ جاء يطفــح

ففي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم » وقال « إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينماهم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محمودا يحمده أهل الجمع كلهم » .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة وأبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزدلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لست بصاحب ذلك .. » فذكر الحديث وفيه « فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقوم فيؤذن له أي في الشفاعة وترسل الأمانة والرحم فيقومان علىجنبتي الصراط يميناً وشمالا فيمر أولكم كالبرق » الحديث وفي حديث أبيٍّ بن كعب عند أبي يعلى « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني ثم يؤذن لي في الكلام ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون » .

وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة وأول من يقرع باب الجنة » .

وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر . وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر . وأول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر » .

قال الناظم :

كفاه سموا بالوسيلة رتبة ورفع لواء تحته كل أمجد

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ، يجمع الله الأولـين والآخرين في صعيد واحد فيقول بعض الناس لبعض ألا ترون ما أنتم فيه .. ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض أبوكم آدم فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى الى ما قد بلغنا فيقول آدم إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وأنه نهاني عن أكل الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكورا فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا ، فيقول نوح : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ألا ترى إلى مانحن فيه ألا ترى إلى ماقد بلغنا فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وذكر كذباته ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون يا موسى أنت رســول اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربــك ألا تـــرى إلى ما نحن فيه ألا ترى الى ما قد بلغنا فيقول لهم موسى إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيســى فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه قال هكذا هو وكلمت الناس في المهد فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى الى ما قد بلغنا فيقول لهم عيسى إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر له ذنباً اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتوني فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم

الأنبياء غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ، فأقوم فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي فيقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأقول رب أمتي أمتي يا رب أمتي أمتي يا رب أمتي أمتي فيقال أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال « والذي نفسي بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة ان شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » متفق عليه.

وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن السابقون الأولون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة » قال ابن القيم : فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض وأسبقهم إلى ظل العرش وأسبقهم الى دخول الجنة فالجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد صلى الله عليه وسلم ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته وأما أول الأمة دخولا فروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي فقال أبو بكر يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة وقوله وددت أني كنت معك حرصاً منه

على زيادة اليقين وأن يصير الخبر عياناً كما قال إبراهيم الخليل (رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) •• اهـ •

وقوله : « وأصناف ماتضمنته الدار الآخرة » إلى آخره أي أنواع ما اشتملت دار الجزاء من ثواب المطيع وعقاب العاصي والحساب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكور في الكتب السماوية •• وتقدم الكلام على الحساب وأدلته في ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ وذكر المصنف هذا الكلام النفيس المتعلق باليوم الآخر المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة وهو كلام جامع واضح •

قال السفاريني :

واجزم بأمر البعث والنشور   والحشر جزماً بعد نفخ الصور
كذا وقوف الخلق للحساب   والصحف والميزان للثواب
كذا الصراط ثم حوض المصطفى   فيا هنا لمن به نال الشفا
عنه يذاد المفتري كما ورد   ومن نحا سبل السلامة لم يرد
فكن مطيعاً واقف أهل الطاعة   في الحوض والكوثر والشفاعة
فإنها ثابتة للمصطفى   كغيره من كل أرباب الوفا
من عالم كالرسل والأبرار   سوى التي خصت بذي الأنوار

وأحال على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل اليوم الآخر وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر وبالجنة والنار وتفاصيل ذلك الكثير وصنفوا المصنفات المطولة والمبسوطة والمهم أن ذلك كله داخل في الإيمان باليوم الآخر واعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل وواقع بالسمع فإن الله نبه العقول الى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة وذكر بما هو مستقر في العقول الصحيحة من أنه لا يترك الناس سدى أو أن يكونوا خلقوا عبثاً لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار وهذا شيء محسوس متناقل بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك

ولا يزال يرى عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما تبين بــه الحق لأولى العقول وأولوا الألباب وأما تفاصيل الجزاء ومقاديره فلا يدرك إلا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم ووزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم الله بذلك ليرى عباده كمال حمده وكمال عدله وسعة رحمته وعظمة ملكه ، ولهذا قال (مالك يوم الدين) مع أن ملكه عام لهذا اليوم وغيره .. اهـ .

ومما يجب اعتقاده والإيمان به أن الجنة والنار مخلوقتان وانهما لايفنيان فالجنة دار لأوليائه أعدها الله وما فيها من النعيم المقيم لهم والدليل عــلى وجود الجنة قوله تعالى في عــدة آيات عن الجنة ، أنها أعــدت قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعــدت للمتقين) ، (وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) ومن ذلك قصة آدم وحواء وإسكانهما الجنة وإخراجهما منها قال تعالى (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) الآيتين . والرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينصح قومه ويحضهم على اتباع الرسل الذين أتوهم فقتله قومه قال الله تعالى : (قيل ادخل الجنــة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني مــن المكرمــين) .

وفي الصحيحين من حديث الإسراء وفي آخره « ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان ما أدري ماهي قال ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » وعن أبي هريرة رضــي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال لأنحين هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة متفق عليه ، وعنــه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنــة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس » رواه مسلم . وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم إذا

مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » وفي حديث الكسوف فقال « إني رأيت الجنة وتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه مابقت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع » وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال اذهب إليها والى ما أعددت لأهلها فنظر اليها والى ما أعد الله لأهلها » ٭

وعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه : لما خلق الله جنة عدن بيده ودلّى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال : (قد أفلح المؤمنون) ، قال : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » ٭

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما اطلعتم عليه ثم قرأنا (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) قال ابن كثير فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم ٭

وعن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة » متفق عليه ٭

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم الحديث وفي حديث في صلاة الكسوف فقال « إني رأيت الجنة وتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه مابقيت الدنيا ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء » الحديث في الصحيحين واللفظ للبخاري ٭

وروى أهل السنن وصححه الترمذي من حديث كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق في ثمار الجنة وروى الليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن عبد الملك بن بشير ورفع الحديث قال « ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان تقول الجنة يارب قد طاب ثمري واطرد أنهاري واشتقت إلى أوليائك فعجل بأهلي ، وتقول النار اشتد حري وبعد قعري وعظم جمري فعجل علي بأهلي » •

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً وداراً فقلت لمن هذا فقيل لرجل من قريش فرجوت أن أكون أنا هو فقيل لعمر بن الخطاب » الحديث •

وفي صحيح البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينما أنا أسير في الجنة وإذا بنهر في الجنة حافتاه قباب الدر المجوف قال : قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك بيده وإذا طينه المسك الأذفر » وقال صلى الله عليه وسلم لأم حارثة « إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دف نعليك في الجنة » الحديث متفق عليه •

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقيت إبراهيم صلى الله عليه وسلم ليلة أسري بي فقال يا محمد اقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » رواه الترمذي وقال حديث حسن •

وفي الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي والحاكم : « اذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب » وأما الدليل على أن الجنة باقية لا تفنى أبداً . فقوله تعالى :

١ ـ أكلها دائم وظلها . ٢ ـ وماهم منها بمخرجين .

٣ ـ عطاء غير مجذوذ .

٤ ـ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا . أي جنات إقامة يقال عدن بالمكان أي أقام به .

٥ ـ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى .

٦ ـ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار . ٧ ـ لهم أجر غير ممنون .

٨ ـ خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه .

٩ ـ إن هذا لرزقنا ماله من نفاذ .

١٠ـ إن المتقين في مقام أمين .

١١ـ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب .

١٢ـ ومساكن طيبة في جنات عدن .

١٣ـ جنات عدن يحلون فيها من أساور من ذهب .

١٤ـ وقال عن لسان أهل الجنة : الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب .

١٥ـ ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون .

١٦ـ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب .

١٧ـ والله يدعو إلى دار السلام .

١٨ـ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون

١٩ ـ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقين كانت لهم جزاءا ومصيرا لهم فيها مايشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولا .

٢٠ ـ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا .

ومن السنة ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » رواه مسلم •

وعن أبي هريرة وأبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يناد مناد أن لكم أن تَصِحّوا فلا تسقموا أبدا وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وأن تنعموا فلا تيأسوا أبدا » رواه مسلم •

وأخرج الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد » الحديث • وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجنة جرد مرد كحلى لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم رواه الترمذي والدارمي وعن جابر رضي الله عنه قال سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم أينام أهل الجنة ؟ قال النوم أخو الموت ولا يموت أهل الجنة رواه البيهقي في شعب الإيمان • وعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ويذبح ويقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهـل النار خلود فلا موت ، رواه البخاري ، وأخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لاموت كل خالد بما هو فيه •

وأما الدليل على أن النار الآن موجودة فقوله تعالى :

١ ـ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .
٢ ـ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا •
٣ ـ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا •
٤ ـ وأعتدنا لهم عذاب السعير •

٥ ــ وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا •

٦ ــ فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا •

٧ ــ وأعتدنا للكافرين سعيرا •

٨ ــ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا •

٩ ــ واتقوا النار التي أعدت للكافرين •

١٠ــ إن جهنم كانت مرصادا •

١١ــ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها

١٢ــ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا •

١٣ــ إن لدينا أنكالا وجحيما •

١٤ــ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا •

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء وقوله صلى الله عليه وسلم أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم وقوله صلى الله عليه وسلم « اشتكت النار إلى ربها عز وجل » فقالت : أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ماتجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير • وحديث تحاجّت الجنة والنار • وحديث صلاة الكسوف وحديث ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان : تقدمت دليلا على أن الجنة موجودة الآن ص وحديث بن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ماهذه فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ ٧٠ خريفا الآن وصل قعرها وعند مسلم وحديث عائشة « إن الله خلق الجنة وخلق النار وخلق لهذه أهلا ، ولهذه أهلا » والأحاديث التي في إثبات عذاب القبر فيها ما يدل على أن النار موجودة الآن فراجعها إن شئت ، وحديث « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة • رواه الترمذي •

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء متفق عليه . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر أمعاءه في النار » لأنـه أول من سيب السوائب وحمل قريشاً على عبادة الأوثان .

وأما الدليل على أن النار لا تفنى ولا تبيد ، أعدها الله وما فيها لأعدائه :

١ ــ قال تعالى : إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون .

٢ ــ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال : إنكم ماكثون .

٣ ــ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا .

٤ ــ الذي يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولا يحيى .

٥ ــ أنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى .

٦ ــ ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت .

٧ ــ ونذر الظالمين فيها جثيا . ٨ ــ إن عذابها كان غراما .

٩ ــ فقد كذبتم فسوف يكون لزاما .

١٠ــ لا يخفف عنهم ولا هم ينظرون .

١١ــ ولا يخفف عنهم من عذابها . ١٢ــ وماهم بخارجين من النار .

١٣ــ ولهم عذاب مقيم . ١٤ــ لا يقضى عليهم فيموتوا .

١٥ــ خالدين فيها أبدا .

١٦ــ والذين كذبوا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي .

١٧ــ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا .

١٨ــ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية .

١٩ــ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون •
٢٠ــ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها •
٢١ــ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها •
٢٢ــ إنَّ الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون ولياً ولا نصيرا •
٢٣ــ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا •
٢٤ــ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها •

وأما الأدلة من السنة فمنها الأحاديث المتقدمة دليلا على بقاء الجنة كحديث « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » الحديث وحديث « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار » الحديث وما أخرجه الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه •

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون في الجنة عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد » •

قال ابن القيم رحمه الله :

أو ماسمعت بذبحه للموت بين المنزلين كذبح كبش الضأن
حاشا لذا الملك الكريم وإنما هو موتنا المحتوم للإنسان
والله ينشيء منه كبشاً أملحا يوم المعاد يُرى لنا بعيان

٦٩ - القدر

[وقوله : وتؤمن الفرقة الناجية ــ أهل السنة والجماعة ــ بالقدر خيره وشره ــ والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين •

فالدرجة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى علم بما الخلق عاملون به بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، فأول ما خلق الله القلم قال له : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : ماهو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف . كما قال تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم مافي السماء والأرض ؟ إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير). وقال (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولافي أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وهذا التقدير ـ التابع لعلمه سبحانه ـ يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء .. وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكا . فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد .. ونحو ذلك ، فهـذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ومنكروه اليوم قليل] .

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان وتقدم في ص ٥١ الإيمان به ، وذكر المصنف رحمه الله هنا أن الإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين فتكون المراتب أربع :

الأولى : الإيمان بأن الله علم بما الخلق عاملون بعلمه القديم ، الذي هو موصوف به أزلا وأبدا ، فالأزل القدم الذي لا نهاية له ، فالأزل هو الدوام في الماضي ، والأبد ماليس له آخر فهو الدوام في المستقبل ، فالأزل هو الذي لم يزل كائنا ، والأبد هو الذي لا يزال كائنا ، وكونه لم يزل ولا يزال معناه دوامه وبقاؤه الذي ليس له مبتدأ ولا منتهى اهـ من كلام الشيخ رحمه الله

من كلام الشيخ : وأنه علم بأعمال العباد قبل خلقهم ، وعـلم بجميع أحوالهم ولا يغيب عن علمه شيء ، فيعلم ماكان ومايكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، ويعلم الواجبات والممكنات والمستحيلات ، قال تعالى (وإن

الله قد أحاط بكل شيء علما) وقال : (إن الله بكل شيء عليم) وتقدمت أدلة إثبات صفة العلم لله جل وعلا .

وقال الشيخ : والعلم أعم من الإرادة وأصل لها ، والمعلوم أعم من المراد ، فالعلم يتناول الموجود والمعدوم والواجب والممكن ، وما كان وما سيكون ، وما يختاره العالم وما لا يختاره ، وأما الإرادة فتختص ببعض الأمور دون بعض والخبر يطابق العلم ، فكل ما يعلم يمكن الخبر به ، والإنشاء يطابق الإرادة ، فإن الأمر إما محبوب يؤمر به ، وإما مكروه ينهى عنه ، وأما ما ليس بمحبوب ولا مكروه ، فلا يؤمر به ولا ينهى عنه .

ومرتبة العلم هي أولى مراتب القدر ، وقد اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم ، واتفق عليها الصحابة ومن تبعهم من الأمة ، وخالفهم مجوس هذه الأمة ، وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها ، وقد كفر [illegible] من الصحابة ، فمن بعدهم من أنكر علم الله ، وقال ابن عمر : والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره . وكذا كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة الإسلام كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم : إن المنكرين لعلم الله القديم يكفرون ، فإن الله سبحانه وتعالى علم أهل الجنة من أهل النار قبل أن يعملوا الأعمال ، وهذا حق يجب الإيمان به ، بل نص الأئمة كمالك والشافعي وأحمد أن من جحد هذا فقد كفر بل يجب الإيمان به ، فإن الله علم ماسيكون قبل أن يكون ، وفي الصحيح قالوا : يا رسول الله علمم الله أهل الجنة من أهل النار ، قال : نعم ، قيل : فيم العمل ، قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ، وذلك أن الله علم الأشياء كما هي عليه ، وقد جعل لها أسبابا تكون بها ويعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، فلا بد من الأسباب التي قد علمها الله سبحانه وتعالى من الدعاء والسؤال وغيره ، فلا ينال العبد شيأ إلا ما قدره الله من جميع الأسباب

والله خالق ذلك الشيء وخالق الأسباب ، ولهذا قيل الالتفات الى لأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تـكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، ومجرد الأسباب لا توجب حصول المسبب ، بل لا بد من تمام الشروط وزوال الموانع ، فكل ذلك بقضاء الله وقدره . ولله در القائل :

وكُن بالذي قد خطَّ باللوح راضياً ... فلا مَهْرَبٌ ممَّا قَضاهُ وخطَّه
وإن مَعَ الرزق اشتراطَ التماسه ... وقَد يَتعدَّى إن تَعدَّيْت شَرطهُ
ولو شاءَ ألقَى فيفم الطيرِ قُوتَه ... ولكنَّه أوْحَى إلى الطيرِ لَقْطَهُ

وقال الشيخ رحمه الله : على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور : أحدها أن يعلم أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لا بد معه من أسباب أخر ، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله . الثاني : أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سببا بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلا ، مثل أن يظن أن النذر سبب في دفع البلاء أو حصول النعماء . الثالث : أن الأعمال البدنية لا يجوز أن يتخذ منها سبباً إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناها على التوقيف . وقال في التائية :

وحكمته العليا اقتضت مااقتضته من ... فُرُوقٍ بعلمٍ ثم أيدٍ ورحمةٍ
يسوق أولى التعذيب بالسبب الذي ... يُقَدِّرُهُ نحوَ العَذابِ بعزةٍ
ويَهدي أولي التنعيم نحوَ نعيمهم ... بأعمال صدقٍ في رَجاءٍ وخشيةٍ
وأمرُ إلهِ الخلق بَيَّنَ ما به ... يسُوقُ أولي التنعيم نحوَ السعادة
فمَن كان مِن أهل السعادة أثَّرتْ ... أوامِرُهُ فيه بتَيْسير صَنْعَةِ
ومن كان من أهل الشقاوة لم يُبَلْ ... بأمْرٍ ولانَهْيٍ بتَيْسيرِ شِقْوةِ
ولا مَخْرجٌ للعبدِ عَمَّا به قَضى ... ولكنه مُخْتارُ حُسْنٍ وسَوْءةِ
فَلَيس بِمجْبُورٍ عَديمِ إرادةٍ ... ولكنه شَاءٍ بخَلْقِ المَشيئَةِ

وكذلك عمل الآخرة فليس بمجرد عمل العبد ، ينال الإنسان السعادة بل العمل سبب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » الحديث ، وقال (أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فهذه باء السبب أي بسبب أعمالكم ، والذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم باء المقابلة والعوض ، كما يقال اشتريت هذا بهذا ، أي ليس العمل عوضاً أو ثمنا كافيا في دخول الجنة بلْ لا بد معه من عفوه تعالى ورحمته وفضله ومغفرته ، فمغفرته تمحو السيئات ، ورحمته تأتي بالخيرات وتضاعف الحسنات اهـ من كلام الشيخ رحمه الله .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وتأمَّلَ الباءَ التي قَد عَيَّنَتْ سَبَبَ الفلاحِ لحكمة الفرقان
وأظنُّ باءَ النفيِ قد غَرَّتْك في ذاكَ الحديثِ أتى به الشيخان
لن يدخل الجناتِ أصلاً كادحٌ بالسعي منه ولو على الأجفان
واللهِ مابينَ النصوصِ تعارضٌ والكلُّ مصدرُها عن الرحمن
لكن بالاثبات والتسبيب والباءُ التي لِلنَّفْيِ باالاثمان
والفرقُ بينهما ففَرقٌ ظاهرٌ يَدْرِيه ذُو حَظٍ مِن العرفان

قال الشيخ تابع لما تقدم : وهنا ضل فريقان فريق أخذوا بالقدر وأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة ، وظنوا أن ذلك كاف وهؤلاء يؤول أمرهم الى الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر ومتكلين على حولهم وقوتهم وعملهم وهم جهال ضلال فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعيد ناظر إلى القدر فقد ضل ، ومن طلب المقام بالأمر والنهي معرضاً عن القدر فقد ضل ، بل لابد من الأمرين ، فكل عمل يعمله العامل ولايكون طاعة وعبادة وعملا صالحا ، فهو باطل وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون .

المرتبة الثانية ، مرتبة الكتابة : وهي أن الله كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ وأجمع الصحابة والتابعون وأهل السنة أن كل كائن الى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب ، وقال عبادة بن الصامت لابنه : يابني إنك لن تجد طعم الايمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ماخلق الله القلم فقال اكتب قال رب وما أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » رواه أبو داود وغيره ، وفي لفظ لأحمد « يا بني إن مت على غير هذا دخلت النار » .

وقوله : « جفت الأقلام وطويت الصحف » هذا كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها ، وقد اختلف العلماء : هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني ، أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء » فهذا صريح أن التقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة لا يخلو قوله : « إن أول ماخلق الله القلم » إلخ .. إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كان جملة ، وهو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له اكتب كما في « اللفظ أول ماخلق الله القلم قال له اكتب » بنصب أول والقلم وإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير مقارن والتقدير لخلق القلم وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له اكتب فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها .

وقد قال غير واحد من أهل التفسير إنه القلم الذي أقسم الله به .

قال ابن القيم رحمه الله :

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء بــه من الديان
هلْ كان قَبل العرش أو هو بَعْده ... قولانِ عندَ أبي العَلا الهَمَداني
والحقُّ إنَّ العرش قبـل لأنَّـه ... قبلَ الكتابة كان ذا أركان
وكتابةُ القلمِ الشريف تَعَقَّبت ... إيجادَهُ مِن غَيرِ فَصْلِ زَمانِ
لَمَّا بَراهُ الله قال اكتب كـذا ... فَغَدا بأمرِ الله ذا جَرَيانِ
فجرى بما هو كائن أبدا إلى ... يومِ المعـادِ بقدرةِ الرحمنِ

القلم الثاني : خبر خلق آدم وهو قلم عام أيضاً لبني آدم وورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقب خلق أبيهم .. الثالث : حين يرسل الملك إلى الجنين في البطن ففي الصحيحين عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النـار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

ولمسلم عن حذيفة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال « يدخـل الملك على النطفة بعد ماتستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول يارب أشقي أم سعيد فيكتبان ، فيقول يارب أذكر أم أنثى فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص » . وفي حديث حذيفة هذا التوقيت بأربعين أو خمس وأربعين ليلة ، والتوقيت

فيه بيان أنها قبل ذلك لا يتعرض لها ولا يتعلق بها تخليق ولا كتابة فإذا بلغت الوقت المحدود وجاوز الأربعين وقعت في أطوار التخليق طبقا بعد طبق ووقع حينئذ التقدير والكتابة ، وحديث ابن مسعود صريح في أن وقوع ذلك بعد كونه مضغة بعد الأربعين الثالثة ، وحديث حذيفة فيه أن ذلك بعد الأربعين ولم يؤقت البعدية بل أطلقها ووقتها في حديث ابن مسعود ، وحديث حذيفة دال أيضا على ذلك ويحتمل وجها آخر وهو أن التقدير والكتابة تقديران وكتابان فالأول منهما عند ابتداء تعلق التحويل والتخليق في النطفة وهو إذا مضى عليها أربعون ودخلت في طور العلقة وهذا أول تخليقة والتقدير الثاني والكتابة الثانية اذا كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكرا أو أنثى من الخارج فيكتب مع ذلك عمله ورزقه وأجله وشقاوته وسعادته فلا تنافي بين الحديثين ويكون التقدير الأول تقديرا لما يكون للنطفة بعد الأربعين فيقدر معه السعادة والشقاوة والرزق والعمل والتقدير الثاني تقديرا لما يكون للجنين بعد تصويره فيقدر معه ذلك ويكتب أيضاً ، وهذا التقدير أخص من الأول ، ونظير هذا أن الله سبحانه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

القلم الرابع : الموضوع على العبد عند البلوغ الذي بأيدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم وذلك في الكتاب الكريم والسنة اهـ . من كلام ابن القيم .

وقوله (ألم تعلم أن الله يعلم مافي السماء والارض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه وأنه محيط بما في السموات والأرض فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، وأنه تعالى علم الكائنات قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ، وكان

عرشه على الماء » ، وقوله (إن ذلك على الله يسير) أي إن علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون قال تعالى : (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً) وقال أيضا عن أهل النار (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) ويعلم سبحانه مالم يكن لو كان كيف يكون وقوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلالا في كتاب إن ذلك على الله يسير) ، يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية بأن ما أصاب الناس من مصائب في آفاق الأرض مثل قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمار وفساد الزروع أو في الأنفس من أمراض وفقدان أولاد إلا وهو مثبت مذكور في اللوح المحفوظ من قبل أن تخلق الأرض والأنفس وقال ابن عباس : من قبل أن نبرأ المصيبة • وقوله (إن ذلك على الله يسير) أي إن علمه بالأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل لأنه سبحانه يعلم ماكان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون •

وقوله : « وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا » وأقسام التقدير أربعة : التقدير العام لجميع الأشياء بمعنى أن الله علمها وكتبها وشاءها وخلقها • الثاني التقدير العمري وتقدم حديث ابن مسعود المخرج في الصحيحين • الثالث : التقدير السنوي وذلك يكون في ليلة القدر ويدل عليه قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) •

قال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ماهو كائن فيالسنة من الخير والشر والأرزاق والآجال ، يقال يحج فلان ويحج فلان •

وقال الحسن ومجاهد : يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة •

الرابع : التقدير اليومي ويدل عليه قوله تعالى : (كل يوم هو في شأن) وأخرج ابن جرير عن عبـد الله بن حنيف الأزدي وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى (كل يوم هو في شأن) ، قال : « من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قـوما ويضع آخرين » .

وقوله « وهذا التقدير » أي المذكور وهو علمه بالأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق مايوجد في حينها قد كان ينكره غلاة القدرية كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وذلك في أواخر عصر الصحابة ثم عمرو بن عبيد وغيره والذي أنكروه من المراتب مرتبة العلم ومرتبة الكتابة ويقولون الأمر أنف أي مستأنف ويزعمون أن الله جل وعلا أمر ونهى وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ورد عليهم من الصحابة : عبد الله بن عباس وواثلة بن الأسقع وغيرهم ، والقدرية ينقسمون الى فرقتين الاولى تنكر أن الله يسبق علمـه بالأشياء قبل وجودها وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلا ولم يتقدم علمـه بها وإنما يعلمها إذا وقعت . قال العلماء : والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفرهم الأئمة مالك والشافعي وأحمد وهم الذين قال فيهم الشافعي : ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا . وتقدم الكلام على هذه الطائفة . الفرقة الثانية التي تبطل أمره ونهيه بقضائه وقدره : كالذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال الشيخ رحمه الله في التائية :

وتُدعى خصومُ الله يومَ معادهم إلى النار طرّاً مَعْشَرَ القَدَرِيَّة
سواءٌ نَفوه أو سَعوا ليُخاصِموا به اللهَ أو ماروا به لِلشريعة
ومن يكُ خصماً للمُهيمن يرجِعَن على أمِّ رأسٍ هاوِياً لِلْحفيرة

الدرجة الثانيـة

[قوله : وأما الدرجة الثانية فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهي الايمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن مافي السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ولا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عـن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد ، والعباد فاعلون حقيقة والله خالقهم وخالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) ، وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامـة القدرية الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها] .

قوله « وأما الدرجة الثانية فهي إثبات المشيئة النافذة والقدرة الشاملة » والنافذة الماضية التي لا راد لها من نفذ السهم نفوذا اذا خرق الرمية ونفذ الأمر مضى وأمره نافذ أي مطاع ، وشمول قدرته قد دل عليها الكتـاب والسنة وأجمع عليها سلف الامة فلا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولاعين ولا فعل ولا وصف ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن قال تعالى

(ولو شاء الله ما اقتتلوا) وقال (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) وقال (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) وقال (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وقال (ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة) وقال (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) وقال (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على إثبات المشيئة .

قال ابن القيم رحمه الله بعد سياق هذه الآيات وغيرها : وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية ، ونفاة مشيئة أفعال العباد حركاتهم وهداهم وضلالهم ، وهو سبحانه تارة يخبر أن كل مافي الكون بمشيئته ، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدر وكتبه وأنه لو شاء ماعصى وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة ، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته وأن مالم يقع فهو لعدم مشيئته ، وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه رب العالمين وكونه القيوم القائم بتدبير عباده فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا إضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وقال (في أي صورة ما شاء ركبك) وقال (لله مافي السموات وما في الأرض يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) الآية اهـ .

وقوله : « وهو الإيمان بأن ماشاء الله كان إلخ » هذا تفسير لمعنى الإيمان بهذه المرتبة وأشار الى الرد على القدرية والمعتزلة الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف مشيئة الله .

وقوله « وأنه سبحانه على كل شيء قدير إلخ •• » إشارة إلى شمول قدرة الله تعالى على كل شيء ، ومن قدرته أنه اذا شاء شيئا فعله من غير ممانع ولا معارض ، وفي هذا رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله ، قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ، وقال (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء) ، وقال (الله خالق كلِّ شيء) فأهل السنة والجماعة يؤمنون بعموم خلقه وشمول قدرته ونفوذ مشيئته وعلمه بالأشياء قبل أن تكون وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون •

قال الشيخ رحمه الله تعالى :

وأصلُ ضلال الخلقِ في كلِّ فرقةٍ ... هو الخوضُ في فعلِ الإله بعلة
فإن جميعَ الكون أوجبَ فعلَه ... مشيئةُ ربِّ الخلق بارِي البرية
وذاتُ إلــهِ الخلقِ واجبةٌ بما ... لَها من صِفاتٍ واجباتٍ قَديمة
مَشيئتُه مَعْ عِلمِه ثم قُدْرةٍ ... لوازمُ ذاتِ الرب قاضِي القَضية
وإبداعُه ما شاءَ مِن مُبْدَعاته ... بها حِكمةٌ فيه وأنواعُ رَحمة

وقوله : « مع ذلك أمر العباد بطاعته إلخ •• » المعنى : لا منافاة بين ما ثبت من عموم مشيئته لجميع الأشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهي فإن تلك المشيئة بقوله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) ففي قول المصنف ومع ذلك إشارة للرد على من عارض شرعه وأمره بقضائه وقدره وجعل مشيئته العامة دافعة للأمر كفعل الزنادقة إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر ، وقد احتج سارق على عمر بالقدر ، فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره •

قال الشيخ رحمه الله في التائية رداً على المحتج بالقدر وذكر إلزامات في غاية القوة والوضوح يبطل كل واحد منها اعتذار المعتذرين بالأقدار فقال :

ويكفيك نقضاً أن ما قد سألتَه ... من العذر مَردود لدى كل فطرة
فأنتَ تعيبُ الطاعنينَ جميعَهم ... عليكَ وترميهم بكل مَذمَّة
وتَنحَلُ مَن والاكَ صَفو مَودة ... وتُبغضُ من عاداكَ من كل فرقة
وحالُهم في كلِّ قَول وفعلة ... كحالك يا هَذا بأرجَح حُجَّة
وهبْك كففْت اللومَ عن كل كافر ... وكلٌّ غوى خارج عن مَحَجَّة
فيلزمُك الإعراضُ عن كلِّ ظالم ... على الناس في نفس ومال وحُرمة
فلا تَغضبَنْ يوماً على سَافك دما ... ولا سَارق مالاً لصاحب فاقة
ولا شاتم عرضاً مَصُوناً وإن عَلا ... ولا ناكح فَرجاً على وجه غَيَّة
ولا قَاطع للناس نَهْج سَبيلهم ... ولا مُفسد في الأرض من كل وجْهة
ولا شاهد بالزور إفكاً وفرْيَة ... ولا قاذف لِلمُحْصَنات بزنْيَة
ولا مُهلك للحَرث والنسل عامِداً ... ولا حاكم للعالمين برشْوة
وكفَّ لسَان اللَّوم عن كل مُفسد ... ولا تأخُذَنْ ذا جُرْمة بعقُوبة
وسَهِّل سَبيل الكاذبيْن تعمُّداً ... على رَبِّهم مِنْ كُلٍّ جاء بفرْيَة
وإن قصَدوا إضْلال من يستجيبُهم ... برَوْم فَسَاد النوع ثمَّ الرياسة
وجادل عن الملعُون فرعون إذ طَغى ... فأُغْرِقَ في اليمِّ انتقاماً بغُصَّة
وكل كَفُور مُشْرك بإلهه ... وآخَرَ طاغ كَافر بنُبُوَّة
كَعَاد وثمُوذ وقوم لصَالح ... وقوم للوط ثم أصْحَابَ أَيكة
وخاصِمْ لمُوسَى ثم سائر من أتى ... من الأنبياء مُحْيِياً للشَّريعَة
على كونهم قد جاهدوا الناس إذ بغوا ... ونالُوا مِن العاصي أشدَّ العُقُوبة

ثم ذكر إلزامات أخر :

وهبكَ رفعتَ اللومَ عن كلِّ فاعل ... فِعالَ رَدًى طرداً لهَذي المَقيْسة
فهل يُمكنَنْ رفعُ الملام جميعه ... عن الناس طَراً عندَ كلِّ قبيْحة
وتركُ عقوبات الذينَ قد اعتَدوا ... وتركُ الورى الإنصافَ بين الرعية

فلا تُضْعِفَنْ نفسٌ ومالٌ بمثله ولا يُعْقِبَنْ عادٍ بمثلِ الجريمةِ
وهل في عقول الناس أوفي طباعهم قبولٌ لقول النَّذْل ما وجه حيلتي
وقولُ حليفِ الشر إني مُقَدَّرٌ عليَّ كقول الذئب هذه طَبِيعَتي
فهلْ يَرْفَعَنْ ذمَّ الملومِ بأنه كذا طبعُه أمْ هل يُقال لِعثرة
أم الذمُّ والتعذيبُ أوكَدُ لِلذي طبيعتُه فِعْلُ الشرورِ الشنيعةِ

وقال الشيخ رحمه الله : الاحتجاج بالقدر حجة باطلة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العاملين والمحتج به لا يقبل من غيره هذه الحجة إذا احتج به في ظلمه إياه وترك مايجب عليه من حقوقه • بل يطلب منه ما له عليه ويعاقبه على عدوانه ، وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التي تعرض في العلوم ولا يحتج به أحد الا مع عدم علمه بالحجة بما فعله فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة وهو المأمور وهو الذي ينبغي فعله لم يحتج بالقدر ، وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأمورا به لم يحتج بالقدر بل إذا كان متبعاً لهواه بغير علم احتج بالقدر •

وقال رحمه الله : والناس في الشرع والقدر ، على أربعة أنواع : فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ، ولا يراه حجة لغيره يستند إليه في الذنوب ، والمعائب ولا في المصائب التي هي أفعال العباد • بل يضيفون ذلك الى العبد وإذا أساؤوا استغفروا وهذا حسن • لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا الى القدر الذي مضى بها عليهم ولا يقولون لمن قصر في حقهم دعوه لو قضي شيء لكان ، لا سيما وقد تكون المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون إليها • قال الله تعالى : (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها) الآية • ورابعهم من يحتج بالقدر لكل أحد ، وهذا مذهب غلاة الجبرية ، وقد بين فساده شرعاً وعقلا • وقال رحمه الله : وللعبد حالان حال قبل القدر فعليه أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه وحال بعد القدر فعليه أن يحمد الله في الطاعة ويصبر ويرضى في المصيبة ، ويستغفر في الذنب وفي الطاعة من

النقص . وقال عقب كلام سبق في التدمرية في باب شرع الله وعدره : وجماع الأمر أنه لا بد له في الأمر من أصلين ولا بد له في القدر من أصلين ففي الأمر عليه الاجتهاد في امتثال الأمر علما وعملا فلا يزال يجتهد في العلم بما أمر الله به والعمل بذلك . ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في الأمر وتعديه للحدود وأما في القدر فعليه أن يستعين بالله في فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ويرغب إليه ويستعين ويكون مفتقرا إليه في طلب الخير وترك الشر ، وعليه أن يصبر على المقدور ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، واذا آذاه الناس علم أنه مقدر عليه . وقوله : « والله يحب المتقين والمحسنين والمقسطين » ففي ذلك رد على من زعم أن المشيئة والمحبة سواء أو متلازمان كما يقول الجبرية والقدرية ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا . فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا فقالت الجبرية الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوبا مرضيا . وقالت القدرية النفاة ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فليست مقدرة ولا مقضية فهي خارجة عن مشيئته وخلقه وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة . أما أدلة المشيئة والإرادة فقد تقدمت في ص٩١ وأما نصوص المحبة والرضا . قال الله تعالى : (والله لايحب الفساد) وقال : (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال : (إذ يبيتون مالا يرضى من القول) وقال : (فإن ترضوا عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين) مع أن ذلك كله بمشيئة الله وفي المسند « إن الله يحب أن توتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » فقد يشاء الله مالا يحبه كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ، وقد يحب مالا يشاء كونه كمحبته لإيمان الكافر وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ، ولو شاء لوجد ذلك كله فإنه ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن .

قال في شرح الطحاوية : فإن قيل كيف يريد الله أمرا ، ولا يرضاه ، ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع إرادته وبغضه وكراهته ؟ قيل هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً ، وتباينت طرقهم وأقوالهم

فاعلم أن المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير • مراد إرادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لايكون مقصود لما يريد ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته ، وإن كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه ، وذاته مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله الى مراده • فيجتمع فيه الأمران بغضبه وإرادته ، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول لـه أن فيه شفاءه وقطع العضو المتآكل اذا علم أن في قطعه بقاء جسده وكقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عاقبته فكيف ممن لاتخفى عليه خافية • فهو سبحانه يكره الشيء ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره وكونه سبباً إلى أمر هو أحب اليه من فوقه من ذلك ، أنه خلق إبليس الذي هـو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب الرب وهو الساعي في وقوع خلاف مايحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ووجودها أحب إليه من عدمها منها أنه يظهر لعباده قدرة الرب على خلق المتضادات والمتقابلات فخلق هذه الـذات التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهي مادة كل خير فتبارك خالق هذا وهذا ، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار والدواء والحياة والموت والحسن والقبيح والخير والشر ، وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار والشديد العقـاب والسريع العقاب وذي البطش الشديد والخافض والمذل ، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال لابد من وجود متعلقها ولو كان الجن والإنس على طبيعـة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء ومنها ظهور أثر أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه

وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن يشاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذه بقوله « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » ، ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته اهـ .

وقوله : « والعباد فاعلون حقيقة » قال الله تعالى : (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) ، (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وقال : (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) وقال : (ولو شاء الله مافعلوه) ففي هذا رد على الجبرية الذين يقولون لا فعل للعبد ، وقوله : « والله خالق أفعالهم » قال الله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) ، (الله خالق كل شيء) (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) ، (الحمد لله رب العالمين) قال ابن القيم رحمه الله : ومن الدليل على خلق أعمال العباد ، قوله تعالى : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم) فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل ، وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل ، إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم ، فإذا كانت مجعولة لله ، فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ، ومادتها ، وهيآتها ونظير هذا قوله : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ، تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) ، فأخبر سبحانه أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له ، وهي إنما صارت بيوتا بالصنعة الآدمية .

وقـال :

وعمومُ قدرتهِ تـدلُّ بأنـه هـو خالقُ الأفعالِ لِلحيَوانِ
هي خلقُهُ حقاً وأفعالٌ لهم حقـاً ولا يَتَنَاقضُ الأمرانِ

لكن أهلَ الجبرِ والتكذيبِ با	لأقدارِ ما انفتحَتْ لَهم عَيْنانِ
نَظَروا بعَيْني أعْورٍ إذ فاتَهم	نَظَرُ البصيرِ وغارتِ العينان
فحقيقةُ القَدْرِ الذي حَار الورى	في شأنه هـو قُدْرَةُ الرحمن
واستحسنَ ابنُ عقيل ذا من أحمدٍ	لمـا حكاهُ عـن الرضى الرباني
قال الإمام شفى القلوبَ بلفظةٍ	ذاتِ اختصارٍ وهي ذاتُ مَعَانِ

وثبتت النصوص أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم وأن أعمالهم خيرها وشرها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم التي خلقها الله لهم ، وخالق السبب التام خالق للمسبب . ففي ذلك رد على القدرية النفاة الذين يقولون إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وإنها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم دون مشيئة الله، وإن الله لم يقدر ذلك عليهم ، ولم يكتبه ولا شاءه ، وإن الله لا يقدر أن يهدي ضالا ، ولا يضل مهتدياً ، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله ، فشابهوا المجوس في كونهم أثبتوا خالقاً مع الله ، ولذا سموا مجوس هذه الأمة ، وقد أطبق الصحابة والتابعون على ذمهم وتبديعهم وتضليلهم ، وبين أئمة الإسلام أنهم شابهوا المجوس ، وأنهم خالفوا أدلة الكتاب والسنة ، بل وخالفوا العقل والفطرة .

قال الشيخ رحمه الله : أهل السنة متفقون على أن الله خالق أفعال العباد ، وعلى أن العبد قادر مختار ، يفعل بمشيئته وقدرته ، والله خالق ذلك كله ، وعلى الفرق بين الأفعال الاختيارية والاضطرارية ، وعلى أن الرب يفعل بمشيئته وقدرته ، وأن ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لم يزل قادراً على الأفعال موصوفاً بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون علمه المحيط ، ومشيئته النافذة ، وقدرته الكاملة ، وخلقه لكل شيء ، ومن هداه الله لفهم قولهم ، علم أنهم جمعوا محاسن الأقوال ، وأنهم وصفوه بغاية الكمال ، وأنهم المتمسكون بصحيح المنقول وصريح المعقول ، وأن قولهم القول السديد السليم من التناقض ، وأنه القول الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه .

وقوله : « والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر الخ » العبد تارة يعنى به العبيد فيعم الخلق كما في قوله : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) ، وتارة يعنى به العابد فيخص ثم يختلفون ، فمن كان أعبد علماً وحالا كانت عبوديته أكمل ، فكانت الإضافة في حقه أكمل ، مع أنها حقيقة في جميع المواضع ، والعبودية نوعان : عامة وخاصة .

فالعامة عبودية أهل السموات والأرض كلهم برهم وفاجرهم ، فهذي عبودية القهر والملك ، قال تعالى : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) فهذا يدخل فيهم مؤمنهم وكافرهم ، وقال : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء) فسماهم عباده مع ضلالهم لكن تسمية مقيدة بالإشارة ، وأما المطلقة فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني ، وقال : (إن الله قد حكم بين العباد) ، (وما الله يريد ظلما للعباد) ، فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة .

وأما النوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر ، قال تعالى : (يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) ، (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ، (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض) ولهذا أضافها إلى اسمه الرحمن ، إشارة الى أنهم إنما وصلوا الى هذه الحال بسبب رحمته ، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته ، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته ولا يجيء في القرآن إضافة العباد اليه مطلقاً إلا لهؤلاء وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة ، لأن أصل معنى اللفظ الذل والخضوع ، يقال طريق معبدَّ إذا كان مذللا بوطء الأقدام ، قال طَرَفَةُ بن العبد البكري :

تُبَارِي عِتاقاً ناجياتٍ وأَتْبَعتْ وَظِيفاً وَظيفاً فَوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

وفلان عَبَّدهُ الحب إذا ذلله .

ففي كلام المصنف رد على الجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور على أعماله الاختيارية ، فالعبد إذا صلى وصام وحج أو عمل شيئاً من المعاصي

كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح أو السيء ، وفعله بلا ريب قد وقع باختياره ، وهو يعلم ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك ، وأنه لو شاء لم يفعل ، والله سبحانه أضاف الأعمال سيئها وحسنها إلى العباد ، وأخبر أنهم الفاعلون لها ، وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون عليها ، ومذمومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها .

قال الشيخ رحمه الله : وفعل العبد حادث ممكن فيدخل في عموم خلق الله للحوادث واتفق أهل السنة أن الله خصص المؤمنين بنعمه دون الكافرين بأن هداهم للإيمان ولو كانت نعمته على المؤمنين مثل نعمته على الكافرين لم يكن المؤمن مؤمناً كما قال تعالى (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) والله خالق الملائكة والأنبياء وخالق الشياطين والحيات والعقارب وغيرها من الفواسق فهذا محمود معظم وهذا فاسق يقتل في الحرم وهو سبحانه خالق في هذه طبيعة كريمة تقتضي الخير والإحسان وفي هذا طبيعة خبيثة توجب الشر والعدوان .

وقال رحمه الله : وقد استقر في بداية العقول أن الأفعال الاختيارية من العبد تكسب نفس الإنسان صفات محمودة وصفات مذمومة بخلاف لونه وطوله وعرضه فإنها لا تكسبه ذلك فالعلم النافع والعمل الصالح والصلاة الحسنة وصدق الحديث وإخلاص العمل لله ونحو ذلك تورث القلب صفات محمودة ، ففعل الحسنة له آثار محمودة في النفس والخارج وكذلك السيئات والله جعل السيئات سبباً لهذا كما جعل السم سبباً للمرض والهلاك وأسباب الشر لها أسباب تدفع بمقتضاها فالتوبة والأعمال الصالحة يمحى بها السيئات والمصائب في الدنيا يكفر بها السيئات والله تعالى يخلق الاختيار والرضى في الراضي والمحبة في المحب وهذا رد على من قال جبر الله العباد . وقوله : « وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة » هذا إشارة للرد على الجبرية لأنهم

غلوا في القدر وزعموا أن العبد لافعل له بل هو بمثابة الشجرة التي تحركها الريح يمنة ويسرة وبمنزلة السيارة والطائرة يسيرها السائق حيث شاء ،

قال ابن عدوان :

ولعبد ياذا قدرة وإرادة على العمل افهم فهم غير مبلد
فيفعل ياذا باختيار وقدرة وليس بمجبور ولا بمضطهد

وقوله : « والله خالقهم وخالق قدرتهم » إشارة للرد على القدرية نفاة القدر الذين يقولون إن العبد هو الذي يخلق فعله وكذب عامة القدرية بهذه الدرجة من القدر ولذا سموا مجوس هذه الأمة لمشابهتهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة وممن قال بذلك واشتهر عنه مانيء بن ماش وتنسب إليه طائفة المانوية ، كان في الأصل مجوسياً فأحدث ديناً ودعا إليه وزعم أن صانع العالم اثنان أحدهما فاعل الخير وهو النور وثانيهما فاعل الشر وهو الظلمة قال أبو الطيب في مدحه لكافور الأخشيدي وكان أسود اللون :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

وأما القدرية فيضيفون الخير إلى الله والشر الى غيره والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر لايكون شيء إلا بمشيئته . قال الشيخ رحمه الله : الشر لا يجيء في كلام الله وكلام رسوله إضافته وحده إلى الله ولكنه يأتي على أحد ثلاثة أوجه إما على وجه العموم أو بحذف فاعله كقوله تعالى (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض) أو بإضافة الى فاعله من المخلوقين اهـ .

وقابل القدرية طائفة الجبرية الذين غلوا في الإثبات للقدر حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ولأجل ذلك نفوا الحكمة والتعليل فالقدرية النفاة قصروا وهؤلاء غلوا وأهل السنة وسط بين الطرفين فلا إفراط ولا تفريط وقد دل على

إثبات الأمرين الكتاب والسنة كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) فأول الآية يرد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له أو أن له مشيئة مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه ، وقوله : وآخر الآية وهو قوله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله بل متى شاء العبد الفعل وجد ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد بل هو يفعله بدون مشيئة الله فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين .. والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد وأدلة العقل الصريح أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى فما لم يشأ لم يكن البتة كما أن ما شاء كان ولا بد ، وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر والأسباب والمسبَّبات وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ولكل منهما عبودية مختصة بها فعبودية الآية الأولى الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي وعبودية الثانية الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه واستنزال التوفيق والعون منه والعلم بأنه لا يمكن العبد أن يشأ ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك وقوله رب العالمين ينتظم ذلك كله ويتضمنه فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها .

وقال : وكمال العبد أن يؤمن بقدر الله وقضائه فعليه أن يوافق الله في حبه وبغضه فقضاء الشرور من جهة خلق الرب لها محبوبة مرضية لأن الله خلقها لماله في ذلك من الحكمة والعبد فعلها وهي ضارة له موجبة له العذاب فنحن ننكرها ونكرهها ونتآى عنها — وقال : أنعم الله على المكلفين بنعم أصولية وفروعية مشتركة بين البر والفاجر وخص المؤمنين بنعم أخرى بها تمت عليهم النعمة فأوجدهم بعد العدم وخلق لهم من الأسماع والأبصار والعقول ما تتم به العافية وأعطاهم قوتين عظيمتين ، بها يوجدوا أفعالهم ويختار كل منهم ما أراد من الأفعال الحسنة والقبيحة وهما المشيئة والإرادة والقدرة وباجتماع القوتين تتم الأقوال والأفعال ثم أنه كمل على جميعهم النعمة بأن

أمرهم أن يصرفوا مشيئتهم وإرادتهم الى ما ينفعهم مما يحبه الله ويرضاه وأن يمتنعوا عما يكرهه الله وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب لتفصيل ما يحبه الله مما يكرهه والترغيب في هذا والترهيب من هذا بكل وسيلة وطريق وأخبرهم بما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب وأشهدهم أنموذجا من ذلك في دار الدنيا وكل هذه الأمور وتوابعها اشترك فيها كل أحـد فلم يبق لأحد على الله حجة بل حجته ورحمته وصلت إليهم كلهم ، ثم أنه تعالى خص المؤمنين بخصائص من رحمته بها آمنـوا واهتدوا وعملوا الصالحات وهو أنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ثم كلما فعلوا شيئاً من الهداية وقصدوا مراضي ربهم أمدهم بهديات متنوعة ولطف بهم ويسرهم لليسرى وجنبهم للعسرى وحفظهم ودفع عنهـم بإيمانهم السوء والفحشاء فاستقاموا على الصراط بمنته ورحمته (والله يختص برحمته من يشاء) الآية فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل أفبعد هذا يبقى حجة للمعاند وشعب للمكابر يحتج فيه بالقدر ولم يبق إلا أن يقول كيف خص المؤمنين بما خصهم به دوننا فيقال هذا فضله وإحسانه يؤتيه من يشاء فلم يمنع الكافر والفاجر حقاً له يستحقه بل منع عنه فضله الذي خص بـه المؤمنين لكمال حكمته ولعلمه أنه لا يستحق هذا الفضل لإعراضه عن ربه واعتراضه عليه (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) •

٧٠ — الايمان والدين عند اهل السنة

[وقوله : ومن أصول أهل السنة ، أن الدين والإيمان قول وعمل : قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وأن الإيمان يزيـد بالطاعة وينقص بالمعصية وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه في آية القصاص (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء

إليه بإحسان) وقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم)] •

الدين المراد هنا جميع ما أمر الله به على ألسنة رسله والإيمان شرعاً هو ماذكره المصنف وقد تنوعت عبارات السلف فبعضهم يقول هو قول وعمل ونية واتباع سنة وبعضهم يقول قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وكله صحيح فقول القلب يكون بتصديقه وإيقانه قال الله تعالى (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) ، وقال (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وقول اللسان هو النطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والإقرار بلوازمها ، قال الله تعالى : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وقال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » وقال لسفيان بن عبد الله : « قل آمنت بالله ثم استقم » وعمل القلب هو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله والتوكل على الله والإنابة ولوازم ذلك وتوابعه • قال الله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) الآية ، وقال : (انما نطعمكم لوجه الله) وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما لأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » قال الشيخ : أصل الإيمان بالقلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار العبد بالتصديق والحب والانقياد بالأبدان ، يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح فالأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ودليل عليه وشاهد له وشعبه من مجموع الإيمان المطلق وبعضه له وما في القلب أصل له وهو الملك والأعضاء جنوده والتحقيق أن الايمان المطلق قد يتناول الأصل مع الفرع وقد يخص بالاسم وحده أو بالاسم مع الاقتران

بعمل الجوارح وهو كالشجرة يتناول الأصل والفرع اذا وجد وقد يقطع من الفروع شيء فتبقى شجرة ناقصة بحسب ما زال منها ، وكذلك الإيمان كما مثله الله بالشجرة وعمل اللسان مالا يؤدى إلا به كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتكبير والتهليل والدعاء والاستغفار قال الله تعالى : (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة) وقال : (واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك) وقال : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) الآية (واذكر ربك في نفسك تضرعاً) الآية ، وقال : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) وهي : سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم • وقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وعمل الجوارح مالا يؤدى إلا بها كالقيام والركوع والسجود والمشي في مرضاة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحج والجهاد في سبيل الله ، قال الله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) الآية ، وقال : (وقوموا لله قانتين) وقال : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وقال : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده » الحديث : وقال : « الايمان بضع وسبعون شعبة فأعلاه شهادة أن لا إله إلا الله » وأدناه إماطة الأذى عن الطريق » • قال ابن القيم : الإيمان له ظاهر وباطن فظاهره قول اللسان وعمل الجوارح وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته فلا ينفع ظاهر لا باطن له ولا يجزي باطن لا ظاهر له الا إذا تعذر بعجز أو إكراه أو خوف هلاك فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته فالإيمان قلب الإسلام ولبه واليقين قلب الايمان ولبه وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول • وقال : اسم الإيمان تارة يذكر مفردا غير مقرون بغيره فيدخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة وتارة يقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح أو بالذين

أوتو العلم فيكون الايمان اسماً لما في القلب وما قرن معـه اسما للشرائع الظاهرة ثم ان نفي الايمان عند عدمها دل على أنها واجبة لاينفي إلاالنفي بعض واجباته وإن ذكر فعل إيمان صاحبها ولم ينف إيمانه دل على أنها مستحبة ، اهـ

وقوله : « وان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية » قال الله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) ، وقال : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) ، وقال : (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) ، وقال : (وزدناهم هدى) ، وقال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) ، وقال : (فاخشوهم فزادهم إيمانا) ، وقال : (وما زادهم الا إيمانا وتسليما) ، وحديث « الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من إيمان » ومن الادلة أيضا أن الله جل وعلا قسم المؤمنين الى ثلاث طبقـات : سابقون بالخيرات ومقتصدون وظالمون لأنفسهم ، وقوله تعـالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون ـ الى قوله ـ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) ، وقال : (فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) .

وقال الشيخ : وزيادة الايمان من وجوه أحدها الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم ، الثاني أن العلم والتصديق يكون بعضه أقوى من بعضـ وأثبت وأبعد من الشك والريب ، الرابع أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله ، الخامس والسادس أن أعمـال القلوب والجوارح تتفاوت تفاوتا عظيما ويتفاضل الناس بها ، السابع ذكر الإنسان ما أمر به بقلبه واستحضاره لذلك بحيث لايكون غافلا عنه أكمـل ممن صدق به وغفله عنه ، الثامن قد يكون بعض المؤمنين كثيرا من التفصيلات التي ينكرونها لجهلهم أنها مما جاء به الرسول فيكون ذلك نقصاً عمن ليس كذلـك .

وقال : الدين والايمان واليقين أمران : أحدهما كون الله في قلب العبد بالمعرفة والمحبة فهو فرض على كل واحد ولا بد لكل مؤمن منه ، فإن أدى واجبه فهو مقتصد وإن ترك بعض واجبه فهو ظالم لنفسه ، وإن تركه فهو كافر بربه ، والثاني : موافقته ربه فيما يحبه ويكرهه ويرضاه ويسخطه ، فهذا على الإطلاق إنما هو للسابقين المقربين الذين تقربوا الى الله بالنوافل التي يحبها ولم يفرضها ، بعد الفرائض التي يحبها ، ويفرضها ويعذب تاركها ، ولهذا كان هؤلاء لما أتوا بمحبوب الحق من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المنتظمة للمعارف والأحوال أحبهم الله فعلوا محبوبه فأحبهم ، فان الجزاء من جنس العمل مناسب له مناسبة المعلول لعلته ، ولا يتوهم أن المراد بذلك أن يأتي العبد بعين كل حركة يحبها الله فإن هذا ممتنع ، وإنما المقصود أن يأتي منها بأكثر مما يأتي به من الظاهرة كما ورد بذلك النصوص اهـ •

قال : وهل يستلزم الإسلام الإيمان ؟ هذا فيه نزاع ، والوعد الذي في القرآن بالجنة والنجاة من العذاب انما هو معلق باسم الايمان ، وأما اسم الإسلام مجرداً فما علق به في القرآن دخول الجنة لكن فرضه ، وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبالإسلام بعث جميع النبيين ، وحقيقة الفرق أن الإسلام دين ، والدين مصدر دان يدين ديناً إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله ، هو الاستسلام وأصله في القلب ، هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه ، فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلما ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً والإسلام هو الاستسلام لله والخضوع له والعبودية هكذا ، قال أهل اللغة : أسلم الرجل إذا استسلم ، فالاسلام في الاصل من باب عمل القلب والجوارح وأما الإيمان فأصله تصديق وأقوال ومعرفة ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له ، فلهذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم بإيمان القلب وبخضوعه ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر الإسلام باستسلام مخصوص ، وهو المباني الخمس ، وهذا

في سائر كلام النبي صلى الله عليه وسلم يفسر الإيمان بذلك النوع ، ويفسر الإسلام بهذا ، وذاك النوع أعلا ، وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً ، فإن الايمان يستلزم الأعمال ، وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمان. المطلق لأن الاستسلام لله والعمل لايتوقف على هذا الايمان الخاص •

وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام ، والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، ولكن حقيقة الإيمان في قلوبهم انما يحصل شيئا فشيئا وإن أعطاهم الله ذلك ، والا فكثير من الناس لا يصلون ، لا الى اليقين ولا الى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفاراً ولا منافقين ، بل عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء ان عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب والا صاروا مرتابين وانتقلوا الى نوع من النفاق ، وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد ، ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم عامة أهلها ، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق • فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام ودخلوا الجنة ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم ، وقال : وفي الجملة في الأخبار ممن نافق بعد إيمانه ما يطول ذكره هنا فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الإسلام الذي يثابون عليه ، ولم يكونوا من المؤمنين حقا الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان ولا من المنافقين الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا وأكثرهم اذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص إيمانهم كثيرا وينافق كثير منهم ، ومنهم من يظهر الردة اذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة واذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم

كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهرا لكن ايمانًا لا يثبت على المحنة . وقوله : « وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي كما يفعله الخوارج » يعني أن أهل السنة لا ينسبون أهــل القبلة للكفر ولا يحكمون عليهم به وأهل القبلة كل من يدعي الإسلام ويستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم لــه مالنا وعليه ماعلينا » فالكبائر دون الكفر والشرك لا يخرج مرتكبها من الملة كما قال المصنف بعد قليل : « ولا يسلبون الفاسق » الخ .

وقول المؤلف : « كما يفعله الخوارج » فالخوارج يقولون من أتى كبيرة فهو في الدنيا كافر وفي الآخرة اذا لم يتب فهو مخلد في النار ، وتقدم تعريف الكبيرة ص ٣٠٣ ، وقوله : « بل الأخوة الايمانية ثابتة » ووجــه الدلالة من الآية الأولى أنه سماه أخا مع وجود المعصية وهي القتل فهــذا دليل على أن العاصي لا يخرج من الايمان بالمعصية دون الشرك خلافا للمعتزلة والخوارج . قال الشيخ رحمه الله : وردت نصوص كثيرة في الوعد بالجنة والنجاة من النار على أعمال لا تكفي وحدها في ذلك بالاجماع ، ووردت أيضا نصوص في الوعيد على أعمال بالخلود في النار أو تحريم دخول الجنة وهي لا تخرج عن الإسلام بإجماع السلف فأصح الأقوال فيها وأحسنها ما فيــه تصديق للنصوص كلها وهي أنها من باب الموجبات والأسباب التي لا بد فيها من وجود الشروط وانتفاء الموانع وبهذا يزول الإشكال وينتفي التعارض بين النصوص الصحيحة ، وقال : ثم حيث قدر قيام الموجب للوعيد فإن الحكم يتخلف عنه المانع وموانع لحوق الوعيد متعددة منها التوبة ومنها الاستغفار ومنها الحسنات الماحية ومنها بلاء الدنيا ومصائبها ومنها شفاعة شفيع مطاع ومنها رحمة أرحم الراحمين فإذا عدمت هذه الأسباب كلها ، ولن تعدم الا في حق من تمرد ، فهناك يلحق الوعيد به اهـ .

الآيـة الثانيـة :

وهي قوله : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية • الطائفة الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله تعالى : (فلو لانفر من كل فرقة منهم طائفة) وقوله: (فأصلحوا بين أخويكم) أي فكفوهما عن القتـال بالدعاء الى كتاب الله والرضا به وبما فيه ، وقوله : (فإن بغت أي فان تعدت وجارت) تفيء ترجع الى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه : (فإن فاءت) أي رجعت الى الحق (وأقسطوا الخ) أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ان الله يحب العادلين في جميع أعمالهم وفي أهليهم وما ولوا ويجازيهم أحسن الجزاء •

المعنى : يقول تعالى آمرا عباده بالاصلاح وأنه اذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالاصلاح بينهم والتوسط ووجه الدلالة من الآية أن الله جل وعلا سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لايخرج من الايمان بالمعصية •

ففي الآيـة :

١ ـ الحث على الإصلاح بين الناس •
٢ ـ النهي عن الاقتتال •
٣ ـ إثبات الألوهية •
٤ ـ التثبت في خبر الفاسق •
٥ ـ الحث على العدل •
٦ ـ إثبات صفة المحبة •
٧ ـ النهي عن الظلم والحيف في الصلح وغيره •
٨ ـ على الإنسان أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه •
٩ ـ الرجوع الى كتاب الله •

١٠ـ النهي عن البغي والتطاول والفساد .

١١ ـ وجوب قتال الفئة الباغية .

١٢ ـ الرد على من منع من قتال البغاة من المؤمنين محتجاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « قتال المؤمن كفر » ولو كان قتال الباغي كفر لكان الله قد أمر بالكفر ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

١٣ ـ أن الأخوة الدينية أثبت من أخوة النسب لانقطاع أخوة النسب بمخالفة الدين .

١٤ ـ الحث على ما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل .

١٥ ـ النهي عن التفرق والاختلاف .

١٦ ـ الحث على التقوى .

١٧ ـ أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من حواجب الرحمة .

١٨ ـ أن ذلك سبب للرحمة وهو فعل ما أمر الله به مما تقدم .

١٩ ـ أن المعاصي دون الكفر والشرك لا يخرج بها الإنسان من الايمان.

٢٠ ـ إثبات البعث .

٢١ ـ إثبات الحشر والحساب والجنة والنار .

٢٢ ـ في الآية ناحية اقتصادية ترك القتال .

٢٣ ـ ناحية اجتماعية اصلاح بين الناس .

٢٤ ـ ان الصلح المأمور به بين المسلمين ، أما الكفار فمن صالح المسلمين تقاتلهم لأن فيه نقصهم ونقص أموالهم واضعاف معنوية من يبقى منهم .

٢٥ ـ ناحية صحية لأن في توقيف القتال السلامة مما ينشأ عنه لو استمر

٢٦ ـ التحذير من شب الحرب بين المؤمنين .

٢٧ ـ اثبات صفة الكلام لله .

٢٨ ـ الرد على من أنكر شيئا مما ذكر من الصفات أو أولها بتأويل باطل .

٢٩ ـ لطف الله بعباده المؤمنين حيث حثهم الى مافيه مصلحتهم .

٣٠ ـ المبادرة الى الصلح بين المسلمين امتثالاً لأمر الله جل وعلا .

٣١ ـ إثبات علم الله .

٣٢ ـ الرد على من أنكر صفة العلم .

٣٣ ـ أن في الآية الكريمة قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من التفكك والتفرق •

٣٤ ـ اقرار الحق والعدل والصلاح • ٣٥ ـ أن التكليف الموحد بالاصلاح الغير الطائفتين المتقاتلتين أن يقوموا بالاصلاح بين المتقاتلين •

٣٦ ـ ان الطائفتين اذا رفضتا الصلح يقاتلان لأنه يصدق على كل أنه باغي •

٣٧ ـ أنه اذا رفضا حكم الله في المسائل المتنازع فيها فعلى المؤمنين أن يقاتلوا •

٣٨ ـ أن القتال يستمر حتى يرجعوا الى أمر الله •

٣٩ ـ أن أمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه وأدى الى الخصام والقتال •

٤٠ ـ أنه اذا تم قبول البغاة لحكم الله قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة الله وطلبا لرضاه •

٤١ ـ ان الله لا يأمر الا بما فيه الصلاح •

٤٢ ـ أنه يجب على المصلح أن لا يراعي أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التي توجب العدول عن العدل •

٤٣ ـ الرد على الذين اذا فعلوا فاحشة قالوا أمرنا الله •

٤٤ ـ في الآية إخبار عن مالم يقع قبل وقوعه وقد وقع وهو التقاتل بين الطوائف المؤمنة •

٤٥ ـ أن الصلح قد يوجد ولكن لا يكون بالعدل ولهذا قال : فأصلحوا بينهما بالعـدل •

قال الشيخ : ومما ينبغي أن يعلم أن الأمة يقع فيها أمور بالتأويل في دمائها وأموالها وأعراضها كالقتال واللعن والتكفير وجماهير العلماء يقولون إن أهل العدل والبغاة اذا اقتتلوا بالتأويل لم يضمن هؤلاء ما أتلفوا لهؤلاء كما قال : الزهري وقعت الفتنة وأصحاب محمد متوافرون فأجمعوا أن كل

دم أو مال أصيب بتأويل القرآن فانه هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية في الدماء والأموال فكيف بالأعراض كاللعن والتكفير والتفسيق •

وقال : ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الفتن تكون مشتركة فيرد على القلوب من الواردات ما يمنع القلوب عن معرفة الحق وقصده ولهذا تكون بمنزلة الجاهلية والجاهلية ليس فيها معرفة الحق وقصده والإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح بمعرفة الحق وقصده •

وقال : ويترتب على هذا الأصل أن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى يوم القيامة قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقرونا بالظن ونوع من الهوى الخفي فيحصل بسبب ذلك مالا ينبغي اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتقين ويصير فتنة لطائفتين طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه بل في بره وكونه من أهل الجنة بل في إيمانه حتى تخرجه من الايمان وكل هذين الطرفين فاسد ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه فيعظم الحق ويرحم الخلق ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات فيحمد ويذم ويثاب ويعاقب ويحب من وجه ويبغض من وجه ، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم •

وقوله « ولا يسلبون الفاسق الملى الإيمان بالكلية » ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الايمان المطلق كما في قوله تعالى (فتحرير رقبة مؤمنة) وقد لا يدخل في اسم الايمان المطلق كما في قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع

الناس اليها فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » •

ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم •

الفسق لغة : الخروج عن الاستقامة والجور ، وبه سمي الفاسق فاسقاً ، وشرعا : الفاسق من أتى كبيرة أو أصر على صغيرة ، والفسق قسمان : فسق اعتقاد ، الثاني فسق عمل ، كالزنا والقتل واللواط ، وشرب الخمر ، والقذف ، والتولي يوم الزحف ، وأكل الربا • والملي : هو من على ملة الاسلام ولم يرتكب من المعاصي مايوجب كفره ، فأهل السنة والجماعة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة الاسلامية بالكلية وعلى أنه لا يخرج من الإيمان والاسلام ويدخل في الكفر ، ومتفقون على أنه لا يستحق الخلود مع الكافرين وأن من مات على التوحيد فلا بد له من دخوله الجنة خلافا للمعتزلة والخوارج ، قال بعضهم :

ويغفرُ دون كالشرك ربي لمَن يَشا ولا مؤمنٌ إلا له كافرٌ فِـدا
ولم يَبق في نارِ الجحيمِ مُوحِّدٌ ولو قَتَلَ النفسَ الحرام تَعَمُّدا

وقوله : « بل الفاسق الملي يدخل في اسـم الإيمان المطلق الخ •• » الإيمان المطلق هو الذي لا يتقيد بمعصية ولا فسوق ولا نقص ونحو ذلك ويقال له الإيمان الكامل وهو الإتيان بالواجبات وترك المحرمات وأما مطلق الايمان فهو ماكان معه ترك واجب أو فعل محرم فمن أعتق رقبة مؤمنة فيما يشترط فيه إيمان الرقبة أجزأت الرقبة الفاسقة لدخولها في اسم الايمان المطلق وإن لم تكن من أهل الإيمان الكامل فالفاسق يدخل في جملة أهل الايمان المطلق الخ » الفاسق لا يسلب عنه اسم الايمان على الاطلاق ولا يثبت له على الإطلاق ولكن يقال مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، أو يقال مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاصي •

قال الشيخ : الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فإذا ذهب بعض ذلك فنصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه ولهذا كان السلف يقولون إنه يتفاضل ويزيد وينقص والناس فيه متفاوتون بحسب قيامهم به وبلوازمه ومكملاته .

وقوله : (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية . انما أداة حصر تثبت الحكم للمذكور وتنفي ما عداه والألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ، وقوله : (وجلت) أي فزعت وخافت يقال وجل يوجل قال الشاعر :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل ... على أينا تغدو المنية أول

وقوله (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) معناه وإذا قرىء عليهم القرآن زادتهم آياته تصديقاً ويقيناً .

المعنى الإجمالي للآية :

يقول الله تعالى إنما المؤمنون حقاً المخلصون في إيمانهم الذين اجتمعت فيهم خمس خصال :

١ ـ الأولى أنهم اذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خافت ورهبت فأوجبت لهم الخشية من الله تعالى الانكفاف عن المحارم الآية بمعنى قوله (وبشر المخبتين) الآية .

٢ ـ إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وجه ذلك أنهم يلقون السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره لأن التدبر من أعمال القلوب فيزيد إيمانهم ويكمل يقينهم لنظاهر الأدلة ونعم المؤمن كلما كثرت الأدلة وتعاضدت الآيات والحجج والبراهين ازداد قوة في الإيمان ورسوخاً في العقيدة ونشاطاً في العمل فإبراهيم

صلوات الله وسلامه عليه كان مؤمناً بإحياء الله الموتى وقد دعى ربه أن يريه كيف يحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . فمقام الطمأنينة في الايمان يزيد على ما دونه من الايمان قوة وكمالا ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان .

قال الشيخ رحمه الله : من أسباب نور الإيمان وقوته سماع القرآن وتدبره ومعرفة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته والنظر في آيات الله والتفكير في ملكوت السموات والأرض والتأمل في أحوال نفس الإنسان ومثل رؤية أهل الإيمان والنظر في أحوالهم والضرورات التي يحدثها الله للعبد يضطره بها إلى ذكر الله تعالى والاستسلام له والالتجاء إليه وقد يكون هذا سبباً لشيء آخر من الايمان وهذا سبباً لشيء آخر وسبب الايمان وشعبه تارة من العبد وتارة من غيره مثل من يقيض الله له من يدعوه إلى الايمان ويأمره بالخير وينهاه عن الشر اهـ .

ففي الآية الكريمة :

أولاً : الحث على ذكر الله وأنه حياة للقلوب .

ثانياً : إثبات الألوهية .

ثالثاً : الحث على الإنصات عند قراءة القرآن وتدبر الآيات .

رابعاً : أن الايمان يتفاضل .

خامساً : أن من اتصف بهذه الصفات فهو من أهل الإيمان الكامل .

سادساً : الحث على الإكثار من ذكر الله وتنبيه الغافل عنه لعله أن يحدث له رغبة في الخير أو وجلا من العقوبة وانزجاراً عن المعاصي فيزداد إيمانه وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

سابعاً : في الآية دليل على البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار .

وكل الآيتين تجد الخصال الخمس المشار إليها .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » إلخ . هذا الحديث الجليل فيه دليل على أن المتصف بأحد الصفات المذكورة حين فعله لها قد انتفى عنه الإيمان وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك نعلم أن الايمان المنفى فى هذا الحديث وغيره إنما هو كمال الإيمان الواجب ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان » رواه الترمذي وأبو داود .

ففي الحديث :

رد على الجهمية ومن تبعهم ممن قال إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان ويزعمون أن الإيمان لا يتفاضل وهو إما أن يزول بالكلية أو يبقى كاملا وقولهم باطل .

وفي الحديث :

١ — النهي عن الزنا .

٢ — عظم جريمة الزنا حيث بدىء به أولا .

٣ — إن الزنا فيه مضار النهي الشارع عنه ، ومن مضاره :

(١) إنه جناية على الأعراض . (٢) والأخلاق .

(٣) والأنساب . (٤) والأموال.

(٥) وفيه نشر للأمراض الفاتكة .

(٦) وقتل للأولاد .

(٧) وغش للزوج إن كانت المزني بها ذات زوج .

(٨) وتلبيس على الزوج .

(٩) وإدخال أولاد عليه يرثونه أو يرثهم ويتكشفون محارمه وربما كانوا أولياء على بناته في عقد أنكحة أو محارم في حج وعمرة وغير ذلك .

ومما يؤخذ من الحديث :

٤ ــ النهي عن السرقة . ٥ ــ احترام مال المسلم .

٦ ــ أن السرقة فيها مضار عظيمة لنهي الشارع عنها ومن مضارها معصية الله ورسوله وأنها أكل للمال الحرام وأنها ربما أدت إلى ذهاب الأرواح إذا قاوم أهلها السراق وأنها مفسدة للأخلاق .

ومما يؤخذ من الحديث أيضاً :

٧ ــ الحث على التخلق بالأخلاق الفاضلة .

٨ ــ النهي عن شرب الخمر .

٩ ــ وفيه أنها مضرة لنهي الشارع عنها .

١٠ ــ وفيه دليل على أن المعاصي بعضها أعظم من بعض .

١١ ــ وفيه رأفة الشارع بالعباد حيث نهاهم عما فيه مضرة .

١٢ ــ وفيه النهي عن النهب لأموال الناس وكما أنه نقص في الدين فهو أيضا نقص في العقل ، ١٣ ــ في الحديث ناحية اقتصادية ترك الزنا .

وقوله : « ونقول هو مؤمن ناقص الايمان .. الخ » ، وذلك لما تقدم من أن الله سبحانه أطلق عليه اسم الإيمان في قوله (فمن عفى له من أخيه شيء) وقوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآيتين ، وقال تعالى (يا أيها

الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) الآية كان سبب نزولها قصة حاطب بن أبي بلتعة وقال صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وقال « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » ولأنه صلى الله عليه وسلم عامل العصاة معاملة المسلمين ولم يأمر بقتلهم ولا أوجب ذلك إلا مافي الحديث « لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله الا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

(قوله : ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به في قوله تعالى (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) .

وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ») .

من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الحقد والبغض والاحتقار والعداوة والحسد والكراهة وسلامة ألسنتهم من الطعن والسب واللعن والشتم والوقيعة فيهم ويعتقدون فضلهم ويعرفون سابقتهم ومحاسنهم ويترحمون عليهم ويستغفرون لهم ولا يقولون إلا ما حكاه الله عنهم في الآية .

المعنى الإجمالي للآية : بعد أن أثنى الله عز وجل على المهاجرين والأنصار ذكر ما يقوله من جاء بعدهم من المتبعين لهم في آثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة بأنهم يسألون ربهم المغفرة لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم ويدعونه أنه لا يجعل في قلوبهم حقدا وحسدا للمؤمنين ، والحقد والحسد هما رأس

كل خطيئة وينبوع كل معصيـــة ، فهما يوجبان سفك الدماء والبغي والظلـــم والسرقة ونحو هذه الآية (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذيـــن اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقوله (ربنا إنك رؤوف رحيم) ختموا هذه الآية بعـــد دعائهم باسمين كريمين دالين على كمـــال رحمتـــه وشدة رأفتـــه تعالى وإحسانه بهم الذيمن جملته ، بل من أجله توفيقهم للقيام بحقوقـــه وحقوق عباده .

يفهم من الآية :

١ ــ إثبات الربوبية .

٢ ــ الحث على الدعاء للصحابة

٣ ــ الحث على الدعاء لسائر المؤمنين .

٤ ــ أن يحب لإخوانه المؤمنين ما يحب لنفسه .

٥ ــ من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهـــم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين .

٦ ــ المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح ونحو ذلك .

٧ ــ أن من صفاتهم الإقرار بالذنوب والاستغفار منها .

٨ ــ الاجتهاد في إزالة الحقد والغل لإخوانه المسلمين .

٩ ــ دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم .

١٠ ــ إثبات صفة الرحمة .

١١ ــ إثبات صفة الرأفة

١٢ ــ الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق .

١٣ ــ الرد على الرافضة والخوارج.

١٤ ــ البداءة بالنفس في الدعاء

١٥ ــ التحذير من بغض المؤمن .

١٦ ــ إثبات صفة الكلام لله

١٧ ــ إثبات علم الله بما لم يكن اذا كان كيف يكون .

١٨ ــ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار .

١٩ ــ أن في الآية تتجلى الآصرة القوية الوثيقـــة التي تربـــط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها في تضامن وتكافل وتوادد وتعاطف .

٢٠ ـ تحريك المشاعر خلال القرون الطويلة فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة كما يذكر أخاه الحي أو أشد في إعزاز وكرامة وحب .

وقوله « وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : لا تسبوا أصحابي الخ » . مناسبة قوله صلى الله عليه وسلم ذلك ، هو ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . قال : كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف ، شيء فسبه خالد بن الوليد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابي » الحديث . السب : الشتم . الصحابي : من لقيه صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على ذلك وآخر من مات من الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مائة وقيل مائة وعشر ، وأما عدد الصحابة فقيل مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا (١٢٤٫٠٠٠) . المد : مكيال معروف . نصيفه : أي نصفه . أُحُد : جبل معروف بالمدينة .

المعنى الجملي للحديث : يذكر أبو سعيد رضي الله عنه أنه كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء ، وأن خالدا سب عبد الرحمن فنهى صلى الله عليه وسلم عن سب أصحابه وبين أن العمل القليل من أحدهم يفضل العمل الكثير من الذي دونه في الفضل لأن عبد الرحمن ونظراءه من السابقين الأولين الذين صحبوه في وقت كان خالد وأمثاله يعادونه .

وابن عوف رضي الله عن الجميع ممن أنفقوا أموالهم قبل الفتح وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى فقد انفردوا من الصحابة بما لم يشركهم فيه خالد ونظراؤه ممن أسلم بعد الفتح الذي هو صلح الحديبية وقاتل ، فنهى أن يسب أولئك الذين صحبوه قبله ومن لم يصحبه قط نسبته إلى من صحبه كنسبة خالد إلى السابقين وأبعد وهو خطاب لكل أحد أن يسب لمن انفرد عنه بصحبته وقد وردت آثار في فضل المتمسكين بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فساد الزمان وأن المحيي لسنته له أجر خمسين من الصحابة

كما في سنن أبي داود ، وله شاهد في صحيح مسلم : « ان العبـادة وقت الهرج والفتن كهجرة إلى ، ومن أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الجنـة » رواه الترمذي وروى أيضاً « إنما مثل أمتي مثـل الغيث لا يـدري أوله خـير أم آخره » ، والآثار في هذا المعنى كثيرة وقـد أشكل تفسيرها على كثير من أهل العلم لاتفاق الأئمـة على أن الصحابة أفضـل الأمـة علمـاً وعملاً وتصديقا وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلـم وسبقـا إلى كل خصلة جميلة وشهودهم للمشاهد مع رسول الله وبذل أموالهم وأنفسهم في سبيـل الله ووجـه الإشكـال أنه قد يخطر ببال من سمعها أنها تـدل على تفضيل العامل في آخـر الزمـان على الصحابـة . قال الشيخ رحمه الله في معرض ذكـر السلف والمتأخرين وقد يكون لهـم من الحسنات ما يكون للعامل منهـم أجر خمسين رجـلا يعملها في ذلك الزمان لأنهم كانوا يجدون من يعينهم عـلى ذهلك وهؤلاء المتأخـرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك لكن تضعيف الأجر لهم في أمورهـم لم يضعـف للصحابة لا يلزم أن يكـون أفضل من الصحابـة ولا يكـون فاضلهم كفاضل الصحابة فإن الذي سبق إليه الصحابـة من الإيمان والجهـاد ومعـاداة أهـل الأرض في موالاة الرسول وتصديقـه وطاعته فيما يخبر به ويجبه قبـل أن تنتشر دعوتـه وتظهر كلمته وتكثر أعوانـه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوتـه بـل ومع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنـافقين وإنفاق المؤمنين أموالهـم في سبيل الله إبتغـاء وجهه في مثـل تلك الحال أمر ما بقـي يحصل مثله لأحد كما فـي الصحيحين عنه صلى الله عليـه وسلم : لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيـده لو أنفق أحدكم مثـل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، وقـد استفاضت النصوص الصحيحة عنـه أنـه قال : « خير القرون قرني – الذي بعث فيهـم – ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .. اهـ ، وقال ابن القيم رحمه الله في النونية :

في البـاب آثار عظيم شأنهـا ... أعيت على العلمـاء في الأزمـان
اذ أجمـع العلماء أن صحابـة المختـار خـير طوائف الإنسـان
ذا بالضرورة ليس فيـه الخلـف بين اثنين مـا حكيت به قـولان

فلذاك ذي الآثـــار أعضلُ أمرُها وبَغَـوا لها التفســـيرَ بالإحسان
فاسمع إذاً تأويلهـــا وافهمـــه لا تَعَجّلْ برد منك أو نكران
إن البـــدار بـــرد شيء لم تحط علمـــاً بـــه سببٌ إلى الحرمان
الفضـــل منـــه مطلق ومقيد وهما لأهل الفضل مرتبتـــان
والفضل ذو التقييـــد ليس بموجب فضـــلاً على الإطـــلاق من إنسان
لا يوجب التقييـــد أن يقضى لـه بالاستواء فكيـــف بالرجحان
اذ كان ذو الإطلاق حازمن الفضا ئل فوق ذي التقييـــد بالإحسان
فإذ فرضا واحدا قد حاز نـو عاً لم يجزه فاضـــل الإنسان
لم يوجب التخصيص مـــن فضل عليـــه ولا مساواة ولا نقصـــان
مـــا خلق آدم باليدين بموجـــب فضلا على المبعوث بالقـــرآن
وكذا خصائص من أتى من بعـده مـــن كل رسل الله بالبرهان
فمحمد أعلاهمو فوقـــاً ومـــا حكمت لهـــم بمزية الرجحان
فالحائـــز الخمسين أجـــراً لم يحز هـــا في جميع شرائع الإيمان
هل حازهـــا في بدر أو أحد أو الفتـــح المبين وبيعـــة الرضـــوان
بل حازهـــا إذ كان قد عدم المعـــين وهم فقد كانوا أولى أعوان
والرب ليس يضيع ما يتحمل المتحملون لأجله من شان
فتحمل العبـــد الوحيد رضاه مع فيض العدو وقلـــة الأعوان
ممـــا يدل على يقين صادق ومحبة وحقيقـــة العرفـــان
يكفيه ذلا واغترابآ قلـــة الأ نصار بين عساكر الشيطـــان
في كل يـــوم فرقة تغـــزوه إن ترجع يوافيه الفريق الثـــاني

(وقوله : ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة ، والإجماع مـــن فضائلهـــم ومراتبهم ، ويفضلون من أنفـــق من قبل الفتح ، وهـــو صلح الحديبية وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ، ويؤمنـــون بـــأن الله اطلع عـــلى أهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، فقـــال اعملوا ما شئتم فقـــد

غفرت لكم ، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بل وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة) .

وقوله : « ويتبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع الخ ، الفضائل جمع فضيلة وهي الخصلة الجميلة ، يحصل لصاحبها بسببها علو منزلة ، والمراتب جمع مرتبة وهي المنزلة ، والمكان الحديبية قرية متوسطة ليست بالكبيرة وسميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها ، وبين الحديبية ومكة مرحلة ؟ وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم ، وهو أبعد الحل من البيت ، وبدر قرية مشهورة تقع على نحو أربع مراحل من المدينة ، وسميت الواقعة المشهورة باسم موضعها الذي وقعت فيه ، وهي من أشهر الوقائع التي أعز الله بها الإسلام ، وقمع الله بها المشركين ، وكانت الواقعة نهاراً في يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة قتل من الكفار سبعون وأسر سبعون ، واستشهد فيها من المسلمين أربعة عشر ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، والشجرة تقع بالحديبية ، ولما كان في خلافة عمر ، أمر رضي الله عنه بقطعها وإخفاء مكانها خشية الافتتان بها ، لما بلغه أن أناساً يذهبون إليها فيصلون تحتها ويتبركون بها .
وقال : كان رحمة من الله يعني إخفاءها وسميت البيعة التي تمت تحتها ببيعة الرضوان أخذا من الآية الكريمة قوله تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين) الآية .

قوله : « ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية ، وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل » . المعنى : أن أهل السنة والجماعة يفضلون السابقين الأولين الذين أسلموا قبل الفتح ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقل المعين ، على من أنفق من بعد الفتح وقاتل ،

لقوله تعالى : (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ، وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى هذه الفضيلة بقوله في الحديث المتقدم : « لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، ولما كان التفضيل قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول ، قال : وكلا وعد الله الحسنى ، أي وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده وعده الله الجنة ، وإن كان بينهم تفاوت في الدرجات كما قال في الآية الأخرى : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم الآية) .

قوله : « ويقدمون المهاجرين على الأنصار » والمهاجرون هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، والأنصار المراد بهم الأوس والخزرج، ووجه تقديمهم المهاجرين لأنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة ، وقد جاء تقديمهم في القرآن بقوله تعالى (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآيتان ، وقال : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) وكل العشرة المشهود لهم بالجنة من المهاجرين وهذا تفضيل للجملة على الجملة ، لا لكل فرد من هؤلاء على كل فرد من الآخرين .

قوله : « ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر .. الخ » أهل بدر هم الذين حضروا الغزوة المشهورة في صف المسلمين ، وقاتلوا المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وعددهم كما قال المؤلف : ثلاثمائة وبضعة عشر ، والذي قال لهم الله هو ما ذكره المؤلف .

وقوله : « وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » الذين بايعوا تحت الشجرة هم الصحابة الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت في سنة ست من الهجرة ، فأهل السنة يصدقون ويؤمنون بذلك كله ، قال الله تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب

النبي صلى الله عليه وسلم الذين بايعوه أحد » وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

قال الشيخ رحمه الله : والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له وطاعة رسوله ، ويدور على ذلك ويتبعه أين وجده ، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة ، فلا ينتصر لشخص انتصارا مطلقاً عاماً إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا لطائفة انتصارا مطلقا عاما إلا للصحابة رضي الله عنهم فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط .

وقال : وفي الجملة فكلما ذكر في القرآن من خطاب المؤمنين والمتقين والمحسنين ومدحهم والثناء عليهم فالصحابة رضي الله عنهم أول من دخل في ذلك من هذه الأمة وأفضل من دخل في ذلك من هذه الأمة كما استفاض عنه صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال « خير القرون قرني الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم » وماتواتر في الكتاب والسنة من فضائلهم ومناقبهم والشهادة لهم بعلو الدرجات وكمال الصفات أمر معلوم من الدين بالضرورة فلا يناقضه شيء مما قاله الضالون المفترون من الرافضة وغيرهم . وقال : وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولله الحمد من أصدق الناس حديثاً عنه لا يعرف منهم من تعمد عليه كذباً مع أنه يقع من أحدهم من الهنات مايقع ولهم ذنوب وليسوا معصومين ، ومع هذا فقد جرب أصحاب النقد والامتحان أحاديثهم واعتبروها بما تعتبر به الأحاديث فلم يوجد عن أحد منهم تعمد كذبه بخلاف من بعدهم فإنهم لا يساويهم ولا يقاربهم أحد رضي الله عنهم ولهذا كان الصحابة كلهم ثقات باتفاق أهل العلم بالحديث والفقه حفظا من الله لهذا

الدين ولم يتعمد أحد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هتك الله ستره وكشف أمره ، وقد كان التابعون بالمدينة ومكة والشام والبصرة لا يكاد يعرف فيهم كذاب لكن الغلط لم يسلم منه بشر .

وقوله : « ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة » كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن غيره ، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ويثلثون بعثمان ، ويربعون بعلي رضي الله عنهم . كما دلت عليه الآثار ، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة ، مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر ، أيهما أفضل ، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي ، وقدم قوم علياً ، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي ، وإن كانت هذه المسألة — مسألة عثمان وعلي — ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة. وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء ، فهو أضل من حمار أهله) .

وقوله : « ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الخ » أهل السنة والجماعة يشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم كالعشرة وهم :

١ — أبو بكر	٢ — وعمر	٣ وعثمان	٤ — وعلي
٥ — وعبد الرحمن بن عوف		٦ — والزبير بن العوام	
٧ — وسعد بن أبي وقاص		٨ — وسعيد بن زيد	
٩ — أبو عبيدة بن الجراح			

١٠ ــ وطلحة بن عبيد الله ، وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهم بالجنة .

١١ ــ والحسن ١٢ ــ والحسين لما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »

١٣ ــ وثابت بن قيس بن شماس لقوله صلى الله عليه وسلم إنه من أهل الجنة ١٤ ــ وعبد الله بن سلام لما روى البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام .

١٥ ــ والرجل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « يطلع الآن رجل من أهل الجنة » ففي حديث أخرجه الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أيام ثلاثة : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع فيها رجل من الأنصار فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفاً حاله فلم ير له كثير عمل فأخبره الخبر فقال ماهو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق .

١٦ ــ وعكاشة بن محصن لما ذكر السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال ادع الله أن يجعلني منهم . فقال أنت منهم الحديث .

١٧ ــ والمرأة التي قالت إني أصرع وإني أنكشف فادع الله تعالى لي : فقال : « إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك » فقالت : أصبر ، ثم قالت : « إني أنكشف فادع الله أن لا أنكشف »، فدعا لها .

١٨ ــ والرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة ، فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى

قتل والحديث في الصحيحين ١٩ — وبلال لما في حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : « يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دق نعليك بين يدي في الجنة » الحديث

٢٠ — والأعرابي الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة فقال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت .. » الخ

فقال الأعرابي : والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا ، فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » .

٢١ — وحارثة ، كما في حديث أنس — رضي الله عنه — أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ، ألا تحدثني عن حارثة — وكان قتل يوم بدر — فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء فقال : « يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » .

٢٢ — وجعفر ، لما روى الترمذي عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة » .

٢٣ — وابن النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم ، لما روى البخاري عن البراء قال لما توفى إبراهيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن له مرضعاً في الجنة » .

٢٤ — وفاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم — رضي الله عنها لما في الصحيحين من أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني

سيدة نســاء أهل الجنة ؟ » وفي حديث حذيفة في آخره : « إن هذا ملك لـم ينزل الأرض قط قبــل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم علي ويبشرني بأن فاطمة سيدة أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

٢٥ ـ وخديجة بنت خويلــد زوج النبي صلى الله عليــه وسلــم وبقيــة زوجاته اللاتي خيرهــن الله بين الحيــاة الدنيا وزينتها وبين الله ورســوله والدار الآخرة وإليك عدد أسمائهن ، قال بعضهم :

توفي رســول الله عــن تسع نسوة إليهــن تعزى المكرمــات وتنسب
فعــائشة ٢٦ ميمــونة ٢٧ فصفية ٢٨ وحفصة ٢٩ تتلوهن هند ٣٠ وزينب ٣١
جويرية ٣٢ مــع رملة ٣٣ ثم سودة ٣٤ ثــلاث وست نظمهن مهــذب

٣٥ وعمار بن ياسر وأمه وأبيه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بهم وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة فيقول صبراً آل ياسر موعدكم الجنة .

وقال شيخ الإسلام : ولا يشهــد لأحــد بالجنة الا من شهــد له الرسول صلى الله عليه وسلم أو اتفقت الأمة على الثناء عليه .

وقال في كتاب النبوات : وقيــل لا يشهد بذلك لغــير النبي وهو قول أبي حنيفة والأوزاعي وعلي بن المديني وغيرهــم ، وقيل : يشهد بــه لمن جاء به نص إن كان خبرا صحيحاً كمن شهــد لــه النبي بالجنة فقط وهذا قــــول كثير من أصحابنــا وغيرهم وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمــة أنه رجــل صالح كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهــم وكان أبو ثور يشهـــد لأحمد بن حنبل بالجنة وقــد جاء في الحديث الذي في المسند : « يوشــك أن تعلموا أهــل الجنة من أهــل النار قالوا بماذا يارسول الله قال بالثناء الحســن والثنــاء السيىء » . وفي الصحيحين أن النبي صــلى الله عليــه وسلم مــر عليه بجنــازة فأثنــوا عليها خيرا فقال : وجبت وجبت ، ومــر عليــه بجنازه فأثنوا عليها شرا فقال . وجبت وجبت ، فقيــل يــا رسول الله ما قولك وجبت وجبت ؟ قال : « هذه الجنــازة أثنيتم عليها خيرا فقلت وجبــت لهــا الجنــة وهذه الجنازة أثنيتم

عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله في الارض » وفي حديث آخر إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال « تلك عاجل بشرى المؤمن » .

قوله : « ويقرون بما تواتر به النقل الخ » احتوى هذا البحث على مسألتين : الأولى مسألة التفضيل ، الثانية مسألة الخلافة .

فمسألة التفضيل : أهل السنة يقرون بذلك ويرون أن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ، ثم علي المرتضى رضي الله عنهم . روى الامام أحمد والبخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » قال الحافظ الذهبي هذا متواتر وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا الأنبياء والمرسلين ، وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر وعمر » .

وذكر الشيخ تقي الدين رحمه الله اتفاق العلماء على أن أعلم الصحابة أبو بكر ثم عمر ، وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا نقول والنبي صلى الله عليه وسلم حي أبو بكر ثم عمر ثم عثمان فيبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينكره وأجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة .

وقوله « مع أن بعض أهل السنة الخ .. » إشارة إلى ما روي عن أبي حنيفة وهو تقديم علي على عثمان رضي الله عنهما ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان وكذلك روي عن سفيان الثوري تقديم علي على عثمان ويقال إنه رجع لما اجتمع به أبو أيوب السختياني وقال : من قدم علياً فقد أزرى

بالمهاجرين والأنصار ، وقيل : لا يفضل أحدهما على الآخر قاله مالك في المدونة وتبعه جماعة منهم يحيى القطان ومن المتأخرين ابن حزم ، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي .

وقوله : « وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلي الخ » يريد مسألة التفضيل بين عثمان وعلي أنها ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لوجود الخلاف فيها .

والمسألة الثانية مسألة الخلافة : وهي ما أشار اليه بقوله لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة فأهل السنة يؤمنون بأن الأحق بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه لفضله وسابقته وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة على جميع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم على تقديمه ومبايعته ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة ثم من بعده عمر رضي الله عنه لفضله وعهد أبي بكر إليه ثم عثمان رضي الله عنه لتقديم أهل الشورى له ثم علي رضي الله عنه لفضله وإجماع أهل عصره عليه وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ » وقال « الخلافة بعدي ثلاثون سنة » فكان آخرها خلافة علي رضي الله عنه .

قال الشيخ رحمه الله : الخلفاء الأربعة الراشدون لهم في تبليغ كليات الدين ونشر أصوله وأخذ الناس عنهم ذلك ماليس لغيرهم وإن كان يروى عن صغار الصحابة من الأحاديث المفردة أكثر مما يروى عن بعض الخلفاء فلهم عموم التبليغ وقوته الذي لم يشاركهم فيه غيرهم ثم لما قاموا بتبليغ ذلك شاركهم فيه غيرهم فصار متواترا كجمع أبي بكر وعمر القرآن في المصحف ثم جمع عثمان له في المصاحف التي أرسلها إلى الأمصار فكان الاهتمام بجمع

القرآن وتبليغه أهم مما سواه وكذلك تبليغ شرائع الإسلام إلى أهل الأمصار ومقاتلتهم على ذلك ، واستنابتهم في ذلك الأمراء والعلماء وتصديقهم لهم فيما بلغوه عن الرسول فبلغ من أقاموه من أهل العلم حتى صار الدين منقولا نقلاً عاماً متواتراً ظاهرا معلوماً قامت به الحجة ووضحت به المحجة وتبين به أن هؤلاء خلفاءه المهديون الراشدون الذين خلفوه في أمته علماً وعملا وهو صلى الله عليه وسلم كما قال الله في حقه : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) الآية ، وكذلك خلفاؤه الراشدون الذين قال فيهم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » فإنهم خلفوه في ذلك فانتفى عنهم بالهدى الضلال وبالرشد الغي وهذا هو الكمال في العلم والعمل اهـ .

وقوله : « ومن طعن في خلافة واحد منهم فهو أضل من حمار أهله » ، لمخالفته النصوص الصريحة والإجماع ولم يخالف في ذلك إلا ضال زائغ ، ويلي الخلفاء في الأفضلية باقي العشرة المبشرين بالجنة المتقدم ذكرهم فأهل بدر ثم أهل الشجرة وقيل أهل أحد المقدمة في الزمن والأفضلية ، والقول الأول أولى لورود النصوص من الكتاب والسنة ، وروى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال كنا في الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم خير أهل الأرض » ، وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال لأهل الحديبية « لايدرك بعدكم صاعكم ولا مدكم » وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر » .

(وقوله : « ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خم « أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » وقال

أيضا للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني لى لى « والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي » . وقال : « إن الله اصطفى بني إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات ألمؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة العالية والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ») .

وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين حرمت عليهم الصدقة ، وهم آل علي وآل جعفر وآل العباس وبنو الحارث بن عبد المطلب وكذلك أزواجه من أهل بيته كما دل عليه سياق آية الأحزاب وأفضلهم علي رضي الله عنه وفاطمة والحسن والحسين الذين أدار عليهم الكساء وخصهم بالدعاء .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي حدثنا شداد ابن خمار قال دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا علياً ، فلما قاموا قال : ألا أخبركم بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : بلى ، قال : أتيت فاطمة — رضي الله عنها — أسألها عن علي — رضي الله عنه — فقالت : توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست أنتظره حتى جاء — آخذاً كل واحد منهما بيده ، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة — رضي الله عنهما — وأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً — رضي الله عنهما — كل واحد منهما على فخذه ولف عليهما ثوبه ، أو قال كساءه ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، وأهل بيتي أحق » .

فأهـــل السنة يحبـــون أهـــل بيت رسول الله صـــلى الله عليـــــه وسلـــم ويحترمونهـــم ويكرمونهـــم لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليـــه وسلم لإسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم في نصرة دين الله وغير ذلك مـــن فضائلهـــم فاحترامهم ومحبتهـــم والبر بهـــم ، من توقيره صلى الله عليـــه وسلم واحترامه ، وامتثالا لمـــا جاء في الكتاب والسنة من الحث على ذلك قـــال تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) .

قوله : « ويحفظون فيهـــم وصيـــة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خم .. الخ » الحفظ الصيانـــة ، غدير خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير والغيضة الشجر الملتف ووصيتـــه صلى الله عليه وسلـــم في أهـــل بيته هي قوله صلى الله عليه وسلم : « أذكركم الله في أهل بيتي .. الخ » .

وقوله : « وقـــال أيضاً للعباس الخ .. » اشتكى من الشكوى أن تخـــــبر عن مكـــروه أصابك ، يجفو ، الجفـــاء ترك البر والصلة ، لا يؤمنـــون : هـــذا نفي لكمال الإيمان الواجب ، ففيـــه دليل عـــلى عظيم حقهم ووجـــوب احترامهم والتحذير من بغضهم .

وقال الشيخ رحمـــه الله ، ولا ريب أن لآل النبي صـــلى الله عليـــه وسلم حقاً على الأمـــة لا يشركهم فيه غيرهم ويستحقون من زيادة المحبـــة والمـــوالاة مـــالا يستحقه سائر بطون قريش مـــن القبائل كمـــا أن جنس العرب يستحق من المحبة والمـــوالاة مالا يستحقه سائر أجنـــاس بني آدم وتفضيـــل الجملـــة على الجملة لا يقتضي تفضيل كـــل فـــرد على فرد كما أن تفضيل القـــرن الأول على الثاني والثاني على الثالث لا يقتضي ذلك بـــل في القـــرن الثالث خير من كـــثير من القرن الثاني .

وقرابته صلى الله عليه وسلم من ينسب إلى جـــده الأقرب وهو عبـــد المطلب ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه ، وروى البخـــاري عـــن ابن عمر

رضي الله عنهما عـن أبي بكر الصديق رضي الله عنـه أنه قال : ارقبوا محمداً في أهل بيته ، وفي الصحيح أن الصديـق قال لعلي رضي الله عنه : « والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى أن أصلهم مـن قرابتي » ، وقـال عمر للعباس : « والله لإسلامك يـوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطـاب لو أسلم ، لأن إسلامك كـان أحب إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم من إسلام الخطاب » .

وقوله : « إن الله أصطفى بني إسماعيل الخ » المعنى أنـه صلى الله عليـه وسلم خيار من خيـار من خيار وقـد جمع الله له أنواع الشرف مـن كل وجه وهو أفضل الخلق على الاطلاق روى مسلم في صحيحه أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيـد ولد آدم ولا فخر » ، وقال ابن عباس : إن الله فضل محمدا على أهل السماء وعلى الأنبياء .

وقوله : « ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليـه وسلم الـخ » المعنى أن أهل السنة يحبون أزواج رسـول الله صلى الله عليه وسلم ويَوَدّونَهـن ويَتَرضون عنهـن ، ويؤمنون بأنهـن أزواجه في الآخـرة ، وأنهن أمهات المؤمنين في الاحترام والتعظيم ومحبتهن وإكرامهـن ، ويتبرؤون ممـن آذاهـن أو سبهن وقـد أجمع المسلمون على تحريم نكاحهن بعـد موته على غيره قال الله تعـالى : (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما) .

وقال الشيخ رحمه الله : النبي أولى بالمؤمنين مـن أنفسهـم فهـو الأب الروحاني والوالد الأب الجثماني وهـو صلى الله عليه وسلم سبـب السعـادة الأبدية للمـؤمن في الدنيا والآخرة والأب سبب لوجـوده في الدنيا ، وأزواج النبي صلى الله عليـه وسلم أمهـات المؤمنين في الحرميـة لا في المحرميـة ولهن من الاحترام مـاليس للوالدة ومعلـوم أن الإنسان يجب أن يطيـع معلمـه الذي يدعـوه إلى الخير ويأمـره بما أمر الله بـه ولا يجوز أن يطيع أبـاه في مخالفة هـذا الداعي لأنه يدلـه على ما ينفعه ويقربه إلى ربـه ويحصل له باتباعـه السعادة

الأبدية فظهر فضل الأب الروحاني على الجثماني فهذا أبوه في الدين وهذا أبوه في الطين وأين هذا من هذا ا هـ .

ولا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم توفي عن تسع نسوة وكان يقسم منهن لثمان :

١ — عائشة . ٢ — وحفصة ٣ — وزينب بنت جحش
٤ — وأم سلمة ٥ — وأم حبيبة ٦ — وميمونة
٧ — وجويرية . ٨ — وصفية والتاسعة سودة .

وأفضل نسائه صلى الله عليه وسلم خديجة وعائشة ، وخديجة هي ابنة خويلد الأسدي تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم، وهي التي وازرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها وأرسل الله تعالى إليها السلام مع جبريل — وهذه خاصة لا تعرف لامرأة سواها — وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين . رحمة الله عليها .

وعائشة هي أم عبد الله الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سموات حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضها عليه الملك قبل نكاحها في سرقة من حرير : وقال هذه زوجتك ، تزوج بها في شوال وعمرها ست سنين ، وبنى بها في شوال في السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين ولم يتزوج بكرا غيرها وما نزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها وكانت أحب الخلق إليه ونزل عذرها من السماء واتفقت الأمة على كفر قاذفها ، وهي أفقه نسائه وأعلمهن بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق : وكان الأكابر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يرجعون إلى قولها ويستفتونها ، وعن أبي هريرة قال أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ

عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب رواه البخاري ومسلم ، وعن عائشة قالت : « ما غرت على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن » رواه البخاري ومسلم » وفي رواية ، فربما قلت له كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول : إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد » . وفي الصحيحين عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير نسائها خديجة وخير نسائها مريم » وزاد مسلم وأشار وكيع إلى السماء والأرض . وأخرج النسائي بإسناد صحيح والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعا : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية » وفي الصحيحين عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام قالت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى مالا أرى، تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وقد اختلف العلماء في خديجة وعائشة أيهما أفضل ؟ قال السبكي : الذي ندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة .

والخلاف شهير ولكن الحق أحق أن يتبع .

وقال ابن تيمية : جهات التفضيل بين خديجة وعائشة متقاربة وكأنه رأى التوقف .

وقال ابن القيم : إن أريد بالتفضيل كثرة الثواب عند الله فذلك أمر لا يطلع عليه إلا الله فإن عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح وإن أريد

شرف الأصل ففاطمة أيضا لا محالــة ، وهي فضيلة لا يشركها فيها غير أخواتها ، وإن أريد شرف السيادة فقد ثبت النص لفاطمة وحدها . قال السفاريني :

وعائشة في العلم مع خديجـــــة في السبق فافهم نكتــة النتيجــة

وقـــوله : ويتبرؤون مـــن طريقـــة الروافـــض الذين يبغضـــون الصحابة ويسبونهم ومـــن طريقـــة النواصب الذين يؤذون أهـــل البيت بقـــول أو عمـــل ويمسكون عما شجر بين الصحابة .

ويقولون : إن هذه الآثار المرويـــة في مساويهم منهـــا ما هـــو كذب ،ومنها ما قد زيـــد فيه ونقص وغير عن وجهـــه والصحيح منـــه هم فيه معذورون : إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون .

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عـــن كبائر الإثم ، وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملـــة . ولهـــم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصـــدر منهم إن صدر . حتى إنه يغفر لهم مـــــن السيئآت مالا يغفـــر لمن بعدهم ، وقـــد ثبت بقول رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم : « إنهم خير القرون » وأن « المد من أحدهم اذا تصـــدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم » ثم إذا كان قد صدر مـــن أحدهم ذنب فيكون قد تاب منـــه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفـــر لـــه بفضل سابقته ، أو بشفاعـــة محمد صلى الله عليـــه وسلم الذي هـــم أحق النـــاس بشفاعته ، أو ابتلى ببـــــلاء في الدنيا كفر بـــه عنه ، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمـــور التي كانوا فيهـــا مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطأوا فلهم أجـــر واحـــد والخطأ مغفور لهم ؟ .

ثم القدر الذي ينكـــر من فعل بعضهـــم قليل نزر مغمـــور في جنـــب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسولـــه والجهاد في سبيله والهجرة والنـــصرة والعلم النافـــع والعمل الصالح . ومن نظـــر في سيرة القـــوم بعلم وبصيرة ومامن

الله عليهم بـه من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله) .

تقدم الكلام على الرافضة وبيان طريقتهم في ص ٣٠٢ فأهل السنة يتبرؤون من طريقة الروافض وطريقة النواصب وهم الذين نصبوا العداوة لأهل البيت وتبرؤوا منهم وكفروهم وفسقوهم ، فأهل السنة كما تقدم بيان طريقتهم وأنهم يتولون جميع المؤمنين ، ويعرفون قدر الصحابةوفضلهم ويرعون حقوقهم وحقوق أهل البيت ، ولا يرضون بما فعله المختاربن أبي‌عبيد وغيره من الكاذبين ولا ما فعله الحجاج وغيره من الظالمين .

قوله : « ويمسكون عما شجر بين الصحابة » أهل السنة طريقتهم الإمساك عما شجر بين الصحابة لما في ذلك من توليد العداوة والبغضاء والحقد على أحد الطرفين وذلك من أعظم الذنوب والواجب حب الجميع والترضي عنهم والترحم عليهم وحفظ فضائلهم والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر مناقبهم لقوله تعالى (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان (، وما روي من الآثار في مساويهم كما قال المؤلف رحمه الله :

١ ـ منها ما هو كذب خالص .

٢ ـ وما دخلته الزيادة أو النقص وغير عن وجهه .

٣ ـ والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » وأهل السنة لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة.

قال الشيخ رحمه الله : ولم يقل أحد يعتد به أن الصحابة رضي الله عنهم أو غيرهم من الأولياء أو القرابة معصومون من كبائر الذنوب أو من الصغائر بل يجوز عليهم وقوع الذنب والله يغفر لهم ، وقصة حاطب في الصحيح فقد غفر له الذنب العظيم بشهوده بدرا .

قوله : « ولهم من السوابق الخ » أي إلى الايمان والطاعات من الجهاد والإنفاق في سبيل الله ونحو ذلك ما يوجب مغفرة ما صدر منهم إن صدر منهم من الحسنات والأسباب التي يمحو الله بها السيئات أعظم نصيب : حتى إنه يغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم . قال ابن عدوان :

ونمسك عما كان بين صحابة وما صح معذورون فيه فقل قد
فإما لهم أجران أو أجر يافتى فلا تبغ قولا غير ذلك تعتد
وليسوا بمعصومين فاسمع مقالنا ولكن لهم ما يوجب العفو فاهتدى
فقد صح عن خير الخلائق أنهم لخير القرون افهم بغير تردد

وقوله : « وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم خير القرون » كما في الصحيحين عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا الحديث ، والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ويقال ان ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة واحدة أو مذهب أو عمل. ويطلق القرن على مدة من الزمان واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين ووقع في حديث عبد الله بن بشر ما يدل على أن القرن مائة وعشرون وهو المشهور ، وقال صاحب المطالع : القرن أمة هلكت فلم يبق منهم أحد .

قوله : « ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب إلخ » المعنى أنه إذا كان

قد صدر فأسباب مغفرة الله لهم كثيرة منها الخمسة التي ذكرها رحمه الله :

١ ـ أحدها التوبة منه وهي مقبولة من جميع الذنوب ، قال الله تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) وقال (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم براحلته » متفق عليه .

٢ ـ أو أتى بحسنات تمحوه قال الله تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال صلى الله عليه وسلم « واتبع السيئة الحسنة تمحها » .

٣ ـ أو غفر له بفضل سابقته قال الله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) وقال : (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) .

٤ ـ أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته .

٥ ـ أو ابتلى به ببلاء في الدنيا فالمصائب الدنيوية يكفر الله بها عن المؤمن الخطايا كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » وهذا المعنى متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة ، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يبتلون بالمصائب الخاصة وابتلوا بمصائب مشتركة كالمصائب التي حصلت في الفتن ولو لم يكن إلا أن كثيرا منهم قتلوا والأحياء أصيبوا بأهلهم وأقاربهم هذا أصيب في ماله وهذا أصيب بجراحته وهذا أصيب بذهاب ولايته وعزه إلى

غير ذلك فهـــذه كلها مما يكفر الله بهـــا ذنوب المؤمنين مـــن غير الصحابة فكيف الصحابة وهذا مما لابد منه .

والمقصـــود أن الفتن التي بـــين الأمة والذنوب التي لهـــا بعد الصحابة أكثر وأعظم ومـــع هذا فمكفرات الذنوب مـــوجودة لهم . وأما الصحابة فجمهورهم وجمهور أفاضلهم مادخلوا في الفتنـــة ، قال محمد بن سيرين : هاجـــت الفتنة وأصحاب رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم عشرة آلاف ما حضرها منهـــم مائة بل لم يبلغوا ثلاثين .

وقوله : « فإذا كان هذا في الذنـــوب المحققـــة » أي أنها تسقط عقوبتها عن غيرهـــم بأسباب عديـــدة فما الظن بمـــن اختارهم الله لصحبة نبيـــه صلى الله عليه وسلم بل هم أولى وأحق بذلك لما تقدم .

وقوله : « فكيـــف بالأمور التي كانـــوا فيها مجتهدين الخ .. » تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فلـــه أجـــران واذا أجتهد فأخطأ فلـــه أجر » وقال صلى الله عليه وسلم : « رفـــع عن أمتي الخطأ والنسيان » وفي حديث أبي ذر رضي الله عنـــه « يا عبادي إنكم تخطئـــون بالليل والنهـــار وأنا أغفر الذنوب جميعاً » .

قوله : « ثم القـــدر الذى ينكـــر من فعل بعضهم الـــخ » المعنى أن القدر الذي ينكـــر من فعل بعض الصحابـــة رضوان الله عليهم أجمعين قليل تافه مغطى في جنب فضائلهم ومزاياهم التي منهـــا الجهاد في سبيل الله والهجـــرة والنـــصرة والعلم النافع والنفقة فيما يرضي الله وسائر الأعمال الصالحة .

وقـــوله : « ومن نظر في سيرة القوم الـــخ » أي من تدبر وتأمل وتفكر في ما كانوا عليـــه من الأحوال الفاضلـــة والزهادة في الدنيا والإقبـــال على الآخرة والأخلاق الفاضلة .

وقوله : « بعلم وبصيرة » أي يقين وحق ، ومنه فلان مستبصر بهذا ، علم يقيناً أي لايدخله شك أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم الصفوة أي الخيار ، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين . وقال فيهم عبد الله بن مسعود : من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لنبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقال الشيخ رحمه الله في المنهاج : فمن تكلم في هذا الباب أي مدح الصحابة أو القدح فيهم بجهل أو بخلاف ما يعلم كان مستوجباً للوعيد ولو تكلم بحق لقصد الهوى لا لوجه الله أو ليعارض به حقاً آخر لكان أيضا مستوجبا للذم والعقاب . ومن علم ما دل عليه القرآن والسنة من الثناء على القوم ورضي الله عنهم واستحقاقهم الجنة وأنهم خير هذه الأمة التي أخرجت للناس لم يعارض هذا المتيقن المعلوم بأمور مشتبهة : منها مالا يعلم صحته ، ومنها ما يبين كذبه ، ومنها مالا يعلم كيف وقع ومنها ما يعذر القوم فيه ، ومنها ما يعلم توبتهم منه ، ومنها ما يعلم أن لهم من الحسنات ما يغمره . فمن سلك سبيل أهل السنة استقام قوله وكان من أهل الحق والاستقامة والاعتدال وإلا حصل في جهل ونقص وتناقض كحال هؤلاء الرافضة .

وقال رحمه الله : والرجل الصالح المشهود له بالجنة قد يكون له سيئات يتوب منها أو تمحوها حسناته أو تكفر عنه عشرة أسباب ثلاثة منه وثلاثة من الناس وباقيها من الله : التوبة والاستغفار والحسنات الماحية ودعاء المؤمنين وإهداؤهم له العمل الصالح وشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم والمصائب المكفرة في الدنيا وفي البرزخ وفي عرصات القيامة ومغفرة الله له بفضله ا هـ .

ونشهد أن الله خص رسولـــــه بأصحـابه الأبرار فضــلا وأيــدا
فهم خير خلق الله بعد أنبيائـــــه بهم يقتدى في الدين كل من اقتدى
وأفضلهم بعـــد النبي محمـــــد ابو بكر الصديق ذو الفضل والندى
لقد صدق المختار في كل قولــه وآمـن قبل الناس حقــاً ووحــدا
وفاداه يــوم الغار طوعاً بنفســه وواساه بالأموال حتى تجــــردا
ومن بعده الفاروق لا تنس فضلـه لقد كــان للاسلام حصناً مشيــدا
لقد فتح الفاروق بالسيف عنــوة كثير بــلاد المسلمــين ومهــدا
وأظهــر دين الله بعـــد خفائـه وأطفأ نــار المشركين وأخمـــدا
وعثمان ذو النورين قدمات صائماً وقد قام بالقرآن دهــرا تهجــدا
وجهــز جيش العسر يومــاً بماله ووسع للمختار والصحب مسجــدا
وبايع عنــه المصطفى بشمالـــه مبايعة الرضوان حقــاً وأشهــدا
ولا تنس صهر المصطفى وابن عمه فقد كان حبراً للعلــوم وسيــدا
وفادى رسول الله طوعــاً بنفسه عشيــة لمّــا بالفراش توســـدا
ومن كان مولاه النبي فقــد غدا علـي لــه بالحق مولا ومنجــدا
وطلحتهم ثم الزبــير وسعدهـــم كذا وسعيد بالسعادة أسعـــــدا
وكان ابن عوف باذل المــال منفقاً وكان ابن جراح أميناً مؤيــــــدا
ولا تنس باقي صحبه وأهل بيتــه وأنصاره والتابعين علــى الهــدى
فكلهم أثنى الإلـــه عليهـــم وأثنى رسول الله أيضاً وأكـــدا

فصـــل

(ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامــات الأولياء ومــا يجري الله على أيديهم من خوارق العــادات في أنواع العلوم والمكاشفـــات وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها . وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي مــوجــودة فيها إلى يوم القيامة) .

الأصل لغة : ما يبنى عليه غيره واصطلاحاً ما له فرع ، الكرامة : أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم المتابعة لنبي كلف بشريعته مصحوبا بصحة الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه ولا ولايته ولا فضله على غيره لجواز سلبها وأن تكون استدراجاً .. ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى النبوة بخلاف الكرامة ، وقول أهل السنة والجماعة التصديق بالكرامة وأنها حق ، ويتضمن وقوع الكرامة حكماً ومصالح أعظمها الدلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته وأنه فعال لما يريد وأنه كما أن لله سنناً وأسباباً تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعا وقدرا فإن لله أيضا سننا أخرى لايقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة كلها تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله والتدبير والتيسير كله بيد الله وأن لله سنناً لا يعلمها إلا الله جل وعلا وتقدس ، وقيل : إن الكرامة من المبشرات التي يجعلها الله لمن أتت على يديه والكرامة دالة بالحقيقة على رسالة الرسول الذي اتبعه من أتت على يديه لأنها لم تحصل له إلا ببركة أتباعه .

ولا يضر المسلم أن لا يحصل له كرامة بل قد يكون عدمها أنفع له في دينه وهي باقية إلى قيام الساعة فما كان من خوارق العادات من باب العلم ، فتارة بأن يسمع العبد مالا يسمعه غيره ، وتارة بأن يرى مالا يراه غيره يقظة ومناماً ، وتارة بأن يعلم مالا يعلمه غيره وحيا وإلهاما أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة ويسمى كشفا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات فالسماع مخاطبات والرؤية مشاهدات والعلم مكاشفة ويسمى ذلك كله كشفا ومكاشفة أي كشف له عنه وما كان باب القدر فهو التأثير وقد يكون همة وصدقاً ودعوة مجابة وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال مثل هلاك عدوه بغير أثر منه كقوله : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب » ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ونحو ذلك .

وكذلك من باب العلم والكشف فقد يكشف لغيره من حاله بعض أمـــور كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجـل الصالـــح أو ترى له » وكما قال النبي صـلى الله عليه وسلم « أنتم شهداء الله في الأرض » وقد جمـع الله لنبينا صلى الله عليـه وسلم جميع أنواع المعجزات والخـوارق . وسلم عن الأنبياء المتقدمين وأممهـم ومخاطبته لهم وأحواله معهم ، وكـــذلك إخباره عن أمـور الربوبية والملائكة والجنة والنار بمـا يوافـق الأنبيـاء قبلـه من غير تعلم منهـم ، ويعلم أن ذلك موافـق لنقول الأنبياء تـارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحـو ذلك من النقـل المتواتر ، وتارة بما يعلمـه الخاصـة من علمائهم فإخباره عـن الأمور الغائبة ماضيهـا وحاضرها هو من بـاب العلم الخارق للعادة وكذلك إخباره عـن الأمـور المستقبلة مثل مملكـة أمتـه وزوال مملكة فارس والروم وقتال الترك وألـوف مؤلفـة من الأخبار التي أخبر بهـا ، وأمـا القدرة والتأثير فكانشقـاق القمر وكـذا معراجه إلى السموات وكـثرة الرمي بالنجـوم عند ظهوره وكـذا إسراؤه مـن المسجد الحرام إلى المسجـد الأقصى وتكثير المـاء في عين تبوك وعين الحديبية ونبـع الماء مـن بين أصابعه وكذا تكثير الطعام .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال : « سرنا مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم حتى نزلنـا واديا أفيـح فذهب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقضي حاجته فاتبعته بإداوة مـن مـاء فنظر رسول الله صلى الله عليـه وسلم فلم يرى شيئاً يستتر بـه فإذا شجرتان بشاطىء الوادي فانطلق رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخـذ بغصنين من أغصانها فقال انقادى علي بـإذن الله فانقادت معـه كالبعير المخشوم الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخـرى فأخـذ بعض أغصانها فقال انقـادي علي بإذن الله فانقادت كذلك حتى اذا كان بالمنتصف فيمـا بينهما فلأم بينهما حتى جمـع بينهما ، فقال التئما علي بإذن الله فالتأمتـا عليـه فخرجت مخافـة أن يحس رسول الله صـلى الله عليـه وسلـم

بقربي فتباعـــدت فجلست أحدث نفسي فحانت منـــي لفتة فـــإذا أنا برسول الله صلى الله عليـــه وسلم مقبلا واذا الشجرتـــان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق » وذكر الحديث .

ومنهـــا أنها لما انكسرت رجل عبد الله بن عتيـــك رضي الله عنـــه بعدما قتل أبا رافع الـــذي يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم قـــال فانتهيت إلى النبي صلى الله عليـــه وسلم فحدثتـــه فقال لي « أبسط رجلك » فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط .

وقصة أم معبد مشهورة من حديثهـــا أن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم حين مر بهـــا طلب لبنـــاً أو لحماً يشترونه وكان القوم مرملين مستتين فلـــم يجدوا عندها شيئـــاً قط فنظر إلى شاة في كسر الخيمـــة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها هل بها مـــن لبن ؟ فقالت : هي أجهد من ذلك ، فقال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ فقالت بأبي أنت وأمي إن رأيت بهـــا حلباً ، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرت واجترت ودعا بإناء يشبـــع الرهط فحلب حتى ملأه وسقى القـــوم حتى رووا ثم شرب آخرهم ثم حلب فيه مرة أخرى عللا بعد نهل ثم غـــادره عندهـــا وذهبوا فجاء أبـــو معبد فلمـــا رأى اللبن قال ماهذا يا أم معبد ؟ أنى لك هـــذا والشاة عازب حيـــال ولا حلوبة بالبيت فقالـــت لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك فقال صفيه فوصفته له ، وذلك في طريـــق هجرتـــه صلى الله عليه وسلـــــم إلى المدينة وقد قيل في ذلك الأبيـــات المشهورة قالـــت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فلما سمعنـــا قوله عرفنـــا حيث وجـــه رسول الله صلى الله عليـــه وسلم تشير إلى ماذكر مـــن أنه أقبل رجـــل من الجـــن من أسفل مكة يتغنى بأبيـــات من شعر غناء العرب وأن الناس ليتبعونـــه يسمعون صوته وما يرونـــه حتى خرج من أعـــلى مكة وهو يقول :

جَزَى الله ربُّ الناسِ خَيرِ جزائهِ رَفيقين حَلاَّ خَيْمَتي أمِّ مَعْبَدِ
هُما نَـــزَلا بالبَرِّ ثـــم تَروَّحَـا فأفْلَـحَ من أمْسَى رَفيقَ محمدِ

لِيهْنِ بَنِي كَعْبٍ مكانَ فتَاتِهم ومَقْعَدُهـا لِلْمؤمنينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أختَكم عن شاتِها وإنائِها فإنَّكُمُوا إن تَسألوا الشاةَ تَشهدِ
دعاهـا بشَاةٍ حـائلٍ فتَحلَّبَتْ له بصَرِيح ضرةِ الشاةِ مُزبِـدِ
فَغَـادره رهْنـاً لديْها لحَالبٍ يدِرُّ لها في مَصْدرٍ ثمَّ مَوْردِ

وفي الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيهـا فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول السلام عليك يارسول الله » رواه الحاكم في صحيحه .

وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال بم أعـرف أنك نبي ؟ قال « إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ينزل من النخلـة حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال ارجع فعاد ، فأسلم الأعرابي .

ومن ذلك رد عين قتادة بن النعمان فقد أصيبت عينـه في غزوة أحـد حتى وقعت على وجنته فردهـا النبي صلى الله عليه وسلـم فكانت أحسن عينيـه وأحدهما نظراً وفي ذلك يقول ابنه :

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الـرد
فعـادت كما كانت لأول مـرة فيا حسن ما عين ويا حسن ما خـد

ومن ذلك استسقاؤه واستصحاؤه صلى الله عليه وسلم ، ففي الصحيحين عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم رفع يديه ثم قال : « اللهم أغثنا اللهم أغثنـا » قال أنس والله ما نرى في السماء من سحاب ولا من قزعة وإن السمـا لمثـل الزجاجة وما بيننا وبين سلع من دار ، فوالذي نفسي بيـده ما وضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل مـن منبره حتى رأيت المطر يتحـادر عن لحيته ، وفي رواية أخرى قال : فلا والله ما رأيت الشمس سبتا قال : ثم دخـل

رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة فاستقبله قائماً فقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يمسكها عنا ، قال فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر » ، قال فما يشير بيده إلى ناحية إلا انفرجت حتى رأيت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهرا .

ومن قول أبي طالب يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومن ذلك مافي غزوة خيبر من أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى علي وهو أرمد فبصق في عينيه فبرىء كأن لم يكن به وجع .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة فقال مالك قال : فعل هؤلاء وفعلوا ، قال فقال له جبريل أتحب أن أريك آية ؟ قال نعم فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال ادع تلك الشجرة فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه فقال مرها فلترجع إلى مكانها فقال لها ارجعي فرجعت حتى عادت إلى مكانها فقال النبي صلى الله عليه وسلم حسبي .

ومن باب القدرة عصا موسى وفلق البحر والقمل والضفادع والدم وناقة صالح وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى لعيسى ، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وأما ما كان لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم ، فمثل قصة عمر لما أرسل جيشاً أمَّر عليهم رجلا يسمى سارية ، فبينما عمر يخطب إذ جعل يصيح على المنبر : ياسارية الجبل يا سارية الجبل فقدم رسول الجيش فسأل فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا ، فإذا بصائح : ياسارية الجبل ياسارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله ،

ومن كرامات الأولياء قصة سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ركبنا البحر في سفينة فانكسرت السفينة ، فركبت لوحا من ألواحها فطرحني في أجمة فيها أسد ، فلم يرعني إلا به فقلت : يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطأطأ رأسه وغمز بمنكبه شقى ، فمازال يغمزني ويهديني الطريق حتى وضعني على الطريق وهمهم ، فظننت أنه يودعني .

ومنها قصة أبي مسلم الخولاني فإنه لما قال له الأسود العَنَسي المتنبي : أتشهد أني رسول الله ، قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ، قال : نعم فأمر بنار فأوقدت له وألقي فيها فجاءوا إليه فوجدوه يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً ، فقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر ، وقال : الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أمة محمد من فعل به كما فعل بإبراهيم . والعلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين ، وكان يقول في دعائه يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم فيستجاب له ودعا الله بأن يُسقوا ويتوضأوا لما عدموا الماء والإسقاء فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم ، ودعا الله أن لا يَرَوا جسمه إذا مات فلم يجدوه في اللحد . ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل ووجدوا له قبرا محفورا في لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب ، ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق ، فقال له أصحابه هلم نتوزع متاعك على رحالنا ، فقال لهم : أمهلوني هنيهة ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه .

ومن كرامات الأولياء مثل ما كان لأسيد بن حضير وهو يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته ، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ، وكان سلمان وأبو

الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها ، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما ، رواه البخاري وغيره .

وقصة الصدّيق في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته ، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربي من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك ، وخبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله ، وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة ، وعامر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه ، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع وقال عروة فيرون الملائكة رفعته ، وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت عطشا ، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فاذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها ، والبراء ابن مالك كان إذا أقسم على الله أبر قسمه ، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون يا براء أقسم على ربك فيقول : يارب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية قال : أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا ، وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره ، وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ما دعى قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق ، ولما عذبت الزبيرة على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى ، قالت : كلا والله فرد الله بصرها ، ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت الحكم فأعمى الله بصرها لما كذبت عليه ، فقال : اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها في أرضها ، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت ، وتغيب الحسن البصري عن الحجاج الظالم المشهور فدخلوا عليه ست مرات ، فدعا الله عز وجل فلم

يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيهم ، فخر ميتا . وصلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله عز وجل فأحيا فرسه ، فلما وصل إلى بيته قال : يابني خذ سرجه فإنه عارية فأخذ سرجه فمات الفرس .

قال الشيخ : والآيات الخارقة جنسان : جنس في نوع العلم وجنس في نوع القدرة ، فما اختص به النبي صلى الله عليه وسلم من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن ، وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الإنس ، لأن الجن هم من جملة من دعاهم الأنبياء إلى الايمان وأرسلت اليهم الرسل ، ومعلوم أنه إذا دعي الجن إلى الإيمان فلابد أن يأتي بآية خارجة عن مقدورهم .

وقال : والتحقيق أن من كان مؤمناً بالأنبياء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق ، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله .

وقال : وأما من لم يكن مقرا بالأنبياء فهذا لا يعرف الولى من غيره ، إذ الولى لا يكون ولياً إلا إذا آمن بالرسل ، لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء إلا اذا آمن بالرسل ، لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء لكونهم من أتباع الأنبياء ، كما قد يتنازع المسلمون والكفار ، فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدل على صحة دينهم كما كانت النار على أبي مسلم برداً وسلاماً ونحوه .

قال الشيخ : والخوارق ثلاثة أنواع : إما أن تعين صاحبها على البر

والتقوى ، فهـذه أحوال نبينا ومـن اتبعه خوارقهم لحجة في الدين ، أو في حاجة للمسلمين ، والثاني أن تعينهم علـى مباحات كمن تعينه الجـن على قضاء حوائجه المباحـة ، فهذا متوسط وخوارقـه لا ترفعه ولا تخفضه ، وهـذا يشبه تسخير الجن لسليمان ، والأول مثـل إرسـال نبينا إلى الجن يدعوهـم إلى الايمان . فهذا أكمل مـن استخدام الجن في بعض الأمـور المباحة كاستخـدام سليمان لهـم في صنع محاريب الخ . والثالث أن تعينه علـى محرمـات ، مثـل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل ، فهـذا من جنس خوارق السحـرة والكهان والكفار ، مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم اهـ .

وقال الشيخ رحمه الله : مـن الفروق بين آيات الأنبيـاء وبين السحرة والكهنة ، أحدهـا أن ما تخبر بـه الأنبياء لا يكـون الا صدقا ، وأما ما يخبر به من خالفهم مـن السحرة والكهان وعباد المشركين ، وأهـل الكتاب ، وأهل البدع والفجور من المسلمين . فإنه لابد فيـه من الكذب ، الثاني أن الأنبيـاء لا تأمر إلا بالعدل ، ولا تفعل الا بالعدل ، وهؤلاء المخالفـون لهم لابد لهم من الظلم ، فإن ما خالـف العدل لا يكون الا ظلماً فيدخلون في العـدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك والقول على الله بلا علم . الثالث أن مـن يأتي بـه من يخالفهم معتـاد لغير الأنبياء كمـا هو معتاد للسحرة والكهـان وعبـاد المشركين وأهل الكتاب وأهل البـدع والفجور وآيات الأنبياء هي معتـادة ، أنهـا تدل على خبر الله وأمـره على علمه وحكمه فتدل على أنهـم أنبياء وعلى صدق من أخبر بنبوتهم سواء كانوا هـم المخبرين أو غيرهم وكرامات الأولياء هي مـن هذا فإنهم يخبرون بنبوة الأنبيـاء وكـذا اشتراط الساعة هي أيضـا تدل على صدق الأنبياء ، اذ كانوا قـد أخبروا بها . الرابع آيـات الأنبيـاء ، إنما تنال بعبادة الله وطاعته ، فانه لا يقول عاقـل إن أحدا يصير نبياً بالكـذب والظلم بـل بالصدق والعدل . الخامس أن مـا تأتي بـه السحرة والكهـان والمشركون وأهل البـدع من أهل الملل لا يخرج عن كونـه مقدوراً للإنس والجن وآيات الأنبياء لا يقـدر عليهـا لا الانس ولا الجن ، كما قال تعالى (قـل لئن

اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) . السادس أن ما يأتي به السحرة والكهان وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله وأقوى منه وآيات الأنبياء لايمكن أحدا أن يعارضها لا بمثلها ولا بأقوى منها وكذا كرامات الصالحين لا تعارض بمثلها ولا بأقوى منها . السابع : أن آيات الأنبياء هي الخارقة للعادة عادات الانس والجن بخلاف خوارق مخالفيهم . الثامن أن هذه لا يقدر عليها مخلوق فلا تكون مقدورة للملائكة ولا للجن ولا للإنس وان كانت الملائكة قد يكون لها فيها سبب بخلاف تلك فإنها إما مقدورة للانس أو للجن أو مما يمكنهم التوصل إليها بسبب وأما كرامات الأنبياء فهي من آيات الأنبياء . التاسع أن خوارق غير الأنبياء تنال بأفعالهم كعباداتهم ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشي من ذلك بل الله يفعلها آية وعلامة لهم . العاشر : أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله وحده والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والايمان بجميع الكتب والرسل فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبياء وأما السحرة والكهان والمشركون ، وأهل البدع فانهم يخرجون عما اتفقت عليه .

(قوله : ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً ، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس .

ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد ولهذا

سمو أهـل الكتاب والسنة ، وسموا أهـل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقـة .. وان كان لفظ الجماعة قـد صار اسما لنفس القـوم المجتمعين والإجمـاع هو الاصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلـم والدين .. وهم يزنون بهذه الأصـول الثلاثة جميع ما عليـه الناس من أقوال وأفعال باطنـة وظاهرة مما لـه تعلق بالدين والاجماع الـذي ينضبط هـو ما كان عليه السلف الصالح وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة) .

قوله : « ثم مـن طريقة أهل السنة إتباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً » .

آثـاره صلى الله عليه وسلم نوعـان : قسم هو ما أثر عنه من قول وفعل وتقريرات فهـذا القسم يجب الأخذ بـه والتمسك بـه وأما مواضع أكلـه وشربه وجلوسـه ونومه ونحو ذلك فلا يشرع اتباعـه في ذلك بل تتبع هـذه من وسائل الغلو فيه ، وقد أنكر بعض أعيـان الصحابة على ابن عمـر – رضي الله عنهما – في ذلك ، وقلـع عمر – رضي الله عنه – الشجرة التي بويع تحتها النبي صـلى الله عليه وسلم ولمـا علم أن الناس يقصدون مسجدا صـلى فيه النبي صـلى الله عليه وسلم في الطريـق أنكر ذلك وقال مـا معناه : إنما أهلك من كان قبلكم مثل هذا كانوا يتبعون آثـار أنبيائهم فمـن أدركته الصلاة في شيء مـن هذه المساجد فليصل ، ومـن لا فليمض ولا يقصدهـا . وأما ما صلى فيـه صلوات التشريع فالصـلاة فيه مشروعة كمسجـده صلى الله عليـه وسلم والكعبة ومسجد قبـاء ، والموضع الذي صلى فيـه في بيت عتبان رضي الله عنه ، كمـا طلب منـه ذلك ليتخذه مصلى فأجابـه صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وهكـذا التبرك بشعر النبي صلى الله عليه وسلم وريقه وعرقـه وما مس جسده فكلـه لا بأس بـه لأن السنة قـد صحت بذلك . وقـد قسم صلى الله عليـه وسلم في حجة الوداع بين النـاس شعر رأسـه لما قـد جعل الله فيـه من الخير والبركة .

وليس هذا من الغلو الممنوع ، وأما التبرك بغيره صلى الله عليـه وسلم

فهو ممنوع لأمور :

أولا : أن غيره صلى الله عليه وسلم لا يقاس عليه لما جعل الله فيه من الخير والبركة بخلاف غيره فلا يتحقق فيه ذلك .

ثانيا : أن ذلك ربما يوقع في الغلو وأنواع الشرك فوجب سد الذرائع بالمنع من ذلك وإنما جاز في حقه صلى الله عليه وسلم لمجيء النص به والأمر .

الثالث : أن الصحابة لم يفعلوا ذلك مع غير النبي صلى الله عليه وسلم ، لا مع الصِّدِّيق ولا عمر رضي الله عنهما — ولا مع غيرهما ولو كان ذلك سائغا أو قربة لسبقونا إليه ولم يُجمعوا على تركه فلما تركوه علم أن الحق ترك ذلك وعدمُ إلحاق غيره به صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « واتباع آثار السابقين ... إلخ » . المعنى : أن من أصول أهل السنة والجماعة اتباع آثار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم — رضي الله عنهم — عند موافقتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما اذا وجد النص من الكتاب أو السنة فانه يجب اتباعه وتقديمه على رأي كل أحد قال تعالى : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) الآية .

وقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر وعمر ؟؟ وقال الشافعي رحمه الله : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله لم يكن له أن يدعها لقول أحد . وقال مالك رحمه الله : مامنا الا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم .

وقال صاحب الهداية في روضة العلماء أنه قيل لأبي حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه قال أتركوا قولي بكتاب الله فقيل إذا كان خبر الرسول يخالفه قال أتركوا قولي بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فقيل له إذا كان قول الصحابي يخالفه قال أتركوا قولي بقول الصحابي .

وعن معـــن بن عيسى قال سمعت مالكا يقول إنمـــا أنا بشر أخطىء وأصيب فأنظروا في رأيي كل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه وسأل رجل الامام الشافعي عن مسألة فقال يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كذا وكذا فقال له السائل يا أبا عبد الله تقول بهذا فارتعد الشافعي واصفر وحال لونه وقال ويحك وأي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ولم أقل به نعم على الرأس والعين نعم على الرأس والعين وقال إذا وجدتم فى كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت وروى البيهقي عنه أيضاً أنه قال إذا حدث الثقة عن الثقة حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يترك لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً أبداً إلا حديث وجد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه وروي عنه أيضاً أنه قال له رجل وقد روى حديثاً أتأخذ به فقال متى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً صحيحاً فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب وحكي أبن القيم فى إعلام الموقعين أن الربيع قال سمعت الشافعي يقول كل مسألة يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها فى حياتي وبعد مماتي :

قوله : « واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيـــث قال عليكم بسنتي .. الحديث » . والخلفاء هم : أبو بكر وعمر وعثمـــان وعلي ووصيته صلى الله عليه وسلم نحوهـــم هي قوله « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشـــدين المهديين من بعدي إلخ » وقوله « عضوا عليها بالنواجذ » كناية عـــن شـــدة التمسك بها والنواجـــذ هـــي آخر الأضراس والمحدثات المراد البدع والبدعة لغة ما عمل على غير مثـــال سابق وفي الشرع فهي مالم يدل عليـــه دليل شرعي .

وقوله : « ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله ... الـــخ » . المعنى :

أن أهل السنة يعلمون أنه لا أحد أصدق قولا ولا خبرا من الله سبحانه ، قال تعالى : (ومن أصدق من الله قيلا) ، (ومن أصدق من الله حديثاً) وقال (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) ، ويعلمون أن خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم والمراد تفضيل دينه وسنته على سائر الأديان والسنن فدينه أكمل الأديان على الإطلاق وشريعته أفضل الشرائع اختارها الله لخيرته من خلقه ولأمته خير أمة أخرجت للناس وجعلها حجة باقية إلى يوم القيامة لا يتطرق إليها النسخ ولا يعتريها التبديل والتغيير الذي وقع في الشرائع قبلها . وقوله : « ويؤثرون كلام الله إلخ » أهل السنة يقدمون كلام الله على كلام غيره من خلقه كائنا من كان ولا يعدلون عنه ولا يعارضونه بمعقول ولا منقول فإنه الفرقان المفرق بين الحق والباطل والنافع والضار . وقوله : « ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة » أي لاتباعهما والأخذ بهما وتحكيمهما في القليل والكثير . وقوله : « وسموا أهل الجماعة » أي لاجتماعهم على الحق الصريح من الكتاب والسنة فالجماعة المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم وكانوا شيعا قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) . وقوله : « والاجماع الذي ينضبط الخ » الإجماع هو اتفاق المجتهدين في عصر من العصور على أمر من أمور الدين وهو حجة قاطعة قال الله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيرا) وعن ابن عمر مرفوعا « لا تجمع هذه الأمة على ضلالة أبدا » رواه الترمذي . وعن أنس مرفوعا « لا تجمع هذه الأمة على ضلالة فإن رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم الحق وأهله » رواه ابن ماجة وعن أبي ذر مرفوعاً « عليكم بالجماعة فإن الله لم يجمع أمتي الا على هدى » رواه أحمد والاجماع الذي ينضبط أي يحفظ ويضبط ضبطا تاماً هو ما كان عليه الصحابة والسلف الصالح لا ما بعد ذلك لكثرة

التفرق والاختلاف وانتشار الأمة وكثرة العلمـاء وتفرقهم في البلدان فالاصول التي يعتمد عليها أهل السنة والجماعـة في العلم والدين ويزنون بهـا جميـع ما عليـه الناس من أعمال وأفعـال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين ثلاثـة أولها كتاب الله الذي هو خير الكلام وأصدقه الذي فيـه الهدى والنور فلا يقدمون عليه كلام أحد والأصـل الثاني سنة رسول الله صلى الله عليـه وسلم وما أثر عنـه من هـدى وطريقة فيتمسكون بهـا ولا يعدلون بها غيرهـا ، والأصل الثالث الإجماع .

قال ابن القيم :

قوم اذا ما ناجذ النص بـدا	طاروا لـه بالجمع والوحـدان
واذا بـدا علم الهدى استبقوا لـه	كتسابق الفرسان يـوم رهـان
واذا هموا سمعوا بمبتدع هـذى	صاحوا بـه طرا بكل مكـان
ورثـوا رسول الله لكن غيرهـم	قـد راح بالنقصان والحرمـان
واذا استهان سواهم بالنص لـم	يرفـع بـه رأسا من الخسران
عضوا عليـه بالنواجذ رغبـة	فيـه وليس لديهمـوا بمهـان
ليسوا كمـن نبذ الكتاب حقيقـة	وتـلاوة قصدا بترك فـلان

قال الشيخ رحمه الله : فعلى كل مؤمن أن لا يتكلـم في شيء مـن الدين إلا تبعاً لما جـاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتقدم بين يديه بـل ينظـر ما قال فيكون قولـه تبعا لقوله وعمله تبعا لأمـره فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهـم بإحسان وأئمة المسلمين فلـذا لم يكن أحد منهـم يعارض النصوص بمعقولـه ولا يؤسس دينـا غير ما جاء به الرسول واذا أراد معرفة شيء من الدين والكـلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وأهـل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطـن ونفس الأمر عـلى ما تلقوه عن الرسول بل على ما رأوه أو ذاقوه ثم إن وجدوا السنة توافقـه وإلا لـم

يبالوا بذلك فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضا أو حرفوها تأويلا . وقال : وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل بل يكون عنده جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطنا وظاهرا فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقيضه وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا والاعتقاد الباطل لا يكون علما وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه فمن نهى عنه فهو نهى عن العدل ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم فإن ضد العدل الظلم فلا يكون ما يخالفه إلا جهلا وظلما وظنا وما تهوى الأنفس . وقال : والكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين وأما الإجماع فهو في نفسه حق إذ لا تجمع الأمة على ضلالة وكذا القياس فإنه بعث رسوله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب والميزان يتضمن العدل وما به يعرف العدل ، وقال : فكل مسألة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فإنها مما بين الله فيه الهدى ، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين ، وأما إذا كان يظن الإجماع ولا يقطع به فهنا أيضا قد لا يقطع بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول ، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر ، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الإجماع وما لا يكفر ، والإجماع هل هو قطعي الدلالة أو ظني الدلالة .

فصل

(ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والاعياد مع الأمراء ، أبرارا كانوا أو فجارا ، ويحافظون على الجماعات ، ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه) .

فصل

(وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ».. ويأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .. ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » .)

فصل

(ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك .. ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق .. ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها) .

وقوله : « ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الخ » المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس والمنكر ضده وقيل المعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، والمنكر اسم جامع لكل ما يكرهه الله وينهى عنه ووجوبهما وجوب كفائي يخاطب به الجميع ، ويسقط بمن يقوم به ، وإن كان العالم به واحدا تعين عليه ، وان كان جماعة لكن لا يحصل المقصود إلا بهم جميعا تعين عليهم ، والأصل في وجوبهما . قوله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ومن السنة ما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ومن رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم

يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وقوله : « على ما توجبه الشريعة » أي أنه يجب أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالما بما يأمر به . قال الله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة) . وقال شيخ الإسلام : لابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولابد من العلم بحال الأمر والنهي ، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم ، وهو أقرب الطرق إلى الحصول المقصود ولابد في ذلك من الرفق ولابد أن يكون حليماً صبورا على الأذى . فإنه لابد أن يحصل له أذى فان لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح فلابد من العلم والرفق والصبر ، العلم قبل الأمر والنهي والرفق معه ، والصبر بعده ، ويشترط في وجوب الإنكار أن يأمن على نفسه وأهله وماله ، فإن خاف على نفسه سوطا أو عصا أو أعظم من ذلك كالسيف أو نحوه سقط عنه أمرهم ونهيهم . فإن خاف السب أو سماع الكلام السيء لم يسقط والحزم أن لا يبالي لما ورد:أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وقوله : « لايمنعن أحدكم هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه » ، ومقام الرسل وأتباعهم بالصدع بالحق معلوم مشهور من أراد الاقتداء بهم وجده . قال ابن القيم :

والحق منصور وممتحن فلا   تجزع فهذى سنة الرحمن
ولأجل ذاك الحرب بين الرسل والكفار مذ قام الورى سجلان
وبذاك يظهر حزبه من حربه   ولأجل ذاك الناس طائفتان
لكن ما العقبى لأهل الحق إن   فاتت هنا كانت لدى الديان

قال الشيخ : فمن كان مجاهدا لله باللسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الدين وتبليغ مافي الكتاب والسنة من الأمر والنهي والخبر وبيان الأقوال المخالفة لذلك والرد على مخالف الكتاب والسنة أو باليد كقتال الكفار فإذا أوذي على جهاده بيده غيره أو لسانه فأجره في ذلك على الله لا يطلب من هذا الظالم عوض مظلمته بل هذا الظالم إن تاب

وقبل الحق الذي جوهد عليه فالتوبة تجب ما قبلها وإن لم يتب بل أصر على مخالفة الكتاب والسنة فهو مخالف لله ورسوله . ا هـ .

قال السفاريني :

واعلم بأن الأمر والنهي معاً	فرضا كفاية على من قد وعا
وإن يكن ذا واحداً تعينا	عليه لكن شرطه أن يأمنا
فاصبر وزل باليد واللسان	لمنكر واحذر من النقصان
ومن نهى عما له قد ارتكب	فقد أتى بما به يقضي العجب
فلو بدا بنفسه فذادها	عن غيها لكان قد أفادها

قال ابن القيم : إنكار المنكر أربع درجات الأولى أن يزول ويخلفه ضده . الثانية : أن يقل وإن لم يزل من جملته . الثالثة : أن يخلفه ماهو مثله . الرابعة : أن يخلفه ماهو شر منه ، فالدرجتان الأوليان مشروعان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة . فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ماهو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسبق الخيل ونحو ذلك .

ومن أصول أهل السنة أنهم يرون إقامة الجهاد والحج والجُمع والجماعات والأعياد مع الأمراء أبرارا أو فجارا ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وفي الصحيح : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا » ، وفي الحديث الآخر : « والجهاد ماض منذ بعثني الله عز وجل حتى يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار » ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يصلون خلف من يعرفون فجوره ، كما صلى عبد الله بن مسعود

رضي الله عنه وغيره من الصحابـــة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وقد كان يشرب الخمر ، وصـــلى مرة الصبح أربعاً ، وجلده عثمـــان بن عفان رضي الله عنه على ذلك ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهمـــا يصلي خلـــف الحجاج ابن يوسف ، وكان الصحابة والتابعـــون يصلون خلـــف ابن أبي عبيد وكان متهما بالإلحاد داعياً إلى الضلال ، نسأل الله العفو والعافية .

قال الشيخ : الواجـــب على كل مسلم اذا صار في مدينـــة مـــن مدائن المسلمين أن يصلي معهـــم الجمعة والجماعة ، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهـــم ، وإن رأى بعضهم ضالا أو غاويا وأمكن أن يهديه ويرشـــده فعل ذلك ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وان كان قادرا على أن يولي في إمامـــة المسلمين الأفضل ولاه ، وان قدر أن يمنـــع من يظهر البدع والفجـــور منعه ، وان لم يقدر على ذلك فالصـــلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنـــة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل ، وان كان في هجره لمظهر البدعـــة والفجور مصلحة راجحة هجره ، وأما اذا ولى غيره بغير إذنه ، وليس في تـــرك الصلاة خلفه مصلحة شرعيـــة كان تفويت هذه الجمعـــة والجماعة جهـــلا وضلالا ، وكان قد رد بدعة ببدعة ، والصحابة لم يكونوا يعيـــدون الصـــلاة اذا صلوا خلف أهل الفجـــور والبدع ، ولم يأمر الله تعالى قط أحـــدا إذا صلى كمـــا أمر بحسب استطاعتـــه أن يعيد الصلاة .

وقال : ومن أمر بمعروف ونهى عـــن منكر أعين على ذلك اذا لم يكـــن في ذلك مفسدة راجحة ، وأنه لابد من إقامـــة الجمعة والجماعة ، فان أمكـــن توليـــة إمام بر لم تجـــز تولية فاجر ولا مبتـــدع يظهر بدعته ، فإن هؤلاء يجب الإنكار عليهم بحسب الأمكان ولا يجوز توليتهـــم ، فان لم يمكـــن إلا توليـــة أحد رجلين كلاهما فيـــه بدعة وفجور ، كان تولية أصلحهما ولاية هو الواجب وإذا لم يكن في الغزو إلا تأمير أحد رجلين أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد والآخر فيه منفعة في الجهاد مع ذنوب له ، كان تولية هذا الذي ولايته أنفـــع للمسلمين خيرا من تولية من ولايته أضر على المسلمين ، وإذا لم يمكـــن صـــلاة

الجمعة والجماعة وغيرها إلا خلف الفاجر والمبتدع صليت خلفه ولم تعد ، وإن أمكن الصلاة خلف غيره وكان في ترك الصلاة خلفه هجر له ليرتدع هو وأمثاله عن البدعة والفجور فعل ذلك ، وإن لم يكن في ترك الصلاة خلفه مصلحة دينية صلى خلفه وليس على أحد أن يصلي الصلاة مرتين ، ففي الجملة أهل السنة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان كما قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) اهـ .

قوله : « ويدينون بالنصيحة الخ » النصيحة هي حيازة الحظ للمنصوح له وقيل إخلاص النية من الغش للمنصوح له ، ومعنى الديانة بها أي التعبد بها وهي لمن ذكر في الحديث الذي رواه تميم الداري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة » قالوا : « لمن يا رسول الله » ، قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ، والنصيحة طريقة الرسل كما ذكر الله ، قال نوح لقومه : (أبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم).، وقال هود : (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) ، وقال صالح : (لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم) ، فالنصيحة لله الإيمان به ، ونفي الشريك ، وترك الإلحاد في أسمائه وصفاته ووصفه بأوصاف الكمال ، وتنزيهه عن النقائص ، وطاعة أمره ، واجتناب نهيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وغير ذلك مما يجب له ، وجميع هذه الأشياء في الحقيقة ترجع مصلحتها إلى العبد ، فهي نصيحة لنفسه وكسب خير لها ، والنصيحة لكتابه الإيمان به بأنه كلام الله ، وتحليل ما حلله وتحريم ما حرمه ، والاهتداء بهديه والتدبر لمعانيه ، والقيام بحقوقه ، والاتعاظ بمواعظه ، والاعتبار بزواجره الخ .. والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم تصديقه فيما جاء به ومحبته ، وتقديمه فيها على النفس والمال والولد ، وتوقيره حياً وميتاً ، ومعرفة سنته ونشرها والعمل بها وتقديم قوله على قول كل أحد كائنا ما كان والاجتهاد بالاهتداء بهديه والنصر لدينه . وأما النصيحة لأئمة المسلمين فهي إعانتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم بحوائج العباد ونصحهم برفق وعدل

واعتقاد ولايتهم . والسمع والطاعة لهم في غير معصية الله ، وحث النــاس على ذلك وبذل ما يستطيعه من إرشادهــم وتنبيههم إلى ما ينفعهم وينفع الناس وإلى القيام بواجبهم .

قال الشيخ : ويجب على أولى الأمر أن يأمروا بالمعــروف وينهوا عـــن المنكر فالأول مثل شرائع الإسلام كالصلــوات الخمس وما يتبعها مــن واجبات وسنن لأسباب وغير أسباب والصدقــات والصوم والحج فــرض ذلك ونفلــه ومثل الإيمان بالله وملائكتــه وكتبه ورسله واليوم الآخر والقــدر خيره وشره ، ومثل الإحسان وهــو أن تعبد الله كأنك تراه فــإن لم تكن تراه فإنــه يراك وكل معروف صدقة ومثل سائر ما أمر الله بــه من الأمور الباطنة والظاهــرة كإخلاص الدين لله والتوكل على الله ، وأن يكــون الله ورسوله أحــب اليه ممــا سواهمــا والرجــاء لرحمة الله والخشية من عذابه والصبر لحكــم الله والتسليم لأمر الله ومثــل صدق الحديث والوفــاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها وبر الوالدين وصلــة الأرحام والتعاون على البر والتقــوى والإحسان إلى اليتيم والجـــار والمسكين وابن السبيل والصاحــب والزوجة والمملوك والعــدل في المقـــال والفعال ، ثم الندب إلى مكارم الأخلاق كلهــا . والثاني : مثل الشرك والقتل والزنــا والسحر والربا والميسر وأكل الأموال بالباطل والمعاملات التي نهــى عنها الرسول صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحــم وعقوق الوالدين وتطفيــف المكيال والميــزان والإثم والبغي بغير الحــق والقول على الله بلا علــم كالبدع الاعتقادية والبدع العملية والإفتــاء بغير علم والتعاون على الإثم والعــدوان وهو جميع المعاصي وجميع الظلم للعباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم اهـ .

وقال أهل السنة : يقولــون ينبغي أن يولى الأصلــح للولاية اذا أمكــن إما وجوبا أو استحباباً ومــن عدل عن الأصلح مع القدرة لهــوى فهو ظالم ومن كان عاجزا عن تولية الأصلح مع محبتــه لذلك فهو معذور ، ويقولون مــن تولى فإنه يستعان به عــلى طاعة الله بحسب الإمكان ولا يعان الا على طاعــة الله

ولا يستعان به على معصية الله ولا يعان على معصية الله . والمراد بأئمة المسلمين قادتهم في تنظيم شؤون الدنيا ، وفي إقامة معالم الدين ونشره بين الناس فيدخل في ذلك الإمام الأعظم والقضاة والأمراء وجميع من لهم ولاية عامة أو خاصة .

وقال الشيخ الإمام هو من يقتدى به إما أن يرجع اليه في العلم والدين بحيث يطاع باختيار المطيع لكونه عالما بأمر الله آمرا به فيطيعه المطيع لذلك وان كان عاجزا عن الإلزام بالطاعة واما أن يكون صاحب يد وسيف بحيث يطاع طوعا وكرها قادرا على إلزام المطيع بالطاعة وهؤلاء القسمان هم المراد بقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ولا يتم كل واحد منهما إلا بالآخر ولا يستقيم الدين والدنيا الا باجتماعهما ووجود الظلم والمعاصي من بعض المسلمين ولاة الأمور وعامتهم لا يمنع أن يشارك فيما يعمله من طاعة الله فيعاونون على الخير ولا يطاع أحد من الخلق في معصية الله وملوك المسلمين حسناتهم كثيرة وسيئاتهم كثيرة فلهم من الحسنات ما ليس لآحاد الأمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وجهاد العدو وإيصال كثير من الحقوق إلى مستحقيها ومنع كثير من الظلم وإقامة كثير من العدل اهـ .

والنصيحة لعامتهم إرشاد عامة المسلمين إلى مصالحهم في دنياهم وأخراهم وكف الأذى عنهم وتعليمهم ما جهلوا وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وأن يكره لهم ما يكره لنفسه وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان .

قال الشيخ : وأما المؤمنون وولاة الأمور من العلماء والأمراء ، ومن يدخل في ذلك من المشائخ والملوك فلهم حقوق بحسب ما يقومون به من الدين فيطاعون في طاعة الله ويجب لهم من النصيحة والمعاونة على البر والتقوى وغير ذلك ماهو من حقوقهم ولعموم المؤمنين أيضا من المناصحة والموالاة وغيرها من الحقوق مادل عليه الكتاب والسنة .

وقوله : « ويعتقدون قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان .. إلخ » الحديث الذي ذكره المؤلف حديث جليل يفيد أن المؤمنين من شأنهم التناصر والتناصح والتكاتف والتظاهر على مصالحهم الخاصة والعامة وأن يكونوا متراحمين وأن يكونوا متحابين متعاطفين كما في الحديث الآخر الذي رواه البخاري ومسلم : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ويفيد أن يكونوا على هذا الوصف فكما أن البنيان المجموع من أساسات وحيطان كلية وجزئية وسقوف وعمد ، كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده قياما تاما حتى ينضم بعضها إلى بعض ، وإن قام فهو قيام ضعيف عرضة للعواطف التي تزلزل البناء أو تطرحه فيجب على المؤمنين أن يراعوا قيام دينهم وشرائعه وما يقوم ذلك ويقويه ويزيل موانعه وعوارضه متساعدين يرون الغاية واحدة وان تباينت الطرق . والمقصود واحد وإن تعددت الوسائل ومثّل صلى الله عليه وسلم : « اتحاد المسلمين وتعاونهم بالتشبيك بين الأصابع ويفيد الحديث النهي عن :

١ ـ التفرق ٢ ـ الاختلاف ٣ ـ التخاذل ٤ ـ التباغض ٥ ـ التحاسد والتعادي . ويفيد الحديث الحث على التواصل والتوادد والتراحم وكل ما يقوي المسلمين ويفيد الحديث أن المذكورات هي من محاسن الدين الاسلامي أعزه الله ٦ ـ وفي الحديث نصح النبي صلى الله عليه وسلم لأمته .

وقال الشيخ : يجب على جميع المسلمين أن يكونوا يدا واحدة على الكفار وأن يجتمعوا ويقاتلوا على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله ويدعو المسلمين إلى ما كان عليه سلفهم من الصدق وحسن الأخلاق فإن هذا من أعظم أصول الإسلام وقواعد الإيمان الذي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه أمر عباده عموما بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف . وقوله صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمنين في توادهم الخ ... » التوادد والتراحم والتعاطف كلها من باب التفاعل يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل ، فالتراحم رحمة بعضهم بعضا بسبب الأخوة الإيمانية ، والتوادد : التواصل

الجالب للمحبة ، كالتزاور والتهادي ، والتعاطف إعانة بعضهم بعضا كما يعطف الثوب على الثوب يقويه . فالنبي صلى الله عليه وسلم يمثل المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد فكما أن الجسد اذا مرض منه عضو تألم جميع البدن ، فكذلك المؤمنون حقيقة اذا نابت واحدا منهم نائبة شعر بآلمها الباقون فسعوا حسب طاقتهم لإزالة ما أصابه ، فهم كشخص واحد وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص . قال تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجدا) الآية . وفي الحديث : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » الحديث . وفي الحديث الآخر : « المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه » فيؤخذ من الحديث دليل على عظم حق المسلم على أخيه والحث على مايكون سبباً للثلاث المذكورة في الحديث . وفيه النهي عن التقاطع والتعادي .

ومما يفيده الحديث أن الأخوة الايمانية سبب للتراحم فيما بينهم وفي الحديث الحث على اجتماع الكلمة وفيه الحذر من الاستهانة بحق المسلم وعدم الاهتمام بما يناله من أذى أو نحوه وفيه الحث على تفقد أحوال المسلمين وفيه السعي في إزالة ما يضرهم وفي الحديث نصح النبي صلى الله عليه وسلم لأمته حيث أرشدهم إلى ما يحصل به جمع كلمتهم وتكاتفهم .

وقوله : « ويأمرون بالصبر عند البلاء الخ .. » الصبر لغة الحبس وشرعا حبس النفس على ما تكره تقرباً إلى الله تعالى .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله : هو حبس النفس عن الجزع وحبس اللسان عن التشكي والتسخط ، وحبس الجوارح عن لطم الخدود ، وشق الجيوب . وقد تكاثرت الأدلة في الأمر بالصبر والحث عليه ، ومن أسمائه تعالى الصبور ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم » متفق عليه .

قال ابن القيم :

وهو الصبور على أذى أعدائه ... شتموه بل نسبوه للبهتان
قالوا له ولد وليس يعيدنا ... شتماً وتكذيباً من الإنسان
هذا وذاك بسمعه وبعلمه ... لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعافيهم ويرزقهم وهم ... يؤذونه بالشرك والكفران

وأقسام الصبر ثلاثة : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معاصي الله وصبر على أقدار الله المؤلمة .. البلاء : الغم والتكليف والبلاء يكون منحة ، ويكون محنة ، والشكر لغة : عرفان الإحسان ونشره وشرعا صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق لأجله ، ويتعلق بالقلب واللسان والجوارح كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

والرخاء : بالفتح سعة العيش .. والرضى : ضد السخط ، ومحاسن الأعمال جميلها ، فأهل السنة يدعون إلى كل خلق فاضل ويحثون على ذلك والمكارم جمع مكرمة وهي كل فائق في بابه يقال له كريم وقوله « والرضا بمر القضاء » الرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية — والرضى بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغناء والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب له فليس للرضى به عبودية ، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها ، وأن لا يعصي المنعم بهما وأن يرى النقص في جميع ذلك

والرضى بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب ، وهو من مقامات أهل الايمان وفي وجوبه قولان وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك وأما الرضى بالقدر الجاري باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان فحرام يعاقب عليه وهو مخالف لربه تعالى ، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه فكيف تتفق المحبة ورضى ما يسخطه الحبيب ويبغضه وسبق الكلام حول هذا المبحث . قوله : « ويدعون إلى مكارم الأخلاق الخ .. » الخلق : يطلق على كل صفة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير تكلف وهو صورة الإنسان الباطنة . وقد ورد في الحث عليه أحاديث كثيرة ، ومما يثمره حسن الخلق تيسير الأمور لصاحبه وحب الخلق له ومعونتهم له والابتعاد عن أذاه وقلة مشاكله في الحياة مع العاملين والمجالسين له واطمئنان نفسه وطيب عيشه ورضائه به ومن محاسن الأخلاق الصدق والشهامة والنجدة وعزة النفس والتواضع والتثبت وعلو الهمة والعفو والبشر والرحمة والحكمة والشجاعة والوقار والصيانة والصبر والورع والحياء والسخاء والنزاهة وحفظ السر والقناعة والعفة والإيثار ..

وقال الشيخ : وجماع حسن الخلق مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والنفقة والمال وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض وبعض هذا واجب وبعضه مستحب .

وقال ابن القيم : الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان الصبر والعفة والشجاعة والعدل : فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل . والشجاعة تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم

على البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته وتحمله على كظم الغيظ والحلم فإنه بقوة نفسه وشجاعتها أمسك عنانها عن النزع والبطش وحقيقة الشجاعة ملكة يقتدر بها على قهر خصمه والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط فمنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان الجهل والظلم والشهوة والغضب اهـ .

قال : وجمع النبي صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحسن الخلق لأن تقوى الله تصلح مابين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته . وفي الحديث « ان الأعمال داخلة في الإيمان » وفيه تفاضل الناس في الايمان والرد على من زعم أن الايمان لا يزيد ولا ينقص وأن الناس في الايمان شيء واحد .

قوله : « ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك الخ .. » الحرمان المنع . العفو : الصفح والتجاوز عن الذنب . الظلم : وضع الشيء في غير موضعه فأهل السنة يحثون على كل خصلة حميدة قال تعالى : (خُذ العفو وأمر بالعرف) وقال : (وليعفوا وليصفحوا) وقال : (والعافين عن الناس) ومن السنة ما روى ابن جرير وابن أبي حاتم قال : لما أنزل الله تعالى على نبيه (خذالعفو وأمربالعرف وأعرض عن الجاهلين (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : « أن تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك » .

قوله : « يأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام » البر : الصلة والخير والاتساع في الإحسان وبر الوالدين يكون بطاعتهما بما لا يخالف الشرع ، وبالإحسان إليهما وبإكرامهما وبالتواضع لهما والشفقة عليهما والتلطف بهما بأن يقول لهما قولا حسنا وكلاما طيبا مقرونا بالاحترام والتعظيم عملا بقوله

تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً) . وأما الأحاديث من السنة فكثيرة شهيرة ولا يختص برهما بحال الحياة بل يكون بعد الموت أيضا .

فقد روى ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما » قوله : وصلة الأرحام الرحم القرابة لأنها داعية إلى التراحم بين الأقرباء ، وصلتها مشروعة وتكون بزيارتهم ومعونتهم بالنفس والمال هدية وصدقة وهبة وزكاة إن كانوا فقراء وهو لا يرثهم في مسألة إعطائهم من الزكاة ويعمل كل ما يستطاع من جر نفعٍ ودفع ضرٍ .

وأما الدليل فقوله تعالى : (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) .

وأما الدليل من السنة فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » إلى غير ذلك من الأدلة .

قال ابن القيم : قال الله تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) يدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه فيصلون ما بينهم وبين الله بالقيام بحق عبوديته والاجتهاد في تكميلها ظاهراً وباطناً ، وأمرنا أن نصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء واتباعه وتقديم محبته على كل أحد وأمرنا أن نصل ما بيننا وبين الوالدين ببرهم وبصلة الأرحام والقيام بحق الجيران والأصحاب والعيال والعاملين وجميع

المخالطين بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل اهـ .

قوله : « وحسن الجوار » .

الجار يطلق على الداخل في الجوار والساكن مع الإنسان في البيت وعلى الساكن مع الإنسان في البلد وعلى المجاور في البيت الملاصق بيته لبيتك وعلى أربعين دارا من كل جانب ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وهو المشرك له حق الجوار وجار له حقان ، وهو المسلم له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وجار له ثلاثة حقوق وهو المسلم القريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم » .

وأما الدليل فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » رواه البخاري ومسلم والإحسان إليه يكون بكل ما يستطيع معه من أنواع الخير بإهداء ما تيسر وبداءته بالسلام ، وإظهار البشر له وإعانته والتوسيع له في معاملته وإقراضه وعيادته وتعزيته عند المصيبة وتهنئته بما يفرحه وبستر ما انكشف له من عورة . ويغض بصره عن محارمه ، ويمنع أولاده من أذى أولاد جاره ولا يرفع صوت المذياع في أوقات راحتهم لأنه ينشأ عنه سهرهم ولا يطل عليهم من سطح أو نافذة ويمنع أولاده ونساءه من ذلك ، ويتلطف لأولاده ، ويصفح عن زلته ، ويعمل ما استطاع من أعمال الخير وكف الأذى .

وقوله : « الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك » اليتيم من مات أبوه ولم يبلغ ، والإحسان إليه يكون بكفالته وتعليمه ورعاية حاله والتلطف به وإكرامه والشفقة عليه والعناية بأموره وتنمية ماله ، ونحو ذلك من أنواع الإحسان إليه ، وقد ورد في الحث على الإحسان اليه آيات وأحاديث . أما القرآن فقوله تعالى : (ويسألونك عن

اليتامى قل إصلاح لهم خير) وقال صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

وأما المسكين فهو الساكن لما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئا واذا أطلق دخل فيه الفقير ، وبالعكس واذا ذكرا معاً كما في أصناف الزكاة فقال بعض المفسرين لآية الزكاة : ان الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا ، والمسكين هو الذي يسأل . وقيل : الفقير هو من به زمانة ، والمسكين الصحيح الجسم ، وأما ابن السبيل فهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ..

ويكون الإحسان إلى المساكين وأبناء السبيل بأنواع الاحسان من صدقة فريضة ونافلة وإعارة وهدية وتقريبهم والتلطف بهم وإكرامهم ونحو ذلك . والدليل على الإحسان إلى المسكين وابن السبيل قوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية وكما في آية الحقوق العشرة (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) الآية . وكما في آية سورة براءة (إنما الصدقات للفقراء) الآية .

وأما الأحاديث : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » الحديث . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذي لايجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » وأما الرفق بالمملوك فلين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف . وقد تكاثرت الأدلة على ذلك قال الله تعالى : (وما ملكت أيمانكم) وأوصى صلى الله عليه وسلم بهم وأمر بالإحسان إليهم فقال صلى الله عليه وسلم : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

قال الشيخ : الاحسان إلى المحتاجين كأبناء السبيل والفقراء والمساكين والأقارب المحتاجين من الواجبات ومن أصول الشرائع التي بها قيام مصلحة العالم فان الله لما قسم عباده بين غني وفقير ولا تم مصلحتهم الا بسد خلة الفقراء فأمر بالصدقة وحرم الربا الذي يضر بالفقراء .

قوله : « وينهون عن الفخر والخيلاء إلخ .. » الفخر التمدح بالخصال والخيلاء الكبر ، والاستطالة عق الخلق والترفع عليهم واحتقارهم والوقيعة فيهم . والبغي : التعدي ، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي .

وأما الأدلة فقال تعالى : (إن الله لايحب كل مختال فخور) وقال : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) وقال : (أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين) ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء فخسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة . وعن عياض بن حمار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » .

قوله : « ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها » .

المعنى :

أن أهل السنة يأمرون بذلك ومثال ما كان من معالي الأخلاق العفة ، الأمانة ، الشجاعة ، السخاء ، الحياء ، التواضع ، العدل ، الحلم ، الصدق ، حسن الخلق ، الصبر ، القناعة ، علو الهمة ، النزاهة .

ومثال ما ينهون عنه وهو سفساف الأمور : الظلم ، البغي ، الكبر ، الخيانة ، المكر ، الخداع الكذب ، الحسد ، البخل ، الجبن ، الغيبة ، النميمة ،

الشح ، الغش ، الوقاحة ، البذاءة ، الفحش ، النفاق ، الرياء ، الخور ، الجور الجزع ، الطمع ، إلخ .

قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) وقوله : (خذ العفو وأمر بالعرف) وقوله (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) .

وقال أبو سفيان حينما قال له هرقل فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة ، وعن سهل بن سعد مرفوعاً « إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق ويكره سفسافها » وعن جابر — رضي الله عنه — مرفوعاً : « إن الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها » والسفساف الأمر الحقير والرديء من كل شيء .

(وقوله : وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة وطريقتهم هي دين الاسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم لكن لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وفي حديث عنه أنه قال : « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة) .

المعنى : أن أهل السنة يتمشون مع إرشادات الكتاب والسنة فهم متبعون لهما في الأقوال والأفعال ، ولذا سموا أهل الكتاب والسنة .

قال ابن القيم :

وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم عملا بقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينـاً فلن يقبل منه (فأهل السنة والجماعة هم أهل الإسلام والتوحيد المتمسكون بالسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقائد والنحل والعبادات الباطنة والظاهرة الذين لم يشوبوها ببدع أهل الأهواء وأهل الكلام في أبواب العلم والاعتقادات ولم يخرجوا عنها في باب العمل والإرادات كما عليه جهال أهل الطرائق والعبادات فإن السنة في الأصل تقع على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه حتى الهدى والسمت ، ثم خصت في بعض الإطلاقات بما كان عليه أهل السنة من إثبات الأسماء والصفات خلافاً للجهمية المعطلة النفاة وخصت بإثبات القدر ونفي الجبر ، خلافا للقدرية النفاة والقدرية الجبرية العصاة وتطلق أيضاً على ما كان عليه السلف الصالح في مسائل الإمامة والتفضيل والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من إطلاق الاسم على بعض مسمياته ، وروى أبو داود والترمذي وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » . وروى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها

في النار الا واحدة ، وهي الجماعة ، وأنه سيخرج في أمّتي أقـوام تتجارى بهم الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى عرق ولا مفصل إلا دخله ، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم لَغَيّرُكُم من الناس أحرى أن لا يقوم به » ورواه أبو داود وغيره .

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة ، وهم أهل السنة لهم علامة فارقة بينهم وبين غيرهم من الفرق ، وهي ما أشار إليها صلى الله عليه وسلم « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

قوله : « صار المتمسكون بالإسلام المحصن » الخالص من كل شيء ، ومنه سمي اللبن الخالص الذي لم يخالطه ماء محضاً والشوب المخالط ، وكل ما خلط بغيره فهو مشوب ، فأهل السنة تمسكوا بالإسلام الخالص من شوائب البدع وطرق الضلال .

(وقوله : وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولوا المناقب المأثورة والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال ، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « لاتزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » فنسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً) .

وقوله : « وفيهم الصديقون الخ .. » الصديق هو الذي صدق في قوله وفعله المبالغ في الصدق ، أي الكثير الصدق ، كما تفيده المبالغة ، وأفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ، ولهذا قدمهم عليهم في آية النساء وآية الحديد ، وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « أثبت أحد فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد » والشهيد المراد قتيل المعركة .

وقوله : « ومنهم أعلام الهدى الخ » العلم ما يهتدى به إلى الطريق من جبل وغيره ، قال تعالى : (ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام) .

وقالت الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

والمراد بالأعلام هنا العلماء المهتدين ، وأهل الخيرات من المصلحين تشبيها لهم بالجبال الشاهقة والعلامات الواضحة ، التي يعرف بها طريق الفلاح والفوز ، وكذا مصابيح الدجى المراد بهم العلماء .

وقال بعضهم :

سلامي على أهل الحديث فإنهم مصابيح علم بل نجوم سمائه
بهم يهتدي من يقتدي بعلومهم ويرقى بهم ذو الداء علة دائه
ويحيى بهم من مات بالجهل قلبه فهم كالحيا تحيى البقاع بمائه

روى ابن عبد البر من حديث معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم » وفي مسند أحمد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » وفي حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وقال أبو أمامة الباهلي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله وملائكته وأهــل السموات والأرض حتى النملــة في جحرهــا وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير » ..

وقوله : « أولو المناقب المأثورة ... الخ » .

المناقب المفاخر والفضائــل جمع فضيلــة وهي ضــد النقيصة والرذيلة والمأثورة المنقولة ومنــه أثر الحديث أى نقله ، والفضــل الخير ، والمذكــورة الذائعة الصيت المترددة على الألسن والذكــر هــو الصيت والشرف وقيــل في قوله تعالى : (واجعل لي لســان صدق في الآخرين) أي اجعــل لي ثناء حسنا وذكرا جميلا وجاها وصيتا وقبولا عامــا في الأمم الآخرين الذين يأتون بعدي في الدنيــا يبقى أثره إلى يــوم القيامة وكذلك في آية الزخرف . قولــه تعــالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) إيمــاء إلى أن الذكر الجميل والثنــاء الحسن أمر مرغوب فيــه ولولا ذلك ما أمتن الله على نبيــه محمد صلى الله عليه وسلم بــه ولما طلبه إبراهيم عليه السلام كما تقدم .

قال الدقوقي :

وما مَــاتَ مَنْ تَبْقَى التَّصانيــفُ بَعْــــدَهُ
مخلــدةً والعلــمُ والفضــــلُ ولْــدُهُ

وقال الآخر :

ان العلــوم لتحيي ذكر صاحبها　　كالوبل يحيي نداه السهل والجبــلا

وقال ابن دريد :

وإنمــا المرء حــديث بعــده　　فكــن حديثــاً حسنا لمــن وعى

وقال أبو الطيب :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجتــه　　ما فاتــه وفضول العيش أشغــال

وقال الآخر :

وما ضر من أبقى له العلم بعده على الدهر ذكراً أنه ميت بال

الأبدال قيل هم الأولياء والعباد سموا بذلك لأنهم كلما مات واحد أبدل بآخر ونص أحمد على أن لله أبدالا في الأرض قيل من هم قال إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف لله أبدالا . وقوله : « وفيهم أئمة الدين » المراد في أهل السنة والجماعة أئمة الدين المقتدى بهم في الدين كالأئمة الأربعة .

قال الناظم :

وما زال فينا كل عصر أئمة يذبون عن دين الهدى بالمهند

فينفون تحريف الغواة ويظهروا الصحيح من المعلول في كل مشهد

فأربعة في أول الأمر عمدة وأربعة في آخر الأمر عدد

فكل أتى في الدين أقصى اجتهاده وأحمدهم في النقد مذهب أحمد

لفرط اتباع للنبي وصحبه فمن أجل ذا لم يستجب لمهدد

دعوه إلى قول الضلال فلم يجب ورد عليهم رد خير مسدد

وجاد لنصر الحق بالنفس صابرا على الجلد والتهديد من كل معتد

فباء بحمد الله بالنصر والهدى وباءوا بخسران وذل مؤبد

ومـا زالت العقبى لكل من اتقى كذلك وعد الله في الذكر فاهتدى

فالأئمة في الدين العلماء المقتدى بهم قال الله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) قال أحد العلماء بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين أخذا من هذه الآية الكريمة وكل من اشتهرت إمامته وأجمع المسلمون على هدايته ودرايته فلا يقبل فيه قول جارح ولا طاعن إذ من ظهرت عدالته واشتهرت إمامته فلا يلتفت فيه إلى قول قائل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون

تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » . قال ابن القيم : وهذا يتضمن تعديله صلى الله عليه وسلم لحملة العلم الذي بعث به فلهذا اشتهر عن الأمة عدالة نقلته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراءا ولا ريب أن من عدله الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمع فيه جرح جارح .. اهـ .

وقال الشيخ رحمه الله : يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين عموماً كما نطق به القرآن خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم . قال : وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاماً يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من سنته دقيق ولا جليل فإنهم متفقون اتفاقا يقينا على وجوب اتباع الرسول وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له من عذر في تركه وجميع الأعذار ثلاثة أصناف أحدها عدم اعتقاده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله . الثاني : عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول ، والثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ . قال : وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل في الحديث لم نطلع نحن عليها فإن مدارك العلم واسعة ولم نطلع نحن على جميع مافي بواطن العلماء والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا وإذا بلغتنا فقد ندرك مواضع احتجاجه وقد لا ندركه سواء كانت الحجة صواباً في نفس الأمر أم لا لكن نحن وإن جوزنا هذا فلا يجوز لنا أن نعدل عن قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم إلى قول آخر ، قاله عالم يجوز أن يكون معه ما يدفع به هذه الحجة

وإن كان أعلم إذ تطرق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية فإن الأدلة الشرعية حجة الله على جميع عباده بخلاف رأي العالم والدليل الشرعي يمتنع أن يكون خطأ إذا لم يعارضه دليل آخر ، ورأي العالم ليس كذلك ولو كان العمل بهذا التجويز جائزاً لما بقي شيء من الأدلة التي يجوز فيها مثل هذا لكن الغرض أنه في نفسه قد يكون معذورا في تركه ونحن معذورون في تركنا . قال : وإذا كان الترك يكون لبعض هذه الأسباب فإذا جاء حديث صحيح فيه تحليل أو تحريم أو حكم فلا يجوز أن يعتقد أن التارك له من العلماء الذين وصفنا أسباب تركهم يعاقب لكونه حلل الحرام أو حرم الحلال أو حكم بغير ما أنزل الله وكذلك إن كان في الحديث وعيد على فعل من لعنة أو غضب أو عذاب ونحو ذلك فلا يجوز أن يقال إن ذلك العالم الذي أباح هذا أو فعله داخل في هذا الوعيد وهذا مما لا نعلم بين الأمة فيه خلافاً إلا شيئاً يحكى عن معتزلة بغداد مثل المريسي وأضرابه أنهم زعموا أن المخطيء من المجتهدين يعاقب على خطئه وهذا لأن لحوق الوعيد لمن فعل المحرم مشروط بعمله بالتحريم أو بتمكنه من العلم بالتحريم اﻫ .

وقوله « وهم الطائفة المنصورة .. الخ » الطائفة الجماعة دون الفرقة قال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) والمنصورة بالحجة والبرهان أو بالسيف والسنان أو بهما جميعاً فعلى الأول هم أهل العلم وبه قال البخاري وغيره ، وقال ابن القيم : هم أهل العلم والمعرفة بما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وقاله ، ظاهرين أي على من خالفهم أي غالبين أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين مشهورين والأول أولى وقد وقع عند مسلم من حديث جابر بن سمرة « لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » وله من حديث عقبة بن عامر « لاتزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ولا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة » . وقد اختلف في الطائفة المنصورة ماهي قال البخاري في صحيحه : هم أهل العلم ، وقال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل

الحديث فلا أدري من هم ، وقال ابن المبارك وعلي بن المديني وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم : إنهم أهل الحديث .

وقوله « حتى تقوم الساعة » المراد ساعة موتهم حين يبعث الله ريحاً طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين أمتهم .

وقوله « فنسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا الخ .. » أي نطلب من الله أن لا يميل قلوبنا عن الحق بعد أن منّ علينا ووفقنا له ، ووهب لنا من عنده رحمة ، إنه الوهاب الذي شمل الكائنات بأسرها ببره وهباته وكرمه فهو مولى الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب ومن أسمائه تعالى : الوهاب : قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السموات العلى والأرض عن تلك المواهب ليس ينفكان

وكان الفراغ من هذا الكتاب الجامع لكثير من الضوابط والقواعد والأصول والأحكام الكثيرة والتفاصيل والفروق والتقاسيم والردود على طوائف البدع من جهمية وأشاعرة ومعتزلة ورافضة ونحوهم فى ليلة السبت الموافق ٧-١١-١٣٨٨هـ الساعة ٥-٣ وسميته (الكواشف الجليلة عن المعاني الواسطية)

ومن أراد طباعته لوجه الله تعالى لايريد به عرضاً من الدنيا وإنما يريد وقفاً لوجه الله تعالى فقد سمحنا على أن يكتب مثل ماذكر في هذه الصفحة ليعلم كل من له رغبة في ذلك ، هذا وأسأل الله العلى العظيم الحي القيوم ذو الجلال والإكرام الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به نفعاً عاماً وأن يجعله مقرباً لنا ولمن نشره ولمن قرأه ولمن سمعه لديه في جنات النعيم إنه رؤوف رحيم ، على كل شيء قدير ، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

وجزى الله خيراً من طبعه وقفاً لوجه الله تعالى أو أعان على طبعه أو تسبب لطبعه فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » ، وقال صلى الله عليه وسلم إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث .. » وعد منها علماً ينتفع به ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله » .

فهرس الكواشف الجلية

صفحة	الموضوع
٤٢	الادلة على صدق الرسل ونموذج من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم
٤٣	جواب الشيخ فى اثبات الواسطة
٤٤	اذا تعارض دليلان وان كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل
٤٥	الادلة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم اكثر من الادلة الدالة على صدق موسى وعيسى
٤٦	وجوب الايمان بما جاء به الرسول وان الله ضمن السعادة لمن أطاعه وأطاع رسوله
٤٧	الركن الخامس الايمان بالبعث والادلة عليه
٤٧ ـ ٤٨	بحث نفيس فى الرد على منكرى بعث الاجساد
٥٠	المسلمون سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الايمان بالله وملائكته
٥٠	وكتبه ورسله واليوم الآخر وعلى وجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج
٥١	الركن السادس الايمان بالقدر وتوضيحه
٥٢	اثبات صفات الله بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف
٥٣	التعطيل وتعريفه وأنواعه وبيان أصل مقالة التعطيل وأول من
٥٣	قال به فى الاسلام ومن الذى قتله ومن الذى نشر بدعته
٥٤	التمثيل والتكييف والفرق بين التحريف والتعطيل
٥٥	مذهب السلف فى الصفات وتوضيح معنى قوله تعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير
٥٦	ما يؤخذ من هذه الآية ليس كمثله شىء
٥٧	الالحاد واقسامه ومعنى أن الله لا سمى له
٥٨	المنحرفون عن طريقة السلف ثلاث طوائف
٥٩ ـ ٦٠	معانى التأويل وبيان أن الرسول بلغ البلاغ المبين وبين مراده
٦١	لا يقاس الله بخلقه ولا يضرب له الامثال .
٦٢	يجب الرجوع فى باب اسماء الله وصفاته الى ما قاله الله ورسوله
٦٣	قوله تعالى سبحان ربك رب العزة عما يصفون الآية
٦٥	ما يؤخذ من الآية الكريمة
٦٦	ظابط نافع فى كيفية الايمان بالله واسمائه وصفاته
٦٨	دين الانبياء كلهم الاسلام والقول الجامع فى تفسير الصراط المستقيم لابن القيم
٦٩	للناس فى طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعى
٧٠ ـ ٧١	سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن ، تنزيه الله عن المثل والولد يجمع كل التنزيه

صفحة	الموضوع
٧٤ـ٧٥	آية الكرسى عظم آية وجميع ما يتعلق بها من مفردات وأحكام
٧٨ـ٧٩	احاطة علم الله بالمخلوقات و بيان معنى قوله تعالى هو الاول والآخر
٧٩ـ٨٠	اثبات الحياة لله وبيان معنى قوله تعالى وتوكل على الحى الذى لايموت
٨٠	أعراض القلب عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله
٨١	قوله تعالى وهو الحكيم الخبير
٨٢ـ٨٣	صفة العلم وأدلتها ومعانيها وما يؤخذ منها
٨٨ـ٨٩	صفة السمع والبصر وأدلتهما ومعانى الآيات وما يؤخذ منهما
٩١ـ٩٢	الارادة والمشيئة وأدلتهما ومعانى أدلتهما وما يؤخذ من الآيات
٩٩ـ١٠٠	صفة المودة والمحبة وأدلتهما ومعانى أدلتهما وما يؤخذ من الآيات
١١٢	صفة الرحمة والمغفرة وأدلتهما ومعانى أدلتهما وما يؤخذ من الآيات
١٢١	صفة الرضى والغضب والسخط والكره واللعن الخ •
١٢٥ـ١٢٦	توبة القاتل عمد والخلاف فيها وأدلة كلا القولين والجمع بين الادلة •
١٣١ـ١٣٢	كلام نفيس حول ما مر من آيات الصفات منقول من شرح الطحاوية
١٣٣	صفة المجيء والاتيان وأدلتهما
١٣٥	تناقض من أثبت بعضا ونفى بعض من الصفات •
١٣٥ـ١٣٦	أمارات الساعة ثلاثة اقسام مفصلة وموضحة
١٣٨ـ١٣٩	انواع الاتيان والمجيء والرد على من أولهما بتأويل باطل
١٤٠ـ١٤١	اثبات الوجه والعينين واليدين وأدلتهما من الكتاب والسنة
١٤٣	المضاف الى الله نوعان اعيان وأوصاف
١٤٤	صفة اليدين والرد على مدعى المجاز من وجوه نذكر بعضها
١٤٨	اثبات عينى الرحمن جل وعلا والادلة على ذلك
١٥١	اثبات السمع والبصر
١٥٢	فعل السمع يراد به أربعة معان
١٥٥	اثبات الرؤية والسمع والمعية والعلم
١٥٨	المكر والكيد وما ورد بلفظ الاسم على وجه التسمى وعلى وجه الاسم المضاف
١٥٩	وما ورد بصيغة الفعل
١٦٢	صفة العفو والمغفرة والقدرة والعزة
١٦٦	بحث مهم فى الرد على منكرى الجن •
١٧٠	النفى والاثبات وصفة الجلال والاكرام وبيان انواع البركة
١٧٣	قوله فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون وما فيه من أحكام
١٧٤	قوله ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله
١٧٥	اقسام المحبة خمسة

صفحة	الموضوع
١٧٧	النفي والاثبات وقوله تعالى في آية العز وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الخ
١٧٩	التسبيح بلسان الحال وبلسان المقال والادلة على ذلك
١٨٠	قوله تعالى تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا
١٨٢	الرد على من قال ان القرآن مخلوق
١٨٤	قوله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله وما يؤخذ منها
١٨٨	المحرمات الخمس ومعنى الآية وما يؤخذ منها من أحكام
١٩٣	أقسام الشرك واقسام الشرك الاكبر •
١٩٥	استواء الله على عرشه وادلته ومعانى الآيات وما يؤخذ منها، تفسير السلف للفظة استواء بعبارات أربع •
٢٠٤	علو الله على خلقه وادلته ومعانى الآيات وما يؤخذ منها
٢١٣	المعية العامة والخاصة وأدلتهما ومعانى الآيات وما يؤخذ منها
٢١٩	الفروق بين المعيتين خمسة
٢٢٠	اثبات صفة الكلام لله والادلة على ذلك وما يؤخذ منها
٢٢٨	الادلة على أن الله يتكلم بصوت
٢٣٠	الادلة على بطلان قول من قال ان القرآن مخلوق
٢٣١ـ٢٣٢	آيات دليل على اثبات صفة الكلام لله والرد على منكرها
٢٤٠ـ٢٤١	مسألة الكلام
٢٤٢	رؤية المؤمنين ربهم في القيامة وفي الجنة
٢٤٨ـ٢٤٩	الرد على من ينكر الرؤية من وجوه متعددة
٢٥١ـ٢٥٢	فوائد بين السابق واللاحق أنواع التوحيد
٢٥٣	أضداد انواع التوحيد . بين انواع التوحيد تلازم
٢٥٥	ما ينزه عن الله ينقسم الى قسمين متصل ومنفصل
٢٥٦	اركان الايمان بالاسماء الحسنى والصفات العليا مقتضية لآثارها
٢٥٦ـ٢٥٧	اسماء الله وصفاته توقيفية أنواع دلالة الاسماء الحسنى ثلاثة الاسم المنقسم الى مدح وذم اتحاد الاسمين لا يلزم منه تماثل مسماهما الاسماء المزدوجة
٢٥٨	الصفات الذاتية والفعلية ، القول في الصفات كالقول في الذات
٢٥٩	الاقسام الممكنة في آيات الصفات واحاديثها ستة
٢٦٠ـ٢٦١	مذهب الجهمية في التوحيد، ومذهب المعتزلة والرد على من قال ان طريقة السلف وطريقة الخلف أعلم وأحكم
٢٦٣	حجج يلجأ اليها نفاة الصفات والرد عليها
٢٦٥	السنة تفسر القرآن وهى الاصل الثانى يجب الرجوع اليها
٢٦٧	ليس في حديث رسول الله ما يخالف القرآن ولا ما يخالف صريح العقل •

صفحة	الموضوع
٢٦٧ ـ ٢٦٨	يجب على كل مسلم أن يصدق بما أخبر الله به ورسوله
٢٦٨ـ٢٦٩	صفة النزول وشرح حديث النزول وما يؤخذ منه
٢٧٢	صفة الفرح والضحك والعجب والادلة على ذلك
٢٧٥	صفة الرجل والقدم والكلام والادلة على ذلك
٢٧٩ـ٢٨٠	صفة العلو لله
٢٨٥ـ٢٨٦	المعية والاحاطة والقرب
٢٩٢	اثبات رؤية الله من السنة
٢٩٤ـ٢٩٥	توسط أهل السنة بين فرق الضلال من جهمية ومشبهة وجبرية وقدرية
٣٠٠	توسط أهل السنة فى باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية
٣٠٢	توسط أهل السنة بين الرافضة والخوارج فى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
٣٠٤ـ٣٠٥	كلام نفيس لشيخ الاسلام حول أهل البدع ، ونماذج تدل على حيرة أهل الكلام
٣٠٧	العلو والاستواء والمعية وأدلتها من الكتاب والسنة والفطرة والعقل
٣١٣	أدلة على قرب الله من الكتاب والسنة
٣١٧	من الإيمان بالله الايمان بالقرآن وانه منزل غير مخلوق منه بدا واليه يعود
٣١٩	القرآن كلام الله حيث تصرف سواء كان محفوظا فى الصدور ..الخ
٣٢٢	فصل فى الرؤية والرد على منكريها
٣٢٦	الايمان باليوم الآخر
٣٢٩ـ٣٣٠	الادلة الدالة على عذاب القبر
٣٢٧ـ٣٢٨	فتنة القبر وأدلتها
٣٢٤	القيامة قيامتان
٣٣٦	أدلة على البعث
٣٣٨	النفخات ثلاث والميزان حقيقى
٣٤١	نشر الدواوين والحساب وبيان الدواوين الثلاثة
٣٤٥	الحوض والصراط والقنطرة ومعنى الايمان بها والادلة على ذلك
٣٥١	الشفاعة وأدلتها وأقسامها وانقسام الناس فيها

صفحـــة	الموضـــوع
٣٥٨	الجنة والنار مخلوقتـــان لا تنفيان والادلة على ذلك
٣٦٥	الايمان بالقبر على درجتيـن كل درجة تتضمن شيئين ... الخ
٣٦٨	حكم الالتفات الى الاسباب ومحوها والاعراض عنها
٣٧٠ـ٣٧١	مرتبة الكتابة وأدلتها والكـلام نحو القلم والاقلام
٣٧٥	المشيئة وأدلتها
٣٧٧	لامنافاة بين ما ثبت من عموم مشيئته لجميع الاشياء وبين تكليـــف العباد
٣٧٩	الاحتجاج بالقدر حجة باطلة ومالا بد منه فى الامر وما لابد منه فى القدر
٣٨١	المراد نوعان مراد لنفســه ومراد لغيره
٣٨٣	العباد فاعلون حقيقة واللـــه خالقهم وخالق افعالهم
٣٨٤	العبودية نوعان عبودية عامة وعبودية خاصة
٣٨٦	وجه مشابهة القدرية للمجـوس
٣٨٧	كمال العبد ان يؤمن بقضائه وقدره
٣٨٨	الايمان والدين عند أهـــل السنة
٣٩٠ـ٣٩١	الايمان يزيد بالطاعـة وينقص بالمعصية
٣٩٢	هل يستلزم الاسلام الايمان
٣٩٤	أهل السنة لا يسبون أهـل القبلة للكفر
٣٩٥	قوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » الآية
٣٩٨	أهل السنة لا يسلبون الفـاسق الملى الاسلام بالكلية
٤٠٢	حديث (لا يزنى الزانـــى حين يزنى وهو مؤمن) ... الخ
٤٠٤	الواجب لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم
٤٠٧	المتمسك بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم عند فساد الزمان لـه أجر خمسين
٤٠٨	أهل السنة يقبلون ماجاء به الكتاب والسنة والاجماع فى فضائـل الصحابة ويقدمون المهاجريـن على الانصار
٤١٢	من يشهد له بالجنة
٤١٧	الخلفاء الاربعة لهم فى تبليغ كليات الدين ونشر اصوله ماليس لغيرهم
٤١٨	أهل السنة يحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

صفحة	الموضوع
٤٢١	زوجات النبى صلى الله عليه وسلم
٤٢٥	أهل السنة يمسكون عما شجر بين الصحابة
٤٣٠	من أصول أهل السنة التصديق بكرامات الاولياء
٤٣١	نموذجا من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم
٤٣٢	نموذجا من كرامات الاولياء
٤٢٨	الخوارق ثلاثة أنواع
٤٣٩	من الفروق بين آيات الانبياء وبين السحرة والكهنة
٤٤٠	من طريقة أهل السنة اتباع النبى صلى الله عليه وسلم
٤٤٢	متى تتبع آثار الصحابة رضى الله عنهم
٤٤٣	ليس أحد من الائمة المقبولين عند الامة قبولا عاما يعتمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٤٢	متى تتبع آثار الصحابة رضى الله عنهم
٤٤٣	ليس أحد من الائمة المقبولين عند الامة قبولا عاما يعتمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٤٥	على كل مؤمن ان لا يتكلم فى شيء من الدين الا تبعالما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم
٤٤٦	أهل السنة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على توجيه الشريعة
٤٤٩	انكار أربع درجات ، أهل السنة يرون اقامة الحج والجهاد والجمع والجماعات والاعياد مع الامراء ابرارا كانوا أو فجارا .
٤٥١	أهل السنة يدينون بالنصيحة للامة
٤٥٣	المراد بائمة المسلمين ومن هو الامام
٤٥٤	أهل السنة يعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان ... الخ
٤٥٦	الرضاء بالقضاء
٤٦٠	تعريف الجار وما يستحب حوله وتعريف اليتيم والمسكين
٤٦١-٤٦٢	وما يكون به الاحسان اليهما
٤٦٥	طريقة أهل السنة هى دين الاسلام وبيان العلامات
٤٦٤	الفارقة بين أهل السنة وغيرهم .
	الفهرست .

وصلى الله على محمد



